

في سياستهم ، وخصائرتهم ، ودينهم ، وثقافتهم  
وصيالاتهم بالعرب

للكتورات دستم

الجزء الاول

دارالمكشوف



# الشرق والغرب

في سياساتهم ، وخصارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم  
وصيالاتهم بالعرب

للدكتور أنستد رستم

الجزء الاول

دارالمكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت . لبنان ، كانون الاول ١٩٥٥

---

جميع الحقوق محفوظة

## تمهيد

الروم عند العرب قبل الاسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون. والبيزنطيون عند انفسهم روم ، اي رومان . وعاصمتهم « رومة الجديدة » ، اي القسطنطينية . ولا يزال الروم الارثوذكس يدعون القسطنطينية مركز البطريرك المسكوني « رومة الجديدة » حتى يومنا هذا .

واللفظ روم في نقوش الصفا اسم بلاد وامم شعب . فقد جاء في احد نقوش الصفا ان «عثن بن طمثن بن عضضة نَقَرَ من « روم » . وجاء في نقش آخر ان «محوّر بن غظفن بن اذنة صَيَّرَ بِنَجْة سنة سَرَبَ الجدي «آل روم» بيسره' . « وجاء في القرآن الكريم في سورة الروم : « غَلَبَتِ الروم في ادنى الارض وهم من بعد غَلَبَتِهِم سِغْلِيُون . »

وأنتفع التواريخ تاريخ الفكر . وألمع فصل في تاريخ الفكر البشري تاريخ الفكر عند اليونان الاقدمين . وافضل فضائل هؤلاء عنايتهم بالانسان وسعيهم لاسعاده سعادة حقيقية . واكبر خدمة قدمها الرومان انهم تبنا ثقافة اليونان وقالوا بها . وفضل الروم على البشرية انهم حملوا هذه الثقافة وحموها في عصر الظلمات فحفظوها لنا في نصوصها الاصلية واطافوا اليها . ولا سبيل لفهم تاريخ العرب فهماً كاملاً الا بالاطلاع على تاريخ الروم .

فما جرى في سوريا والعراق ومصر في السياسة والحرب والحضارة والثقافة  
تأثر كثيراً بما كان يجري في القسطنطينية وغيرها من امهات مدن الروم.  
والمراجع الاولية لتاريخ الروم متنوعة منها التواريخ التي صفت في  
الازمنة المعاصرة لوقوع الحوادث او بعدها بقليل ، ومنها الرسائل  
الدبلوماسية التي تبودلت في تلك العصور بين الروم وغيرهم من الشعوب  
والدول ، ومنها القوانين التي اشترعت والنقوش الكتابية التي نصبت  
والتقود التي سكنت ، ومنها كذلك ما صنف خصوصاً للبحث في اخبار  
الكنيسة .

وما تبقى من التواريخ محفوظة في مجموعة نيبور - اذا جاز هذا  
التعبير - التي نشرت في تسعة واربعين مجلداً في بون ما بين السنة ١٨٢٨  
والسنة ١٨٧٨ . ونصوص هذه التواريخ نفسها محفوظة ايضاً في مجموعة مين  
في مئة وواحد وستين مجلداً . وقد نشرت هذه المجموعة في باريز ما بين  
السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ . ولا يستغني الباحث عن الرجوع الى مجموعة  
توبنر للوقوف على بعض هذه النصوص التاريخية نفسها لانها جاءت في هذه  
المجموعة ادق واضبط<sup>٣</sup> . وقد يضطر الباحث الى مراجعة مجموعتي دندورف<sup>٤</sup>  
ومولتر<sup>٥</sup> او الى نصوص بيوري<sup>٦</sup> ، وقد لا يستغني عن الاستعانة بسير  
القديسين فيعود عندئذ الى مجموعة الآباء البولنديين التي بدأت تظهر منذ  
السنة ١٦٤٣ .

<i>Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.</i>	١
<i>Patrologia Graeca, Ed. Migne ; Indices, Cavallera, 2 Vols., Paris, 1812.</i>	٢
<i>Teubner, Bibliotheca Scriptorum Graecarum et Latinarum.</i>	٣
<i>Dindorf, Historici Graeci Minores, 2 Vols., Leipzig, 1870-1871.</i>	٤
<i>Muller, Frangmenta Historicorum Graecarum, Vols, IV, V, Paris. 1868-1870.</i>	٥
<i>Bury, Byzantine Texts, Vols. 1-5, London, 1863</i>	٦
<i>Acta Sanctorum.</i>	٧

وما تبقى من الرسائل الدبلوماسية التي تبودلت بين حكومة القسطنطينية والحكومات المعاصرة محفوظ في مجموعة ميكلوسينغ ومولتر<sup>١</sup> ومجموعة تافل وتوماس<sup>٢</sup>. وقد جاءت المجموعة الأولى في مجلدات ستة نشرت في فيينا بين السنة ١٨٦٠ و ١٨٩٠. وجاءت المجموعة الثانية في ثلاثة مجلدات نشرت في فيينا أيضاً في السنة ١٨٥٦ - ١٨٥٧. وجمع جاني رسائل الباباوات فنشرها في برلين في مجلدين ما بين السنة ١٨٨٥ والسنة ١٨٨٨<sup>٣</sup>. وتعاون اسانذة فيينا ومونينغ في ضبط هذه الرسائل واعادة نشرها. فظهر في السنوات ١٩٢٤ - ١٩٣٢ مصنف دولفر في ثلاثة مجلدات<sup>٤</sup>. وظهر في السنة ١٩٣٢ الكراس الاول من مجموعة الاب غرومل لبيانات ورسائل البطيركية المسكونية<sup>٥</sup>. وافضل ما يرجع اليه في التشريع والقوانين مجموعة مومسن وكروغر وشول في شرائع بوستنيانوس - وقد طبعت في برلين في مجلدات ثلاثة ما بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٩٥<sup>٦</sup>، ومجموعة زخريا لتفتسال في شرائع الاباطرة المتأخرين. وقد ظهرت هذه المجموعة في سبعة مجلدات في ليزينغ ما بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٨٤<sup>٧</sup>.

ولا بد للباحث في تاريخ الكنيسة من الرجوع دائماً الى مجموعة منسي في الجامع. وقد نشرت هذه المجموعة لأول مرة في فلورنزة والبندقية في واحد وثلاثين مجلداً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١٧٥٩ -

- |   |   |
|---|---|
| <i>Miklosich, F. et Muller, J., Acta et Diplomata Graeca Medii Aevi.</i>  | ١ |
| <i>Tafel, G. L. F., et Thomas, G. M., Urkunden zur Alteren Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig.</i> | ٢ |
| <i>Jaffe, P., Regesta Pontificum Romanorum.</i>   | ٣ |
| <i>Dolger, Franz., Regesten von Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches t von 565-1453.</i>                       | ٤ |
| <i>Grumel, V., Regestes des Actes du Patriarcat de Constantinople.</i>  | ٥ |
| <i>Mommsen, Kruger, Scholl, Corpus Juris Civilis.</i>   | ٦ |
| <i>Zachariae de Lingenthal, Jus Graeco Romanum.</i>   | ٧ |

١٧٩٨) ، ثم اعيد طبعها ما بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩٢٧ فظهرت في ثلاثة وخمسين مجلداً<sup>٢</sup> . هذا ولا يخفى ان مجموعة الآباء اليونان *Patrologia Graeca* المشار اليها آنفاً تتضمن نصوص اشهر مؤلفات الآباء .

وليس لدينا في نقوش الروم مجموعة كاملة . وفضل ما يرجع اليه مصنف ميده في نقوش جبل آثوس<sup>٣</sup> وكتاب ليفغر في نقوش مصر المسيحية<sup>٤</sup> ومجموعة غريغوار في نقوش آسية الصغرى المسيحية<sup>٥</sup> .

واقدم المصنفات العصرية في النقود البيزنطية كتاب سباتيه الافرنسي<sup>٦</sup> الذي ظهر في باريز في مجلدين في السنة ١٨٦٢ . واحديثها عهداً واكملها كتاب روث<sup>٦</sup> في مجموعة النقود البيزنطية في المتحف البريطاني . وقد ظهر هذا ايضاً في مجلدين ولكن في السنة ١٩٠٨ . وليس لدينا في الاختتام البيزنطية سوى مؤلف شلومبرجه<sup>٧</sup> .

والمؤلفات الحديثة التي نبعت في تاريخ الروم كثيرة متنوعة تمد بالئات . والمقالات التي دججت في نواحي معينة من تاريخ الروم وحضارتهم ونظمهم كثيرة ايضاً . وأولاها بعناية الباحث مؤلف كارل كرومباخر الالاماني في تاريخ آداب الروم . فإنه على الرغم من قدم عهد هذا المصنف لا يزال مفيداً جداً في كمية معلوماته ودقتها ولا يزال تاريخ متوسط

*Museo, Joannis Dominicus, Sacrorum Coeliborum Nova et Amplissima Collectio.*

*Millet, G., Inscriptions Chrétiennes de l'Atlas, Paris, 1904.* ٢

*Lefèvre, G., Inscriptions Chrétiennes d'Egypte, le Caire, 1907.* ٣

*Girégnore, H., Inscriptions Chrétiennes d'Asie Mineure, Paris, 1922.* ٤

*Sabatier, Description Générale des Monnaies Byzantines.* ٥

*Wroth, W., Catalogue of Byzantine Coins in the British Museum.* ٦

*Schlumberger, G., Sigillographie de l'Empire Byzantin, Paris, 1884.* ٧

*Krumbacher, K., Geschichte der Byzantinischen Literatur von Justinian bis zum Ende des Oströmischen Reiches, München, 1891, 2 éd., 1897.* ٨

الامبراطورية الرومانية لادوارد غيبون مفيداً موقظاً لانه تاريخ كبير  
 لمؤرخ عظيم<sup>١</sup>. ولنا في كتاب تاريخ الروم حتى نهاية القرن العاشر الذي  
 صنفه المؤرخ الفرنسي غوستاف شلومبرج قصة مفصلة جذابة ظهرت في  
 مجلدات ثلاثة في باريز ما بين السنة ١٨٩٦ والسنة ١٩٠٥<sup>٢</sup>. وللستاذ  
 يوري الانكليزي مصنفان لاثقان بالاهتمام اولهما في تاريخ الروم ما بين  
 السنتين ٨٠٢ و٨٦٧ وهو افضل ما صنف في تاريخ هذه الحقبة ، والثاني في  
 تاريخ الروم ما بين السنة ٣٩٥ والسنة ٥٦٥. وقد ظهر في لندن في مجلدين  
 في السنة ١٩٢٣. وهو مصنف عادي<sup>٣</sup>. على أن افضل المصنفات في تاريخ  
 الروم العام اربعة : اولها العالم الشرقي ثم اوروبة الشرقية للعلماء الافرنسيين  
 شارل ديل وجورج مارسه ورينه غروسه وغيرهم وقد ظهرت في مجموعة  
 غلوتر في السنتين ١٩٤٤ و ١٩٤٥<sup>٤</sup>. وثانيها العالم البيزنطي للمؤرخ الافرنسي  
 لويس براهيه. وقد جاء هذا في مجلدات ثلاثة في مجموعة تطور الانسانية  
 التي يشرف عليها المؤرخ هنري بر<sup>٥</sup>. وثالثها كتاب البحانة اوستروغورسكي  
 الذي ظهر في مونيخ سنة ١٩٤٠<sup>٦</sup>. ولا يخفى ما لهذا العالم من اجحات  
 في اقتصاديات الروم واجتماعياتهم. ورابعها واحدها جميعاً من حيث اعادة  
 النظر والتنقيح كتاب العلامة الروسي الكسي فزبلييف الذي ظهر اولاً

*Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, Ed. J. B. Bury; ١*  
 7 Vols., London, 1897-1902.

*Schlumberger, G., l'Épopée Byzantine à la Fin du Dixième Siècle. ٢*

*Bury, J. B., History of the Eastern Roman Empire from the Fall of ٣*  
*Irene to the Accession of Basil I, (802-867); Hist. of the Later Roman*  
*Empire from Arcadius to Irene, (395-565.)*

*Diehl, Ch., et Marçais, G., Le Monde Oriental; Diehl, Ch., Oeconomos, ٤*  
*L., Guiland, R., Grousset, R., l'Europe Orientale.*

*Bréhier, L., Le Monde Byzantin. ٥*

*Ostrogorsky, G., Geschichte des Byzantinischen Staates. ٦*

بالروسية ثم نقل الى الانكليزية والافرنسية . وقد اعيد طبعه بالانكليزية  
باشراف مؤلفه الذي يجيد هذه اللغة في السنة ١٩٥٢ . وذلك في مديسن  
من اعمال ولاية وسكونسن الاميركية .

وهناك اجات عديدة هامة في مواضع خصوصية متنوعة اشير اليها في  
هامش هذا الكتاب فلتراجع في محلات وقوعها .

وفي الحتام لا بد لي ، قضاء لحق الضيعة ، من اسداء عاطر الشكر  
لحضرة الاديب المدقق الاستاذ رثيف خوري الذي بذل بسخاء من وقته  
لمطالعة مخطوطة هذا الكتاب كلمة كلمة وحرفاً حرفاً فأبدى ملاحظات  
قيّمة في المعنى والمبنى . وكذلك لا بد لي من الاعتراف بفضل حضرة الاديب  
الشيخ فؤاد حبيش الذي شجعني على نشر هذا الكتاب .

ولن أنسى عطف مؤرخ بيروت الاكبر العلامة الاب رينه مورتد  
اليسوعي ، وتشجيع صديقي الاستاذ فؤاد افرام البستاني ورئيس الجامعة  
البنانية ، ومعونة زملائي فيها الاستاذ بطرس البستاني والامير موريس  
شهاب والدكتور بطرس ديب . وقد اقيمت في شخص رئيس دائرة التاريخ  
في جامعة بيروت الاميركية الدكتور نقولا زيادة وفي الاستاذين  
الدكتورين جبرائيل جبور وانيس فريجة اصدقاء مخلصين مضمين . وهل  
أنسى ما عاتته زوجتي وشريكة حياتي من مشقة في تأمين راحتي  
وانقطاعي لهذا العمل زهاء سنتين كاملتين !

وكان الفراغ من تأليفه في رأس بيروت في الثالث والعشرين من  
تشرين الاول سنة ١٩٥٥ .

اسد رسنم

## الباب الاول

### المقدمة



### الفصل الاول

### تقهقر رومة الداخلي وازمة القرن الثالث

النظام الكولوني وتأخر الزراعة : كان من جراء التوسع العسكري الروماني ان تعاضل كسب قادة الجيش وضباطه وحكام الولايات وكبار الموظفين فعادوا الى اوطانهم متمتعين بجميع ضروب التمتع والترف ، مشبعين بنطرسة من ذاق لذة السلطة المطلقة بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقيود النظم الجمهورية . ولم يكن في نظر الرومانيين ليليق بشيوخهم وعظماهم ووجوههم ان يتعاطوا التجارة او الصناعة ، فتهاقت الاغنياء والكبراء على اقتناء المزارع يضمون بعضها الى بعض ، فيكونون منها مزارع مترامية متسعة ، ويستاقون اليها من ملكت ايمانهم من الارقاء . ولم يقوَ المزارع الصغير على مزاحمة جاره الكبير فضم ارضه الصغيرة الى ارض جاره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الارض الى الابد . ومع ان هذا النظام الكولوني لم يجعل منه رقيقاً لسيداه فانه فقد حرية ان يذهب حيث يشاء . وتعددت هذه المزارع الضخمة في ايطالية وصقلية واسبانية ،

ولم يبقَ من المزارع الصغيرة القديمة الا نزر يسير . وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع شاقة تعبة . فانه كان يُحشر ليلاً في الشكنات حشراً ويُساق نهراً الى الحقل سوقاً . وكان يكوى بيامم ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار . فنفر الرقيق من صحبة سيده وانقبضت نفسه عن العمل له باخلاص وامانة . واضطر سيده ان يكلفه من العمل انواعاً معينة ، تلك التي لا تتطلب الكثير من الامانة والاخلاص ، فحمله على تربية المواشي ورعايتها . فتضائلت على الايام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار بعض الاراضي وترك لينبت فيه العشب فترعاه تلك المواشي . واعتمدت رومة على قمح مصر وجوبها لتغذية ابنائها وابناء المدن الايطالية الاخرى ، وحذرت تصدير هذه الحبوب الى اي مكان آخر . وسمّ المزارع الكولوني هذا النظام ، فهجر الارياف وازدحم في المدن ، ولاسيما رومة ، ونافس غيره من الفقراء فيها على نصيب يناله معهم من احسان الدولة . وكانت رومة قد اخذت تقل حروبها منذ عهد اوغوستوس قيصر فيتناقص معها عدد الاسرى . وقلت اليد العاملة . فبارت الارض لهذا السبب ايضاً . وضعف الانتاج الزراعي . عداء مزمين بين الاغنياء والفقراء : وثار العبيد الارقاء قبل اوغوستوس اكثر من مرة ، ودامت ثورتهم الثالثة بقيادة اسبارتاكوس سنتين ( ٧٣ - ٧١ ق.م ) ، وانتقضوا على سادتهم في صقلية وقتلوم واعلنوا استقلالهم عن رومة . ونفر اصحاب الحقول الاحرار في ايطالية وغيرها واحرقوا المزارع الكبيرة التي انشأها كبار الملاكين . فكان هذا كله مظهراً للضعف في الصدور بين الاغنياء والفقراء . ولم ينتهِ صراع العبيد والفقراء بانتصار ليكينوس كراسوس على اسبارتاكوس ، بل

استمرّ متقطعاً ما دامت الامبراطورية الرومانية . ومن هنا قول  
ماكروبوس الفيلسوف السيامي الذي عاش في القرن الخامس بعد الميلاد :  
« عيدنا اعداؤنا » . وكان كلما صرع سيد بيد مجهولة اتهم بقتله ارقاؤه  
وقاسوا من جراء ذلك شتى الوان العذاب وربما فقدوا الحياة .

ولا يخفى ان رومة ميزت في شرائعها بين فصيلتين من الرقيق :  
ارقاء الارياق ، وارقاء المدن . وكان هؤلاء يشملون في عدادهم الخدم  
والخشم والاطباء والاساتذة ورجال الفن والقلم وحاشية الاباطرة وكبار  
الرجال في السياسة والحرب . ولما كانت الجهاز الاداري مربوطاً بشخص  
الامبراطور فانه اصبح منذ عهد كلوديوس يعج بهؤلاء الارقاء من رجال  
الاباطرة . بيد ان الارقاء لم ينظموا صفوفهم ولم يكن لديهم في وقت  
من الاوقات برنامج سياسي معين يسعون لتحقيقه . وجل ما بلغوا اليه  
انهم كرهوا اسيادهم ، وثاروا في وجههم ، وتمنوا زوال نعمتهم وذلك  
بمركات . متفرقة في غالب الاحيان .

تأخر الصناعة والتجارة : وأدى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق  
والغرب الى توسع بمائل في افق ابناءها العاملين في حقلتي الصناعة والتجارة .  
فخرجوا من ايطالية الى الولايات الجديدة يوظفون اموالهم فيها . وقام من  
ابناء هذه الولايات نفسها ، ولاسيا الشرقية منها ، من ساطر هؤلاء عملهم  
وانتاجهم . فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات ، واخذت آسية  
الصغرى مثلاً تصدر ذرتها وخرها وممكها الجحف ومنسوجاتها الصوفية  
وصباغها الارجواني . وعاد زجاج الساحل اللبناني الى سابق تفوقه ، ومثله  
كتان هذا الساحل وحريره وصوفه المصبوغ . وعادت الجاليات اللبنانية  
السورية الى سابق عهدها في الغرب توزع بضاعة البلد الام في ايطالية

وصقلية وغالية ووادي الرين وبريطانية ، وظهرت نشيطة قوية في تراقية ووادي الدانوب الاسفل وجنوبي روسية . ومع الزمن فقدت ايطاليا سيطرتها الاقتصادية التي كانت قد كسبتها في حروب التوسع المتتالية ، ونتاجها الصناعي الذي كانت تنتجه بالكميات الكبيرة قلّ وتدنى فاصبح في مستهل القرن الثالث بعد الميلاد انتاجاً افرادياً قليلاً . وقلّ الدخل عموماً فقل دخل الدولة ، والتجأ الاباطرة الى غش العملة فاصبحت هذه في عهد مرقوس اوريليوس مفسوثة بمقدار ربع وزنها . وبعد جيلين فقط لم يبقَ في النقود الفضية اكثر من خمسة في المئة من زنتها فضة .

**انحطاط الجيش :** وكانت الخدمة العسكرية في اوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين اولئك الذين ملكوا ارض رومة وسنوا شرائعها . وكان على كل جندي ان يقسم بكل وقار واحترام بين الطاعة لثاقته والولاء للامبراطور والامبراطورية . وجاء يوليوس قيصر فمنح حقوق المواطن الروماني بعض وجوه الولايات واعيانها ممن لمس فيهم الولاء والاخلاص لرومة وامبراطوريتها . وقضت ظروف الفتح والتوسع بتكبير الجيش فجندت رومة ابناء الولايات في وحدات « مساعدة » . وفي ايام ادريانوس وخلفائه تساهلت رومة فمنحت كل من لمست فيه استعداداً لتقهمها والامتزاج بابنائها هذا الحق الكبير . ثم جاءت بولية دمنة المحصية وابنها كركلا فاباحا هذا الحق في السنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية . فأصبح الجيش والحالة هذه مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر المتوسط . وأدى التوسع العسكري الكبير الى تغيير آخر في الجيش . فالحدود الشاسعة الطوية والاعمال الحربية المتتابة المتتالية قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية . والتأخر الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية ان تقطع

جنود الحدود اراضي مجرثونها وان تجيز لهم ان يتأهلوا وان يقيموا في اكوامهم قرب الحدود. فقضى الجنود حياتهم باكملها في خدمة العلم واصبحوا طائفة عسكرية تمشي لنفسها ، لا جيشاً شعبياً يقوم بخدمة الدولة .

وبما عجل كثيراً في انخراط الجيش ان اوغسطس قيصر لم يعن بايجاد طريقة قانونية لانتخاب الامبراطور تنتقل سلطة الامبراطور بموجبها من سلف الى خلف دون ما خلل يقطع الاستمرار . فنتج عن هذا الخلل انه أصبح في طاقة الجند ان يختاروا من يرضون عنه وان يعزلوه وان يعينوا غيره مكانه كما امسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام .

الامبراطور : وكان الامبراطور في بدء الامر وجيهاً رومانياً كبيراً نُحُوِلَ سلطة عسكرية واسعة في ظروف حرية قاهرة . وكانت هذه السلطة او هذه القيادة تنتهي بانتهاء الحرب . وكان مجلس الشيوخ يقيم في ظروف معينة اكثر من قائد واحد في وقت واحد . ثم جاءت الامبراطورية بطولها وعرضها وتعددت مشاكلها فوكلت رومة القيادة الى رجل واحد طوال عمره . وبقيت سيادة الدولة الرومانية تظل هذا هذا الامبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته . وبقي هو يمثل الجمهورية<sup>٢</sup> الاوحد . واستحق لقب اوغسطس اي قديس لانه كان في نظر الرومان رمز الهة رومة الحي<sup>٣</sup> . ويرى بعض رجال الاختصاص ان سلطة الامبراطور كانت في البدء سلطة عسكرية لانها لم تطبق قبل عهد ميثيموس سويروس الا في خارج رومة وفي خارج ايطاليا . ويرون ايضاً ان سائر

*Imperium.*

١

*Respublica.*

٢

*Dea Roma.*

٣

الالاقاب التي حملها الاباطرة الاولون لم تزد سلطنة ابدأ .  
وتقادت المجالس القوميسية ٢ في رومة واصابها الهرم . فانحصرت  
السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ ٣ وكذلك ادارة الدولة وفرض  
الضرائب فيها وجبايتها . ولو دام هذا الحصر لصح القول بان الدولة  
الرومانية كانت ارسوقراطية يرأسها ديكتاتور عسكري . ولكن شيئاً  
من هذا لم يكن . فالامبراطور كان منذ البدء قد شاطر مجلس الشيوخ  
السلطة في الولايات . فتوتب عليه منذ بداية الامبراطورية ان يكون  
لديه حكام وان يفصل بين ماله ومالية الدولة . ولما كانت القوة العسكرية  
بيده كان من الطبيعي جداً ان يتناول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق  
سلطته وان تدرج الدولة الرومانية في سلم الملكية .

وحاول الامبراطور الروماني اللباني سويروس الكسندروس  
(٢٢٢ - ٢٣٥ م) الذي نشأ وترعرع في عرقة عكار ان يعيد الى مجلس  
الشيوخ حقوقه المساوية ، فشاور المجلس في جميع اعماله وطلب اليه انتقاء  
كبار الموظفين في رومة وفي الولايات وتقديم الاكفاء لجميع الوظائف  
الانخرى . ورفى حكام الولايات الى رتبة عضو في مجلس الشيوخ كي لا  
ينظر في امرهم من كان دون هذه الرتبة . وبعبارة وجيزة حاول الا  
يفعل شيئاً يعكس صفو العلاقات بينه وبين مجلس الشيوخ .

وعني سويروس الكسندروس بشؤون الجيش فراقب عن كثب حركات  
الوحدات وأمن العدل بينهم وأقطعهم الارض عند الحدود وزودهم بالمواشي  
والارقاء لحراثتها وزرعها شرط ان يدخلوا ابناءهم في الخدمة بعدهم .

*Pontifex Maximus, Princeps Senatus.*

١

*Camice.*

٢

*Senatus.*

٣

ولكنهم لم يرضوا عن المفاوضات التي اجراها مع القبائل الالمانية عبر الرين في السنة ٢٣٥ واخذوا عليه اتقياده لوالدته ففاوضوا مكسيميانوس مدرب الجيش وكانوا قد احبوه لشجاعته وكرمه . وقتلوا الامبراطور ووالدته ونادوا بمكسيميانوس امبراطوراً . فدخلت الامبراطورية الرومانية في ازمة سياسية مخيفة كادت تمزقها تمزيقاً وتموي بها الى الحضيض . وانكشف ضعفها وتبين ان اوغسطس قيصر ذاك المصلح الكبير لم يوفق الى طريقة قانونية لانتقاء الامبراطور تنتقل بموجبها سلطته من سلف الى خلف دون ما خلل يقطع الاستمرار . وتبين ايضاً ان الجيش بعد ان انفصل عن الشعب الروماني واصبح خليطاً من كل من هب ودب بقي يمارس سلطة هائلة في انتقاء الامبراطور بالاشتراك مع مجلس الشيوخ وان هذه السلطة اصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش كما سبق ان اشرنا .

**أزمة القرون الثالث :** وهب مكسيميانوس (٢٣٥ - ٢٣٨ ب. م) وكان عملاقاً في جسمه يتابع الحرب فيما وراء الرين . ولكن الجنود في افريقية لم يرضوا عنه فاعلنوا غورديانوس الاول امبراطوراً في السنة ٢٣٧ وكان هذا قد ناهز الثمانين من العمر فأشرك ابنه غورديانوس الثاني في الحكم معه . وقاومهما والي موريتانية (الجزائر) فقتل غورديانوس الثاني في ميدان القتال وانتحر والده العجوز . وثار جنود مكسيميانوس في وجهه فقتلوه في اثناء حصار اكويلية في ولاية البندقية . وتدخل مجلس الشيوخ فانتخب بويانوس وبلينوس فغورديانوس الثالث حفيد الاول نزولاً عند رغبة الشعب ، ولكن الحرس الامبراطوري قتل الاولين وابقى غورديانوس الثالث حفيد غورديانوس الاول وكان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره (٢٣٨ - ٢٤٤) ثم خرب صريعاً في السنة ٢٤٤ بيد قائد الحرس . وكان قد اضطر غورديانوس الثالث ان يشرك فيلويوس العربي معه في الحكم في السنة ٢٤٣ نزولاً عند رغبة جنود الشرق فعقد هذا صلحاً مع الساسانيين

وهرول الى رومة وتسلم ازمة الحكم فيها (٢٤٤ - ٢٤٩ ب . م) . وما  
يروى عنه انه تقبل النصرانية سرآ . وفي السنة ٢٤٩ انتقض الجند في  
مناطق الدانوب فأرسل فيلوبوس العربي القائد ديقوس ليخمد ثورتهم .  
وما ان وصل اليهم حتى نادوا به امبراطوراً (٢٤٩ - ٢٥١) فحارب فيلوبوس  
وقته في موقعة فارونة . وقام ديقوس بحارب القوط في البلقان في السنة  
٢٥١ فسقط في ميدان القتال في ما وراء الدانوب . فنادى الجند بغالوس  
امبراطوراً (٢٥١ - ٢٥٣) واشرك هذا هوستيليانوس بن ديقوس في الحكم  
معه ثم قتله . وعم داء الطاعون في اثناء حكمه جميع انحاء الامبراطورية  
فزاد في الطين بلة . ثم عهد اميليانوس هذا وهو قاهر القوط الى خلع  
الامبراطور في السنة ٢٥٣ فخلّ محله ولكن الجنود قتله بعد اربعة اشهر  
من الحكم ونادوا بغاليريانوس امبراطوراً بعده (٢٥٣ - ٢٦٠ ب . م)  
فأشرك هذا ابنه غالينوس في الحكم معه وقاما بحاربان قبائل الافرنج في غالية  
والالمانى في شمالي ايطالية والقوط عند الدانوب والساسانيين عند الفرات .  
وفي اثناء حصار الرها في السنة ٢٦٠ وقع فاليريانوس اسيراً في يد شابور  
وتوفي اسيراً . وتابع غالينوس الحكم بعد ابيه (٢٦٠ - ٢٦٨) وجابه ما  
كان اشد هولاً : ضغط البرابرة ولاسيما القوط الذين انقضوا من البحر  
الاسود بمراكبهم الحاطقة ، وظهور عدد كبير من المنافسين . فدخلت  
الامبراطورية في فترة الطغاة الثلاثين واشهرهم تريفوس في غالية واسبانية .  
ولا يجوز القول ان أذينة العربي كان منهم لانه حافظ طوال عهده على  
الولاء القانوني الشكلي لغالينوس . واعتبره هذا شريكاً له في الحكم .  
وسقط غالينوس محارباً ضد اوربولوس في السنة ٢٦٨ . ولكن الجنود  
نادوا بكلوديوس الثاني (٢٦٨ - ٢٧٠) امبراطوراً فقتل هذا اوربولوس  
وقهر الالمانى والقوط ولكنه توفي بالطاعون فخلفه اوريليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥)  
اذ نادى به جنوده امبراطوراً . وصالح القوط وتنازل عن حقوق رومة

في ما وراء الدانواب واخضع زينب، ثم قهر تيريقيوس في غالية واتخذ لنفسه لقب معيد الدولة العالمية<sup>١</sup> ولكنه قتل في حملة قام بها على الساسان فانتخب مجلس الشيوخ تسيستوس امبراطوراً بايعاز من الجند (٢٧٥). وتوفي هذا بعد ثلاثة اشهر في اثناء الحملة التي شنّها على قبيلة الالاني في آسيا الصغرى. ولم يفلح اخوه في تسلم الحكم بعده لانكساره امام بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢ ب. م). ورد<sup>٢</sup> بروبوس هجمات الافرنج والبورغنديين والالاماني والفندال وشغل الجنود بتجفيف المستنقعات وانشاء الترع وبناء الطرق قباروا عليه وقتلوه. فتولى الامر بعده قائد الحرس كاروس (٢٨٢ - ٢٨٣) ولكن ساعة اصابته بعد ان احتل طيسفون عاصمة ساسان. فخلفه ابنه نورميانوس (٢٨٤) ولكنه قتل بمؤامرة والد زوجته كارينوس الذي طمع في ملك صهره فلم يفلح لان الجند كانوا قد نادوا بدوقليتيانوس الشهير (٢٨٤ - ٣٠٥)<sup>٣</sup>.

غزوات الشعوب الجرمانية: وكان يقطن المانية وساثر اوروبه الشمالية برايرة من الجنس الهندي الاوروبي شقر الشعور زرق العينين طوال القامة لم يرتقوا كثيراً منذ عهد انسان العصر الحجري. وكانت كل قبيلة منهم تقيم في منطقة محدودة لا يتجاوز قطرها ستين كيلومتراً، ولا يزيد عدد نفوسها عن خمسة وعشرين ألفاً او ثلاثين. وكانوا يقيمون في قرى تضم كل واحدة منها مئة عائلة. وكانت المنازل التي يسكنونها اكواخاً حقيرة يسهل نقلها. وكان السكان على وجه الجملة لا يرغبون في

*Restitutor Orbis.*

*Mazimlannus Gordianus, Publienns Maximus, Callius Balbinus, Philippus* ٢  
*Arabs, Decius, Gallus, Aemilianus, Valerianus, Gallienus, Tetricus, Claudius,*  
*Aurelianus, Tacitus, Probus, Carus, Numerianus, Carinus, Diocletianus.*

الفلاحة والزراعة، بل كانوا يؤثرون رعاية المواشي وتربيتها. وكانوا يجهدون الكتابة تماماً ولا يتعاطون التجارة الا قليلاً. وكانوا اقوياء البنية ذوي بأس وجلد يميلون الى الحرب والغزو والنهب وينتقلون من مكان الى آخر يتبعهم نساؤهم واولادهم في مركبات ضخمة. وكانوا يجيدون ركوب الخيل ويعتنون بها عناية فائقة.

وكانت رومة قد جعلت من الرين والدانوب وما بينهما حدوداً فاصلة بينها وبين هذه القبائل وحضنت هذه الحدود واقامت عليها فرقاً تحميها. ولكن هذا كله لم يمنع تسرب جماعات من الجرمان الى داخل حدود الامبراطورية واغسطس نفسه كان قد اذن لبعض هؤلاء بالبقاء داخل الحدود. وكان يوليوس قيصر من قبله قد ادخل الجرمان في خدمة الجيش ولاسيما فرق الخيالة. وكان قد ادى التقهر الاقتصادي وقلة اليد العاملة الى قبول بعض العناصر الجرمانية في المزارع الكبيرة كما ادى ضعف الحكم عموماً الى التساهل مع بعض القبائل الجرمانية تدخل برمتها البلاد وبستخدم رجالها في الجيش جنوداً مرتزقة.

وفي اوائل القرن الثالث بعد الميلاد كانت قبيلة الافرنج لا تزال مرابطة عند ضفاف الرين الاسفل ووراءها الى الشرق قبيلة السنكون فالسويبي فالقندال وجميعها في شمالي المانية. وكانت قبائل الالمانى مرابطة بين الدانوب والرين الاعلى. وكانت قبائل القوط قد نزحت عن البلدان الاسكندنافية منذ نهاية القرن الثاني بعد الميلاد وحلت ضيوفاً ثقيلة على الالاني والسرامطة في جنوب روسية. فأقام القوط الشرقيون بين نهري الدينير والدينستر والقوط الغربيون في مانسيه اليوم رومانية والمجر. وادى ضعف الدولة الرومانية واضطراب احوالها الى تيقظ هذه القبائل واشتداد طمعها. فحاول بعضها قطع الحدود الرومانية فزادوا الامبراطورية بعملهم هذا انها كآ وقعباً وتقهرآ.

وفي ربيع السنة ٢٦٧ بعد الميلاد احتشد عدد غفير من القوط وغيرهم من قبائل الدانوب وجنوبي رومية عند مصب نهر الدنيستر. فأجبر بعضهم على متن بضعة آلاف مركب صغير واتجهوا جنوباً ولحق بهم الباقون برأ. ونزل بعض البحريين منهم في يثينية وتوغلوا في آسية الصغرى، وتابع الباقون سفرهم البحري فدخلوا البوسفور وحاولوا اقتحام بيزنطة لكنهم لم يفلحوا فاستأنفوا رحلتهم الى بحر ايجي فغزوا ثيسالونيكية وكسندرية وسائر سواحل اليونان، وبلغ بعضهم الى كريت ورودوس وقبرص. فتصدى لهم برويوس حاكم مصر عند بامفيلية بما جمع من سفن رومانية وردمهم على اعقابهم. وفعل مثل هذا أذينة العربي في آسية الصغرى. وهب الامبراطور كلوديوس الى محاربتهم في البلقان فسجل انتصاراً كبيراً بالقرب من نيش وقتل منهم خمسين ألفاً وطارد الباقين عبر مقدونية فهلك بعضهم بالطاعون ودخل الباقون في خدمة الجيش الروماني. ونال كلوديوس بحق لقب «قاهر القوط» وتمددت هذه الهجمات البربرية وتعاقبت طوال هذا القرن.

الافلاطونية الجديدة: وأدى تقهقر رومة الداخلي الى نزعات جديدة في الفكر. فدفعت الفوضى والحروب والاربئة وما تبعها بعض رجال الفكر الى الابتعاد عن هذا العالم الفاني والتأمل في عالم اذلي ملؤه الخير والجمال. فعكف عدد من رجال الفلسفة على فيثاغورس زاهدين ورعين مستوحين قائلين بالسحر والعراقة جاعلين من بعض حلقاتهم انتداعات سحرية. فظهرت فيثاغورية جديدة قال بها فلاسفة في الشرق والغرب معاً.

ودعا آخرون الى أفلاطون ووجدوا في كتابه الطيماوس Timaeus قوتاً قامت به انفسهم فانتعشت. فأكدوا قوله بالواحد الاوحد. وقالوا

بالتنائية الافلاطونية ففرقوا بين النفس والجسد . وجعلوا من خيال افلاطون في الحياة بعد الموت عقيدة . وتقبلوا نظريته في الوسطاء بين الله والبشر Daimones . واكدوا ان رائد الانسان انما هو ان يصير مشابهاً لله . فظهرت افلاطونية جديدة كان لها شأن كبير في عالم الفكر حتى اواخر القرن الخامس<sup>١</sup> .

وأول من اشتهر بالافلاطونية الجديدة نومانوس فيلسوف ابامية بين حماة والمرة . ولا نعلم الشيء الكثير من اخباره . ويموز القول انه علم في النصف الثاني من القرن الثاني . وان أفلوطين اعتمد عليه فيما يظهر . وكتب نومانوس في «مذاهب افلاطون السرية» فشرح ما جاء عن النفس في فيدروس وفي الجمهورية . واطلع على حكمة اليهود وتعاليم المسيح فأولها . ورأى في افلاطون موسى فدعاه موسى اليوناني واعتبره نبياً . ورأى ان الوجود منقسم الى مملكتين مملكة العناية ومملكة المادة . وان المادة اصل الشرور والمفاسد . وانه ليس يليق ان نغزو صنع العالم الى الاله الاعلى وان الابن هو الصانع الذي نظم الكتلة المادية يتأمل النموذج تارة ويتحول عنه طوراً ليحرك الفلك فيصير حينئذ النفس الكلية ٢ .

واشهر المؤسسين في هذا الحقل افلوطين Plotinus . ولد في مصر في ليقوبوليس في السنة ٢٠٤ بعد الميلاد . وبدأ دروسه الفلسفية في سن متقدمة في الثامنة والعشرين في مدينة الاسكندرية . ولكن ما لقيه في هذه الدروس خيب امله واعترف بذلك الى احد اصدقائه فقدمه هذا فوراً الى امونوس سكاس . فعادت وغيبته اليه . وبعد ان قضى احدى عشرة سنة

*Nock, A.D. , Paganism in the Roman Empire, Cam. Anc. Hist. ١  
XII, 438 ff.*

٢ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

*Leemans, E.A., Numenius (Collection of Fragments) Brussels, 1937.*

في معية هذا المعلم علم ان الامبراطور غورديانوس فتح ابواب هيكل  
يانوس في رومة ليعلم الحرب على ساسان . فصمم الفيلسوف الطالب على  
الاتحاق بهذه الحملة العسكرية ليسمع عن فلسفة الفرس والمنود . والتحق  
بجيش غورديانوس ووصل معه الى الفرات . ثم تمرد الجنود واغتالوا  
الامبراطور عند دورة ، فعاد افلوطين الى انطاكية (٢٤٤) وزار ابامية  
ليطلع عن كذب على فلسفة نومانوس . ثم قام من انطاكية الى رومة  
وبدأ يعلم فيها . وتميز بسمو اخلاقه ونفاذ بصيرته فصادف نجاحاً ، واقبل  
على الاخذ عنه عدد من افراد الاسر الممتازة .

وكان قد قام في الاسكندرية في القرن الاول بعد الميلاد فيلون  
اليهودي وجمع بين الحكمة اليونانية والديانة الاسرائيلية فاستند الى نظرية  
افلاطون في الكلمة فجعلها متوسطة بين الاله والعالم ، وقال ان الاله  
هو سبب الكلمة وان الكلمة هي علة الروح وان الروح تحرك العالم باسمه  
وتشيع فيه حكمة الخالق . وكان افلاطون قد فرق بين الخير الاعلى  
والعقل والنفس . وكان ارسطو قد جعل الاله عقلاً محضاً . وكان الرواقيون  
قد قالوا ان الله هو روح العالم . فأخذ فيلون من هؤلاء جميعاً وقال  
ان الواحد هو مبدأ كل شيء وانه الاقنوم الاول وان العقل هو الاقنوم  
الثاني ولكنه دون الواحد في الكمال وان الاقنوم الثالث هو النفس .  
وقال ان الواحد هو الخير الذي يفيض عنه الوجود من غير ان ينقصه  
هذا الفيض شيئاً والوجود يفيض عنه لوجوده كما تقيض الحرارة عن النار  
والنور عن الشمس . وقال : كما ان كل شيء يصدر عن الواحد فكذلك  
كل شيء يعود اليه . والنفس ايضاً تعود الى خالقها عن طريق الرياضة

*Bidez, J., Lit. and Philosophy in the Eastern Half of the Empire, 1*  
*Cam. Anc. Hist. XII, 621 ff.*

والتأمل والاستغراق والغمية عن الوجود<sup>١</sup>.

واظهر تلاميذ افلوطين بروفيريوس السوري ( ٢٢٣ - ٣٠٥ ) . ولد في البثينة من اعمال حوران وتعلم في صور ثم درس الفلسفة على لوجينوس الحصي في اثينة . فاعجب لوجينوس بشغفه بالعلم ومواهبه النادرة وكان يدعى مالكا فأطلق عليه لوجينوس اسم « الارجواني » بروفيريوس . وفي السنة ٢٦٣ قام الى رومة فلزم افلوطين فيها واتبع طريقته . واعجب به افلوطين . وكان المعلم يمقت البيان ويستثقل العناية بالجل والالفاظ . وادرك الحاجة الى اعادة النظر فيما كتب فوكل ذلك الى تلميذه بروفيريوس . فقبل التلميذ المهمة ولكنه لم ينفذ شيئاً منها الا بعد وفاة معلمه والحاح طلاب الفلسفة . فدوّن حياة استاذه وجمع محاضراته في مجلدات ستة عرفت بـ « الاقسام » Ennead التاسوعات وشرّحها<sup>٢</sup> . ووضع « المدخل الى المعقولات » آخذاً عن التاسوعات و « المدخل الى مقولات ارسطو » اي كتاب الايساغوجي . واشتهر بكتابه ضد النصرانية وجعله خمس عشرة رسالة فانقد نسب السيد كما جاء في متى ، وادعى ان الاناجيل الاربعة متناقضة وان بطرس وبولس غير متفقين في رسائلهما ، وهاله عبث المسيحين بالتراث الثقافي الديني اليوناني<sup>٣</sup> .

وقام في النصف الثاني من القرن الثالث في خلقيس (مجدل عنجر لبنان) ميبليخوس العيطوري يدعو الى الافلاطونية الجديدة ويدافع عنها . وهو تلميذ بروفيريوس اخذ عنه في رومة ودرس الرياضيات على اناطوليوس وعاد

١ من الاطون الى ابن سينا لكتور جميل صليبا ص ٣٤ - ٣٥ .

٢ Henri, P., Enseignement de Plotin, Bull. Acad. Belge. Lettres. 1937, 310 ff.

٣ Bidex, J., Vie de Porphyre, Ghent, 1918.

الى بلاده يعلم في ابامية وفي مجدل عنجر . فقال بصدور الموجودات بعضها  
عن بعض . ورأى ان افلوطين حين سمى الواحد الاوحد خيراً بالذات فقد  
حبه بصفة فوضع فوقه واحداً غير معين ووضع بعده العالم المعقول فأصبح  
لديه حدود ثلاثة . وجعل العالم المعقول ثلاثة حدود ايضاً العقل والصانع  
وبينهما القدرة الالهية . وجعل للعالم الاستدلالي ثلاثة حدود اخرى الاب  
والقوة والفهم<sup>١</sup> .

*Bidez, J., Jamblique et son Ecole, Rev. Etudes Grecques, 1919, 1*  
*31 ff.*

## الفصل الثاني

### ظهور النصرانية وانتشارها

( ٣٠ - ٣٩٥ ب. م )

الرسول والتلاميذ والاخوة : توفي السيد في السنة ٣٠ بعد الميلاد . وتابع اتباعه الطقوس الاسرائيلية الشائعة آنثذ . قتعبدوا في هيكل سليمان . وتجمعوا في اروقته . وكانوا جميعهم يهوداً من الطبقات الوضيعة تجمعوا من اورشليم ومن الجليل ومن سائر انحاء فلسطين . وكان بعضهم من يهود البونط ومن قبدوقية ومصر وليبية والقيروان ؛ وكان بينهم بعض اليهود العرب ايضاً . وكانوا يعقدون من آن الى آخر اجتماعات خاصة تفرم فيها محبة قوية ويتناولون في اثناها طعاماً مشتركاً . وكانوا رسلاً وتلاميذ بالنسبة لعلمهم ، واخوة بالنسبة للمحبة المتبادلة بينهم . ولم يعتبروا انفسهم في هذه المرحلة الاولى مذهباً خاصاً من مذاهب اليهود ولا كنيسة من كنائسهم . والكنيسة في عرف اليهود آنثذ جماعة قليلة من اليهود يتعبدون مستقلين عن الجماعة الكبرى .

ولا نعلم عدد المسيحيين في هذه الفترة الاولى من تاريخهم بالضبط . فهم مئة وعشرون في الفصل الاول من سفر اعمال الرسل ، وخمس مئة في الفصل الخامس عشر من رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس ، وثلاثة آلاف بعد عظة بطرس الاولى ، ثم خمسة آلاف في الفصل الرابع من سفر

الاعمال ، وذلك بين السنة ٣٥ والسنة ٣٧ بعد الميلاد . وليس لدينا من الادلة التاريخية الواضحة الراهنة ما يمكننا من وصف نظيمهم وصفاً كاملاً . ولكن هنالك ما يدل على تقدم الرسل الاثني عشر بينهم ، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء . وهنالك ايضاً ما يدل على نفوذ كلمة بطرس ويوحنا ابن زبدي ويعقوب اخي الرب . وكان يعقوب بموجب رواية القديس يوسيبوس<sup>١</sup> نافذ الكلمة محترماً جداً نظراً لزهده وورعه الشديد ، اكتب الركبتيين من كثرة الركوع ، لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ، وليس لديه سوى رداء واحد .

ومارس المسيحيون في هذه الفترة نفسها طقوساً ثلاثة : المعمودية ووضع الايدي والشركة . فكان على مستجد يقبل الدعوة ان يتعمد باسم يسوع المسيح وان يُبارك بوضع الايدي وان يمارس الشركة وكسر الخبز<sup>٢</sup> . وجاء في الفصل الرابع من سفر اعمال الرسل ايضاً انه كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، وانه لم يكن احد يقول ان شيئاً من امواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً . وانه لم يكن فيهم احد محتاجاً لان كل الذين كانوا اصحاب حقول او بيوت كانوا يبيعونها ويأتون باثمان المبيعات ويضعونها عند ارجل الرسل . فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج .

اليهود : وعلى الرغم من تمسك المسيحيين الاولين بالناموس والانبياء عملاً بقول السيد ان السماء والارض تزولان ولا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس ، فان كرزيم نيسوع مسيحاً اخرجهم في

١ المؤرخ الاول لكنيسة واسقف قيصرية ( ٢٦٥ - ٣٣٩ م ) .

٢ قبلوا كلامه واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس وكانوا يواظبون

على تعليم الرسل الشركة وكسر الخبز والصلوات . - اعمال الرسل ٢ : ٤١ - ٤٣ .

نظر اليهود على الله والناموس . واشتد نشاطهم وكثر عددهم فشكاهم  
الصدّيقون الى المجمع وطلبوا الى رئيس الكهنة ان يوقف الرسل ففعل .  
ثم طلبهم الى المجمع وقال لهم : ألم نوصمكم الا تعملوا بهذا الاسم ؟ فاجاب  
الرسل : ينبغي ان يطاع الله اكثر من الناس . ان اله آبائنا رفع يسوع  
رئيساً ليعطي اسرائيل التوبة ومغفرة الخطايا ! فلما سمع اعضاء المجمع هذا  
القول حنقوا وارادوا ان يقتلوه . فقام غملاييل القريسي واوصى بالاعتدال .  
فاكتفى المجمع بمجدد الرسل ثم اطلقهم . فخرج الرسل فرحين وعادوا الى  
التبشير . وحوالي السنة ٣٦ بعد الميلاد طلب المجمع اسطفانوس للشول  
امامه بتهمة التجديف على موسى وعلى الله . فقال في الدفاع عن نفسه  
قوله المأثور : يا قساة الرقاب انتم دائماً تقاومون الروح القدس . ايّه  
الانبياء لم يضطهده آباؤكم ؟ اخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه<sup>١</sup> .  
فصرّوا باسنانهم واخرجوه خارج المدينة ورجوه . فكان اول الشهداء .  
وظهر في هذه الآونة شاوول القريسي ( بولس فيما بعد ) . وكان يدخل  
الى البيوت ويجر النساء والرجال من المسيحيين ويدفع بهم الى السجن<sup>٢</sup> .  
وخشي اتباع اسطفانوس سوء العاقبة . وكانوا من اليهود اليونانيين .  
ففروا الى أوطانهم في شرقي البحر المتوسط . واستقاموا فيها كارزين  
مبشرين . وقام فيلبس في هذه الاثناء يبشر في السامرة وفي ساحل فلسطين  
في غزة ويافه وقيصرية فلقي فيها نجاحاً . وكان الرسل ولاسيما بطرس  
ويوحنا يقبضون عمل فيلبس فيقومون بزيارات رعائية خارج اورشليم  
يتعرفون بها الى المسيحيين الجدد مشددين عزائمهم مثبتين لهم في الايمان .  
وسجّل فيلبس بكرزه في السامرة خروجاً على الحطة المتبعة في التبشير

١ اعمال الرسل ٧ : ٥١ - ٥٣ .

٢ الاعمال ٨ : ٣ .

الاولي . فان الرسل كانوا قد حصروا عملهم في اوساط اليهود متبعين في ذلك قول السيد : « الى طريق امم لا تمضوا ، والى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا الى خراف بيت اسرائيل الضالة . » ولكن العمل كان قد توطن فيما يظهر فبدأ التبشير بين الامم . ورأى بطرس وهو في يافه ان الله يأمره الا يقول عن انسان ما انه دنس او نجس ، فقبل دعوة كرنيليوس قائد المته الايطالية وقال ان الله لا يقبل الوجوه بل في كل امة الذي يتقيه ويضع البر مقبول عنده ٢ . وانتقل الرسل بهذا من دور الى دور وبدأوا يعملون بالآية : « واذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » ٣ .

وفي السنة ٤١ بعد الميلاد تولى عرش اليهود في ظل رومة هيروودوس اغرييه حفيد هيروودوس الكبير . فاراد ان يستميل الشعب اليه ، فظاهر بالتدين وشرع يضطهد المسيحين اضطهاداً منظماً . فقتل يعقوب اخا يوحنا بالسيف . ولذا رأى ان ذلك يرضي اليهود عاد فقبض على بطرس وزجه في السجن . وكان ما كان من امر خروجه باعجوبة ٤ . وتوجه الى انطاكية .

انطاكية : وكانت انطاكية آتتذ ثالثة مدن الامبراطورية الرومانية ومركز الحكم والسلطة في سورية ولبنان وفلسطين . وكانت الجالية اليهودية فيها كبيرة يربو عددها على خمسين الفاً . وكانوا يتكلمون اليونانية ، ويعيشون عيشة اليونان ، ويكسبون الرزق بالاتجار . فلما نشئت المسيحيون من جراء الضيق الذي حصل بسبب اسطفانوس اجتاز بعضهم الى الساحل

١ متى ١٠ : ٥ .

٢ الاعمال ١٠ : ٣٤ - ٣٥ .

٣ مرقس ١٦ : ١٥ .

٤ الاعمال ١٢ : ١ - ٢٤ .

اللبناني وقبرص . وحلّ آخرون في انطاكية . وكان بين هؤلاء قوم قبرصيون وقبروانيون . فلما دخلوا انطاكية بشروا اليهود و« اليونانيين » بالرب يسوع . وكانت يد الرب معهم فأمن عدد كثير ورجعوا الى الرب<sup>١</sup> . وجاءهم بطرس في السنة ٤٥ واقام بينهم ثلثي سنوات . وبعد ان اطمان لعمله في انطاكية وما جاورها اقام افديوس رئيساً على كنيستهم وذهب في السنة ٥٣ الى رومة . وعرف المسيحيون بهذا الاسم لأول مرة في انطاكية .

**بولس :** وكان الشاب القريسي شاوول بولس يتابع التفتيش ممن اعتنق النصرانية من اليهود ليضطهدهم باسم الناموس . فقام في السنة ٣٦ بعد الميلاد الى دمشق ليوقف انتشار النصرانية في اوساطها اليهودية . وما ان اقترب منها حتى « ابرق حوله نور من السماء . فسقط على الارض وسمع صوتاً يقول له : شاوول شاوول لماذا تضطهدني ؟ » فكان ما كان من امر تصره . وكان قد ولد شاوول في طرسوس بين الخامسة والعاشره بعد الميلاد . وكان والده قريسياً متعصباً فجعل ابنه يدرس الشريعة والناموس . وأبعده عن المدارس اليونانية . ويرجع رجال الاختصاص ان ما ناله شاوول من الفلسفة اليونانية جاء عن طريق الاحتكاك الشخصي بابنائها لا عن درس وتعليم . ورحل شاوول وهو لا يزال حدثاً الى اورشليم في طلب العلوم الدينية فأخذ عن غملائيل المشار اليه آنفاً . وكان غملائيل من اكبر علماء الدين في ذلك العصر . ويستدل من كتاب « اعمال بولس » الذي يرقى الى القرن الثاني بعد الميلاد ان بولس كان مربوع

١ الاعمال ١١ : ١٩ - ٢١ .

٢ الاعمال ٩ : ٤ .

القامة مائلاً نحو القصر ، معوج الساقين ، أصلع الرأس ، كثيف الحاجبين ، اقنى  
الانف . وجاء في رسالته الثانية الى اهل كورنثوس انه « أعطى شوكة  
في الجسد لثلاثين يوماً » . ويستدل من رسالته انه كان حاد الطبع ، شجاعاً  
جريئاً ، شديد العاطفة ، ثاقب النظر ، واسع الخيال ، مقداماً .

وبدأ بولس عمله التبشيري بين يهود دمشق . ففضجوا وطلبوا حبسه .  
ولكن اخوانه في النصرانية عاونوه على الفرار . فقضى ثلاث سنوات او  
اكثر في البادية يتأمل رسالته الجديدة ويبشر العرب . ثم عاد الى اورشليم  
يستغفر الرسل ويبشر في الاوساط اليهودية اليونانية . ولكن هؤلاء حاولوا  
قتله ، فأشار عليه الرسل بوجوب الابتعاد والاقامة في طرسوس مسقط  
رأسه . وكانت الدعوة قد لقيت نجاحاً في انطاكية كما سبق ان اشرنا .  
فذهب كبير المسيحيين فيها برونابا الى طرسوس وجاء بيولس الى انطاكية  
فتعاونوا في الخدمة ( ٤٢ - ٤٥ ب . م ) . وكان بين المسيحيين في انطاكية  
جماعة من التجار . فجمعوا مقداراً من المال ووضعوه تحت تصرف بولس وبرنابا  
لاجل التبشير . فقاما برحلة تبشيرية الى قبرص وآسيا الصغرى ( ٤٥ - ٤٧  
ب . م ) ولقيا بعض النجاح . ثم عادا الى انطاكية ، فعلموا فيها ان الرسل  
لم يرضوا عن اعمالهما التبشيرية لانهما كانا قد قبلوا في النصرانية وثنيين لم  
يختتنوا . وكانا يريدان ان لا بد من التساهل في مثل هذه الامور لثلاثين  
تبقى النصرانية شيعة يهودية منسقة . فنزلا الى اورشليم ( ٥٠ ب . م ) وبجنا  
امر الاختتان فايدهما بطرس وعارضهما يعقوب . ثم تم الاتفاق على ان  
يتمتع المؤمن غير المختتن عما ذبح للاصنام وعن الدم والخموق والزنى . فان  
حفظ نفسه منها فتمعماً يفعل ويكون معافى<sup>٢</sup> . وعاد بولس وبرنابا

١ : ١٠ : ٩ و ١٢ : ٧ .

٢ اعمال الرسل ١٥ : ٢٢ - ٣٠ .

الى انطاكية .

وقام بولس بعد هذا برحلتين تبشيريتين الثانية والثالثة . وشملت الثانية (٥٠ - ٥٢ ب.م) غلاطية وفيلبي وثيرسالونيكية واثينة وكورنثوس وافسوس وانطاكية . وشملت الثالثة (٥٣ - ٥٨ ب.م) افسوس وكورنثوس وبعض جزر الارخبيل اليوناني وصور وعكة وقيصرية فلسطين فالقدس . وكان بولس يبشر اليهود اولاً فالوثنيين فيلقى صعوبات واحدة لم تتغير إما مقاومة عنيفة من بعض الاوساط المتمسكة يهودية كانت او وثنية ، وإما تحريضاً من تجار المواشي المعدة للذبح في الهياكل او من تجار الاصنام . ولكنه كان يتغلب عليها بشجاعته وصبوره وإيمانه . وقدر له في هذه الآونة ان يكسب عدداً من الرجال والنساء الاطهار الذين عملوا معه بكل غيرة ونشاط ، فكانوا له شبه اركان حرب يقومون باهم الخدمات . وبين هؤلاء تيموثاوس ومرقس ولوقا الطيب وليدية وبريسة .

واثبوت قضية الاختتان مرة ثانية فعاد بولس الى اورشليم في السنة ٥٨ بعد الميلاد . وما ان ظهر في الهيكل حتى ثار ثائر اليهود . فامسكوا به وجروه الى خارج الهيكل وحاولوا قتله . ولكن الجنود تدخلوا وساقوه الى الحبس . واتهمه اليهود بالتشويش والتفرقة بين الصفوف . فابقاه الحاكم الروماني في السجن سنتين متتاليتين . وألح بولس بان ترفع قضيته الى القيصر لانه يتمتع بحقوق المواطن الروماني، فكان له ذلك وارسل الى رومة في السنة ٦٢ بعد الميلاد . فاقف في بيت مجرسة الجند وبات ينتظر محاكمته امام نيرون . ويرجح انه قضى شهيداً في السنة ٦٤ مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون . ويعتقد البعض انه لم يلق حتفه قبل السنة ٦٦ . وجاء في التقليد انه اطلق سراحه بادىء ذي بدء ، وانه بشر في اسبانية وآسية قبل ان يقتل في رومة في السنة ٦٦ ، ولكنه قول ضعيف .

يوحنا : وليس بين الرسل الآخرين من نعلم عنه شيئاً بقدر ما نعلم  
عن يوحنا . فاننا نجد حوالى السنة ٦٧ في افسس محبوباً محترماً . ويبدأ  
دوميتيانوس اضطراره فيقامي يوحنا عذاب الزيت الحامي ويخلص باعجوبة  
ليُنقل الى جزيرة باتموس محكوماً عليه بالاشغال الشاقة فيكتب فيها رؤيا  
يوحنا . ثم يطلق سراحه في عهد نرغه فينتقل الى افسس مبشراً بالهجة  
مجدداً ، مؤسساً ، مدوناً انجيله في السنة ٩٠ بعد الميلاد .

مرقس وتوما وغيرهما : وما حفظه لنا التقليد ودوته القديس يوسيبوس  
في تاريخه ان مرقس الانجيلي اسس كنيسة الاسكندرية ولقي حتفه فيها وذلك  
في السنة ٦٢ او ٦٨ بعد الميلاد . وما يروى ايضاً ان القديس اندراوس  
أسس كنيسة القسطنطينية . وان القديس توما بشر في فارس والهند وأسس  
كنيسة الرها . وعلى الرغم من اجتهاد صديقنا المرحوم اغناطيوس وحماني  
بطريرك السريان الكاثوليك فانه لا يمكننا القول معه ان كنيسة الرها  
أسست في عهد السيد المسيح بناء على طلب ملكها العربي أمير الخامس  
الذي اتصل بالسيد طالباً الشفاء من مرض الم به . وما جاء في التقليد  
ايضاً ان القديس كوارتوس احد التلاميذ السبعين أسس كنيسة بيروت .

ولم ترق مباحث أفلاطون كثيراً في عين اليونان ولم تعجبهم حكمة أرسطو  
بل صبت عقولهم على نوع من الفلسفة يكسبهم هناك المعيشة وراحة البال .  
فنادى زينون الصوري بالفضيلة غايةً للحياة يستوي لديها الالم واللذة . وعلم  
ايقوروس ان الخير الاعظم هو اللذة سواء اكانت عقلية ام جسدية شرط  
الا تخرج عن دائرة الفضيلة . وشاعت قصة أهميروس ان آلهة اليونان كانت  
في الاصل ملوكاً بشراً ألهوا بعد وفاتهم وصدق الناس هذه القصة . فققدت  
الآلهة القديمة ما كان لها من الاحترام في عيون المتعبدين . ولم يكن  
محظوراً على احد ان يصرح بما كان يكتمه قلبه نحو الآلهة مهما كان اعتقاده  
فيها . وكان السواد الاعظم من الشعب اليوناني غير متعلم . وكان لا بد لهم

من آلهة ، فالوا الى تكريم الآلهة الشرقية . فاجتازت الديانة المسيحية من بلاد الى بلاد في سهولة ويسر . ولم تعرض الديانة الرومانية القديمة لمسلح الشخص او لسيرته الخاصة ، ولم تعد العباد بالسعادة المستقبلية . وانشق المجتمع الروماني كما سبق ان اشرنا الى طبقتين متباغضتين طبقة المتولين اصحاب الاراضي الفسيحة وطبقة الارقاء المستعبدين والفقراء المساكين . وكثر عدد هؤلاء وساءت احوالهم وثاروا وتمردوا . فجاهم بولس الخيام الطرسوسي منادياً بتعاليم سيده ، معلناً ابوة الله واخوة البشر ، مردداً تعاليم السيد : « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين . » فكان لكلامه اثر بليغ وفعل عظيم في قلوب الرومانيين الثعالي .

**الدولة الرومانية والنصرانية :** وكانت الدولة الرومانية قد بسطت سلطتها على جميع انحاء حوض البحر المتوسط وربطت اجزاء امبراطوريتها بشبكة واسعة من الطرقات وفرضت شرائعها ولغتها ، فبلغ بذلك عالم البحر المتوسط درجة من التوحيد لم يبلغها من قبل . وبهذا التوحيد سهلت رومة انتشار الدين الجديد . ولكن كبار الرومانيين مساوا في تعاليم هذا الدين نفسه خطراً يهدد سلامة الدولة . وتفصيل هذا ان اليونانيين والرومانيين لم يفرقوا بين الوطنية والدين . فالمواطن عندهم كان مواطناً بقدر اشتراكه في التعداد لاله المدينة . وباتساع افق المدينة السيامي اتسع كذلك افق دينها . فلما تمّ لرومة بسط سلطانها في حوض البحر المتوسط اعتبر رجالها لإلهتهم رومة لإلهة الامبراطورية باسمها . وجر اوغوستوس رعايا رومة في الشرق بقوته وتدييره وعظمته فرأوا في شخصه مخلصاً الميماً يمنع الحروب ويوطد السلم . وهو ما تنص به جملة نقوش في نواحي متعددة من آسية الصغرى ترقى الى القرن الاول قبل الميلاد . وفي السنة ٢٩ قبل الميلاد ذهب اليونان في آسية الصغرى الى ابعد من هذا فانشأوا هيكلًا خاصاً لعبادة رومة واوغوستوس . ورأى اوغوستوس في هذا الامر خيراً له

ولرومة . فشجع عليه رعاياه ونقله الى الغرب . فظهر في ليون مثلاً في السنة ١٢ قبل الميلاد مذبح لرومة ولاوغوستوس معاً . وقام مثله في السنة ٥ بعد الميلاد في مدينة كولون . ونشأت في جميع انحاء الامبراطورية اخويات دينية سياسية دعيت الواحدة منها اوغوستيالية . وكانت تقيم الحلقات لاوغوستوس وتترنم به وترقص . واتخذ هو لنفسه لقب الحبر الاعظم<sup>١</sup> . وما كادت تنتظم امور هذا الدين الامبراطوري الجامع حتى اخذ رسل المسيح وتلاميذه يبشرون باله لا اله الا هو ، تجسّد وولد من مريم العذراء ، وصلب وتألم ومات من اجل البشر ، وقام وصعد الى السماء ليدين الجميع . ولو حصر الرسل والتلاميذ عملهم في الاوساط اليهودية لما تنبه الرومان وتيقظوا . ولكنهم بشروا « الخليفة كلها » وحملوا رسالة السيد الى امهات المدن ، لا بل الى رومة نفسها . فكان لا بد من الاضطهاد .

**الاضطهاد :** ويجدر بالقارئ ان يذكر فيما يتعلق بالاضطهاد اربع حقائق : اولاً ان المؤرخين يشيرون عادة الى عشرة اضطهادات بين السنة ٦٤ بعد الميلاد والسنة ٣١٣ سنة البراءة . وثانياً ان الاضطهاد أجري بموجب تشريع خاص صدر عن الامبراطور نيرون في السنة ٦٤ وقضى بالألا يكون احد مسيحياً<sup>٢</sup> . وثالثاً ان الاضطهاد لم يكن دائماً عاماً شاملاً . ورابعاً انه لا يمكن تحديد عدد الضحايا ويجوز القول انهم كانوا كثيراً .

وفي عهد نيرون ( ٥٤ - ٦٨ ب . م ) اتهم المسيحيون باحراق رومة سنة ٦٤ فكان ما كان من شتى الوان العذاب . واستشهد الرسolan بطرس

*Pontifex Maximus.*

*« Non Licet esse christianum ».*

وبولس . ويرى بعضهم ان بولس قضى حوالى السنة ٦٧ . وفي ايام دوميتيانوس (٨١ - ٩٦ ب . م ) على اثر ثورة اليهود حلّ بالمسيحيين دور آخر من العذاب . فاستشهد في رومة عدد من الاشراف لاول مرة . وذاق يوحنا الانجيلي آلام الحرق بالزيت الحامي ونفي الى جزيرة باتموس . وأستشهد تيموثاوس في آسيا الصغرى . والقي القبض على اقارب السيد في فلسطين ثم اطلق سراحهم . وجاء دور تزيانوس ( ٩٨ - ١١٧ ) فلقي اسقف اورشليم القديس سمعان حتفه مصلوباً (١٠٧) . وقضى اسقف انطاكية اغناطيوس الشهر في رومة في السنة نفسها . وأعدم كثيرون في ييشنية ومقدونية . وكتب طياريوس حاكم فلسطين الى الامبراطور يقول : ان المسيحيين في انطاكية ازدحموا مستمتين في سبيل الرب . وفي عهد انطونينوس ( ١٣٨ - ١٦١ ) في السنة ١٥٥ استشهد بوليكاربوس اسقف ازير ومرقس اسقف اورشليم . وقضى في رومة حوالى السنة ١٦٥ القديس يوستينوس النابلسي الفيلسوف المعلم وذلك في عهد مرقس اوريلينوس . واستشهد في ايام هذا الامبراطور نفسه ايضاً بوبليوس اسقف اثينة وحكم على كثيرين بالعمل الشاق في المناجم . واهم سبتيموس سويروس ( ١٩٣ - ٢١١ ) لانتشار النصرانية في مصر فملا السجون بالنصارى ودفع بعضهم الى الجلادين في الاسكندرية ، وبيعض الى الحيوانات المفترسة في مدرج قرطاج . ولكن خلفاءه اباطرة السلالة السورية اللبنانية لم يقتفوا اثره في شيء من هذا ، بل قام احدهم سويروس الكسندروس بمحاول انشاء هيكل لعبادة المسيح في رومة . وجاء فيليبوس العربي ( ٢٤٤ - ٢٤٩ ) يلاطف ويمهد . فحصل ذلك خلفه داسيوس ( ٢٤٩ - ٢٥١ ) ان يُكره جميع السكان في المدن والارياف ان يمثلوا امام رجال السلطة في وقت محدد ليقدّموا الذبيحة لشخص الامبراطور . فارتد عن الدين الجديد عدد من الاغنياء والوجهاء واستشهد في سبيله عدد كبير من المؤمنين . وبين هؤلاء اوريجيانوس

اللاهوتي الفيلسوف الذي سجن في قيصرية فلسطين وعذب فيها ومات من جراحه في صور (٢٥٤)، والكسندروس اسقف اورشليم، وبابيلاس اسقف انطاكية، ونسطوريوس اسقف مجدو. ولاحق الامبراطور فاليريانوس (٢٥٣ - ٢٦٠) الزعماء المسيحيين والكهنة فأمر هؤلاء في السنة ٢٥٧ ان يقدموا الذبيحة للالهة الوثنية وحرّم على المسيحيين الاجتماع في المقابر ومحلّات العبادة، وأكد انهم ان فعلوا اعدموا اعداماً. فدّم القديس ترسيبيوس وجماعة من المؤمنين وهم يصلون في سرداب سلاوية، فماتوا خفياً. واستشهد سيكستوس اسقف رومة وكبريانوس اسقف قرطاجة. واستشهد في فلسطين الاخوة الثلاثة، وفي قبدوقية الطفل كيريلوس، وفي الاسكندرية عدد كبير من المؤمنين.

واعظم الاضطهادات وافظعها ما جاء منها على يد ديوقليتيانوس الامبراطور (٢٨٤ - ٣٠٥ ب. م) ويصعب القول في حقيقة اسبابها. فلم يكن لهذا الامبراطور شيء من شذوذ نيرون او دوميتيانوس، ولا كان ظنوناً ولا قاسياً ولا متديناً او داعياً لدين جديد كأورليانوس. وقد انقضى على حكمه عشر سنوات قبل ان بدأ بالاضطهاد. وليس لدينا من النصوص ما نستطيع معه ان نتوسع في الاجتهاد مطمينين. ولكن هنالك امران لا بد من الاشارة اليهما: اولهما ان ديوقليتيانوس الامبراطور أراد ان يعيد الى الامبراطورية وحدتها ومناعتها، والثاني انه كان يعاني الصعاب في وقف البرابرة عند الحدود. وفي كبت عدوه ملك ملوك الساسان. ولعله رأى في انتشار النصرانية عامل تفكك في الداخل وخطراً على سلامة الدولة وخصوصاً لان النصرانية كانت قد دخلت فارس وان المانوية كانت تمت اليها بصلة قوية.

ولم يكن بإمكان ديوقليتيانوس ان يبني جميع المسيحيين ويقطع دابرهم لانه لو فعل لجلع مناطق ومناطق في الشرق قفراً من السكان. فأثر فيما

يظهر تدمير الكنيسة واخفاء معالمها وتحقير المؤمنين والمهوب بهم الى اسفل الطبقات . وهكذا نراه في الرابع والعشرين من شباط سنة ٣٠٣ بأمر بمنع الاجتماعات المسيحية وبتخريب الكنائس وحرق الكتب وبنكران الدين المسيحي ، موعداً الاشراف المسيحيين والوجوه والاعيان بالخلع والاذلال، مهدداً الرضاء بالعبودية المؤبدة . ثم عاد في السنة نفسها فأمر بسجن الكهنة وابعادهم ان هم ابوا ان يشتركوا في الذبيحة الوثنية . وزاد فأمر بوجود نكران الدين الجديد . فكانت مذابح ومذابح لم تنج منها الا الاقاليم الغربية التي كانت آتتذ في عهدة قطنس والد قسطنطين الكبير . ويقال ان الفضل في ذلك يعود الى زوجته الاولى هيلانة التي كانت قد تقبلت النصرانية قبل زواجها منه . ويقول القديس يوسيبوس المعاصر ان الرؤوس بُتوت في العربية ( البادية المتاخمة للشام ) ، وان السيقان قطعت في قبدوقية ، وان المؤمنين علقوا على الاخشاب بين النهرين واشعلت تحتمهم النيران . وما يقوله ايضاً ان عمال ديوقليتيانوس قطعوا الانوف والآذان والالسن وغرزوا القصب تحت الاظافر ودقوا الحديد في البطون .

والثابت الراهن في عرف البشر أجمعين ان الاضطهاد يقوي النفوس ويشدد العزائم فيشير في المؤمن صاحب العقيدة شعور التحدي ويحمله على التفنن في اساليب الوقاية والدعاية ويزوده بمثل عليا يفاخر بها ويسعى لتحقيقها . وليس ابلغ اثرأ في تقفير الحاسة الدينية وتمويل الغيرة على الدين الى تنازع على المراكز واحداث الشقاق من تكرس الدين سياسياً وجعله ديناً رسمياً .

**النظام والتنظيم :** وكان السيد كما سبق ان أشرنا قد انتمى الرسل الاثني عشر والحق التلاميذ الاثني والسبعين . وفي السنوات الاولى بعد وفاته تدمر اليونانيون اليهود المسيحيون من العبرانيين المسيحيين اليهود وان

أراملهم كنَّ يُغفل عنهن في الخدمة اليومية . فدعا الرسل جمهور التلاميذ وقالوا : لا يُرضي ان نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد . فانتخبوا انتم سبعة منكم مشهوداً لهم فنتيهم على هذه الحاجة . ففعلوا فصلى الرسل ووضعوا عليهم الايدي . وهؤلاء هم الشماسة<sup>١</sup> . ثم نقرأ في الفصل الحادي عشر والخامس عشر من اعمال الرسل عن كهنة يشرفون على الاعمال الخيرية ويجلسون مع الرسل للتشاور وحلّ بعض المشاكل<sup>٢</sup> . واذا تبعنا بولس في رحلاته التبشيرية نجده ينتقي لكل كنيسة يؤسسها شماسة لخدمتها ويجلس كهنة لادارتها وقيماً اعلى يمثله فيها كتيوثاوس وطيطس ولوقا وغيرهم . ونجده يبقى على صلة بهذه الكنائس جميعها بوجهها ويحل مشاكلها . وكان طبيعياً جداً ان يخلف الرسول في رئاسة كل كنيسة يؤسسها بتمثله الاعلى فيها وان يكون لهذا الخليفة سلطة مستمدة من الرسول المؤسس . والواقع الذي تؤيده النصوص انه منذ منتصف القرن الثاني كانت قد انتظمت كل كنيسة مهمة حول رئيس لها دعي اسقفاً ، وحول قسيسين وشماسة وشماسات . ثم تعددت الكنائس فتكثرت في كل ولاية حول كنيسة عاصمتها تكتل المدن في تلك الولاية حول العاصمة . ونهأت لاسقف كل عاصمة من عواصم الولايات زعامة على غيره من اساقفة ولايته . وفي اغلب الاحيان نجد اساقفة الكنائس التي كانت مبعث الحركة في عهد الرسل يتقدمون على غيرهم من اساقفة الولاية او الولايات المحيطة بهم شأن اساقفة رومة في ايطالية واساقفة قرطاجة في افريقية الشمالية واساقفة الاسكندرية في مصر وليبية والحبشة واساقفة انطاكية في سوريا ولبنان وفلسطين وغيرها واساقفة كورونثوس في اليونان وما جاورها . اما في آسية الصغرى فان كثرة

١ الاعمال ١ : ٦ - ٩ .

٢ ١١ : ٣٠ و ١٥ : ٢ .

الكنائس التي فاخرت بشرف الانتساب الى الرسل قد حالت دون تزعم  
كنيسة واحدة على جميع الكنائس .

وكان طبيعياً ايضاً ان يتقدم اسقف رومة على غيره من الاساقفة  
لانه كان اسقف عاصمة الامبراطورية وخليفة الرسولين بطرس وبولس .  
وهو ما يجمع عليه علماء الكنيسة اجمعاً . ولكن هؤلاء يختلفون في  
صلاحيات هذا الاسقف . فالكاثوليك يرونه مطلق الصلاحية  
والسلطة خليفة السيد على الارض منذ اوائل تاريخ الكنيسة . ويستدلون  
على هذا بالآية : « انت الصخرة » ، وبقوال الآباء الاقدمين كالقديس  
اقليمندوس الروماني والقديس اغناطيوس الانطاكي والقديس ايرينيوس  
اليوناني وغيرهم . والارثوذكسيون منهم يرون في الصخرة صخرة الايمان  
ويرون في اقوال القديسين ما يوجب تقديماً في الكرامة لا في السلطة ،  
ويحتجون بورود كلمة Principatum في هذه الاقوال عند الاشارة الى  
صلاحيات اسقف رومة . وهذه الكلمة تعني في رأيهم التصدر في المجالس  
لا السلطات المطلقة<sup>١</sup> .

وقدس المسيحيون في عهدهم الاول السبت لا الاحد . ولم يصبح الاحد  
يوم الرب قبل القرن الثاني . وكانوا يشتركون جميعاً في عشاء واحد مرة  
في الاسبوع او اكثر ، فيستمعون لقراءة الاسفار وينتهون بعد العشاء بقيلة  
الهيئة « الأعبّة » . وكان على المؤمن ان يمتنع عن التقبيل اذا شعر باللذة .  
وكان على المؤمنات ان يسترن شعورهن بغطاء او ان يقصن شعورهن  
اذا استقلن الغطاء . وكانوا اذا اجتمعوا للصلاة استمعوا لقراءة الاسفار  
وللعظة الاسبوعية واشتركوا في ممارسة الاسرار وتنبأوا رجالاً ونساءً .

*Adv. hear III : (propter potentiores principallitem)*

*Epître 65,4 : (principatum)*

وكان الكاهن او احد المتقدمين بينهم يفسر هذه النبوءات على ضوء الدين والحلاص . وقيل انتهاء القرن الثاني اتخذت العبادة المسيحية شكلاً منظماً مع ما في ذلك القراءات والصلوات والذبيحة الالهية . وبقي هذا النظام معمولاً به على سبيل العرف حتى صاغه القديس باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩) والقديس يوحنا الذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧) ، قبلور واخذ شكله الحالي . وثمة خدمة خاصة يومية الاربعاء والجمعة في اثناء الصوم يعود الفضل في اعدادها الى القديس غريغوريوس الذيالوغوس (٣٤٠ - ٤٠٠) . ونجد المسيحيين الاولين يقولون بالامرار الثلاثة : المعمودية والتناول والكهنوت ، فالسبعة : المعمودية والمسحة والتناول والتوبة والكهنوت والزيجة والزيت المقدس . وعني المسيحيون الاولون بالموتى لانهم قالوا بقيامة الجسد فمارسوا طقوساً معينة لهذه الغاية وتولى الاكايروس الدفن باشراف منهم .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان المسيحيين الاولين كانوا مثال التقوى والصلاح ، وان الايمان بالمسيح وبقرّب عودته ليدين الاحياء والاموات كان اعمق اثرأ في نفوس اهل ذلك العصر من الايمان بالآلهة القديمة ، وان الرسل بلغوا النجاح حيث اخفق كبار الفلاسفة . وبما يجدر ذكره بهذه المناسبة ان الآباء المؤسسين حرّموا الاجهاض وقتل الاطفال . وانهم لموا اللقطاء وعمدوم باسم الرب وربوم على نفقة الكنيسة . وانهم حضوا المؤمنين على العفة والبتولية واسبغوا الزواج لمن خشي العنت فقط . وانهم لم يرضوا عن زواج الارامل ولم يأذنوا بالطلاق الا بين الوثني والنصرانية . وبما يثبت استقامة المسيحيين الاولين وصلاحهم شهادات الوثنيين انفسهم . فبلينيوس الاصغر وجد نفسه مضطراً ان يقول للامبراطور تريانوس ان المسيحيين عاشوا عيشة مثلية مسالة . وقال غالينوس العالم انهم توصلوا الى درجة من ضبط النفس وممو الاخلاق اصبحوا بعدها لا يقولون عن الفلاسفة الحقيقيين في شيء . وادى الشعور بينهم بالحطيئة وبقرّب انتهاء العالم ومجيء

الديان الى رغبة في الطهارة والى اجتناب كل لذة من لذات الجسد .  
فكبحوا شهواتهم بالصوم ورياضة الجسم على العذاب ، وصدفوا عن الموسيقى  
والماكل الشهية والحمامات الساخنة ، وارسلوا الشعور واللمحى .

**آثار المسيحيين الاولين :** وحدثت السيد ولم يدون . وآثر المسيحيون  
الاولون السماع على القراءة ، ولا عجب . بيد ان ظروف التبشير قضت  
بالتدوين . فالؤمنون تفرقوا منذ السنين الاولى وتباعدوا . واليونانيون  
وغيرهم ممن دخل في الدين الجديد لم يكونوا يفهمون الآرامية . فكان لا بد  
من التدوين . واقدم مادون انجيل متى . والانجيل لفظ يوناني معناه البشرى .  
ومتى عشائر يهودي تبع السيد واصبح احد الرسل الاثني عشر . ويستدل  
من اقوال بعض الآباء كإيريناوس ولاسبا بايباس ( ١٣٠ ) ان متى تولى  
تبشير اليهود ، فكتب انجيله لهم بالآرامية ، وذلك بينما كان بطرس وبولس  
يعملان في رومة ( ٥٠ - ٥٥ ) . وفي تضاعيف هذا الانجيل ما يدل على  
انه كتب لليهود . فهناك سند طويل يصل نسب السيد بداود الملك ،  
وتمة تفاصيل تجعل من سيرة السيد تكلمة لنبوءات التوراة وما الى ذلك .  
وقد ضاع الاصل الآرامي وبقيت ترجمته الى اليونانية .

وكان بطرس يجهد اليونانية ولا يعرف سوى الآرامية . فلما قضت  
الظروف بذهابه الى رومة وباقامته فيها استدعى اليه يوحنا الذي كان  
يدعى مرقس ليتوجم له بين الرومانيين وسكان رومة . ومرقس هذا هو في  
الارجح ابن مريم التي آوت المسيحيين في بيتها في القدس في السنة ٤٤  
بعد الميلاد . وقد يكون هو الذي اشير اليه في الاصحاح الخامس عشر من  
انجيل مرقس : « وتبعه شاب لابساً ازاراً على عريه فامسكه الشبان .  
فترك الازار وهرب منهم عريان » . وكان مرقس من يهود قبرص يتكلم  
اليونانية ويقراً ويكتب فالتحق بيوثابا وبولس . وبعد وفاة الاول أنتقل  
الى رومة ليعمل مع هامة الرسل . ودون سيرة السيد بطلب من اهل

رومة بين السنة ٥٥ والسنة ٦٠ وذلك كما سمعنا من فم بطرس بدون زيادة ولا نقصان . ويقول القديس بايلاس ان مرقس كتب جميع ما تذكره ، ولكن ليس بالترتيب الذي اتبعه السيد في اعماله واقواله . فبطرس الرسول تكلم بحسب ما دعت اليه الحاجة ودونما تقيد بتسلسل الاحداث .

وفي السنة ٦٤ بعد الميلاد ساد الاوساط المسيحية الموجهة شعور بالحاجة الى سيرة مرتبة منظمة ، مكتوبة بلغة واضحة مضبوطة ، وباسلوب رائق جذاب ، يستهوي العقول ، وينشط الهمم . وكان بينهم رجل عالم ولد في انطاكية ، ونشأ فيها ، وتعلم الطب وعمل به ، فأشاروا عليه بالامر . فاطلع على ما كتبه متى ومرقس ، وسمع وتحرى . ولعله اتصل بالسيدة نفسها واخذ عنها . وكان قد رافق بولس في رحلاته وفهم منه اشياء واشياء . فجاء انجيله تاريخياً رسمياً ، واثراً اديباً . هو لوقا الطيب الذي اشار اليه بولس في رسائله مراراً . وكانت قد جاء رومة بصحبة معلمه فرأى هذا ان توجه الكلمة الى الاوساط العالية في رومة وان تحبب اليها . فظهر هذا الانجيل مجلته القشبية بين السنة ٦٤ والسنة ٧٠ بعد الميلاد . ومن هنا في الارجح قول القديس ايريناوس ان انجيل لوقا هو انجيل بولس . ويرى رجال الاختصاص علاقة وثيقة بين هذا الانجيل وبين سفر اعمال الرسل من حيث جوهر الرسالة واللغة والاسلوب ، فينسبون سفر الاعمال ايضاً الى لوقا الطيب . ولما كانت اخباره تنتهي عند السنة ٦٣ الى ٦٤ فأنهم يرون انه كتب في هذا الوقت نفسه .

ومن آثار هؤلاء المسيحيين الاولين رسائل بولس الرسول الى اهل رومية وكورنثوس وغلاطية وافس وفيلبي وكولوسي وثسالونيكية ثم رسائله الى تيموثاوس وتيطس وفيليمون . وجميعها دون ما بين السنة ٥٢ والسنة ٦٦ بعد الميلاد . وفيها الشيء الكثير من شرح رسالة السيد وتفصيل العقيدة . فاما الرسالة الى العبرانيين فقد تكون له وقد لا تكون . ومن

هذه الآثار التي تركها المسيحيون الاولون رسالة يعقوب اخي الرب  
واسقف اورشليم وهي تصور شدة ايمانه وسمو اخلاقه . ورسالتا بطرس  
الاولى والثانية ، ورسائل يوحنا الرسول الثالث ، ورسالة يهوذا .

ويُجمع علماء الكنيسة بفرعيها الرئيسيين الارثوذكسي والكاثوليكي على ان  
الانجيل الرابع هو ليوحنا الحبيب ويرون في دقة المعلومات الجغرافية التي  
وردت في هذا الانجيل عن القدس وفلسطين كما يرون في شدة العاطفة التي  
تضمنها نحو شخص السيد ما يؤيد التقليد الموروث ان كاتب هذا الانجيل  
وسفر الرؤيا هو يوحنا الحبيب نفسه . كتب سفر الرؤيا في اثناء اقامته  
الجبرية في جزيرة باتموس بين السنة ٩٢ والسنة ٩٦ وكتب الانجيل بعد انتقاله  
الى افسس بين السنة ٩٦ والسنة ١٠٤ . وكان يوحنا قد اشرف على نهاية  
عمر طويل وسمع انتقادات الفلاسفة ولس بعض الشذوذ في العقيدة فجاءت  
كتابته فلسفية مسيحية دون فيها ذكريات شخصية صدر فيها عن حب  
خالص للسيد . وما زالت عباراته المملوءة حبا وعطفاً تهز القاريء حتى  
يومنا هذا . « وهو ايضاً الذي اتكأ على صدر السيد وقت العشاء وقال :  
يا سيد من هو الذي يملكك ؟ » وهو ايضاً ذاك الذي قال عنه يسوع مخاطباً  
بطرس : « ان كنت اشاء انه يبقى حتى اجيء فماذا بك ؟ »

هذا وليس لدينا من آثار هؤلاء المسيحيين الاولين اثر مادي سوى ما حفظته  
جدران مدافن رومة من صور الصلبان والحمام وجدوع النخل وغصون الزيتون  
والاسماك وجميعها يعود الى القرن الثاني . وليس بينها ما يستوجب الايضاح  
سوى السمكة . وهذه كانت تذكر في الاوساط المسيحية الاولى بالآية :  
« يسوع المسيح ابن الله المخلص . » وتفسير هذا مرده الى العبارة اليونانية :  
**Iesous Christos Theou Uios Soter** فمجموع الحروف الاولى من هذه الكلمات  
اليونانية يشكل اللفظ اليوناني **i - ch - th - u - s** ومعناه السمكة .

## الفصل الثالث

### الدولة الساسانية

( ٢٢٤ - ٣٠٢ م . ب )

تمهيد : ونظراً لترامي اطراف المملكة السلوقية من الهند الى سواحل بحر ايجة صعب ضبط شؤونها . فنهضت ولاياتها الأناثية واعلنت استقلالها . فاستقلت الهند اولاً بزعامة تشندراغوبته في السنة ٣١٧ قبل الميلاد اي بعد الفتح الاسكندري بعشر سنوات فقط . ثم استقلت فارس وما يليها بزعامة الامير الفرقي السكيثي أرساس الاول في السنة ٢٥٥ قبل الميلاد . ولا نعلم الشيء الكثير عن هذه الدولة الفرقية اذ تكاد مراجعنا الاولية تنحصر في ما تبقى من نقود ملوكها . وحدث ما وصل اليه رجال الاختصاص هو ان هؤلاء الفرت كانوا ايرانيين كسائر العناصر الايرانية لا يختلفون عنها بشيء الا بيداوتهم وفروسياتهم وشجاعتهم المتناهية في الحرب . وماشى ملوك الفرت غيرهم من ملوك عصرهم في تقبل المدينة الملينية فتكثروا بالالاقب اليونانية واستعملوا اللغة اليونانية في سك نقودهم . فوصف متراداتوس الاول وبعض خلفائه انفسهم بالالاقب نفسها التي تلقب بها زملاؤهم ومعاصروهم في انطاكية والاسكندرية . وهنا تجب الملاحظة ان

الشعب والحكومة تكلموا بالهوية وكتبوا بها وبالآرامية . وامتدت سلطة ملوك الفرت من الفرات حتى الهند ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندي . واشهر ملوك الفرت أرساس الاول ( ٢٥٥ - ٢٤٧ ق . م ) وارساس الثاني والثالث ( ٢٤٧ - ١٩٦ ق . م ) ومثراداتوس الاول ( ١٧٤ - ١٣٦ ق . م ) ونخسرو او ارساس الخامس والعشرون ( ١٠٧ - ١٢١ ب . م ) وآخرم ارتبان الخامس او ارساس الثلاثون ( ٢١٥ - ٢٢٦ ب . م ) .

قيام الدولة الساسانية : وكان نظام الحكم في الدولة الفرتية اقطاعياً في اسسه يرتكز على زعامة بعض الاسر وعلى عبودية الشعب . وكان بين هذه الاسر بنو دارياف او أرخشطر الذين حكموا مقاطعة فارس من اصطخرأ . وكانوا محافظين مستمسكين بتقاليد فارس القديمة مؤثرين لغتها واللغة الآرامية على اليونانية كما يستدل على ذلك من نقودهم . وفي السنة ٢١٢ بعد الميلاد قام باباغ احد اشرف هذه المقاطعة بثورة محلية اوصلته الى الحكم فيها . وقام ابنه اردشير في السنة ٢٢٤ بعد الميلاد بثورة كبرى وواقع ارتبان الخامس آخر ملوك الفرت في الثامن والعشرين من نيسان من تلك السنة نفسها في هورميرزداغان فتغلب عليه ودخل طيسفون عاصمة ملكه منتصراً . ولم يمض وقت طويل حتى دانت له مقاطعات الفرت جميعها : ميديا وسيستان وخراسان ومرجيانة وأرية . واعترف بسيادته الكوشان في افغانستان والبونجاب . فأسس بذلك الدولة الساسانية نسبة الى ساسان احد الاجداد واتخذ لنفسه لقب شاهنشاه وتعريبه ملك الملوك . وكان يدعى بالآرامية ملكان ملكه . ولا تزال النقوش القائمة بالقرب من اصطخر كتنش وجب ونقش وستم تظهر لنا اردشير المؤسس يتسلم سلطته من اكبر الآلهة اهورا مزدة . ولا تزال نقراً على نقوده الباقية هذه

العبارة : « خادم مزدة » .

وهكذا تميزت الدولة الساسانية الجديدة منذ بداية عهدها بتمسكها بالدين القومي وتعاونها مع رجاله . والدين القومي هذا هو دين مزدة او زورواستر ( زرادشت ) قال بنزاع دائم بين الخير والشر وبوجود فئة من الكائنات الصالحة تقاومها فئة اخرى من الكائنات الشريرة لتفسد عليها عملها . ومثل الخير في هذا الدين شخص الهي مزدة او اهرومزدة ومعناه رب الحكمة وكان يحيط به ملائكة اعظمهم النور مئراس . ومثل الشر فيه اهريمان الشيطان . وكان على كل انسان ان يختار احد أمرين اما ان يملأ نفسه من الصلاح والنور او ان يقيم في الشر والظلام . واي الامرين اختار فقد كان لابد له من دينونة في المستقبل . وزورواستر مؤسس هذا الدين عاش حوالي السنة الف قبل الميلاد وطاف يبشر الشعب الايراني بديانته اعواماً عدة . وحافظ على احترام النار الآرية كرمز محسوس للصلاح والنور . وأوصى بالمحافظة على ابتقادها بحيث لا تنطفئ .

وانتظمت امور كهنة مزدة في عهد الدولة الساسانية فكان بينهم الكاهن العادي « ألموغان » . وكان على عدد من هؤلاء في كل مقاطعة رئيس دعي « موباذ » . وكان على كل هؤلاء بدورهم رئيس اعلى اطلق عليه لقب « موباذان موباذ » . وكان بين اعمال اردشير الاول مؤسس الدولة ان تفع كتاب الحكمة الالهية « الفيسنة » (الزند) . وجمع ابنه وخلفه شابور الاول مجعاً دينياً نفع الشرائع الدينية واقراها واوجب العمل بها . وكان القول المأثور بين رجال الفرس آنثذ ان الدولة والكنيسة شقيقتان لا تفصلان ، فلا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة . وأصبح واجباً لازماً على الشاه ان يتسلم تاجه من يد زميله الكبير رئيس كنيسة الدولة الموباذان مباد .

وعظمت شوكة الشاه الساساني ففاقت سلطة زميله الارماني . وبقي

النظام الاقطاعي سائداً في البلاد وبقي النفوذ الاعلى في يد سبع عائلات اقطاعية من الاشراف كما كان الامر في عهد الارمانيين . ولكن هذا النفوذ وذاك الاقطاع أصبحا خاضعين خضوعاً تاماً لمشئة الشاه . وضبطت ادارة الولايات وأصبح حكامها المرابزة خاضعين لتفتيش متصل من قبل الحكومة المركزية . وكان يجب على الشاه الساساني الايراني النزعة ان يحكم بلاده من اصطخر المدينة الايرانية ، ولكن علاقته السياسية قضت عليه بانخاذ نقطة اقرب الى حدوده الغربية فعاد الى طيسفون العاصمة الارمانية وجعلها مقراً له وقاعدة لحكمه .

وادعى اردشير مؤسس الدولة انه متحدر من هكافيش صدر الامرة المالكة الاولى وجد قورش الاول ، وزعم ان له حقاً في حكم جميع آسية الغربية ومصر لانها خضعت جميعها لقورش وخلفائه . ولا تزال نقرأ حتى ساعتنا هذه في الكارنامه البهلوية والشاهنامه الفردوسية ان الساسانيين احفاد لداريوس ، فلا غرو اذا رأينا هؤلاء يجاربون رومة وريثة الاسكندر وخلفاءه ليسترجعوا ما اغتصب منهم اغتصاباً .

وعني الساسانيون بالحيل عناية فائقة جاءت في طبيعة الامور لان اواسط آسية موطن الحيل وبلاد الدروع والنصال . وأصبح جيشهم جيش خيالة في قلبه وجناحيه . ولم يدربوا المشاة ولا نظوم ولا سلحوم باكثر من توس من الجلد . وكان تكتيكهم في غالب الاحيان يقوم على حشد خيالة القلب حشداً متراصاً بقوة وعلى دفع هذا الحشد في هجوم متواصل خاطف غايته غمر مراكز العدو منذ اللحظة الاولى . وكانوا يجتاطون دائماً بحفظ قوة من القبلة في ساقه الجيش يدفعون بها الى نقاط معينة في الجبهة عند الحاجة . وكان الفارس الساساني يرتدي درعاً من الحديد او البرونز تغطي جسده بكامله ، ويلبس حصانه مثل هذه الدرع (التجايف) . اما تركيب هذه الدروع فمن قطع مستطيلة من الفولاذ او البرونز طول الواحدة منها عشرون

سنتيمترًا وعرضها خمسة . ويعلو هذه الدروع عند العنق زيتق من الحديد او البرونز يغطي العنق والرأس . ثم تعلق هذه كلها خوذة من الحديد مزينة باوشحة من الحرير الملون . وكان الفارس الساساني يستعين بقناة طولها متران وسيف طويل وقوس ونشاب وقأس فولاذية يعلقها في طرف خوذته الى وراء . وتدل بقايا بعض هؤلاء الفرسان في الصاحية عند الفرات ان حماثلهم كانت مرصعة باليشب الصيني . وكان القائد الساساني قبيل بدء القتال يذهب الى اقرب ماء فيسكب فوقه قليلاً بما يحمل من الماء المقدس ثم يرمي النبله المباركة . وعلى الاثر يصفّ جيشه للقتال ويأمر بالنقض في الناي الفارسي والناداة بالعباره البهلوية « مرد و مرد » ، ومعناها « رجل لرجل » . وكان يتكرر هذا القتال الفردي قبل التحام الجيشين . وكان الجيش يسي جنداً ، كل جندي يتألف من عدد من الدرفشات ، والدرفشة من عدد من الفشتات . وكان على رأس كل جندي ، جند سالار .

وقدّر لشابور الاول ( ٢٤١ - ٢٧٢ ) ابن اردشير الاول ان ينتصر على رومة اكثر من مرة . ففي السنة ٢٥٣ بعد الميلاد طرد تيريداتس الثاني ، ملك أرمينية وعميل رومة ، من بلاده ، وأقام محله اميراً خاضعاً لسيادة فارس . ثم كسر فاليريانوس الامبراطور في السنة ٢٦٠ عند الرها وأسرّه . ثم تابع الفتح فدخل انطاكية وطرسوس وقيصرية قبديقية ، ولكنه لم ينجح من ضربة مؤلّه سددها اليه أمير تدمر العربي أذينة بن حيران . أما فاليريانوس الذي اسره شابور عند الرها ، فقد لقي حتفه اسيراً عند الفرس . وقام من اسره معه من الجنود باعمال عمرانية في فارس اشهرها جسر جند شابور . وظهر ماني ودعوته ، وكثير اتباعه ، فشغل شابور وبعض خلفائه عن محاربة رومة . وانهمكت رومة في متاعب اخرى كما اوضحنا فبقي الفرات رديحاً من الزمن وهو الحد الفاصل بين الدولتين . ماني ودينه الجديد : هو ماني بن بابك ولد في « ماردين من اعمال

بابل ، في السنة ٢١٥ بعد الميلاد . وتلقى وحياً لأول مرة في الثالثة عشرة من عمره ثم في الخامسة والعشرين ابي السنة ٢٤٠ بعد الميلاد . وعلم وبشر في طيسفون اولاً وخص شاور باحدى رسائله الاولى . وقال بسبيين اصلين : النور والظلام ، وبظروف ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . والنور والظلام عند ماني كائنان مستقلان منفصلان منذ الازل . ولكن الظلام غزا النور في الماضي وأصبح بعض النور بمتجأ بالظلام وهذه هي حالة عالمنا في الحاضر . ثم يخلص ماني الى القول ان لا بد من تنقية النور من هذا الظلام كي يعود النور والظلام الى الانفصال التام كما بدأ . والله هو سيد عالم النور والشيطان سيد عالم الظلام . وعندما غزا الظلام النور لم يستطع سيد النور ان يستعين بالفرانيق الخمسة : الفهم والعقل والفكر والتفكير والارادة لان هذا الغزو كان مفاجئاً لما فذعرت واضطربت .

فخلق سيد النور ام الحياة التي ولدت الانسان وسلّمه بالعناصر الخمسة : النور والريح والنار والماء والهواء ليستعين بها في محاربة الظلام . هذا بعض ما قاله ماني عن الماضي . فاما في الحاضر فان قوى النور بحسب عقيدته قد ازسلت النبيين بوذا وزورواستو ثم يسوع وهو أمّ الجمع . والعالم عنده ينتهي في المستقبل بثوران هائل وسقوط عظيم . فيصعد الصالحون في الفضاء الى اعلى ، والاشرار يهبطون الى ظلام دائم . ويرى رجال الاختصاص الذين وفقوا الى درس ما بقي من رسائل ماني في تركستان وفي كتاب الفهرست لابن النديم وفي اوراق البردي في مصر ان المانوية تفرعت عن المسيحية لا الوثنية وخصوصاً لان ماني اعترف بصحة الاناجيل الاربعة ورسائل بولس الرسول ، وقال انه البارقليس المنتظر .

وانتظم المانويون في «كنيسة» واحدة مؤلفة من طبقتين المنتقين المصطفين والمستمعين . وكان على رأسها بادىء ذي بدء رسل اثنا عشر ثم تلاميذ ستون ثم اساقفة وكهنة وشمامسة وراهبان . وكانوا يجتمعون في كل احد

للصلاة والترتيل وقراءة الاسفار . وقد انتشرت تعاليم ماني في بابل اولاً ثم في سورية وفلسطين والعربية ومصر وافريقية الشمالية . وكان بين الذين آمنوا بها القديس اوغوستينوس الشهير فانه واظب على درسها والعمل بها تسع سنوات متواليات . وانتشرت المانوية في فارس واوراسيا . وسكت عنها شاوور الاول لرحابة صدره واتساع افقه . ولكن كنهة مزدة قاوموا هذه التعاليم مقاومة شديدة فاضطر ماني ان يغادر فارس الى الكشمير فتركستان فالصين .

وتوفي شاوور الاول في السنة ٢٧٢ وتوفي ابنه وخلفه هورمزد الاول في السنة ٢٧٣ وتولى العرش بعدهما بهرام الاول فظن المانويون ان سينتج لمعلمهم ان يعود الى وطنه ويعيش بامان وحرية . ولكنه اعتقل وحوكم وصلب وسلخ جلده وحشي قساً في السنة ٢٧٥ بعد الميلاد .

**بهرام الثاني :** ( ٢٧٦ - ٢٩٣ ب . م ) وأهم اخباره انه كان شجاعاً نشيطاً فحارب رومة في عهد كاروس الامبراطور ولكنه غلب على امره فترجع امام الرومان حتى طيسفون . وتوفي كاروس فجأة فتهقر الرومان بدورهم ولكن بهرام لم يستطع استغلال الموقف لاندلاع ثورة في ولاياته الشرقية اشعلها اخوه هورمزد . فصالح الرومان في السنة ٢٨٣ على ان يستولوا على ارمينية وما بين النهرين وهبوا الى خراسان ينازل اخاه فأخضعه وعين ابنه ولي عهده بهرام والياً محله ومنحه لقب « ساغان شاه » . وكانت قد جرت العادة فيما يظهر ان يلقب ولي العهد ملكاً على آخر ما اقتتخ من الممالك او على أهم الولايات .

**بهرام الثالث ونمى الاول :** ( ٢٩٣ - ٣٠٢ ب م ) وتولى العرش بعد بهرام الثاني ابنه بهرام الثالث ولم يطل ملكه فيما يظهر اكثر من اربعة اشهر . فأنت نمى عمه الاكبر وابن جده شاوور الاول اغتصب الملك اغتصاباً . ودخل نمى في حرب ضد رومة فاحتل ارمينية وتوغل في

سورية الشمالية ولكن ديوقليتيانوس الامبراطور أمدهً غلاريوس القيصر بالسلاح والرجال فانتصر على نومي انتصاراً باهراً في ارمينية وأمر حرم الشاه واولاده ثم قابض الزحف حتى استولى على طيسفون العاصمة في السنة ٢٩٦ بعد الميلاد . وارسل نومي معتمداً من قبله اهربان يفاوض الرومانيين في انطاكية . وأرسل ديوقليتيانوس السكرتير الامبراطوري سيقوروس بروبوس يفاوض ويوقع . فتم الاتفاق على الاعتراف بسلطة الشاه في ما بين النهرين وبجماية رومة على ارمينية . وجعلت نصيين مركزاً للعلاقات التجارية بين الامبراطوريتين .

## الباب الثاني أصل الدولة ومنشأها

•

### الفصل الرابع قسطنطين الكبير والقسطنطينية

قسطنطين الاول الكبير: هو قسطنطين بن قسطنديوس كلوروس Constantius Chlorus من زوجته هيلانة . ولد في نيش من اعمال يوغوسلافية حوالى السنة ٢٨٠ بعد الميلاد . وقد اختلف في اصل والدته . فهي اما اناضولية بلقانية ، في بعض المصادر ، او سورية رهوية ، في البعض الآخر . نشأ قسطنطين في نيقوميذية في حاشية الامبراطور ديوقليتيانوس والتحق بالجيش في الخامسة عشرة من عمره . وأظهر شجاعة وبأساً وحسكة ودراية فرقي الى رتبة قائد في الثامنة عشرة . وكان ان استقال ديوقليتيانوس وتولى غلاريوس مكانه ففصل قسطنطين عن الجيش وابقاه في معبته لتعلق الجند به واستبسالم في سبيله ، ولتخوفه بما قد ينتج عن هذه السيطرة على الجند . ويروى ان غلاريوس حاول اهلاك قسطنطين ، فأمره بمصارعة اسد مرة ، وجبار من السرامنة مرة اخري ، ولكن قسطنطين نجح من المختين . ثم استدعاه والده قسطنديوس قيصر فالتحق به . وكان قد تولى الحكم في

غالية واسبانية وبريطانية .

وكان قسطنطين طويل القامة ضخيم الجثة يمتليء البدن سمين الاطراف كبير العينين عابساً مقطباً ثابت العقد ماضي العزيمة . ولكنه كان في الوقت نفسه سهل الانقياد كثير التخلي . وكان واسع الخلق رحب الصدر حلیم الطبع ولكنه يجمع الى ذلك سرعة البادرة وشدة الغضب . وجاء ايضاً انه كان متواضع النفس وشديد الكبرياء في آن معاً .

اخباره الاولى : وأراد ديوقليتيانوس الامبراطور ان يجعل جلوس الامبراطور امراً مديناً لا علاقة له بالجيش . فجعل للدولة الرومانية امبراطورين وجعل لكل منهما قيصراً يعاونه في الحكم ويحل محله عند الوفاة او اعتزال الوظيفة . وطبق هذا النظام الجديد . فجعل مكسيميانوس امبراطوراً يشاطره الحكم . وحكم هو الشرق متخذاً نيوميديا قاعدة له ، وحكم مكسيميانوس الغرب وجعل قاعدته ميلان . ثم نصب غلاريوس قيصراً بحكم ايليرية واليونان ومقدونية واقام قسطنديوس كلوروس ابا قسطنطين قيصراً حاكماً على غالية واسبانية وبريطانية . فلما استقال الامبراطوران ديوقليتيانوس ومكسيميانوس في السنة ٣٠٥ تولى الحكم بعدهما بموجب النظام الجديد كل من غلاريوس في الشرق وقسطنديوس في الغرب . وعين الامبراطوران الجديدان قيصيرين جديدين سويروس على ايطالية وافريقية ، ومكسيميانوس على سورية ومصر .

ثم توفي قسطنديوس الامبراطور الغربي في السنة ٣٠٦ في يورك من احوال بريطانيا . فبعث ابنه قسطنطين بالنظام الجديد وأعلن نفسه قيصراً على غالية واسبانية وبريطانية . ولم يرض الحرس في رومة عن غلاريوس فنادوا بمكسنتيوس بن مكسيميانوس امبراطوراً . وعادت شهوة الحكم الى قلب مكسيميانوس الوالد المستقبل ، فأعلن نفسه امبراطوراً ايضاً . وأصبح للدولة الرومانية اباطرة ثلاثة وقيصرة ثلاثة . وثار جنود سويروس عليه فقتلوه . فعين

غلاريوس قيصرأً جديداً محله يدعى ليكينيوس . وقُبض على مكسيبانوس في مرسلية في السنة ٣١٠ فقتل بامر قسطنطين في السنة ٣١١ وتوفي غلاريوس في هذه السنة نفسها من مرض المٌ به . ثم زحف قسطنطين على ايطالية وقهر مكسنتيوس في تورينو في السنة ٣١٢ فارتد هذا الى رومة . فلحق به قسطنطين ودحره مرة ثانية في ساكسة روبرة عند الصخور الحمراء . وغرق مكسنتيوس في نهر التير . فلم يبق في الميدان سوى قسطنطين وليكينيوس . فحكم الاول الغرب وحكم الثاني الشرق . ثم شجر الخلاف بينهما في السنة ٣١٤ فاضطر ليكينيوس ان يتنازل عن ايليرية ومقدونية وآخية لقسطنطين . واستأنف الامبراطوران القتال في السنة ٣٢٣ فانكسر ليكينيوس في ادرياتوبل وخلقيدونية واستسلم في نيوميذية . فأمر قسطنطين بقتله، فقتل في السنة ٣٢٤ . وهكذا أصبح قسطنطين حاكم الامبراطورية الفرد .

موقفه من النصرانية : والشائع الذي دونه المعاصرون<sup>٢</sup> هو ان قسطنطين في شفق ليلة من ليالي حربه ضد مكسنتيوس في خريف السنة ٣١٢ شاهد فوق قرص الشمس الجائحة الى المغيب صليباً من نور مكتوباً عليه « بهذا تغلب<sup>٣</sup> » وان السيد ظهر له في اثناء تلك الليلة حاملاً هذه الشارة نفسها موصياً اياه بانخاذاها راية يهجم بها على العدو . وتتن هذه المصادر ايضاً على ان قسطنطين استدعى اركانه عند فجر اليوم التالي وقص<sup>٤</sup> عليهم ما رأى وأمر بانخاذا الصليب شعاراً . وراية قسطنطين هذه التي اصبحت فيما بعد راية دولة الروم كانت تتألف من صليب نسدل من عارضته الاقنية قطعة من الحرير المزركش بالذهب المرصع بالحجارة الكريمة

١ *Saxa Rubra* وهي *Primaporta* الحالية .

٢ *Lactantius, De Mortibus Persecutorum; Eusebius, Constantini, I, 38-40.*

٣ هكذا في الاصل اليوناني وفي المراجع اللاتينية : *IN HOC SIGNO VINCES*

*Labarum.* ٤

تحمل صورة قسطنطين وولديه ويعاود الصورة اكيل من ذهب في وسطه  
مونوغرام السيد المسيح .

وبما جاء في المصادر المتأخرة ان قسطنطين تقبل مسرّ المعمودية بعد  
انتصاره على مكسنطيوس في السنة ٣١٢ نفسها . ويرى العالم الافرنسي جول  
موريس الاختصاصي في المسكوكات البيزنطية القديمة ان لا بد لقسطنطين  
ان يكون قد تعمد آتئذٍ لظهور مونوغرام السيد المسيح على مسكوكاته  
ولاهتمامه وعنايته بالنصارى بعد ذلك ولاسباب اخرى لا مجال لذكرها هنا  
فلترجع في مظانها<sup>١</sup> . ويرى غير هذا العالم من رجال الاختصاص ايضاً ان  
دليله ضعيف وان المراجع الاولية قليلة غامضة وان قسطنطين بقي وثيقاً  
طوال حياته وانه لم يتقبل النصرانية الا على فراش الموت<sup>٢</sup> .

براءة ميلان : وسواء تقبل قسطنطين المعمودية فور انتصاره على  
خصمه في رومة في السنة ٣١٢ ام على فراش موته فانه ما كاد يرتب امور  
رومة حتى انتقل الى ميلان في مطلع السنة ٣١٣ ليجتمع بزميله ليكينيوس  
وكان هذا قادمًا الى ميلان ليتزوج من قسطنديا Constantia اخت  
قسطنطين . وبقي الامبراطوران شهرين كاملين يشتركان في ميلان في افراح  
العرس ويتشاوران في امور الدولة .

وكان غلاوريوس الامبراطور قد اصدر قبيل وفاته في السنة ٣١١ براءة  
صفح فيها عما سلف للمسيحيين من مخالفات لاوامر الدولة واقرحتهم الشرعي  
في ممارسة دينهم : « وللمسيحيين ان يستمروا في الوجود وان ينظموا  
اجتماعهم شرط الا يخلتوا بالنظام . وعليهم بناءً على تسامحنا وتعطفنا ان  
يصلوا الى المهم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم<sup>٣</sup> . » ورأى

*Maurice, Jules, Constantin le Grand, 30-36.*

١

*Vasiliev, A.A., Byz. Emp., 48.*

٢

*Lactantius, De Mortibus Persecutorum, 34 : 4-5.*

٣

*Eusebius, Historia Ecclesiastica, viii, 9-10.*

الامبراطوران المجتمعان ان يشددا في تنفيذ هذه البراءة . فكتب كل منها الى عماله بوجوب السهر على التنفيذ . ولدى عودة ليكينيوس الى نيقوميذية كتب الى حاكمها في الثالث عشر من حزيران سنة ٣١٢ ان يبيح للسيحيين ولنفيهم ايضاً العبادة كما يشاؤون وذلك ليصبح كل انسان حراً في امر عبادته<sup>١</sup> . ورد للسيحيين الابنية والكنائس التي كانت قد صودرت من قبل . وفي خريف السنة ٣١٥ أحيا قسطنطين اوامر اسلافه الاباطرة فحرّم التبشير باليهودية والدعاية لها<sup>٢</sup> . ثم بعد سنة وجد نفسه في ميلان مرة اخرى لينظر هذه المرة في امر الدوثائين فيحكم عليهم . وفي اول اذار من السنة ٣١٧ نلقاه في سرميوم في ابليرية يعلن ابنه كريستوس وقسطنطين الاصفر قيصرين وذلك في الوقت نفسه الذي اعلن فيه زميله ليكينيوس ابنه ليكينيانوس قيصرأ ايضاً . ونراه يتقبل بهذه المناسبة الحرفين اليونانيين «خي» و«ايوت» ، فيأمر بنقشها على خوذته في النقود الصادرة عنه . وهذان الحرفان هما مونوغرام السيد المسيح باليونانية . وفي السنة ٣٢٦ بعد تغلبه على زميله ليكينيوس نراه يتخذ لنفسه علم البأروم الشهير المشار اليه آنفاً فيظهر على رأس هذا العلم المونوغرام المسيحي المذكور .

مجمع نيقية : وعلى الرغم من هذا كله استمرت سياسة الدولة الرومانية الدينية هي نفسها التي اقرت في ميلان سنة ٣١٢ سياسة تسامح وتساوي بين جميع الاديان . واستمر الامبراطور قسطنطين حبر الدولة الاعظم يعي جميع الاديان بالتساوي والتسامح . وهكذا نراه يعلن لجميع الرعايا بعد انتصاره على خصمه ليكينيوس انه وان يكن قد انتصر بمعونة اله المسيحيين فانه

*Lactantius, op. cit. 43, 4-8; Eusebius, op. cit. X, 5, 6-9.*

١

*God. Theod., XVI, 18, 1.*

٢

لا يُكره احدًا ان يذهب مذهبه وان لكل من رعاياه ان يتبع الرأي الذي يراه<sup>١</sup>.

واختلف الاجبار المسيحيون في هذه الآونة واختصوا. واتصل خلافهم بالتساوسة والرهبان والافراد. فاضطر قسطنطين الكبير ان يتدخل في الامر لانه كان حبر الدولة الاعظم ورأسها فمن واجبه ان يحافظ على الامن وحرية العبادة ثم انه كان يعطف على النصرانية ويعترف بفضل اله النصرى كما اثرتنا. وكان قد سبق له مثل هذا عند ظهور الدوناتية في افريقية. ولكن الانشقاق الذي ادى الى تدخله الشخصي هذه المرة كان اشد خطراً بما لا يقاس بما حدث في ولاية افريقية. فانه حادث هدد السلم في الولايات الشرقية. وتقصيل الامر ان آريوس Arius احد قساوسة مصر وراعي كنيسة بوكاليس فيها قال بخلق الابن وخلق الروح القدس فانكر بذلك الوهية المسيح واثار عاصفة هوجاء من الانتقاد والاحتجاج شملت العالم المسيحي بكامله. ولسنا نعلم الشيء الكثير عن آريوس هذا. نجهد على ولادته وتاريخها كما نجهد تقاصيل فلسفته الدينية. وقد ضاعت رسائله ولم يبق منها الا مقتطفات يسيرة جاءت في بعض الردود عليه ولاسيما ما كتبه القديس اثناسيوس الكبير. ولولا تعلق المؤرخ يوسيبوس به لما حفظت رسائل قسطنطين عنه. وقد يكون لما اورده القديس امبروسوس اهمية خاصة لانه اطلع فيما يظهر على تقارير الاسقف هوسوس الذي انتدب للتحقيق في قضية آريوس قبيل انعقاد المجمع المسكوني الاول.

وهال قسطنطين امر هذا الانشقاق. وكان يجلئ اسقفاً اسبانياً يدعى هوسيبوس وهو الذي سبق ذكره. وكان هذا شيخاً جليلاً محترماً. فأستدعاه قسطنطين اليه وانفذه الى الاسكندرية ليُنصل بجبرها الكسندروس

*Eusebius, Vita Constantini, II, 48-60.*

ويصلح الحال . وكتب الى كل من الكسندروس وآريوس فيها بوجوب التآلف ونبد الحصام . وألح الى وجوب طاعة الرئيس كما اشار الى ان الاختلاف العقائدي امر فلسفي دقيق لا يستوجب ذلك الاهتمام . ولكن هوسوس اخفق في الاسكندرية وعاد الى نيوميذية . وقصد اليها كل من الكسندروس وآريوس . واقترح هوسوس عقد مجمع مسكوني يضم جميع اساقفة النصرانية للبت في قضية آريوس . فقبل الامبراطور اقتراحه ووجه الدعوة الى جميع الاساقفة في الامبراطورية الرومانية جاعلاً تحت تصرفهم وسائل النقل الرسمية . وعين نيقية مركز الاجتماع بدلاً من نيوميذية عاصمة الدولة الموقرة لانحياز اسقف نيوميذية الى آريوس ولمطف قسطنديية عليه .

ولبى الدعوة عدد غير قليل من الاساقفة ، مثنان وخمسون في رواية يوسيلبيوس ، ومثنان وسبعون في رواية افسيناثيوس ، وثلاث مئة في رواية اثناسيوس القديس ، وثلاث مئة وثمانية عشر في رواية القديس هيلاريوس . وكان معظم هؤلاء من الولايات الشرقية . ودامت جلسات المجمع سبعة وتسعين يوماً بين العشرين من ايار سنة ٣٢٥ والخامس والعشرين من آب من السنة نفسها . وجلس افسيناثيوس بطريرك انطاكية الى يمين الامبراطور وكان قد اشتهر بعلمه ورسائله وتقواه ، فافتتح المجمع بكلمة شكرٍ رفعها الى الامبراطور وبين فيها فضله على النصارى . وقام قسطنطين فألقى كلمة باللاتينية ترجمت الى اليونانية اشار فيها الى جمال الدين المسيحي مستشهداً ببعض اخبار السيد مؤكداً تعلقه بمشيئة رب السموات . ثم طلب الى المجتمعين ان يعودوا الى الكتب ليوحدوا الصفوف . وخرج من المجمع تاركاً الاساقفة في خلوة للعمل . فتشاوروا برئاسة احداهم ، ولعله الاسقف هوسوس صديق الامبراطور . وظل قسطنطين يتابع اعمالهم عن كثب . وفي الخامس والعشرين من تموز دعاهم الى حفلة في قصره في نيوميذية

لمناسبة انقضاء عشرين سنة على تسلمه الحكم . فاستقبلهم فيها حرس  
الامبراطور مقدمين السلاح .

واستمع الاعضاء الى شكوى الكسندروس الاسكندري ثم الى موقف  
آريوس من الثالث كما ظهر هذا الموقف في رسائله . فأيد آريوس عشرون  
اسقفاً وخالفه الباقون . وأقر الاعضاء دستور ايمان عدل في الجمع الثاني  
فاصبح دستور ايمان المسيحيين اجمعين ولا يزال كذلك . وهو يسند الى  
الكسندروس واثناسيوس الاسكندريين وهوسيوس الاسباني . ونظر الجمع  
في مسائل اخرى كسألة عيد الفصح والمعمودية . وسنّ عشرين قانوناً اهمها  
ما تعلق بنظام الكنيسة . فخصّ القانون الرابع على ان الاسقف الواحد  
يجب ان يشترك في اختياره جميع اساقفة الابرشية . فان كان هذا مستصعباً  
لضرورة قاهرة او لبعده المسافة فلا بد من اجتماع ثلاثة معاً بعد اشتراك  
الثلاثين في التصويت وموافقتهم كتابةً . وحيثئذ يعملون الشرطونية . اما  
تثبيت الاجراءات في كل ابرشية فنوط بالمتروبوليت .

وجاء في القانون الخامس : « لقد رأينا حسناً ان تعقد مجامع في كل  
ابرشية مرتين في السنة لكي تُبحث امثال هذه المسائل باجتماع عمومي  
من جميع اساقفة الابرشية . » وقضى القانون السادس : « بان تكون السلطة  
في مصر وليبية والمدن الخمس لاسقف الاسكندرية لان هذه العادة مرعية  
للاسقف الذي في رومة ايضاً . وعلى غرار ذلك فليُحفظ التقدم للكنائس  
في انطاكية وفي الابرشيات الاخرى . » وجاء في القانون السابع : « انه  
جرت العادة والتسليم ان يكون الاسقف الذي في ايلية ( اي اوروشليم )  
ذا كرامة . فلتكن له المتبوعية في الكرامة . »

وأيد قسطنطين هذه القرارات وأمر بوجود تنفيذها والخضوع لها  
ونفى من الاساقفة كل من امتنع عن الموافقة عليها . ونفى الاب آريوس  
ايضاً . ومنح الاكايروس المسيحي والارامل مبالغ محددة

كانت تؤخذ من دخل المدن لا من موازنة الدولة . ووهب الكهنة الضمانات نفسها التي كان يتمتع بها الكهنة الوثنيون . واهتم قسطنطين في هذه الآونة نفسها ، ولاسيما السنين ٣٢٥ و ٣٢٦ ، للضعفاء فمنع تفريق عائلات الارقاء عند اقتسام الاراضي وحرّم مطالبة الكولوني باكثر من طاقتهم كما حرّم مشاهد المصارعة المؤلمة . وأمر بهدم بعض المعابد الوثنية التي اشتهرت بفسقها ، ومنها هيكل عشتروت في افقا لبنان . فقد جاء في ترجمة حياة قسطنطين ليوسيبوس المؤرخ ما تعريه : « لما استوى قسطنطين على منصة الملك رقب من سمو عرشه ما نصبه ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة معبداً تحديق به غيضة . وكان المعبد قد اقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة يتوارد اليه البعايا واهل التجور . فأضحى بذلك اشبه بماخور منه بمعبد ديني . ولم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل اليه ليتحقق صحة ما تناقلته الالسن . بيد ان قسطنطين وقف على حقيقة الامر فرأى من اخص واجباته ان يقوِّض اركان ذلك الزون النجس . فأمر عماله بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامه ويتلفوا ما حمل اليه من الهدايا النفيسة . فأرسلت الى افقا فقة من الجند نفذوا اوامر الملك ولم يبقوا ولم يذروا . وكان ذلك في السنة ٣٢٥ . اما سكان افقا فأمروا بان يبارحوا مساكنهم فأستوطنوا بعلبك<sup>١</sup> . »

القديسة ميلانة : وفي مطلع السنة ٣٢٦ قام قسطنطين الى رومة ليحتفل فيها كما احتفل في نيوميذية بعينه العشرين . وأصدر في الثالث من شباط قانون الزنى وارده في اول نيسان بقانون الحطف والاعتصاب وبقانون زواج اليتيم . ولعله حرّم السراري على المتزوجين في هذه الآونة

ايضاً . ورأت زوجته فاطمة ان تستغل محافظة زوجها على الآداب والاخلاق فاهمت كريسبوس ابنه من ضربتها ، وكان قد بلغ العشرين من العمر ولمع في ميادين القتال ، بمحاولة الاعتداء على عفتها . فأمانه والده مسووماً . ثم أتهمت هي بدورها بالحياة وكانت لا تزال وثنية تشابه في صورتها الجانية والدها مكسيميانوس ، وكان قسطنطين يكرهه ، فأمر قسطنطين باماتتها هي ايضاً خنقاً بجمام ساخن .

وكانت والدته القديسة هيلانة قد استقرت في رومة وتمتعت بلقب اوغوسطة واثرت ثراء كبيراً . فعزمت في السنة ٣٢٦ على القيام برحلة الى فلسطين للتبرك بزيارة الاماكن المقدسة . وغادرت رومة في اواخر الصيف واتجهت شطر فلسطين بجرأ . وكان قسطنطين قد فاوض مكاريوس اسقف اوروشليم في اقامة كنيسة لاثثة بالسيد في جلجثة في اوروشليم تكون افضل الكنائس . فأستعنت القديسة الاسقف على اتمام هذا العمل . فتم البناء في السنة ٣٣٥ . وكان قد سبق للنصارى ان اقاموا في القرن الثالث بناء مشتمن الاضلاع والزوايا فوق الكهف الذي ولد فيه السيد في بيت لحم ، فأضافت الى هذا المشن بازليقة فضبة . وفعلت مثل هذا عند كهف الصعود . وعند انتهاء هذا القرن الرابع بدأ النصارى يتناقلون خيراً مؤداه ان القديسة هيلانة ، بعد تقنيش دقيق وعناء شديد ، وجدت ثلاثة صلبان في جلجثة ، وانها أحببت ان تتعرف الى صليب السيد منها فلمست بها جسد مريض شاب وانتقت منها ذلك الذي شفى المريض . ولدى عودتها اذابت بعض مسامير الصليب في معدن خوذة قسطنطين الاول والآخر في لجام حصانه كما انها وزعت عود الصليب على كنائس عدة .

آويوس ثالية : ولم يتمكن الجمع المسكوني من استئصال بذور الشقاق فالآريوسيون كانوا كثيراً تؤيدهم قسطنديا اخت الامبراطور . ويقول المؤرخ صوزومينوس ان قسطنديا اوصت اخاها وهي على فراش

الموت بكاهن آريوسي كان قد أصبح معلم ذمتها وان هذا الكاهن قدم يوسيبوس الآريوسي اسقف قيصرية الى قسطنطين الامبراطور فتسكن الاسقف من اقناع الامبراطور انه لا فرق بين ايمان آريوس. وايمان المجمع وان الامبراطور اعاد آريوس من منفاه وارسله في السنة ٣٣٠ الى الاسكندرية<sup>١</sup>. وعاد الآريوسيون الى العمل فعدوا مجعاً في انطاكية في السنة ٣٣٠ وقطعوا افسيناثيوس بطريرك انطاكية وغيره وتقوم بامر قسطنطين . وقام آريوس الى الاسكندرية فمنعه بطريركها اثناسيوس الكبير من الدخول اليها . فأتهمه الآريوسيون بالتعاون مع مُطالب بالحكم على مصر وبدفع الضرائب اليه . فأضطر اثناسيوس ان يقصد القسطنطينية للدفاع عن نفسه . فأصغى قسطنطين اليه وعفى عنه وسمح له بالعودة الى الاسكندرية . وفي السنة ٣٣٣ عقد الآريوسيون مجعاً في قيصرية فلسطين ودعوا اثناسيوس اليه فلم يحضر . ثم اعدوا الكرة في السنة ٣٣٥ فعدوا مجعاً في صور فدعوا اثناسيوس فحضر فقطعوه . فأستأنف جبر الاسكندرية قرارهم ، فأمر قسطنطين بانعقاد مجمع في القسطنطينية في السنة ٣٣٦ . وفاز الآريوسيون باغلبية المقاعد فصك هذا المجمع على اثناسيوس فنفى الى فرنسا<sup>٢</sup> . وأصر آريوس على العودة الى الاسكندرية ولكن الاسكندريين لم يقبلوا به فأمره الامبراطور ان يجدم الامرار في القسطنطينية . فأعرض استقفا الكسندروس فأكرهه على ذلك اكرهاً . ومات آريوس في السنة ٣٣٦ وظلت قضيته قائمة حتى السنة ٣٩٥ كما سيجرى بنا .

القسطنطينية : وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقائه

*Sozomenis, Hist. Eccl. II, 16-17, III, 13.*

١

*Gwatkin, Studies on Arianism, 57, 96.*

*Theodoretus, Hist. Ecc. ;*

٢

*Socrates Scholasticus, Hist. Ecc.*

في الشرق اكثر من الغرب . فالقبائل البربرية التي كانت تهدد حدود الدولة في اوروبه كانت تتأثر كثيراً بمحركات القبائل الضاربة في مراعي روسية الجنوبية ، والامسة السامانية التي كانت قد اعادت الى فارس نشاطها وطموحها كانت قد بدأت تطمع في ولايات رومة الشرقية . وكانت هذه الولايات الشرقية قد احتفظت بنشاطها الاقتصادي فكانت تؤدي الى الحزينة مبالغ عظيمة من المال تقوق بكثير ما كانت تؤديه الولايات الغربية . وكانت ولايات البلقان تقدم افضل الرجال للجيش . ولمس قسطنطين هذا كله فرأى ان لا بد من انشاء عاصمة جديدة في الشرق تسهل الدفاع عن الدانوب والفرات وتضمن الطمأنينة اللازمة لابناء الولايات الشرقية . فاراد في البدء ان يجعل مسقط رأسه نيش عاصمة للملكة . ثم اتجهت نظاره نحو صوفية Sardica وئيسالونيكية . ورأى بعد ذلك ان طروادة احق بالشرف من هذه جميعها لانها كانت موطن الجياورة ومقط رأس الرومانيين الاولين الذين اسوا رومة . وقام اليها بنفسه وخطط العاصمة الجديدة فيها وفي ضواحيها وانشأ الابواب الرئيسية ولكنه تراءى له في حلم ان لاله يأمره بالتفتيش عن محل آخر فوق اعخياره على بيزنطة<sup>١</sup> .

وكانت بيزنطة مستعمرة يونانية قديمة أسسها ابناء ميغارة Megara في السنة ٦٥٢ قبل الميلاد للتجار محبوب روسية الجنوبية ومعادن جوض البحر الاسود ومسايد البوسفور . وقامت بيزنطة هذه على رأس نائيء في البحر عند اول فجوة داخله في ساحل البوسفور الاوروبي . وكانت هذه الفجوة على شكل هلال مائي داخل في الارض عشرة كيلومتوات ولذا اسمه المتأخر « القرن الذهبي » . واتخذت بيزنطة شكل الرأس الذي عليه

*Sozomenis, Hist. Ecc. II, 3.*

*Piganiol, A., Emp. Chretien, 49.*

فأصبحت مثلثاً تحمي المياه جانبيين من جوانبه الثلاثة، ويحمي جانبه الثالث سور قوي لا تتحكم فيه أية مرتفعات مجاورة .

وجاء في التقليد ان الامبراطور المؤسس عندما بدأ بتخطيط العاصمة الجديدة أمسك ربحاً بيده وطاف حول بيزنطة وأطال الطواف ، فقال له رجال الحاشية : متى تقف يا سيد ؟ فأجاب : عندما يقف هذا الذي يسير امامي .

وشاع بين القوم ان قوة سماوية كانت ترشده سواءً السيل<sup>١</sup> . والواقع ان قسطنطين لم يقف الا بعد ان ادخل في تخطيطه كل التلال السبع التي ضمها الرأس بين بحر مرمره والقرن الذهبي . واختار قسطنطين الجزء الجنوبي الشرقي من بيزنطة فانشأ فيه قصره الامبراطوري . وجعل من الساحة المستطيلة التي وقعت الى الشمال الغربي من هذا القصر ساحة عمومية رئيسية دعاها الاوغوستايوم Augustaeum ، اي ساحة اوغوستوس فغطى ارضها بالمرمر واحاطها من جميع جوانبها بالمنشآت العامة . واقام الى غربي ساحة اوغوستوس الملعب الكبير Hippodromus الذي أصبح فيما بعد مسرحاً للسياسة ولجميع ظواهر الحياة العامة في العاصمة . فكان يشمل فيما شمل الكاتيسمة Kathisma ، اي لوج الامبراطور . وكان العرش العظيم الذي اقيم في وسط هذا اللوج هو المكان الذي يطل منه الامبراطور على شعبه في غالب الاحيان . وازدان هذا الملعب بمسلة فرعونية أحضرت من مصر وبالثعبان النحاسي ذي الرؤوس الثلاثة الذي صنعه بوسانياس هيكل دلفي بمناسبة الانتصار على الفرس في بلاطية (٧٩ ق. م) وبالعمود البرونزي المربع . وانشأ قسطنطين بالقرب من هذا الملعب والى شرقيه بناء صغيراً جعله نقطة الانطلاق لبعده المسافات في جميع انحاء العالم الشرقي ودعاها المليون Million . وكان هذا المليون يشبه الهياكل ويقوم سقفه على سبعة اعمدة وبداخله

تمثال للامبراطور وتمثال آخر لوالدته هيلانة . وخص قسطنطين المسيحيين  
بكنيسة كبيرة اسمها كنيسة الحكمة الالهية Hagia Sophia . ولم تكن  
هذه كنيسة الحكمة الالهية الحالية بل كانت بازيليقا احترقت مرتين  
فاندثرت . واقام قسطنطين في هذه المنطقة نفسها مجلساً للشيوخ وقصراً  
للبيروك .

ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة . وربما كان  
ذلك بين السنة ٣٢٨ والسنة ٣٢٩ ولكننا نعلم ان تدشينها جرى في  
الحادي عشر من ايار سنة ٣٣٠ وان الاساقفة النصارى باركوا القصر  
واقاموا صلاة خصوصية في كنيسة الحكمة .

ودعا قسطنطين عدداً من شيوخ رومة القديمة وعدداً كبيراً من كبار  
الاغنياء في بلاد اليونان وآسية للاقامة في العاصمة الجديدة . واغرى آلافاً  
من رجال الفن والصناعة والتجارة للفرص نفسه . ووزع القمح والزيت  
مجاناً على السكان . وخصص القمح الذي كان «يجي» من مصر للعاصمة الجديدة .  
وجعل قمح قرطاجة لمؤونة العاصمة القديمة . وأصدر أمراً منح بموجبه المدينة  
الجديدة لقب «رومة الجديدة» ولكن الشعب اطلق عليها اسم القسطنطينية<sup>١</sup> .  
ولا يختلف اثنان في ان نقل العاصمة الى هذا المقر الجديد كان في حد  
ذاته عملاً تاريخياً عظيماً لانه اعطى الدولة الرومانية حصناً منيعاً تصد فيه  
قتصد هجمات البرابرة وتحفظ تراثاً مديناً كبيراً ولانه أمدد النصرانية  
بعاصمة تتطلق منها الى جميع الجهات ، لاسيا وان رومة كانت لا تزال

*Maurice, J., Origines de Constantinople, Paris, 1904 ;*

*Brehter, L. , Constantin et la Fondation de Const., Rev. Hist., 1915, 238;*

*Emereau, G. , Notes sur les Origines de Const., Rev. Arch. 1925, 1 - 25.*

او مان: الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، الفصل الاول ص ٣ - ١٣ .

حصن الديانة القديمة وانها بقيت وثنية الى وقت طويل<sup>١</sup> .  
 الادارة : ونهج قسطنطين في اصلاح الادارة الطريق نفسه الذي  
 سلكه ديوقليتيانوس . ففصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وقوى  
 الحكومة المركزية وحصر سلطتها العليا في شخص الامبراطور . ولم يكن  
 هذا الاتجاه في الاصلاح ابن ساعته . فسويتونيوس المؤرخ الروماني يقول  
 ان كاليكيولا الامبراطور ( ٣٧ - ٤١ ب . م ) كان على استعداد تام لتقبل  
 التاج وان الامبراطور هيلوس جيلوس الحمصي لبس التاج في ظروف  
 خاصة وان اورليانوس ( ٢٧٠ - ٢٧٥ ب . م ) زين رأسه بالتاج في المواقف  
 الرسمية واتخذ لنفسه لقب الاله في نقوشه الرسمية وعلى نقوده<sup>٢</sup> . ويرى رجال  
 الاختصاص ان الاباطرة نقلوا رأيهم هذا في الحكم عن البطالسة والسوقيين  
 ثم عن الساسانيين في ايام ديوقليتيانوس وقسطنطين .

وليس لدينا من النصوص الاولية ما يحولنا التبسط في وصف الادارة  
 كما انشأها ديوقليتيانوس وأقرأها قسطنطين . والمرجع الاولي الاسامي في هذا  
 الموضوع هو لائحة رسمية<sup>٣</sup> بوظائف البلاط والادارة والجيش وباسماء  
 الولايات ظنها المؤرخون السابقون من مخلفات القرن الرابع فاعتمدها في  
 اجرائهم . ولكن النقد الحديث يجعلها من بقايا القرن الخامس لا الرابع .  
 وعلى الرغم من هذا يجوز القول ان حكومة الدولة الرومانية في عهد  
 قسطنطين الكبير كانت قد اصبحت حكومة مطلقة الصلاحية تستمد سلطتها  
 من قوة الجيش المرابط ومن محافظتها على الانظمة الموروثة ومن احترامها  
 للقانون . وكان على رأس هذه الحكومة امبراطور متجلبب بعظمة شرقية

*Uspensky, Th. Hist. of Byz. Emp. I, 60-62.*

١

*Deus et Dominus Aurelianus Augustus; Homo, L. Règne de l'Empereur Aurelien, 191-193.*

٢

*Notitia Dignitatum.*

٣

يعلو رأسه التاج ويردّي جسمه الأرجوان . وقد اعتزل قومه وعظم قدره وغشيت جلالتة الابصار فغشعت امامها العيون وتضاعرت عندها المهم لا يقوم بين يديه الا كل منتهب ناكس مطرق . وجمع الامبراطور في شخصه شقي السلطة المدنية والعسكرية وأصبح مصدر التشريع كما اصبحت اوامره التفسيرات الوحيدة لما يصدر عنه من تشريع . ولما كانت جميع امور الدولة في عرف الرومان تخضع لسيطرة الحكام كان الامبراطور بطبيعة الحال رئيس رجال الدين ايضاً وخبيراً من احبارهم . وجاء على رأس الادارة المدنية مجلس استشاري اعلى<sup>٢</sup> مؤلف من رؤساء دوائر الدولة من رئيس الحصيان اقرب المقربين الى الامبراطور<sup>٣</sup> ومن قومس الاحسان والانعام<sup>٤</sup> وقومس الاملاك الخاصة<sup>٥</sup> ومن قسطنطين القصر المقدس<sup>٦</sup> امين القوانين ومن رئيس ديوان الرسائل<sup>٧</sup> . وكان هذا يشرف على الكتبة والبريد والحرس ودور الصناعة والشرطة . وكان بين هؤلاء رجال الامن العام<sup>٨</sup> .

وكان الامبراطور ديوقليتيانوس قد اقصى الشيوخ عن ادارة الولايات وجعلها جميعها تابعة له وضاعف عددها ليقفل موارد حكامها واهميتهم فجعلها مئة وعشرين بدلاً من خمسين . وجعل على رأس كل منها رئيساً<sup>٩</sup> يشرف

<i>Pontifex Maximus.</i>	١
<i>Consistorium Principis.</i>	٢
<i>Praepositus Sacri Cubiculi.</i>	٣
<i>Sacrae Largitiones.</i>	٤
<i>Res Privata.</i>	٥
<i>Quaestor Sacri Palatii.</i>	٦
<i>Magister Officiorum.</i>	٧
<i>Agentes in Rebus.</i>	٨
<i>Praeses.</i>	٩

على ادارتها وينظر في دعاويها القضائية . ثم جمع بينها فجعلها اثنتي عشرة ذيقوسية : بريطانية وغالية واسبانية وافريقية وايليرية في الغرب ، ودافية ومقدونية وتراقية وآسية والبونط والشرق ومصر في الشرق . وجعل على رأس كل ذيقوسية نائباً يشرف على اعمال رؤساء الولايات وينظر في ما يُستأنف اليه من الدعاوى . وجرّد قسطنطين المدبر الروماني القديم البرايفيكتوس<sup>٢</sup> من صلاحياته العسكرية وجعل منه حاكماً مديناً اعلى . قسم الامبراطورية الى اربع برايفيكتورات : غالية وايطالية وايليرية والشرق . فشملت برايفيكتورة الشرق ذيقوسيات الشرق ومصر وآسية والبونط وتراقية . وشملت ذيقوسية الشرق ولايات فلسطين الاولى وفينيقية وسورية الاولى وقيليقية وقبرص وفلسطين الثانية وفلسطين الثالثة وفينيقية اللبنانية والفرات وسوريا الثانية والرها وما بين النهرين وقيليقية الثانية واسورية والعربية . ولا تزال اسماء هذه الولايات محفوظة في القاب احبار الكنيسة الارثوذكسية حتى يومنا هذا .

فمتروبوليت بيروت «مقام من الله على بيروت وتوابعها ، متقدم في الكرامة ، متصدر في الرئاسة على كل فينيقية الساحلية . ومثله متروبوليت طرابلس ، ومتروبوليت صور وصيدا . اما متروبوليت حمص فانه متصدر في الرئاسة على كل فينيقية اللبنانية . ومثله متروبوليت بعلبك ومتروبوليت دمشق . ومتروبوليت حماه متصدر في الرئاسة على كل سورية الثانية ، ومتروبوليت حلب على سورية الاولى . ومتروبوليت حوران على كل بلاد العرب الصحيرية<sup>٣</sup> .»

*Vicarius.*

١

*Praefectus.*

٢

٣ خدمة القديس الالهي ليوحنا القهي الغم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس القيلوغوس ،

ترجمة جراسيموس متروبوليت بيروت ، ص ٢٤٧ - ٢٥٠ .

وراقب رجال الامن العام الموظفين ورفعوا تقاريرهم الى رئيس ديوان الرسائل ولكن دون جدوى لان معظمهم كان بحاجة هو نفسه للمراقبة . وقضت قوانين الدولة بان يقام في كل مدينة او قرية كبيرة من يقتصد الفقراء في بؤسهم وينظر في امرهم<sup>١</sup> . وكان الاسقف المسيحي افضل من هذا وذاك ، لاسيا وان الامبراطور منحه حق النظر في بعض الامور برضاء الطرفين .

**الجيش :** واعلى ضباطه سيد الحياطة<sup>٢</sup> ، وسيد المشاة<sup>٣</sup> . وكان هؤلاء الاسياد اربعة في آخر ايام قسطنطين واصبحوا ثمانية فيما بعد . وكان عليهم ان يقودوا الجيوش وينظموا الحرب . وجاء بعد هؤلاء خمسة وثلاثون دوقاً يقودون قوات الحدود . وكان الجيش مؤلفاً من قوات ثلاث : قوة مرابطة على الحدود لا تحيد عنها ، وقوتين متحركتين . وكانت القوة المرابطة على الحدود<sup>٤</sup> يبرية الاصل تحرت ما أقطعت من ارض وتستغلها . وكان الابن فيها ملزماً ان يأخذ مكان ابيه . اما القوتان المتحركتان فانهما كانتا تحت تصرف الامبراطور ، الواحدة تدعى جماعة الرفقاء<sup>٥</sup> ، والثانية جماعة البلاط<sup>٦</sup> . وكان هنالك نوعان من الفرسان : نوع خفيف ونوع ثقيل . وكان الاول قديماً يعود الفضل في نشأته الى الامبراطور غالينوس الذي ألتق بالفرقة المجندة من المواطنين الرومان جماعة من الفرسان جُتد افرادها من حلفاء رومة ، ولذا الاسم فرسان الحلفاء<sup>٧</sup> .

<i>Defensores.</i>	١
<i>Magister Militum Equitum.</i>	٢
<i>Magister Militum Pedum.</i>	٣
<i>Limitanei.</i>	٤
<i>Comitatenses.</i>	٥
<i>Palatini.</i>	٦
<i>Auxilia.</i>	٧

وكان النوع الثاني احدث عهداً من الاول واثقل سلاحاً وقد انشئ على طراز الفرسان الفرس ودعي المدرع<sup>١</sup>. وكان معظم افراده من البرابرة من وراء الحدود.

**طبقات المجتمع:** ومنح الامبراطور كركلا حقوق الرومان المدنية لجميع سكان المدن في جميع انحاء الامبراطورية فأصبح كلهم مواطنين رومانيين منذ السنة ٢١٢ بعد الميلاد. ولكن هذا لم يعن التساوي بين جميع المواطنين. فبقي هنالك شرفاء ووضعا<sup>٢</sup>: شيوخ وفرسان وجنود لا تتلهم شدة القانون في العقوبات واكثرية ساحقة خاضعة لكل ما جاء في القانون من قساوة وشدة. وانتظم الشرفاء طبقات طبقات فجاء على رأسهم القناصل ثم البطارقة ثم المدبرون فأبناء الجنود والموظفين وقد عرف هؤلاء باللقب كلاريسي<sup>٣</sup> ثم الموظفون المستجدون في الوظيفة الذين استحقوا لقب «صاحب الافضية<sup>٤</sup>» او لقب «صاحب الكمال او البراعة<sup>٥</sup>». وانتظم سائر افراد الشعب طبقات وانحصروا فيها وأورثوها ابناؤهم من بعدهم. وجاء في طليعة هذه الطبقات طبقة الكوربالس<sup>٦</sup> اصحاب الاملاك المقيمين في المدن وامهات القرى الذين تربعوا في دست الحكم فيها جيلاً بعد جيل. واتسق التجار واصحاب المهن والحرف نقابات مقفلة موروثه. ولا يستبعد ان يكون اصحاب الفاقة بمن تتناول خبزه يوماً من مخازر الدولة<sup>٧</sup> قد اصبحوا في عهد قسطنطين طبقة موروثه ايضاً ومثله الكولوني

١ *Cataphracti* وهو لفظ يوناني مناه المدرع.

*Honestiores, Humiliores.*

*Clarissimi.*

*Eminentissimus.*

*Perfectissimus.*

*Curiales.*

*Proletarii.*

الأستاذة الكريمة

البحر المحيّر

الذين سبقت الاشارة اليهم في فصل سابق .

**الثقافة العامة :** وكان قد طال عهد الامبراطورية ودام ثلاثة قرون متتالية وظل الناس في اطرافها يتكلمون لغاتهم الخاصة غير عابئين باللاتينية او اليونانية . فالقديس ايريناوس الذي كان يجيد اللاتينية واليونانية اضطر ان يتعلم الغالية للتفاهم مع سكان المنطقة التي كان يعمل فيها . وتكلم سكان الجزر البريطانية اللغة الكلتية كما تكلم المور في افريقية لهجاتهم البربرية الخاصة . ولم يتكلم الفينيقية فيها سوى الطبقة العليا من السكان وسكان مالطة . وعلى الرغم من انتشار اللاتينية في ايليرية فان سكان هذه المنطقة احتفظوا بلهجتهم الخاصة التي تطورت فيما بعد فأصبحت اللغة الابانية . وظل الاقباط والآراميون والعرب والارمن محتفظين بلغاتهم الاصلية على الرغم من انتشار اليونانية واللاتينية في اوساطهم .

ومعظم الذين تكلموا اليونانية واللاتينية كانوا لا يزالون في عصر قسطنطين امين لا تهزم النصحى . ولم يتعلم الفصحى من هاتين اللغتين الا عدد قليل من الناس . وعني هؤلاء عناية خاصة بقواعد اللغة وبعلم المعاني والبيان وبدلوا قصارى جهدهم في حقل الخطابة . وكانت جامعة اثينة لا تزال تعنى بالفلسفة ، وكانت الفلسفة الراجحة الافلاطونية الجديدة القائمة بوحدة الوجود ، اي : ان الله والكون واحد وان الكون المادي منبثق من الله . واول من قال بهذا النوع من التوحيد ووفق بينه وبين فلسفة افلاطون نومانوس الفيلسوف ، وهو فيلسوف سوري ابصر النور في ابامية في القرن الثاني بعد الميلاد وتلقى علومه الفلسفية في الاسكندرية ثم اقام في اثينة مدة وعاد الى ابامية يعلم ويرشد . ويرى رجال الاختصاص اليوم

ان افلوطين ( ٢٠٥ - ٢٧٠ ب . م ) انما ادعى لنفسه بما كان لغيره<sup>١</sup> . واشهر من علم بهذه الفلسفة بعد نومانوس وافلوطين مالك البثني (٢٣٣ - ٣٠١ ) الذي درس العلم والفلسفة في صور ثم انتقل منها الى اثينة فأخذ عن فيلسوفها لونجينيوس السوري وترجم اسمه مالك الى اليونانية فعرف بالفيلسوف بورفيروس اي المتوشح بالارجوان المكي<sup>٢</sup> . واشتهر بعد بورفيروس في حقل الافلاطونية الجديدة بميلخوس<sup>٣</sup> البيطوري . ولد في خلقيس ( مجدل عنجر ) في سهل البقاع في لبنان وعلم فيها وتوفي في السنة ٣٣٠ بعد الميلاد . واشتهر بميلخوس بعدائه للنصرانية ودفاعه عن الوثنية وتطرفه في ذلك .

وأثر ابناء العائلات الرومانية الكبيرة درس القانون على غيره من العلوم . وأقبلوا عليه إما للحصول على وظيفة حكومية ، او للمعاماة امام المحاكم ، او لمجرد الاطلاع والتنقف . وادى اهتمامهم بالقانون الى الاعتناء بعلوم اللغة ولاسيما الخطابة والفصاحة ، والى الاطلاع على مبادئ الفلسفة . وعندما حلّ القرن الثالث بعد الميلاد كان عصر البحث والتنقيب والاجتهاد في القانون قد أشرف على النهاية ، وحلّ محله عصر الجمع والتنسيق . وكانت بيروت قد أصبحت مستودعاً هاماً للقوانين الرومانية ومركزاً خطيراً لدرس هذه القوانين وتدريسها . وكان قد لمع بين اساتذتها اميلوس بابنيانوس المحصي مستشار الامبراطور سبتيميوس سويروس ، ودوميتيوس اوليبانوس السوري<sup>٤</sup> في القرن الثالث . فقام غريغوريوس البيروتي بجمع

*Guthrie, K. , Numenius of Apamea, 96.*

١

*Porphyrus.*

٢

*Jamblichus.*

٣

*Aemilius Paçinianus, Domitius Ulpianus.*

٤

القوانين في السنة ١٢٩٥ . وجاء بعده هيرموغنيانوس بعمل العمل نفسه فيكمل مجموعة سلفه في السنة ٣٢٤ .

وكان هنالك طبقة من العلماء آثروا الاحاطة على التدقيق والتحقيق فصنفوا في المواضيع الجامعة العامة . ولعل ابرزهم في عهد قسطنطين كان يوسيبوس اسقف قيصرية فلسطين الذي توفي في السنة ٣٤٠ بعد الميلاد . وقد ألف في الدفاع عن النصرانية ضد تهجمات اليهود الوثنيين . وكتب في تاريخ الكلدانيين والاشوريين والعبرانيين والمصريين واليونان والرومان . واشتهر بمؤلفه تاريخ الكنيسة<sup>٣</sup> ( منذ ظهور السيد حتى استظهار قسطنطين على ليكينيوس ) الذي أصبح فيما بعد من اهم المراجع لتاريخ النصرانية في القرون الثلاثة الاولى . وقد يكون تاريخ قسطنطين الكبير له ، وقد لا يكون .

تنصره ووفاته : وفي السنة ٣٣٧ بعد الميلاد أعد قسطنطين العدة لمحاربة الفرس . ولكن هؤلاء فاضوه في الصلح قبيل عيد الفصح فاقف استعداده للحرب . واحتقل قسطنطين بعيد الفصح في الثالث من نيسان . ونالته الحمى ، فذهب الى مياه معدنية قريبة يستحم فيها . ثم انتقل الى هيلاتوبوليس فأقنيرة بالقرب من نيقوميذية . وكان يلزمه في اثناء هذا كله معلم ذمة اخته قسطنديا . وكان هو يود ان يعتمد في مياه الاردن كما فعل السيد نفسه . ولكن الوقت عاجله فقبل سر المعمودية عن يد يوسيبوس اسقف نيقوميذية . وخلع الارجوان والقاه جانباً وتردى

*Codex Gregorianus.*

١

*Codex Hermogenianus.*

٢

*Historia Ecclesiastica.*

٣

*Vita Constantini.*

٣

بالياس . وتوفي يوم العنصرة في الثاني والعشرين من ايار من السنة نفسها . ولم يكن احد من اولاده بالقرب منه . وحُطِّط جسمه ووضع في تابوت من ذهب ونقل الى القصر في القسطنطينية ليتقبل احترام الوجهاء . وجاء ابنه قسطنس قيصر من انطاكية ، فعرض جثمانه مكللاً بالتاج ملفوفاً بالارجوان في ابي قاعات القصر واجملها . ثم أمر بنقله بمكب فغم الى كنيسة الرسل حيث صلى الاكليروس عليه طوال الليل ودفن فيها في ثاوس من الرخام السماقي . وألته الشيوخ قسطنطين حسب العادة الرومانية وعظمه الشعب الوثني وعبدته امام تمثاله الذي نصب فوق عمود من الرخام السماقي في الفوروم ١ .

*Entropius, Breviarium Historiae Romanae, X, 8;*

*Grégoire, Conversion de Const. , Rev. Univ., Bruxelles, 1930-1991, 270;*

*Eusebius, De Laudibus Constantini, XVI, 3-5.*

## الفصل الخامس

### قسطنديوس الثاني ويوليانوس الجاحد

( ٣٣٧ - ٣٦٣ )

قسطنديوس : ( ٣٣٧ - ٣٦١ ) وتوفي قسطنطين الكبير عن ذكور ثلاثة جميعهم من زوجته فاوسطة بنت الامبراطور مكسيميانوس وهم قسطنطين الثاني وقسطنديوس الثاني وقسطنس. وحكم الثلاثة الامبراطورية معاً. فتولى قسطنطين الثاني القرب : ايطالية وغالية واسبانية وقسماً من افريقية . وتولى قسطنديوس الثاني الشرق بأكمله . اما قسطنس فانه حكم ايليرية وقسماً من افريقية . وطمع قسطنطين الثاني في ملك قسطنس فخاربه ولكنه خسر صريعاً في اكويلية سنة ٣٤٠ . ثم تمرد الجندي على قسطنس وقتلوه في السنة ٣٥٠ فأصبح قسطنديوس الثاني المالك وحده . وكان رجلاً عاقراً لا وارث له ، فأستدعى ابن عمه غالوس من منفاه ورفعته الى رتبة قيصر وأمره على برايفكتورة الشرق وجعل مقره انطاكية . ولكن غالوس هذا كان جافي الطبع فظّ القرب قليل الرحمة فطغى وتجبّر وأرهب الناس ارباباً . فأستدعاه ابن عمه الامبراطور اليه في ايطالية في السنة ٣٥٣ وحاكمه وأسر بقطع رأسه . وعندئذ طلب ابن عمه الاصغر يوليانوس وجعله قيصرأ على غالية .

شابور ذو الاكتاف<sup>١</sup> : وتوفي هرمز الثاني ابن نرمى في السنة ٣٠٩ بعد الميلاد وأوصى بالملك لشابور ابنه وهو لا يزال جنيناً. فدام السلم بين فارس وبين رومة زمناً طويلاً. وشب شابور الثاني وتسلم ازمة الحكم فهاه انتشار النصرانية وعطف قسطنطين عليها خصوصاً لأنها كانت قد انتشرت بين رعاياه في بابل وطيسفون وجند شابور واشور وغيرها ولان تيريداتس الثالث ملك الارمن كان قد تقبلها في السنة ٣٠١. فقطورت المحصومة بين شابور وزميله الروماني وأصبح النزاع بينها نزاع عقائد بعد ان كان نزاعاً مادياً إستراتيجياً كما سبق ان اشرنا. وهكذا فأننا نرى شابور يعقد مجمعاً زرادشتياً يضم ائمة الدين الفارسي في السنة نفسها التي عقد فيها قسطنطين الكبير المجمع المسكوني الاول فيقر نصاً رسمياً نهائياً لكتاب الفستا، ونراه ينزل بنصاري بلاده بين السنة ٣٤٠ والسنة ٣٧٩ اضطهادات قاسية واسعة النطاق لانهم دانوا بدين قيصر وشاطروه المحبة والعطف والولاء<sup>٢</sup>.

وكادت الحرب تقع قبيل وفاة قسطنطين الكبير في السنة ٣٣٧ كما سبق ان اشرنا. فقطع ذو الاكتاف الحدود في السنة ٣٣٨ وحاصر نصيين. ثم عاد اليها في السنة ٣٤٦. وفي السنة ٣٤٨ جرت موقعة ليلية في منطقة سنجار. وفي السنة ٣٥٠ طلب ذو الاكتاف نفرانوس السابع ملك ارمينية للمفاوضة فأمره ومضى به الى بلاده، ويقال انه سمل عينيه لانه كان نصرانياً مثل سلفه. وفي السنة نفسها مشى ذو الاكتاف الى نصيين للمرة الثالثة وشارف اسوارها مستعيناً بالفيلة التي استقدمها من الهند. ولكنه

١ « قصد اليامة واكثر في اهلبا القتل وغور مياه العرب وسار الى قرب المدينة وهمل كذلك وكان ينزع اكتاف رؤسائهم ويقتل، فسموه شابور ذا الاكتاف. - ابن الاثير ج ١، ص ٢٢٩، الطبعة المنيرية.

*Acta Martyrum et Sanctorum, II. 136, 143.*

اخفق مرة اخرى وارتد على اعقابيه لدرء خطر الشينين الذين تدفقوا على فارس من الشمال والشرق . وفي السنة ٣٥٥ جدد ملك أرمينية ارشاك الثالث ( ٣٥١ - ٣٦٧ ) التحالف الروماني الارمني وتزوج من اوليمياس خطيبة قسطنس السابقة . فأقضى ذلك مضجع شابور الثاني ذي الاكتاف واستفزه للحرب وخصوصاً لان عامله في بابل كان قد جرأه بما بالغ له في تصوير المشاكل التي كان يعانيها قسطنديوس الامبراطور في الغرب . وعبر شابور دجلة في جيش عظيم في السنة ٣٥٨ فتجاوز نصيين هذه المرة ولم يحاصرها بل زحف على آمد ( ديار بكر ) فاتخذها عنوةً بعد حصار دام شهرين . وكان قسطنديوس لا يزال في سيرميوم في إيليرية يعالج بعض المشاكل الدينية المسيحية ولاسيا علاقة الآب الابن فقام منها الى القسطنطينية وبقي فيها طوال شتاء السنة ٣٥٩ - ٣٦٠ . وفي ربيع السنة ٣٦٠ نهض من القسطنطينية لمجابهة الخطر الفارسي . ولدى وصوله الى قبدوقية سمع بخيانة ابن عمه يوليانوس فلم يكتوث لها لانه كان مجهل مواهب هذا الزميل الجديد . وكان شابور ذو الاكتاف قد استأنف الحرب فاحتل سنجار ثم اتجه منها الى بيت زبدي ( جزيرة ابن عمر ) على ضفة دجلة الغربية وحاصرها . فحاول قسطنديوس ان يفك هذا الحصار فلم يفلح . وسقطت بيت زبدي في يد الفرس في خريف السنة ٣٦٠ . واقبل فصل الشتاء فتوقفت الاعمال الحربية ولبت قسطنديوس في انطاكية وفيها احتفل بزواجه الثاني بعد وفاة يوسيبية زوجته الاولى .

وكانت حاشية قسطنديوس لا تزال توغر صدره على ابن عمه يوليانوس بينما خطر الفرس في الشرق يتعاضم ، فطلب الامبراطور الى ابن عمه القيصر ان يوافيه باحسن ما عنده من الجند للصدود في وجه الفرس . ويقال ان يوليانوس مال الى تلبية الطلب ولكن جنوده تمردوا احتجاجاً ونادوا به امبراطوراً في باريز في السنة ٣٦٠ . وكتب يوليانوس الى قسطنديوس

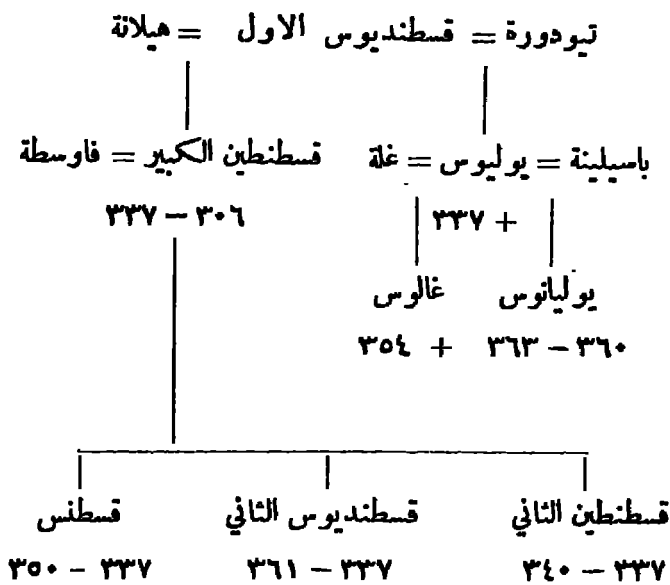
يرجو منه الاعتراف بما تم ولكن قسطنديوس اصرّ عليه ان يتنازل ويثبت الطاعة . فاضطر يوليانوس ان يزحف بجنده على الشرق . وسار قسطنديوس من انطاكية الى القسطنطينية فالغرب لمنازلة خصمه . ولكنه مرض وهو لا يزال في طرسوس ، واشتد الخطر على حياته فاعتمد بيد اسقف انطاكية الآريوسي افزويوس وتوفي على مسيرة يوم من طرسوس في الثالث من تشرين الثاني سنة ٣٦١ . واجمل ما يذكر عنه انه عندما اشرف على التلف اوصى بان يكون يوليانوس نفسه خلفاً له .

**الوثنية :** وأراد قسطنديوس الثاني ان يقضي على الوثنية فأمر باديء ذي بدء « بان يوضع حد للخرافات وبان يستأصل مرض تقديم الذبائح . » ثم أمر باقتال الهياكل وحظر تقديم الذبائح للالهة مهدداً من يخالفه بالموت وبمصادرة الاملاك . وكان ان احتقل في السنة ٣٥٧ في رومة بمرور عشرين عاماً على تبوئه العرش فطاف بآثارها ودخل الى مبنى مجلس الشيوخ وفيه مذبح لالهة النصر فأمر بهدمه ، فأدرك الشيوخ وغيرهم من اعيان الوثنية ان دين الاجداد قارب النهاية .

ولكن قسطنديوس كان آريوسياً متطرفاً فأعلنها حرباً على النيقاويين الكاثوليكين الارثوذكسين فاضطهد اثناسيوس الكبير بطريك الاسكندرية ونفى هوسيوس الاسقف . الاسباني صديق والده وهو في سن تزيد على المئة كما نفى ليباريوس بابا رومة لانه كان قد امتنع عن قبول مقررات مجمع ميلان ( ٣٤٥ ) .

**يوليانوس الجاحد :** ( ٣٦١ - ٣٦٣ ) هو يوليانوس ابن يوليوس ابن قسطنديوس الاول ( كلوروس ) . وهو اخو غالوس لايه لالامه كما كان والده يوليوس اخا قسطنطين الكبير لايه لالامه . فولادة قسطنطين

هيلانة ووالدة يوليوس تيودورة ووالدة غالوس غلّة ووالدة يوليانوس  
باسيلينة .



ولد يوليانوس في النصف الثاني من السنة ٣٣١ في ميسية على الدانوب .  
وما ان مضت بضعة اشهر حتى توفيت والدته فنقل الى القسطنطينية ونشأ  
في قصر لجدته في بر الاناضول لا يبعد كثيراً عن العاصمة . وفي السادسة  
من عمره اي في السنة ٣٣٧ شهد مقتل والده وجميع اقربائه ونجا هو  
واخوه غالوس باعجوبة فشب مضطرب العصب غير متزن . وتولى امره  
في هذه الفترة من حياته يوسيبوس الآريومي اسقف نيقوميذية ونسب  
والدته فوكل امر تهذيبه الى نخعي نصراني (مردونيوس) كان شديد  
الاعجاب بهوميروس الشاعر اليوناني . وتوفي يوسيبوس في السنة ٣٤١ ، فنفى  
قسطنديوس الاميرين الصغيرين الى قصر في قبدوقية على مسافة قريبة من  
قيصرية . اما غالوس فشب ثرساً احمق . واما يوليانوس فانه قضى ست  
سنوات يدرس ويطلع مؤلفات اعاره اياها كاهن نصراني . وفي السنة ٣٤٧

امر قسطنديوس بانتقال غالوس الى افسس ويوليانوس الى القسطنطينية .  
 واقام يوليانوس في عاصمة الدولة سبع سنوات احتك فيها بعالمين شهيرين  
 احدهما وثني والآخر نصراني ، وتعلم مبادئ اللاتينية . ورحب الجمهور بالامير  
 الصغير واکرمه فدخلت الريبة نفس عمه وأمر بنقله الى نيوميذية .  
 وكان ليبيانوس العالم الانطاكي ( اللبناني ؟ ) قد ترك مدرسة نيوميذية فلم  
 يتسنّ ليوليانوس ان يأخذ شيئاً عنه . ولكنه تابع الدرس في نيوميذية  
 وحلق رأسه كمن يريد ان يكون فيلسوفاً مسيحياً . وفي السنة ۳۵۱ رضي  
 قسطنديوس عن الاميرين فجعل غالوس قيصرأ واعاد الى يوليانوس ارثه فاصبح  
 غنياً . ورحل يوليانوس في طلب العلم فأتم يرغامون في آسية الصغرى  
 واتصل فيها باديسيوس Adesius الفيلسوف الافلاطوني الجديد وبتلميذه  
 خريسانطيوس Chrsantius الفيلسوف الفيناغوري . وتردد الى افسس فاتصل  
 بفيلسوفها مكسيموس وكان هذا يمارس ضروب السحر ، فوقع يوليانوس  
 تحت تأثير شعواته ، ودخل في زمرة اتباعه في كهف هيكاتية لالهة الشياطين  
 عند الافلاطونيين الجدد . وسمع شقيقه غالوس بهذا كله فاضطرب وارسل  
 اليه من انطاكية معلم ذمته ليرده عن الضلال . وكان ما كان من امر  
 غالوس واعدامه في السنة ۳۵۴ . ومثل يوليانوس بين ايدي الامبراطور  
 قسطنديوس في ميلانوليدافع عن نفسه فيما اتهم به من انه اجتمع بغالوس  
 في القسطنطينية . فشفت له الامبراطورة يوسيبية وأذنت له بالاقامة في  
 آثينة . فتوجه اليها بشغف شديد والتحق بجامعتها ثلاثة اشهر ، وذلك في  
 صيف السنة ۳۵۵ . وكان بين رفقائه فيها غريغوريوس النازيازي وصديقه  
 باسيلوس القديس . وبما قاله فيه غريغوريوس فيما بعد : انه كان تأه  
 النظر في آثينة احق السياء تفتابه رعشات عصبية من آن الى آخر ، وان  
 اميلته لم تكن منظمة او مرتبة .

وكان قسطنديوس يخشى تطلع العالمين الى الاستقلال . ولم يكن بإمكانه

ان يشرف بنفسه على امورهم لكثرة اشغاله ولشدة خوفه من شاور ومطامعه . فاستدعى يوليانوس اليه واطلمه على ما كان يخالج فؤاده ودفع به الى شفيعته الامبراطورة . فقالت هذه ليوليانوس : انت مدين لنا بالشيء الكثير وسيكون لك اكثر فاكثر بعون الله اذا كنت اميناً منصفاً . وكان يوليانوس قد التحى لحية الفلاسفة فأمر بها عمه فحلقت وارتدى يوليانوس لباس الامراء . وفي السادس من تشرين الثاني من السنة ٣٥٥ استعرض قسطنديوس الجند وامسك بيده يوليانوس وقال للجند : « انتم الحكم ! لقد طغى البرابرة على غالية واني اشرح يوليانوس قيصرأ ، فهل تقبلون ؟ » فصرخ الجند : « هذه هي مشيئة الله ! » وعندئذ وضع قسطنديوس التاج على رأس يوليانوس ووشحه بالارجوان . وشفع الجند عمله بان دقوا ركبهم بالتروس . ثم تزوج يوليانوس من هيلانة ابنة قسطنديوس وقام الى غالية . وبقي فيها ثلاث سنوات اظهر في اثناهما من الحزم والعدل والطف ما قتن الناس به واذاع صيته في الغرب والشرق معاً . وكان ما كان من أمر شاور ذي الاكتاف فقضت الظروف العسكرية بوجوب الاستعانة بافضل من في الغرب من جنود . على ان جنود يوليانوس آتروا المنادة به امبراطوراً وسارهم هو على الامر . وفي صيف السنة ٣٦١ مشى الى الشرق على رأس خمسة وعشرين ألفاً ، واحتل سرميوم ونيش . ثم علم بوفاة قسطنديوس وبما اوصى به فأسرع الى القسطنطينية ودخلها في الحادي عشر من كانون الاول سنة ٣٦١ .

**مياسة يوليانوس الداخلية :** وما كاد يوليانوس يجلس على اريكة القسطنطينية حتى أمر بتشكيل مجلس خاص لتطهير الادارة من ادران الحكم السابق . وتألف هذا المجلس من اخصاء الامبراطور العسكريين فحكموا بالاعدام على طائفة من رؤساء الدوائر المدنية والنفسي على غيرهم . وتناول مثل هذا التطهير القصر الامبراطوري . فطرد الامبراطور الجديد

عدداً كبيراً من الخدم والحشم ولاسيما الحصيان . و اراد ان يظهر بظهر جمهوري فعظم القناصل وجالس الشيوخ كأنه واحد منهم . وعلى الرغم من قلة النقد في الحزينة فإنه أمر بتخفيف ضريبة التاج التي كانت تجبى في مناسبة تبوء العرش .

موقفه من النصرانية والوثنية : وكان يوليانوس يرى في مصنفات علماء اليونان وفلاسفتهم ينبوع الثقافة كلها ، ويرى في فلسفتهم فلسفة عالمية تتعدى حدود اليونان الجغرافية فتشمل العالم بأسره . وكان يرى في مؤلفات فيثاغورس وأفلاطون ومبيليوخوس مؤونة فكرية كافية يستغني بها كل عالم عن كل قول فلسفي آخر . واستهواه مبيليوخوس اللبناني وسيطر على تفكيره فابتعد عن افلاطون ولم يهتد بهديه .

ويستدل من رسائله ولاسيما تلك التي جعل عنوانها « الملك الشمس » انه قال باكون ثلاثة او شمس ثلاث : الشمس الاولى شمس الحقائق الراهنة والمبادئ السامية والعلّة الاولى وهي التي ممتاها شمس النفس . والشمس الثالثة شمس المادة الملموسة وصورة انعكاس الشمس الاولى . وبين الاثنتين ، بين النفس والمادة ، شمس ثانية هي شمس العقل . ولما كانت الشمس الاولى بعيدة المنال وكانت الشمس الثالثة مادية غير صالحة للعبادة فإن يوليانوس عبد شمس العقل وممتاها الملك الشمس . واعتقد انه هو سليل الملك الشمس يهتدى بارشاده عن طريق رؤى معينة يتفضل بها عليه الملك الشمس بين حين وآخر . وقال بتناسخ الارواح على طريقة فيثاغورس فاعتقد انه هو الاسكندر في دور آخر .

وتبنى في رسائله « ما يؤخذ عن النصرانية » موقف بوفيريوس الفيلسوف الحوراني اللبناني ، فقال ان الاله جهوه اله التوراة هو إله شعب خاص لا إله الكون بأسره ، وانه هنالك تناقضاً بين التوحيد في التوراة والتثليث في الانجيل وان الانجيل الاربعة متنافرة غير متألّفة . وكره النصراني لانهم

كفروا بالالهة كما كره كل وثني لعن آلهة اجداده وجدف عليها .  
ولانعلم بالضبط متى أعلن يوليانوس نفسه وثنياً . وقد يكون ذلك في  
السنة ٣٦١ في نيش عندما علم بوفاة قسطنديوس وبوصيته . ففيها ذبح  
يوليانوس باسم الالهة ومنها كتب الى بعض اصدقائه . ولكن هذا لم يعن  
اضطهاد النصرانية . فانه عندما دخل القسطنطينية استدعى اليه مكسيموس  
الوثني كما استدعى القديس باسيليوس رفيقه في جامعة آثينة .

ومنح يوليانوس الشعب حرية المعتقد وسمح بعودة من نفي مضطهداً .  
فاغتتم الفرصة اثناسيوس الكبير وعاد الى الاسكندرية ولكن يوليانوس  
ما لبث ان اصدر في السابع عشر من حزيران من السنة ٣٦٢ قانوناً  
جديداً للتعليم حصر بموجبه تعيين الاساتذة بيد السلطة المركزية ومنع  
المسيحيين من مزاوله هذه المهنة « لانهم حرّموا درس النصوص الفلسفية  
القدية » . فانبرى كل من ابوليناريوس كاهن اللاذقية وابنه اسقفها لنظم  
التاريخ المقدس في لغة يونانية قشبية فصصى . فاخرجوا اربعمائة وعشرين  
قصيدة ضمنها اخبار التوراة منذ البدء حتى عهد شاوول . وحذا حذوها  
غيرها من الآباء . فتيسرت للنصارى نصوص يونانية فصصى استعاضوا بها في  
تعليم اولادهم عن النصوص اليونانية الوثنية .

وافرغ يوليانوس مجهوده في تذليل الاكليروس فنزع منهم امتيازاتهم  
وابطل ما كان قد أمر به قسطنطين الكبير من معونة لهم . وكان يقول  
مستهزئاً ان قصده من ذلك ان يقود المسيحيين الى الكمال بحملهم على  
اقتان الفقر الذي امر به الانجيل . وعرّى الكنائس وتقل تحفها الى هياكل  
الايوان .

في انطاكية : ودبّ النشاط في صفوف قبائل القوط في قطاع

الدانوب . وحسب يوليانوس لذلك حسابه . ولكنه آثر العمل في الشرق في جبهة الفرات لانه كان يعتقد انه هو الاسكندر في دور ثانٍ . فقام الى انطاكية في صيف السنة ٣٦٢ فوصلها في التاسع عشر من تموز يوم انتحاب العذارى على مقتل اذوثاي عشيق عشوتوت . وكانت ليبانيوس الفيلسوف الاديب قد عاد اليها ليعلم فيها اخوانه الانطاكيين ، فاستقبل الامبراطور الجاحد استقبالاً حاراً . ولكن انطاكية كانت قد اصبحت مسيحية . فحال يوليانوس اعراضُ اهله عن الدين القديم وقلة اكرائهم بها كل دفنة المقدسة . فقال في احدى رسائله الى الانطاكيين : « هوذا الشهر العاشر شهر لوس الذي تبتهجون فيه بعيد ابولون الاله الشمس . وكان من واجبك ان تروروا دفنة . وكنت انا اتصور موكبكم لهذه المناسبة شباناً بيضاً اطهاراً يحملون الحُجور والزيت والبخور ويقدمون الذبائح . ولكني دخلت المقام فلم اجد شيئاً من هذا وظننت اني لا ازال خارج المقام ، فاذا بالكاهن ينبئني ان المدينة لم تقدم قرباناً هذه المرة الا وزّة واحدة جاء بها هو من بيته<sup>١</sup> »

وأكرم يوليانوس ليبانيوس الفيلسوف الوثني ورقى عدداً من الوجهاء الى رتبة المشيخة فجعلهم اعضاء سناتوس انطاكية . وهب للمدينة مساحات كبيرة من اراضي الدولة . ولكن الانطاكيين المسيحيين قابله بالفزع ووجدوا في التقيضين : لحية الطويلة وقامته القصيرة ، بجالاً واسعاً لان يارسوا ما طاب لهم من ضروب العبث والسخر<sup>٢</sup> . وعبثاً حاول ليبانيوس ان يوفق بين الامبراطور وبين رعاياه الانطاكيين . ثم امتد الحلاف وتفاقم

*Julianus, Opera, II, 167; Wright, W. G., Works of Emp. Julian II, 487- ١*

4 89.

*Negri, G. Julian II, 430-470.*

الشر حين اخرج الامبراطور بقايا شهيد انطاكية القديس بايلاس من قبره في دفنة . فغضب المسيحيون لكرامتهم واحرقوا في الثاني والعشرين من تشرين الاول هيكل ابولون . فاقفل الامبراطور كنيسة انطاكية الكتدرائية وأمر بنهبها وتدنيسها . فكسر المسيحيون تماثيل الالهة وابتدوا الجند المسيحيون ان يسيروا تحت لواء الامبراطور الجاحد لمحاربة الفرس .  
وعلم يوليانوس ان يسوع تباراً بان لا يبقى من الهيكل في اورشليم حجر على حجر . فلكي يكذب الكتب اهتم لاعادة بناء الهيكل فارسل الى اورشليم احد امنائه إلييوس ليشراف على العمل . وتقاطر اليهود واجتمع عدد كبير منهم في مكان الهيكل . فحرقوا المكان وحفروا في الارض كباراً وصغاراً رجالاً ونساء . ولما انتهوا من هدم الاساسات القديمة واوشكوا ان يضعوا الاساسات الجديدة حدثت زلزلة هدمت الابنية المجاورة وقتلت بعض الفعلة وملأت الحفر تراباً .

الحرب الفارسية : ولم يسع شاور ذو الاكتاف للحرب هذه المرة بل فاض في سبيل السلم والوثام وبعث الرسل الى انطاكية . ولكن يوليانوس ابى ان يصغي اليهم واكتفى بالقول « قريباً تزوني » . واسترضى اليهود في مملكته طمعاً في ان يعاونه اخوانهم في فارس ، وحالف ملك ارمينية على الرغم من نصرانته . ونهض في ربيع السنة ٣٦٣ الى الفرات على رأس جيش مؤلف من خمسة وستين الفاً . وكان يود ان ينصب على عرش فارس هو رمزد اخا شاور وكان هذا لا يزال داخل الحدود الرومانية منذ السنة ٣٢٤ . وقطع يوليانوس الفرات على جسر من القواب . ولدى وصوله الى الحابور افرز ستة عشر الفاً بقيادة بروكويوس احد انسابه ليتجه بهم شرقاً عن طريق نصيبين ويتصل بالارمن الزاحفين شطر الجنوب .

واعطى بروكويوس في السر ثوباً ارجوانياً وعيته خلقاً له في حال  
الوفاة . وزحف هو بجاذي الفرات في طريقه الى بابل . وكان ذو الاكتاف  
قد اخطأ التقدير فحسب ان الجيش الروماني سينطلق من نصيبين ، فاتجه  
هو الى دجلة لمقابلة اعدائه . وتابع يوليانوس زحفه جنوباً ثم اتجه شرقاً الى  
دجلة واحتل سلوقية وواقع خصمه عندها فانصر عليه انتصاراً باهراً . واستأنف  
الزحف على طيسفون عاصمة سابور ، فبلغها وسابور لا يزال بعيداً عنها .  
وكانت طيسفون صعبة المنال فرأى يوليانوس ان يتصل بروكويوس  
والارمن قبل ضرب الحصار عليها . وفيما هو فاعل ضايقه الفرس في السادس  
والعشرين من حزيران بهجوم متتابع . وكان هو قد نزع عنه درعه من  
شدة الحر فاضطر فجأة ان يتقدم الى الصفوف الامامية لرد هجوم على  
مؤخرة جيشه فأصابه سهم في ذراعه عقبه نزيف شديد . وعبثاً حاول  
اطباؤه وقف النزيف فتوفي في منتصف الليل وهو يحدث صديقه الفيلسوفين  
مكسيموس وبريسكوس عن صفات النفس السامية العالية . وقيل ان  
فارساً مسيحياً من فرسانه رماه بهذا السهم للقضاء عليه .

## الفصل السادس

### ثيودوسيوس الكبير

(٣٧٩ - ٣٩٥)

خلفاء يوليانيوس : وتشاور رؤساء الجند في من يكون خلفاً ليوليانيوس ، فأجمعوا على مدبر برايفكتورة الشرق سلوتيوس سكندوس<sup>١</sup>. ولكنه اعتذر عن القبول بداعي المرض والتقدم في السن . فنأدى قسم من الجند بيوفيانوس<sup>٢</sup> امبراطوراً . وكان هذا رئيس الخدم في القصر مسيحياً نيقاويّاً من بانونية بين الشرق والغرب ، فأتيه الجنود المسيحيون ، ورضي عنه رؤسائهم الشرقيون والغربيون معاً . فوقع صلحاً مع الفرس تنازل فيه عن جميع ما وقع شرقي نجلة ، وعن نصيبين وسنجار ونصف ارمينية . وعاد الى انطاكية فوصل اليها في خريف السنة ٣٦٣ . وكان لا يزال في الثلاثين من عمره ، ضئيل الحظ من الثقافة ، يحب الخمر والنساء . وعلى الرغم من اتصال اثناسيوس الكبير به والحاحه عليه ، فانه لم يخرج في سياسته الدينية عن الحطة التي رسمها قسطنطين الكبير . ولذا نراه يقول بطريرك الاسكندرية اثناسيوس نفسه : « لاني اكره الشقاق واحب من

*Salutius Secundus* .

<sup>٢</sup> *Jovianus* وقد ورد « يوليانيوس » في الفرزي وغيره .

يعمل في سبيل الوثام<sup>١</sup>. « وأصدر براءة اوجب فيها عبادة الكائن الاعلى<sup>٢</sup> ، وحرّم « الخرافات<sup>٣</sup> . ثم ما لبث ان وجد ميتاً بجذيمته في آسية الصغرى ، بعد ان قضى ليلة بين الكؤوس والاباريق . وذلك في اوائل السنة ٣٦٤ .

واجتمع رؤساء الجند في نيقية وتداولوا في امر الخلافة وكانوا لا يزالون هم الذين رفعوا يوفيانوس الى منصة الحكم . فطلبوا الى سلونتيوس سكندوس ان يكون ابنه خلفاً ليوفيانوس فأبى نظراً لصغر سنه . فأجمعوا على ولنتيانوس<sup>٣</sup> احد قادة الحرس . وكان هذا ايضاً من بانونية بين الشرق والغرب . وما ان أطل على الجند ليخطب فيهم حتى قاطعه عدد منهم بدق التروس طالبين امبراطوراً آخر يشاركه في الحكم . فاستمهلهم وشاور الرؤساء ، فقال احد هؤلاء : « ان كنت تحب امرتك فان لك اخاً ، وان كنت تحب الدولة فانتقِ الاليتق . « وفي الثامن والعشرين من اذار من السنة ٣٦٤ قدّم اخاه والنس<sup>٤</sup> اوغوسطاً وشريكاً له في الحكم . وتشاطر الاثنان الملك فحكم والنس الشرق ( ٣٦٤ - ٣٧٨ ) . وتولى ولنتيانوس الغرب ( ٣٦٤ - ٣٧٥ ) . واتفق الاثنان على امور معينة اهمها حرية المعتد ، ومنع اعفاء احد من الضرائب ، واقامة جباة من الموظفين لجمعها ، واقتسام الملك اقتساماً تاماً كاملاً ، بحيث تصبح الامبراطورية دولتين : شرقية وغربية .

وعبر الهون الفولكة في السنة ٣٧٢ بعد الميلاد او قبيلها متدققين

*Socrates, Hist. Ecc., III, 25.*

١

*Sozomenus, Hist. Ecc , VI, 3.*

٢

*Valentinianus.*

٣

٤ *Valens* وفي تاريخ ابن العميد : ولتطينان ووالنش .

كالسيل الجارف في سهول روسية الجنوبية . فاحتلوا مراعي قبائل الآلا في ثم اراضي القوط الشرقيين حتى نهر الدنيستر . ولم يبق حائلاً بينهم وبين مصب الدانوب سوى القوط الغربيين . وكان قسم كبير منهم قد قبل النصرانية على يد اولفيلاس القبودي ( ٣١٠ - ٣٨١ ) الذي نقل الانجيل الى لغتهم فهب اثناريكوس<sup>١</sup> ملك هؤلاء القوط الغربيين يستعد للدفاع فانشأ خطاً يصد وراءه من منبع البروت حتى مصب الدانوب . وعبر الهون الدنيستر وجازوه عند مصبه ففرّ جماعة من القوط الغربيين وخذلوا قومهم واتجهوا غرباً وجاؤوا يفاوضون والنس في الانتقال الى داخل الحدود الرومانية والاقامة في تراقية . وكان على رأس هؤلاء فريتيجرن وألايف<sup>٢</sup> . واما اثناريكوس فمضى بجماعته واحتل جبال البناث في المجر . وقد رأى والنس الامبراطور في زمن انحاز اليه من القوط عنصراً طيباً واداة فعالة لتقوية الجيش ولاسيا فرقة الحياالة . فقبل مطلبهم ان يدخلوا الحدود فعبروا الدانوب خمسين الفاً . وما ان فعلوا والقوا سلاحهم حتى شعروا بالفاقة وقلة المأكل . فاستعادوا سلاحهم بالرشوة وجالوا في البلقان ينالون قوتهم بالقوة . ووقعت اصطدامات عنيفة هنا وهناك . فأضمر الرومان السوء ودعوا الزعيمين القوطيين في مطلع السنة ٣٧٧ الى مأدبة فاخرة في ماركياتوبوليس وحاولوا اغتيالهما . فنجح فريتيجرن بجدعة محكمة واندلعت نيران الحرب بين الغربيين في كل مكان . ولم يقوَ الجيش الروماني المرابط في البلقان على ضبط الموقف فاستقدم والنس نجداتٍ من الشرق القريب وأمدّه غراتيانوس ابن اخيه ببعض الكتائب ثم قام هو بنفسه على رأس الجيش الغربي لاعانة عمه . ولكن والنس تسرّع فنازل فريتيجرن قبل وصول

*Atharicus.*

١

*Fritigern, Alavio.*

٢

غراتيانوس ، وذلك في الثامن من آب سنة ٣٧٨ وعلى مقربة من أدريانوبوليس . فاكتمت الموقف خيالة القوط . وخرّ والنس في ساحة القتال صريعاً . وقيل انه أحرق حرقاً . وغشي القوط الريف كله ولكنهم لم يتمكنوا من اخضاع المدن المحصنة لتقص في العتاد .

ثيودوسيوس الكبير : وعظم الامر على غراتيانوس وهاله . فاستدعى اليه ثيودوسيوس اشهر القادة وامهرهم في الحرب . وفاوضه في أمر القوط وطلب اليه ان يتناسى ما كان قد لحق به وبوالده قبله من شرّ وضم . ورفعته الى منصة الحكم ونادى به امبراطوراً على الشرق . وكان ثيودوسيوس حسن القصد ، رشيقاً ، اشقر الشعر ، أزرق العينين ، اشرف الانف ، يشبه تريفانوس ويدعي الانتساب اليه . وكان ايضاً عالي النفس ، رفيع الالهواء ، يكثر من مطالعة التاريخ الروماني ، ويحس الواجب القومي ايما احساس<sup>١</sup> . فقبل التاج في سمرميوم في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ٣٧٩ . وهب<sup>٢</sup> للقتال فواقع بالقوط ، فيما يظهر ، ضربات اولية متتالية . ثم رأى ان لا بد من الاستيلاء على نيسالونيكية لتأمين الزاد والعتاد الواردين من مصر والشرق . فاشتق طريقه اليها ووصلها في اوائل حزيران واستقر<sup>٣</sup> بها . وكان في اثناء هذا كله يشاطر جنوده المشقة كأنه واحد منهم ، ويعنى بتنشيطهم وتشجيعهم ، ويؤمن راحتهم . فأجبهوا واندفعوا في سبيله وازدادوا قوة ومناعة . ورأى الامبراطور ايضاً ان يقوم بجملة عسكرية يصل بها الى الدانوب ، فيهول على اعدائه ويفاوضهم في الوقت نفسه ، اذا وافقت الظروف . فوصل الى اسكوب في السادس من تموز ، والى فيقوس اوغوسطة في الثاني من آب . ولكنه عاد الى نيسالونيكية لتمضية فصل الشتاء . وفي شباط السنة ٣٨٠ ، انتابه مرض

عضال أشرف به على الموت . فطلب الاعتماد ليغسل جميع ذنوبه قبل ملاقاته ربه . وتعهد على يد أخوليوس اسقف نيسالونيكية عمادة نيقاوية ارثوذكسية . ثم تامل وتعافى . فعاد يعالج مشكلة الجيش . فأمر بتجنيد الفلاحين والعامل ، وبملاحقة ابناء الجنود المحتبئين في مكاتب الدولة ، وبازتال أشد العقاب بمن يقطع ابهامه للتخلص من خدمة العلم . وأمر كذلك بمن كان قد دخل في الجيش من القوط ان يُنقل من البلقان الى الشرق ، وباستبدال هؤلاء بجنود شرقيين يحلون محلهم في البلقان . وقامت فرقة من الجنود القوط الى الشرق ، فعبرت المضائق ووصلت الى ليدية ، ولكنها استبكت فيها مع فرقة شرقية كانت قد قامت من مصر لتحل محل الفرقة القوطية او غيرها في البلقان . وفيما كان ثيودوسيوس يعدّ العدة على هذا النحو تنافر القوط في البلقان وتنازعوا . واشتد الحصاص بين جماعة اثناريكوس وجماعة فريثغرون . وتوفي فريثغرون في صيف السنة ٣٨٠ ، فنفذ القتال في جنوبي البلقان . وجاء غراتيانوس امبراطور الغرب في الوقت نفسه الى سرميوم وفاوض القوط في الشمال وهادنهم على ان ينتظم ابناءؤهم في خدمة الجيش الروماني في مقابل تقديم الزاد اللازم للعشائر . فهدأت الحال وقام ثيودوسيوس من نيسالونيكية الى القسطنطينية فدخلها دخول المنتصر في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٣٨٠ وجعلها مقره الرسمي . وفي الحادي عشر من كانون الثاني ٣٨١ أطل عليه في القسطنطينية اثناريكوس نفسه مقصود الجناح اسلّ الساعد لما كان قد حل بجماعته من الشقاق والحصاص . فرحب به ثيودوسيوس وبجده وعظّم قدره ولكنه توفي في الخامس والعشرين من الشهر نفسه ، فأمر الامبراطور بدفنه دفناً ملوكياً . وفي هذه السنة نفسها وصلت طلائع الهون الى الدانوب فردها القوط ببسالة ورباطة جأش . وشعر الطرفان : القوط والرومان ، بخطر الهون فباتا اكثر استعداداً للوصول الى تقام دائم بينهما . فأرسل ثيودوسيوس في صيف

السنة ٣٨٢ القائد ساتورنينوس الى القوط في الشمال ليقاومهم في أمر الصلح. وكان ساتورنينوس من طراز ليبيانوس وغريغوريوس السايزي دمت الاخلاق وديعاً معتدلاً رزيناً، فأقره القوط على مطالبه ووقع الطرفان في الثالث من تشرين الاول معاهدة صلح دائمة. وأهم شروط هذه المعاهدة ان الامبراطور الروماني اذن باقامة دولة قوطية بين الدانوب وجبال البلقان شرط ان تبقى حصون هذه المنطقة رومانية. وتعهد بتقديم معونة مادية في مقابل انخراط القوط في الجيش الروماني. والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان ثيودوسيوس آثر، بعد هذا، العنصر القوطي الالمانى على غيره من العناصر في تعبئة جيشه، فغدا الجيش المانياً مع مرور الزمن بعد ان كان رومانياً صرفاً في ايام الفتوحات.

المجمع المسكوني الثاني: وكان والنس قد اظهر تميزاً شديداً لآريوس والآريوسيين فنفي جميع الاساقفة النيقين وقهر رهبانهم على اللحاق بالجيش وقتل وأحرق. فلما سقط في اديانوبوليس في السنة ٣٧٨ ورصي ثيودوسيوس ان يتسلم الحكم (٣٧٩) اشتد التنافر بين الآريوسيين وبين النيقين وعمم جميع الاوساط الشعبية رجالاً ونساء. ومن أطف ما جاء في المراجع في وصف تدخل «العوام في علم الكلام» قول غريغوريوس اسقف نيسة اليونانية: «والجميع في الشوارع والاسواق وفي الساحات وعند مفترق الطرق يتكلمون فيما لا يفقهون. فإذا سألت احداً من الباعة: ماذا ادفع؟ اجابك: هو مولود او هو غير مولود. واذا انت حاولت ان تعرف ثمن الخبز اجابوك ان الآب اعظم من الابن. وان سألت هل الحماز جاهز سمعت جواباً ان الابن جاء من العدم.»

ويرى رجال الاختصاص ان ثيودوسيوس عزم منذ ان تسلم أزمة

الحكم على ان يجعل العقيدة الكاثوليكية الارثوذكسية عقيدة الدولة .  
فانه منذ السابع عشر من حزيران سنة ٣٧٩ عندما أصدر براءته الاولى  
وحدد فيها واجبات كبير الكهنة الوثنيين في انطاكية امتنع عن ان يشير  
الى نفسه باللقب الوثني : الحبر الاعظم . ولعل السبب في هذا انه ولد من  
ابوين مسيحين اسبانيين وان حبر رومة دماسوس الكبير استغل نفوذ  
الحاشية الاسبانية المسيحية لحل الامبراطور على مراعاة الكنيسة . وعاد  
ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من شهر شباط من السنة ٣٨٠ فأصدر  
براءة خاصة جعل بها العقيدة النيقاوية عقيدة الدولة . فقال ما معناه : « وعلى  
جميع شعوبنا ان تجتمع حول العقيدة التي نقلها بطرس الرسول الى الرومان ،  
العقيدة التي يقول بها اسقف رومة دماسوس واسقف الاسكندرية بطرس ،  
اي ان يعترفوا . بالثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس . وللذين  
يقولون بهذه العقيدة وخدم حق التلقب بالمسيحيين الكاثوليكين<sup>٢</sup> . اما  
الآخرون فانهم هراطقة موصومون بالعار لا يحق لهم ان يدعوا الابنية  
التي يجتمعون فيها كنائس . وسينتقم الله منهم ونحن ايضاً بعده<sup>٣</sup> . » وما  
كاد الامبراطور يدخل العاصمة القسطنطينية في الرابع والعشرين من تشرين  
الثاني سنة ٣٨٠ حتى اخرج منها اسقفها الآرومي وأدخل اليها ( ٢٦  
تشرين الثاني سنة ٣٨٠ ) « بلبل قبدوقية الازرق » غريغوريوس الثاولوغوس  
النازيانزي بجميع مظاهر الابهة والاجلال . وغريغوريوس هذا العظيم ولد  
بالقرب من نازيانزة في قبدوقية في السنة ٣٣٠ ودرس في الاسكندرية  
وقيصرية وآثينة كما مر بنا ، وكان قد اشتهر بعلمه وفلسفته وفصاحته وسيم

*Plganiol, A., Emp. Chrétien, 216.*

*Christiani Catholici.*

*Cod. XVI, 2, 25.*

١

٢

٣

اسقفا على ساسمة فنازيانزة . و اراده نيودوسيوس اسقفاً على العاصمة . وفي العاشر من كانون الثاني سنة ٣٨١ أردف نيودوسيوس براءته هذه الاولى براءة ثانية فصل فيها العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كما كان قد أقرها المجمع المسكوني الاول في نيقية . وأبان ان المرطقة في نظر دولته شملت اقوال فوتيانوس وآريوس وافنوميانوس . وفي الثاني من ايار من السنة نفسها حرم جميع المسيحيين المرتدين الى الوثنية من حق الوصية والوصاية . وفي الثامن منه ضرب المنيكين ضربة قاضية .

وكان نيودوسيوس قد أعلن رغبته وهو لا يزال في نيسالونيكية في عقد مجمع مسكوني عام للنظر في امور الكنيسة جمعاء ، ففقد امنته هذه في ربيع السنة ٣٨١ . وأم القسطنطينية عدد من اعظم رجال الكنيسة بينهم ملاتيوس بطريرك انطاكية وغريغوريوس النازيانزي بطريرك القسطنطينية فيما بعد وتيموثاوس بطريرك الاسكندرية وكيرلس اسقف اوروشليم وامفيلوشوس اسقف ايقونية وبيلاجيوس اسقف اللاذقية وذيذوروس اسقف طرسوس واكاكوس اسقف حلب وكثيرون غيرهم بلغ مجموعهم مئة وخمسين . وكان دماسوس بابا رومة قد ألح بوجوب انعقاد هذا المجمع المسكوني في رومة نفسها . ولكن نيودوسيوس الامبراطور أبقى وأصر على عقده في القسطنطينية . فلم تشترك رومة في اعمال هذا المجمع ولم يكن هنالك من يمثلها ، ولكنها وافقت على جميع قراراته فيما بعد واعتبرته مجماً مسكونياً قانونياً . وكان ملاتيوس البطريرك الانطاكي قد اشتهر بجهاده ضد الآريوسية وبعلمه وفضله وتقواه فأجمع الاعضاء عليه رئيساً . فنام غريغوريوس النازيانزي اسقفاً على القسطنطينية وتوفي في اواخر ايار . فانتخب

١ وكانت قد جرت المادة منذ عهد قسطنطين الكبير ان يفرق بين الكنيسة التي هي *ecclesia catholica* وبين المرطقة *Haerotici*.

المجمع غريغوريوس النازياتزي رئيساً . ولكنه كان عصبي المزاج سريع الغضب فاستعفى . وعندئذ انتخب المجمع بإشارة من الامبراطور نكتاريوس القاضي رئيساً . وهو الذي اصبح فيما بعد بطريركاً على القسطنطينية بعد غريغوريوس .

ونظر المجمع في بدعة مقدونيوس اسقف القسطنطينية الذي كان يقول بمخلق الروح القدس من الله الآب بواسطة الابن . فبذ المجمع هذا القول وأقرّ سراسيم المجمع النيقاوي ، وازاد الى دستور الايمان النيقاوي بعض ايضاحات وخصوصاً فيما كان يتعلق بامر تجسد ابن الله والوهية الروح القدس . فجاء في اثني عشر باباً كما يلي ، وهو لا يزال دستور المسيحيين حتى يومنا هذا :

- ١ - اؤمن بإله واحدٍ آب ضابط الكل ، صانع السماء والارض ، كل ما يُرى ، وما لا يرى .
- ٢ - ووبرٍ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء .
- ٣ - الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السموات ، وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس .
- ٤ - وُصّب عنا على عهد ييلاطس البنطي ، وتألّم وقبر .
- ٥ - وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب .
- ٦ - وصعد الى السموات ، وجلس عن يمين الآب .
- ٧ - وايضاً يأتي بمجدٍ ، ليدين الاحياء والاموات ، الذي لا فناء لملكه .

١ وكان النص النيقاوي : « نزل من السماء ، وتجسد ، وصار انساناً ، وتألّم وقام في اليوم الثالث ، وصعد الى السموات . وسيأتي ليدين الاحياء والاموات . »

- ٨ - وبالروح القدس ، الرب المحيي ، المنبثق من الآب<sup>١</sup> ، الذي هو مع الآب والابن ، مسجود له ومجبد ، الناطق بالانبياء<sup>٢</sup> .
- ٩ - وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية .
- ١٠ - واعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا .
- ١١ - واترجى قيامة الموتى .
- ١٢ - والحياة في الدهر العتيد . آمين .

وكان المجمع المسكوني الاول قد شرع في تنظيم الكنيسة على غرار نظام الدولة الرومانية . فأعطى اسقف عاصمة الولاية حق التقدم على اساقفة مدنها الاخرى ، وجعله متروبوليتاً عليها كلها . وكانت الولايات الرومانية المئة والعشرون قد انتظمت ذيقوسيات اثنتي عشرة . فجااء المجمع المسكوني الثاني يعطي متروبوليت عاصمة الذيقوسية حق التقدم على جميع المطارنة فيها . وأصبح بموجب هذا الترتيب بطريرك انطاكية عاصمة ذيقوسية الشرق متقدماً على جميع مطارنة هذه الذيقوسية . ومثله بطريرك الاسكندرية في ذيقوسية مصر ، ومتروبوليت قيصرية قبدوقية في ذيقوسية البونط ، ومتروبوليت افسس في ذيقوسية آسية ، ومتروبوليت هرقلية في ذيقوسية تراقية .

ويرجع بعض رجال الاختصاص ان اساقفة هذه الذيقوسيات كانوا يتمتعون بلقب إكسارخوس او الاسقف الاول ، وانه كان لبعضهم ألقاب خاصة احتفظوا بها . فكان اسقف رومة يدعى اسقف المدينة او حبراً او بابا او بطريركاً . وكان اسقف الاسكندرية يدعى بابا و بطريركاً ولا

*Lagier, G., Orient Chrétien, II, 282;*

خلاصة تاريخ الكنيسة ، ترجمة الحوري يوسف البستاني ، مطبعة الآباء اليسوعيين ،

الجزء الاول ، ص ٢٢٥ .

٢ وفي النص النيقاوي : « تؤمن بالروح القدس . »

يزال « بابا وبطريك الاسكندرية » كما كان اسقف انطاكية يدعى بطريكاً ايضاً . واللفظ بابا يوناني في الارجح مأخوذ من الكلمة باباس ومعناها الاب . واللفظ بطريك يوناني ايضاً . وهو مركب من كلمة باتريا ومعناها العشرة ، وكلمة أرشيس ومعناها الرئيس .

ولما كان بروقتل القسطنطينية وحاكمها لا يخضع لنائب الديقوسية التي فيها هذه المدينة ، ولما كانت القسطنطينية هي عاصمة الامبراطورية الثانية « رومة الجديدة » فإن الجمع رأى ان يعطي اسقفها حق التقدم على جميع الاساقفة بعد اسقف رومة وان يصار الى تسميته في مجمع خاص يشترك فيه جميع اساقفة الديقوسيات الشرقية<sup>١</sup> .

ودعا دماسوس حبر رومة الاساقفة الى مجمع في رومة في السنة ٣٧٢ ولكن ثيودوسيوس طلب اليهم متابعة العمل في القسطنطينية في الوقت نفسه وسمح بان يسافر وفد منهم الى رومة يراقب اعمال مجمعها ولا يشترك فيها . وتدخل غراتيانوس امبراطور الغرب وحض الآباء المجتمعين في القسطنطينية على الاشتراك في مجمع رومة ولكن على غير جدوى . فاضطرب دماسوس ورأى في هذا اهانة له ونذير انشقاق بين الشرق والغرب<sup>٢</sup> .

**العلاقات الرومانية الفارسية :** وتوفي ذو الاكتاف شابور الثاني في السنة ٣٧٩ وتولى العرش الفارسي بعده اردشير الثاني ( ٣٧٩ - ٣٨٣ ) ثم شابور الثالث ابن ذي الاكتاف . فارسل هذا في السنة ٣٨٤ وفداً الى القسطنطينية يفاوض في توطيد السلم وتحسين العلاقات . وشفع ذلك بان

١ المجمع الثاني : القانون الثالث . اطلب ايضاً مقال لوران V. Laurent في المجلة Byzantion في سنها السابعة ، ص ٥١٢ .

Piganiol, A. , Emp. Chrét. 220.

ارسل الهدايا الحريز والحجارة الكريمة والفضة. ولكن حدث بعد هذا بقليل ان زحفت جيوش شابور الثالث على ارمينية ففر ملكها أرساك الرابع الى ثيودوسيوس مستنجراً. ولكن ثيودوسيوس كان في امس الحاجة الى السلم نظراً لاضطراب الموقف في الغرب واغتيال غراتيانوس. ففاوض شابور في اقتسام ارمينية بينهما، فتم ذلك في السنة ٣٨٦ بموجب خط فاصل امتد من ديار بكر (آمد) حتى ارضروم (ثيودوسيوبوليس). وهكذا ضم ثيودوسيوس ما قارب من خمس ارمينية الى ملكه. وفي بعض المراجع انه جرى مثل هذا الاقسام في ما بين النهرين ولكنه قول ضعيف<sup>١</sup>.

**ضجة في انطاكية وبيروت:** وتلطخت ادارة ثيودوسيوس بالرشوة. وكتب ليبيانوس الفيلسوف الانطاكي الى الامبراطور يقول: «حكماك الذين تبعهم الى الولايات ليسوا سوى قتلة». وتقامت ازمة مجالس الشيوخ في المدن. وفرّ الشيوخ واختبأوا. واضطر الامبراطور ان يجد من نفوذ بعض الشخصيات الاقليمية. ثم جاءت السنة ٣٨٧ فشرعت الحكومة المركزية تنهياً للاحتفال بمرور عشر سنوات على حكم الامبراطور<sup>٢</sup>. فزادت الضرائب المفروضة. لكنها ما كادت تعلن عزمها على الجباية حتى لجأ الانطاكيون الى العنف، فاقتلوا تماثيل الاباطرة وجروها في شوارع المدينة، واحرقوا بعض الابنية. وعلى الرغم من اعادة النظام في اليوم نفسه فان عدداً كبيراً من الاغنياء فروا واستتروا. وخشي الناس سطوة ثيودوسيوس وقسوته وظنوا انه سيخرب المدينة. وتحركت بيروت فأعلنت ولاءها لكسيموس في الغرب. وحذت حذوها الاسكندرية. وانبرى

*Procopius, Aed. III, I, 245-246; Chapot, Frontière de l'Euphr., 347-361.* ١  
decennalia.

يوحنا الذهبي الفم تلميذ ليبيانيوس وكان لا يزال كاهناً في مسقط رأسه انطاكية يستغل الذعر لمصلحة الايمان فألف ميامره العشرين وحفظ لنا شيئاً من تفاصيل تلك الحوادث<sup>١</sup>. وأمر ثيودوسيوس بتأليف مجلس عدلي للنظر في هذه الحوادث. واتخذ هذا المجلس مركزه في انطاكية وحكم وقسا على الرغم من احتجاج الرهبان والانتقياء. ونزع ثيودوسيوس لقب متروبوليت عن انطاكية وانعم به على اللاذقية. ثم أصدر عفواً عاماً قبيل عيد الفصح من السنة نفسها.

توحيد الامبراطورية: وأحب غراتيانوس الامبراطور القبائل الآلانية التي كانت قد فرّت من سواحل بحر ازوف والتجأت الى داخل حدود الامبراطورية خوفاً من الهون البرابرة، فألحق ابناء هذه القبائل في الجيش وعطف عليهم عطفاً مستمراً. فأثار بذلك حسد العناصر الاخرى في الجيش. فتمردت الكتائب الرومانية في بريطانيا وفادت في السنة ٣٨٣ بمكسيموس احد النبلاء الاسبان امبراطوراً. وحذت حذوها كتائب الجيش في المانيا. ونزل مكسيموس بجنوده عند مصب الرين. فهض غراتيانوس اليه وتلقى الجيشان في منطقة باريز. ولكن عساكر الامبراطور خانت سيدها. ففر غراتيانوس في ثلاث مئة فارس. ولحق به فرسان مكسيموس فأدركوه في ليون وقتلوه في الخامس عشر من آب سنة ٣٨٣. ثم أرسل مكسيموس يستدعي اليه والنتيانوس الثاني اخا غراتيانوس الاصغر، معترفاً بحقه بالملك مدعياً الحكم بحق الوصاية على الامير القاصر. فاما ثيودوسيوس فحين اتته هذه الانباء امرع في السنة ٣٨٤ الى ايطالية لينظر في الامر. ووطن الناس انه انما قام ليحارب

Goebel, R., *De Ioannis Chrysostomi et Libanii Orationibus*, Göttingen, ١

1910.

مكسيموس وليعيد الحق الى نصابه . ولكنه ابرم مع المعتصب صلحاً اعرج ، فجعل مكسيموس اوغوسطاً ثالثاً مشتركاً عليه ابقاء ايطالية بيد الامبراطور القاصر ووالدته يوستينة . ولكن مكسيموس نكث بالشرط وزحف على ايطالية في السنة ٣٨٧ ، ففرّ والتتنيانوس الثاني الى الشرق واستقرّ في نيسالونيكية . فزحف ثيودوسيوس في صيف السنة ٣٨٨ بجيشه الى حدود ايطالية وحارب مكسيموس وانتصر عليه . فاستسلم مكسيموس في اكويلى ولكن ثيودوسيوس أحاله الى الجند فقتلوه . وقام هو الى ميلان واقام فيها سنتين . وسير والتتنيانوس الثاني الى غالبية ليدبر امورها . فلما كانت السنة ٣٩٢ قام والتتنيانوس هذا الى فيننة ليصد هجوماً بربرياً قوياً . فقتل فيها على قول احدى الروايات وانتصر على قول غيرها . فاختار قائد العساكر خطيباً غالباً اسمه اوجانيوس واعلنه امبراطوراً في ليون . وانتقل هذا الامبراطور في ربيع السنة ٣٩٣ الى ايطالية فاقام فيها . فألحت غلّة زوجة ثيودوسيوس الثانية واخت ولنتنيانوس بوجود الاقتصاص من اوجانيوس لانها اتهمته بقتل اخيها . فنهض ثيودوسيوس اليه في صيف السنة ٣٩٤ وانتصر عليه في مداخل ايطالية الشمالية وامر بقتله فقتل في جواقيلان . وهكذا أصبح ثيودوسيوس هو الحاكم الفرد في الامبراطورية.

**الوثنية تشرف على التلف :** وفي الوقت الذي كان فيه ثيودوسيوس يضطهد المرطقة والحروج على العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كان يضيّق الحثاق على الوثنية ليضمد انفاسها . فابطل زيارة الهياكل وذبح الذبائح والعبادة باكباز الحيوانات واحشاشها . وأدى هذا بطبيعة الحال الى اغلاق الكثير من الهياكل والى اقتحام الجماهير بعضها لنهبها وتدميرها . ثم عاد فمنع في السنة ٣٩١ الذبائح وزيارة الهياكل وتكريم التماثيل ، وفرض غرامات ثقيلة على الحكام والموظفين الذين يقرّفون مثل هذه الذنوب ، وأمر باخراج مذبحة الهة النصر من بهو مجلس الشيوخ في رومة ، وكان

بوليانوس قد اعاده الى هذا البهو بعد اخراجه منه في عهد قسطنطين .  
فاضطرب الشيوخ الوثنيون ، ورأوا في ذلك تمثيلاً وتكبيراً بمجد رومة  
وعظمتها . ووافدوا سياخوس الخطيب الى ميلان ليلتمس اعادة النظر في  
هذا التدبير وارجاع المذبح الى مكانه . وعلم امبروسيوس اسقف ميلان  
بهمة سياخوس فكتب الى البلاط يرجو المحافظة على حرية المعتقد المسيحي  
ويبين انه ليس من هذه الحرية في شيء اكراه الشيوخ المسيحيين على  
الاجتماع والتشاور في قرب من مذبح وثني . ووصل سياخوس الى ميلان  
وتكلم باسم الشيوخ الوثنيين فطالب باحترام جميع الاديان وقال : يمكن  
الوصول الى الحقيقة الدينية بطرق متعددة . ثم اشار الى بين الولاة المفروضة  
على جميع الاعضاء وأبان انه اذا لم يكن ممة مذبح في هو المجلس فعلى  
اي شيء يقسم الاعضاء اليين ؟ ولكن ثيودوسيوس كان شديد التمسك  
بالنصرانية فأحال عريضة الشيوخ الى المجلس الامبراطوري الاعلى مع  
الايماز برفضها . وفي السنة ٣٩٢ أصدر الامبراطور امراً خاصاً الى نائبه  
في مصر بوجوب تطهير هذا البلد من ادران الوثنية . فأقبل السيراييوم في  
الاسكندرية . واتفق ان اراد ثيوفيلوس اسقف الاسكندرية ان يحول  
هيكلًا وثنيًا الى كنيسة مسيحية فثارت نائرة الوثنيين في الاسكندرية  
والتجأوا الى السيراييوم واعتصموا فيه . وحضهم الفيلسوف اوليميوس  
الوثني على الاستماتة في سبيل دينهم . فأمر ثيودوسيوس بهدم الهيكل  
وتدميره . وألح ثيوفيلوس بوجوب تقطيع تمثال سيراييس بالفؤوس .  
وكان الناس يعتقدون ان سيراييس يقابل مثل هذا العمل بالزلزال . لكن  
ما ان سقط التمثال وهدمت قاعدته حتى خرج منها جيش من الجرازين ا  
ثم أضرمت النار في امتهة الهيكل الكبير فاحترق معها عدد غير قليل  
من نقائس المخطوطات اليونانية وضاعت بضياها صفحة من تاريخ العلم  
والمدنية .

الوفاة : وكان ثيودوسيوس قد أدمن شرب الخمر وما يتبعها من  
ملذات ، فأسرف على صحته ، وتوفي في ميلان في السابع عشر من كانون الثاني  
سنة ٣٩٥ . وأبنه امبروسيوس في الخامس والعشرين من شهر شباط  
مؤكدآ هلاك مكسيموس واوجانيوس وخلاص ثيودوسيوس .

الأستاذة الدكتورة

الدينية  
العلمية

## الفصل السابع ظهور الرهبانية وانتشارها

أصلها : وعاش السيد نفسه عيشة فقر وتبهٍ ومكنة . وعلمم باقتراب  
النهاية . وأرسل تلاميذه ليكرزوا بملكوت الله . وأوصاهم الا يحملوا  
شيثاً للطريق (لا عصا ولا مزوداً ولا خبزاً ولا فضة ، والا يكون للواحد  
منهم ثوبان<sup>١</sup> . وقام يعقوب بعده لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقنني  
سوى رداء واحد . وحضّ الرسل<sup>٢</sup> المؤمنين على العفة والبتولية واجازوا  
الزواج لمن خشي العنت فقط<sup>٣</sup> .

وجاء الاضطهاد في القرون الثلاثة الاولى فقر عدد من المؤمنين الى  
البراري والقفار وعاشوا فيها عيشة البؤس والطهارة والتقوى<sup>٣</sup> . واشتدت  
وطأة الحكم وكثرت الضرائب وثاقلت ، فناه الفلاحون وتركوا القرى  
والمزارع محتجين على نظام المجتمع طالين عيشة جديدة ، حتى اذا اطل  
القرن الرابع وجاء قسطنطين وخلفاؤه وتنفس المؤمنون تنفسه الراحة ، لم  
يكسد يغير ذلك شيئاً من طريقتهم الاولى اذ اصبحوا يقولون بوجود

١ لوقا، ٩ : ٣ .

٢ كوروثوس الاولى ، ٧ : ٨ - ٩ .

Sozom. I, 12, 11.

٣

الانكفاء والابتعاد عن العالم للتأمل والتفكير الجدي بالقيم الروحية والبشرية .

انطونيوس الكبير : ( ٢٥٠ - ٣٥٦ ) واشهر الرهبان الاولين انطونيوس الفلاح المصري الذي اعتكف على نفسه خمسة عشر عاماً ثم انزوى في حصن مهجور عشرين عاماً . وذاع صيته في مصر فالتف حوله عبدة من الزهد ، والحواء عليه بوجوب تنظيمهم . فأسس في السنة ٣٠٥ تعاونية رهبانية اجاز فيها ضرباً من التنسك والرأف متفاوتة من شدة الوحدة والانفراد . هذا وقد قام على حدود الصحراء في منطقة اسيوط عدد كبير من النساك الانطونيين جماعات وافراداً . وفي وادي النطرون في صحراء ليلية انزل آخرون جماعات وافراداً ايضاً ينسجون الكتان فيلبسونه ويتعدون عن كل ما يت الى اللذات بصلة ، ويتعبدون منفردين في ايام الاسبوع مجتمعين في ايام السبت والاحاد . واختلف الطريقة الانطونية عن غيرها في انها تركت للناسك الفرد الحرية التامة في انتقاء طريقته في التنسك .

باخوميوس القديس : ( ٢٩٠ - ٣٤٥ ) وتقبل النصرانية في هذا الوقت نفسه في طيبة مصر فأسس من نساك سيوايس . فقادته حبه للنسك والنساك ان يؤسس ما بين السنة ٣١٥ والسنة ٣٢٠ اولى الرهبانيات المسيحية ، وذلك في تبينة بالقرب من دندرة . واختلف اتباعه عن اتباع انطونيوس في انهم عاشوا مجتمعين تحت سقف واحد وحول مائدة وكنيسة واحدة . وكان عليهم ان يقرأوا الكتاب ويصلوا ويعملوا عملاً مفيداً . وازداد عددهم وكثرت مؤسساتهم وانتشروا في صعيد مصر . وحدثت مريم اخت باخوميوس حذو اخيها فأنشأت رهبانية للراهبات لم تختلف في نظنها عن رهبانية الرجال .

Winkok, H. E. , *The Monasteries of the Wad'En Natrun, 1932; Lefort, L. Th. , La Règle de St. Pachome, (Museon, XL, 1927) .*

باسيليوس الكبير : ( ٣٢٩ - ٣٧٩ ) وشاع امر الترهّب في فلسطين وسورية ولبنان ثم في آسية الصغرى . واشهر من قال به في هذه الاقطار واشدهم تأثيراً واكثرهم اتباعاً باسيليوس الكبير اسقف قيصرية قبدوقية . وكان قد بدأ الترهّب في بلاده فشغف به وزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر في السنة ٣٥٧ . وتقصد شؤن الرهبان والنساك فيها فأعجبه نظام باخوميوس . فلما عاد الى آسية الصغرى وكانت السنة ٣٦٠ عزم على الترهّب فاختر البونط وانشأ فيه ديراً بالقرب من قيصرية الجديدة . فوضع نظام الرهبانية الباسيلية وأصرّ فيها على الطاعة زيادة على الفقر والعفة . واشتهر اتباعه باعمالهم الزراعية وباهتمامهم بتربية اليتامى وتعليم الصبيان . وكان باسيليوس الكبير قد تلقى الفلسفة والكتابة والحطابة على يد ليبانيوس الفيلسوف الانطاكي وفي الاسكندرية وآثينة . وجمع الى ذلك ذكاء الفؤاد وقوة الحجة وفصاحة الكلام . وكان قد رافق غريغوريوس الثاولوغوس في سني الدراسة وأحبه ، فنشأت بينهما صداقة قوية تعاونوا فيها على خدمة الكنيسة . ووافق عصره ان كانت الارثوذكسية مضطهدة فانصر لها قولاً وكتابة والى رسائل عدة لا يزال معظمها معروفاً . ولا تزال حتى يومنا هذا نردد كلماته وافكاره في خدمة القديس في آحاد الصوم الكبير ويومي الخميس والسبت العظيمين وفي بارامون الميلاد وبارامون الظهور الالهي وفي يوم عيد الحامس من كانون الثاني . وقد كان لهذا كله اثر كبير في نفوس المؤمنين فكثرت الاقبال على الترهّب وشاعت طريقة باسيليوس في جميع الاقطار الشرقية وفي اليونان والبلقان وروسية<sup>١</sup> .

Clarke, W. K. L. *St. Basil the Great; Murphy, Sister, St. Basil and Monasticism.*

مار مارون : ( ٢ - ٤١٠ ) وآثر المؤمنون في سورية ولبنان وفلسطين  
 الترهب الفردي على الجماعي فتركوا المدن والقرى وانتثروا في السهول والوديان  
 وعلى قمم التلال يتأملون ويبتهلون ويعملون . وكان من أشهر هؤلاء في  
 القرن الرابع مار مارون . ولا نعرف بالضبط سنة ولادته ولا المكان  
 الذي ولد فيه ولا محل تنسكه . ولكننا نعلم علم اليقين انه عاش وعمل  
 في سورية الشمالية في النصف الثاني من القرن الرابع . ويرى الاب  
 لامنس اليسوعي ان مار مارون عاش ومات في القورسيّة . وقورس  
 عاصمة منطقة القورسيّة كانت تقع على مسيرة يومين من انطاكية وعلى  
 نحو سبعين كيلومتراً من حلب الى شمالها الغربي . ويميل المطران  
 بطرس ديب الى القول بان مار مارون تنسك على جبل في منطقة ابامية  
 ( قلعة المضيق ) من سورية الثانية .

واقدم ما نعود اليه في تاريخ مار مارون رسالة وجهها اليه يوحنا  
 الذهبي الفم من مناه في مدينة كوكيسوس في جبال طوروس في السنة  
 ٤٠٤ او ٤٠٥ . وهي الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل هذا القديس<sup>١</sup>،  
 وفيها مودة ومحبة واستفسار عن الصحة والسلامة ورجاء الى مار مارون  
 ان يصلي من اجل الذهبي الفم . فلا سائبة اذاً تشوب عقيدة مار مارون  
 وهو بالتالي ارثوذكسي كاثوليكي نيقاوي .

وأنتفع المراجع الاولية ما جاء عن مار مارون في تاريخ التنسك  
 والنسك لثيودوريطس اسقف قورس ( ٤٢٣ - ٤٥٨ ) الذي ولد في انطاكية  
 قبل وفاة مار مارون بسبع عشرة سنة ( ٣٩٣ ) وعرف يعقوب الناسك  
 اشهر تلاميذ مار مارون<sup>٢</sup> .

*Chrysostom, John, Epistolae (Patrologia Graeca, LII, (Paris, 1862); ١*  
*Jeannin, M.A., Oeuvres Complètes de St. Jean Chrysostome, (Paris, 1887).*  
*Theodoret, Historia Ecclesiastica, (Paris, 1911).*

ويستدل من كلام ثيودوريطس وغيره ان مار مارون قصد في النصف الثاني من القرن الرابع الى قمة احد المرتفعات في القورسية يرتاد الحلوة والطائنة ، فكرس هيكلاً وثنياً كان قد خصص للابالسة منذ القديم ، واستعمله في عبادة الاله الواحد ، وانه كان يقضي ايامه ولياليه تحت قبة السماء متعبداً ، وانه كان يلجأ الى خيمة صغيرة اصطنعها من جلود الماعز ليتقي فيها شرّ العواصف والبرد . ولم يكن مار مارون يكتفي في تشغفه بالاصوام والصلوات المستطيلة والليالي الساهرة في ذكر الله واطالة الركوع والسجود والتأملات في كالات الله ومناجاته وحبس الجسد في منطقة محدودة وقهره باللباس الحشن والمسوح الشعرية وتحريم الجلوس احياناً ومنع النوم ليالي بكاملها والانصراف الى وعظ الزوار وارشادهم ، بل كان يزيد عليها ما ابتكرته حكمته فيوازن بين النعمة والاعمال . ويؤكد ثيودوريطس ان الله منح مارون موهبة الشفاء وان الناس تقاطرت اليه افواجاً وانه لم يكتف بشفاء امراض الجسد بل كان يشفي بعضاً من البخل وآخرين من الغضب ويعلمهم غيرهم العدل وينهي عن استباحة المحرمات ويوقظ من غفلة التواني .

وبما يجدر ذكره لهذه المناسبة ان مار مارون اجتذب تلامذة عديدين رجالاً ونساءً ، وان هؤلاء التفوا حوله في صوامع قريبة يهتدون بارشاداته في مجاهل حياتهم النسكية . فلما توفاه الله في السنة ٤١٠ نشأت اخوية مارونية تعمل بما علمت به هذا الناسك المجاهد .

١ والفضل ما يرجع اليه من المؤلفات الحديثة في مار مارون بحث الاب لامس في انتشار الموارنة في لبنان في الجزء الثاني من كتاب تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ( بيروت ، ١٩٠٣ ) ، ولباب البراهين للطران يوسف دريان ( القاهرة ، ١٩١٢ ) ، والكنيسة المارونية للطران بطرس ديب ( باريس ، ١٩٣٢ ) ، ومحاضرة الاستاذ فؤاد افرام البستاني عن مار مارون في مجلة الندوة ، ج ٢ ، عدد ٥ و ٦ ، حزيران ١٩٤٨ .

## الباب الثالث

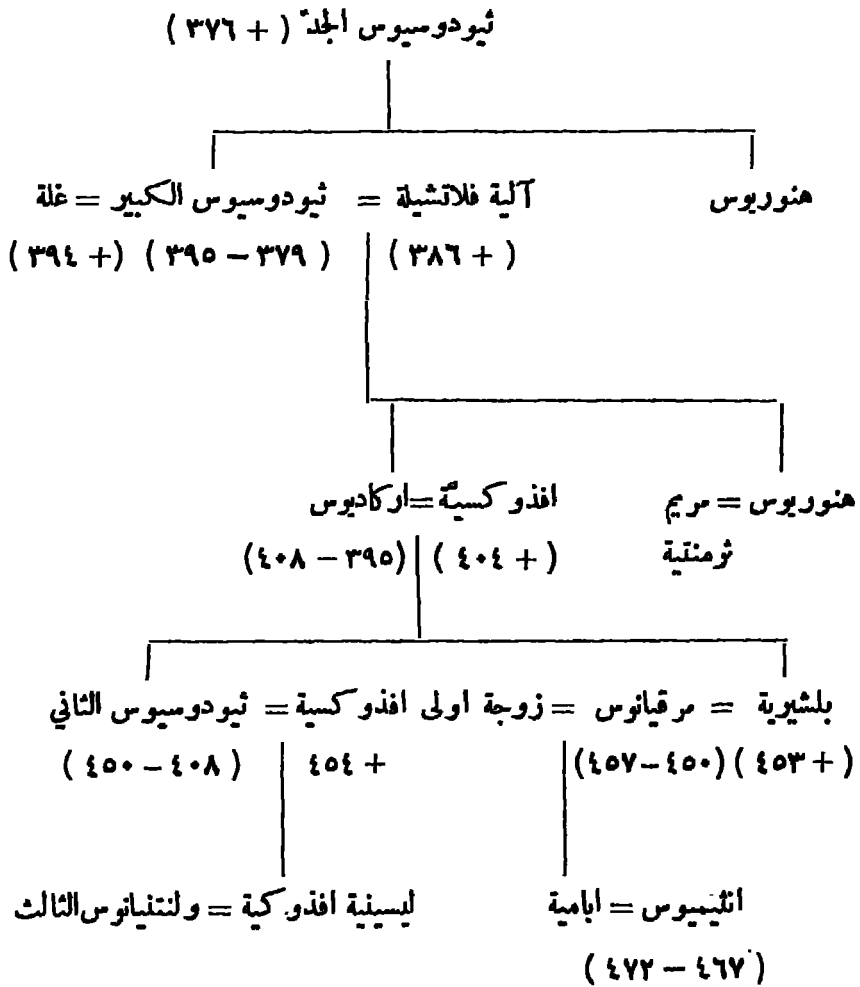
# المحنة الاولى : تدفق البرابرة وتفرق النصارى

### الفصل الثامن

## اركاديوس الاول وثيودوسيوس الثاني

( ٣٩٥ - ٤٥٠ )

اسرة ثيودوسيوس الكبير : وكان ثيودوسيوس الكبير قد تزوج من آلية فلاتشيلة الاسبانية قبل ان تبتوأ عرش الاباطرة فولدت له اركاديوس وهنوريوس . ثم توفاه الله في السنة ٣٨٦ فاعتزن ثيودوسيوس الامبراطور بغلثة بنت ولتنيانوس الاول ورزق منها بنتاً سماها غلثة بلاسيدية . وتزوج اركاديوس من إفذوكسية فولدت له ثيودوسيوس الثاني وبلشيرية . اما هنوريوس فانه تزوج من مريم بنت عمه هنوريوس ومن ثرمنتية ، ولكنه ظل عاقراً بلا وارث .



أوكاديوس : ( ٣٩٥ - ٤٠٨ ) وكان أركاديوس غلاماً يافعاً عندما تبوأ العرش، بطيء الحس ضعيف الوراثة . فانتاد أولاً لمدير اموره روفينوس ثم لندمائه وجلسائه . واشهر هؤلاء الحصي إفتروبيوس الذي قال الحظوة بأن قدم لاركاديوس افذوكسية الفتاة بنت ضابط من ضباط الجيش . وكانت افذوكسية هذه شديدة الاعجاب بجمالها وبنفسها متغطرمة منتفضة، فزادت الطين بلة . ولم يكن هنوريوس اوفر حظاً . فإنه تبوأ العرش

في الحادية عشرة ونضع لأرب مدبر آخر هو استيليكون الوندالي .  
وعلى الرغم من مظاهر الاخاء والمحبة والتعاون بين الدولتين فان كلاً من  
استيليكون في الغرب وروفينوس وغيره في الشرق عمل على الشقاق  
والتنافر والضرر . وكان استيليكون يطمع في ضم جميع إيليرية وتوابعها  
الى امبراطورية الغرب ويعمل من اجل ذلك بكل دهاء . فهب زملاؤه  
في الشرق يثيرون الشعب على حكومة سيده في افريقية . واشتد  
الاحتكاك بين الحكومتين حتى ادى الى تضاؤل التبادل التجاري بين الشرق  
والغرب بل الى انقطاعه حتى السنة ٤٠٨ . ويقول إفتايوس المؤرخ  
المعاصر : « ان كلاً من الامبراطورين خضع لمن حوله من الرجال وان  
هؤلاء اشعلوها حرباً دائمة مكتومة مستترة ، وانهم لم يترفعوا عن اللجوء  
الى جميع انواع المداينة والمخادعة » .

**ألاريكوس ملك القوط :** ولدى وفاة ثيودوسيوس الكبير اعتبر القوط  
الغربيون انفسهم في حل من روابط المعاهدة التي كانوا قد وقعوها معه  
في السنة ٣٨٢ . وظهر بينهم رجل نشيط طموح هو ألاريكوس بلطة<sup>٢</sup>  
فبايعوه ملكاً عليهم . وادعى ألاريكوس انه لم ينل من حكومة رومة  
الجديدة ما استحقه من رتبة وتقدير . فنهض بمجموعه الى مقدونية وترافقة  
وهدد العاصمة نفسها . ثم اتجه شطر اليونان ، فغير مضيق ثرموبولي ودخل بلاد  
اليونان الوسطى ثم جزيرة المورة ، ونهب وأحرق وسبى . وكانت معظم  
جيش ارКАДيوس لا يزال في ايطاليا . فكتب ارКАДيوس الى استيليكون  
مدبر امور اخيه ان يبعث اليه الجيش وان يعاون في تأديب القوط  
واعادتهم الى مناطقهم على خفة الدانوب . وقام استيليكون على رأس قوة

*Eunap., Fragm., 62. 63.*

*Alaric Balta.*

الى الشرق ووصل الى ثسالية وارسل جيش اركاڤيوس بقيادة غايناس القوطي الى القسطنطينية . ولم يبادر الى طرد الاريكوس من بلاد اليونان قبل التخلص من روفينوس مذبّر اركاڤيوس وخصمه اللدود . ونفذت المؤامرة بينه وبين غايناس وقتل روفينوس في تشرين الثاني من السنة ٣٩٦ . وجاء استيلاكون ثانية الى اليونان في ربيع السنة ٣٩٧ ، وكان بإمكانه ان يطبق بقواته على الاريكوس ولكنه لم يفعل . فاغتاز اركاڤيوس وتقبل رأي وزيره لافتروميوس الحي فصالح القوط ليتسكن من معاينة استيلاكون والانتقام منه . فرفع الاريكوس الى رتبة قائد في الجيش وأقطع القوط الغربيين اراضي جديدة . واختار لهم الجزء الشمالي من ايليرية ليتجهوا بغزواتهم شطر ايطالية بلاد استيلاكون .

قوط القسطنطينية : واتجه القوط رجالاً الاريكوس شطر ايطالية ولم يعودوا الى ازعاج اركاڤيوس . ولكن مشكلة قوطية اخرى بقيت تنتظر الحل . فان ثيودوسيوس الكبير كان قد أدخل الى صفوف الجيش عدداً كبيراً من هؤلاء القوط ولاسيما في سلاح الحياالة . وكان بعضهم قد خدم الجيش باخلاص وأبلى البلاء الحسن في ميادين القتال ، فرقي من رتبة الى رتبة . وكان بين هؤلاء في هذه الفترة التي نحن بصددتها غايناس القوطي احد كبار القادة في جيش الامبراطور . وكان غايناس هذا يتم بشؤون القوط ابناء جنسه ويضفي الى شكواهم . فالتف حوله عدد لا يستهان به من الجند والمدنيين ، فاذا هو في اوائل عهد اركاڤيوس احد زعماء السيادة في العاصمة . ولم يكن عدد القوط المدنيين في العاصمة قليلاً . فسينايسوس المؤرخ المعاصر يقول انه لم يكن بيت من بيوت العاصمة يخلو من خدام قوطي وان البتائين والسقائين والعتالين كانوا قد

اصبحوا جميعاً من القوط<sup>١</sup> .

وكان يتلو غايناس في القوة والنفوذ والاهمية الحصي<sup>٢</sup> إفتروبيوس فإنه جمع حواليه كل مغامر ومداهن من لصحاب المصالح الكبرى الذين اتجروا بكل شيء وتملقوا كل صاحب نفوذ اشباعاً لمطامعهم . واصبحت سياسة العاصمة في ايام اركادوس الاولى تطاحناً مستمراً بين غايناس القوطي وافتروبيوس الحصي للحصول على النفوذ او الوصول الى السلطة او الاحتفاظ بها .

ويستدل من بعض المصادر ان كثيراً من الشيوخ والوزراء ورجال الاكليروس لم يرضوا عن هذا ولا عن ذلك . فضمامنوا في سبيل المحافظة على رومانية الدولة والحيلولة دون وصول الالمان البرابرة الى الحكم . ولم يروا في افتروبيوس ذلك الوطني المخلص . فالتفوا حول المدبر اوريليانوس<sup>٣</sup> . واجمل ما بقي من آكار هذه اليقظة الوطنية الرومانية رسالة وضعها الاسقف سيناسيوس القيروني ووجهها الى الامبراطور وأسماها « قوة الامبراطور » . وكان سيناسيوس قد زار القسطنطينية في السنة ٣٩٩ ولبث فيها ثلاث سنوات فجاءت رسالته خيراً معين على فهم اوريليانوس وموقفه هو وجماعته من سياسة ذلك العصر . وتلخص هذه الرسالة بوجوب مراقبة الالمان البرابرة والاستعداد لمجاہتهم لانهم سيستغلون اتفه الاعذار لتقلد الاحكام . ولذا يجب على الامبراطور ان يزيح الاجانب عن المناصب الهامة وان يتزع عنهم عضوية مجلس الشيوخ . وعليه ايضاً ان يطهر الجيش وان يزيد عدد الوطنيين فيه ثم يفرض امره على هؤلاء البرابرة<sup>٣</sup> .

*Synesius, Patrologia Graeca, LXVI, col. 1092 - 1097.*

*Bury, Later Rom. Emp. I, 127 - 129.*

*Fitzgerald, A., Essays and Hymns of Synesius of Cyrene, (1930) I, 134- 139 ; notes, 206 - 209,*

ثورة القوط في فريجية : وكان الامبراطور ثيودوسيوس الكبير قد أسكن جماعات من القوط الشرقيين مقاطعات معينة في فريجية في آسية الصغرى . فلما اشتد الاحتكاك بين غايناس وبين افترويوس اعزز القائد القوطي الى هؤلاء بالتعرض للسكان الآمنين واحداث الشغب . ففعلوا . فأنفذ الامبراطور غايناس نفسه لاختاد هذه الحركة . وما ان وصل غايناس الى مناطق الاضطراب حتى تقام مع قائد القوط الشرقيين ووجهه بالتضامن معه خطاباً الى الامبراطور يطلب فيه اخراج افترويوس من وظيفته وتسليمه اليه . فاضطرب اركاديوس وخشي سوء العاقبة فأبعد افترويوس عن العاصمة ( ٣٩٩ ) . ولكن الزعيمين القوطيين لم يكتفيا بهذا بل اصررا على اعادة افترويوس الى العاصمة ومحاكمته واعدامه . وبعد ان تمّ لهما هذا طلبا الى الامبراطور ان يكرّس احدى كنائس العاصمة للصلاة بحسب المذهب الآريوسي . فاحتج يوحنا الذهبي الفم اسقف العاصمة احتجاجاً قوياً ، فتراجع غايناس عن هذا الطلب لعله ان الجماهير في العاصمة وخارجها تؤيد الذهبي الفم .

سقوط غايناس وانتهاء مشكلة القوط : وخشي الوطنيون الرومانيون مطامع غايناس وراعهم الامر فتأهبوا ونهأوا ، وعاهدوا قوطياً آخر اسمه فراغيتة وعقدوا معه عقداً لما لمسوا فيه من الاخلاص والمحبة للامبراطور والولاء للامبراطورية . ولدى خروج غايناس من العاصمة في اوائل السنة ٤٠٠ هجم الوطنيون على من تبقى من عساكره في داخل المدينة وقتلوه . فتارت نائرة غايناس وجمع جموعه ونهب تراقية وهم بالعبور منها الى آسية الصغرى . ولكن فراغيتة انتصر عليه وصدّه عن اجتياز المضائق . ففر غايناس عبر الدانوب . فوقع اسيراً بيد ملك من ملوك الهون أسر بقتله . فقتل في كانون الاول من السنة ٤٠٠ ، وكافأ اركاديوس فراغيتة فجعله فصلاً . وانتهت مشاكل القوط بسقوط غايناس . واعتبر اركاديوس

انتصاره على غايناس عملاً عظيماً فنقشه على العمود التذكاري الذي اقامه في فورم القسطنطينية . وتغنى الشعراء بهذا النصر واعتبروه عظيماً . وخلد سيناسيوس عمل اوريليانوس وجماعته برواية رمزية دارت حوادثها على صراع بين اوسيريس ( اوريليانوس ) وتيفون المحرض على الشر .

**يوحنا الذهبي الفم :** ( ٣٤٥ - ٤٠٨ ) وأنجبت الكنيسة في هذه الفترة من تاريخها يوحنا الذهبي الفم . ولد في انطاكية من ابوين شريفيين في السنة ٣٤٥ او ٣٤٧ . وتلقى علومه على ليبيانوس الفيلسوف . وأبدى مواهب فريدة . فرأى فيه الفيلسوف المعلم خير خلف له . وعطف عليه ، وعني به عناية فائقة . ولكن والدته انتوزة سطت عليه « فسرقتة » ، على حد تعبير ليبيانوس ، وعمدته مسيحياً ، كما فعلت والدات غريغوريوس الثاولوغوس واوغوستينوس وثيودوريطس . وتسلمت النعمة على يد ملاتيوس البطريك الانطاكي رئيس المجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٧٠ . فأثر الانفراد واستانس بالوحشة وانتبذ مكاناً قصياً في بوية انطاكية ليحسن التأمل في الخالق وخلقه ويمجد التفكير في القيم الروحية والبشرية . وما فتى معتزلاً منزوياً حتى انتابه مرض اكرهه على العودة الى انطاكية . فعاد اليها في السنة ٣٨٠ . وفي السنة ٣٨١ سامه البطريك الانطاكي ملاتيوس شماساً . ثم رقي الى رتبة كاهن في السنة ٣٨٦ . واشتهر الكاهن يوحنا بالتقوى ، والتضحية ، والخدمة ، وبالخطابة والفصاحة . فلما توفي نكتاريوس بطريك القسطنطينية ، وقع عليه اختيار حاجب القصر ، افثرويوس الحي . فطلبه اليه وأخرجه خلسة من انطاكية ، خوف ان يتدخل الجمهور الانطاكي ويعترض . وعلى الرغم من تدخل ثيوفيلوس البطريك

١ راجع ترجمة رسائله واشعاره الى الانكليزية ، وقد اشير اليها آنفاً . والاشارة هنا

هي الى *Osiris* والى *Typhon* .

الاسكندري وسعيه بالفساد ، فان يوحنا الذهبي الفم سيم اسقفا على العاصمة ، ورفي الكرسي البطريركي في السنة ٣٩٨ .

وبدأ يوحنا الذهبي الفم عمله البطريركي باهتمام بالغ بشؤون الفقراء والمساكين . فأنتق على المعوزين والجياع والمرضى ما كان بعض اسلافه ييدخون به بندخاً . فأحبه البؤساء وتعلقوا به ، وآثروا الاصغاء الى عظاته البليغة على الذهاب الى دور التسلية ، وميادين الالعب ، لما كان عليه من طلاقة اللسان ، وسرعة الحاطر ، وحضور الذهن . اذا تكلم تحدّر كالسيل ، وكلما افاض ملك أعنة القلوب . وهذه عظاته لا تزال محفوظة حتى يومنا هذا ، وفيها من الرقة ، والطلاوة ، والتفنن في التشبيه ، والاستعارة ، ما يسبغ على مواضعها العادية سحراً وجاذبية لا حد لها .

وكان البطريرك الجديد مثالباً يأخذ نفسه وغيره بتطبيق هذه المثالية اخذاً صارماً . فعمل الرهبان على العمل المشرف . وحقق في بعض التهم التي وجهت الى بعض الاساقفة ، فعزل ثلاثة عشر منهم . وكان متخرجاً يستنكر البذخ واللبو ، فندد برجال البلاط ونسأهم . ولم تنج حتى الامباطورة افذوكسيّة من هذا التنديد . وكان ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية قد بدأ يضطهد من قال برأي أوريجانيوس . ففر من وجهه الأخوة الاربعة الطوال ولجأوا الى الذهبي الفم (٤٠١) . قبلهم منطلقاً ولكنه اعتبرهم محكوماً عليهم . واذا ببعض الرهبان ، وغايتهم اثاره الشغب على الذهبي الفم ، يستشفعون الامباطورة لدى زوجها ان يأمر ثيوفيلوس بالحضور الى القسطنطينية . فقدمها ثيوفيلوس على رأس عدد من اساقفة مصر . وهكذا تجمع في القسطنطينية رهط من حسّاد الذهبي الفم ومن نقوا عليه لتشيده عليهم في المحاسبة . فعقد ثيوفيلوس مجمعاً ضد يوحنا بالقرب من خلقدونية (٤٠٣) عرف بجمع البلوطة . واتهم يوحنا الذهبي الفم باقوال اوريجانيوس وبخيانة الملكة . وطلب هذا المجمع يوحنا الذهبي

القم اربع مرات للحضور فلم يحضر قطعه ، وحكم ثيودوسيوس عليه بالنفي . ولكن الشعب لم يسلم بنفيه فتدخل الجيش . فهدأ يوحنا الشعب ونصح لهم بالخضوع وخرج منفيًا . وكان ان حدثت في اليوم التالي زلزلة عظيمة فاضطرب ضمير افذوكسية وداخلها الشك فطالبت زوجها بان يعاد القديس حالاً الى كرسيه . فدخل القسطنطينية في موكب شعبي عظيم . فدخل ثيوفيلوس وعاد الى الاسكندرية . وما كاد البطريرك القسطنطيني يستقر في كرسيه حتى اثاره التبجيل الذي احيط به شخص الامبراطورة لمناسبة اقامة تمثال لها في جوار كنيسة الحكمة فتدّ بها مرة اخرى تتديداً شديداً . وقيل لها انه استهل عظته بالقول : « لقد عادت هيرودية الى حنقها ، الى رقصها ، وها هي تطلب رأس يوحنا . » فاغتازت افذوكسية واستدعت ثيوفيلوس . ولفق هذا ما لفق فقطع المجمع يوحنا مرة ثانية . فنفي الى نيقية (٤٠٤) ثم الى كوكبوسوس في ثانيا جبال طوروس لعله يقع طعمة في ايدي الاتوريين الثارين . ولكنه بلغها سالماً واقام فيها ثلاث سنوات يكتب ويؤلف . وبقي فيها على اتصال برعيته فكان يعزيم بقوله « ان الذي لا يظلم نفسه لا يستطيع احد ان يضرّ به » . وناصره بابا رومة اينوشنسوس . ولكن البلاط قرر ابعاده الى صحراء بتيوس في حدود البحر الأسود . فرحل اليها . ولدى وصوله الى قومانة في بلاد البونط توفي فيها في السنة ٤٠٨ ونقل جثمانه الى القسطنطينية في السنة ٤٣٨ .

وأشهر ما كتبه يوحنا الذهبي القم ، في اثناء تنسكه ، في السنوات العشر الاولى من حياته الفكرية ، رسالته في الكهنوت . وأحلى ما جاء من آثار يراعه ، في عهد رئاسته ، ميامره القسطنطينية ، وتعليقه على

١ وافضل ما صنف في يوحنا الذهبي القم كتاب الاب خريستوسوس بور البنديكتيني الذي ظهر في مونتسن في السنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ :

*Baur, Chrysostomus, Der Heilige Johannes Chrysostomus und seine Zeit.*  
*Jeannin, M., Oeuvres :* راجع ايضاً ترجمته وترجمة مؤلفاته الى الافرنية في كتاب :  
*Complètes de Saint Jean Chrysostome.*

رسائل بولس الرسول الى أهل كورونثوس ، والى الرومانيين . وكتب في منفاه رسائل عديدة اشرنا اليها سابقاً . ولا نزال نتمتع بصلواته في خدمة القديس الالهى في معظم ايام السنة .

« لا ينوحن» احد عن فقر ، لان المملكة العائمة قد ظهرت . لا يندبن» احد على آثام ، لان الصفح قد بدا من القبر . لا يخافن» احد من الموت ، لان موت الخلص قد حررتنا . ابن شوكتك يا موت ؟ ابن ظفرك يا جحيم ؟ قام المسيح ، وانت تغلبت . قام المسيح ، والملائكة يفرحون . قام المسيح ، واستقرت الحياة . قام المسيح ، وليس ميت في القبر ، لان المسيح بقيامته من الاموات قد صار مقدمة الراقدين .»

ثيودوسيوس الثاني : ( ٤٠٨ - ٤٥٠ ) وكان من حسن حظ الامبراطورية الشرقية ان توفيت افذوكية الامبراطورة في السنة ٤٠٤ ، على اثر اجهاض شديد ، وان تولى النفوذ في الدولة المدبر اثيمسيوس الحكيم . وزاد في حسن الحظ ان توفي اسيليكون في الغرب في السنة ٤٠٨ ، وتبعه أركاديوس في السنة نفسها . فانفسح في المجال لاثيمسيوس ان يعمل بحكمته وان يبقى مسيطراً على شؤون الدولة اربعة عشر عاماً .

وكان ثيودوسيوس عند وفاة ابيه لا يزال في السابعة من عمره . فتهدب بعلوم عصره ، ونشأ محباً للعلم ، دتياً ، تقياً . وكان يجيد الخط والصيد . ومن ثم كان له هذا اللقب الذي نقرأ احياناً : ثيودوسيوس الخطاط ٢ . وأجبت شقيقته بلشيرة ان يكون لها امرأة أخ مطيعة ، سهلة الانقياد . فانتقت له آثينة ابنة امثاذ آثيني وثني ، كانت قد أمت

١ من عظة له يوم عيد الفصح .

Brehier, L., *Les Empereurs Byzantins dans leur Vie Privée*, Rev. Hist. ٢ (1940), 203-204.

القسطنطينية المطالبة بحقها في إرث والدها. قدمتها بلشيرية لاختيها فأعجبته. فنصرت باسم افذوكية، وتم عقد قرانها، فأصبحت الامبراطورة في السنة ٤٢١.

صداقة فاروس: وكان ثيودوسيوس الكبير قد رأى بثاقب نظره ان مشكلة القوط وغيرها من مشاكل جبهته الشمالية الغربية تتطلب سلماً دائماً في الشرق. فاعتدل في مطالبه في ارمينية، وبين الفرات والديجلة، وانبثقت صداقة بين الدولتين دامت عهداً طويلاً. وبما « يروي »، من هذا القبيل، ان أركاديوس لما حضرته الوفاة قلق على ولده الطفل ثيودوسيوس الثاني من دسائس البلاط فأوصى بان تكون الوصاية على ابنه ليزدجرد الاول ملك الفرس. ويروي ايضاً ان يزدجرد الاول أنقذ الى القسطنطينية، بعد وفاة أركاديوس، احد اخصائه لحماية الملك الطفل. والواقع ان يزدجرد الاول (٣٩٩ - ٤٢٠) اخلص في صداقته وترفع عن مضايقة النصارى في بلاده وسمح لهم في السنة ٤٠٩ ان يرموا كنائسهم وان يتعبدوا احراراً وسمح في السنة ٤١٠ بان ينقصد، في عاصمته طيسفون، مجمع مسيحي انتخب اسحق اسقف طيسفون (سلوقية) رئيساً على الكنيسة الفارسية، ومنحه لقب كاثوليكوس. وصلى المجتمعون من اجل سعادة يزدجرد ونصره وتأيينه. ولكن حكومة فارس عادت، بضغط من كهنة زرادشت وطبقة النبلاء، الى اضطهاد المسيحيين في السنة ٤٢١. فانقطعت العلاقات

١. *Burg, Later Rom. Emp. II, 2.* وفي فازيلاف، ص ٩٦ (ترجمة انكليزية): ان بعض النعاة يشكون في اصابة المرجع الاول الذي يروي هذا الخبر (*Vita Porphyrii*)، ولكنه هو يرى ان ليس في هذه الرواية ما لا يقبله العقل، وبالتالي لا يجوز رفضها. وهو قول ضعيف، من حيث قواعد المصطلح، اذ الاصل في التأريخ الاتهام لا براءة الذمة.

*Chabot, J. B. Notice Mss. Bibl. Nationale, 1902. 258.*

السياسية بين الدولتين ، ولجأ الرومان الى العنف ، فدحر أرتابوروس جيوش ملك الموك . فسارع بهرام الخامس في السنة ٤٢٢ الى عقد صلح « يدوم مئة سنة » . وتعهد بهرام برفع الاذى عن المسيحيين ، وبان يطلق لهم حرية المعتقد والعبادة . فقابله ثيودوسيوس بمثل هذا فيما يتعلق بالزرادشتية في ارضه<sup>١</sup> . وتعاهد الطرفان ايضاً الايحض احدُ منهما العرب في ارضه على غزو العرب في ارض جاره . والاشارة هنا الى المناذرة والفساستة . « وكان المنذر ابن النعمان قد غزا الشام مراراً ، واكثر المصائب في اهلها ، وسبى وغنم . وكان قد جعل معه ملك فارس كتيبتين يقال لاحدهما دوس وهي لتوخ ، وللآخرى الشهباء وهي لفارس . فكان يغزو بهما الشام ، ومن لم يطعه من العرب<sup>٢</sup> . »

وكانت فارس قد دخلت في دور كثرت فيه مطامع النبلاء والكهنة ، وتشعبت واشتدت فيه هجمات الهون البيض على حدودها الشرقية الشمالية ، وكانت بيزنطة قد اعتدلت في مطالبتها ، كما سبق ان اشرنا . فدام السلم بين الدولتين ردهاً طويلاً من الزمن .

تحوط واحتياط في الداخل : وكان من نتائج هذه اليقظة الوطنية الرومانية ، التي سبقت الاشارة اليها ، ان انصرف اثيمسيوس المدبر الوصي الى العناية باستحكامات المدن وقلاعها . فرمم عدداً وافراً منها في شمالي البلقان الغربي ، وعلى ضفة الدانوب . وكانت القسطنطينية قد اتسعت الى خارج الاسوار التي انشأها قسطنطين الكبير . فأقام اثيمسيوس سوراً جديداً في السنة ٤١٣ يدفع عن الاحياء الجديدة شر البرابرة وغيرهم . ثم تصدع هذا السور الجديد بزلال قوي ، فرمى قسطنطين المدبر ، وأنشأ

*Christensen, A., l'Iran sous les Sassanides, 280 - 281.*

١ الكامل لابن الاثير ، الطبعة المصرية ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

حواله سوياً ثالثاً عزّزه بمخندق واسع عميق . وجاء عهد قورس المدبّر فأنشأ  
تحصينات جديدة من جهة البحر . وأصبحت القسطنطينية في عهد ثيودوسيوس  
الثاني تتم بثلاثة اسوار منيعة ، ثبتت في وجه كل عدو حتى سقوط  
المدينة في السنة ١٤٥٣ . فصانت مدينة زاهرة في عصور اضطراب وفوضى<sup>١</sup> .  
وألفت الحكومة المركزية ، في هذا العهد نفسه ، ما كان قد تأخر  
من الاموال الاميرية . فانتعش الفلاح ، والصانع ، والتاجر الصغير ،  
وقويت معنوياته ، وزاد رضاه . وأعيد النظر في كيفية استيراد الحبوب  
من مصر الى العاصمة وتموئنها التموين الكافي .

وفي السنة ٤٢٥ أصدر ثيودوسيوس الثاني براءة بتأسيس معهد علمي  
مسيحي عالٍ يضاهاي باساتذته وطلابه معهد آثينة الوثني الذي كان لا يزال  
يدرس الفلسفة الوثنية . وانشأ الامبراطور في هذا المعهد الجديد واحداً  
وثلاثين كرسياً للتعليم : عشرة منها للغة اللاتينية ، وعشرة للغرامطيق اليوناني ،  
وخمسة للفصاحة والحطابة اليونانية ، وثلاثة للحطابة والفصاحة اللاتينية ،  
وكرسياً واحداً للفلسفة ، واثنين للحقوق . وتقاطر الطلاب الى هذا المعهد  
من كل صوب ، ولاسيا ارمينية . وخصص الامبراطور صرح الكاينتول  
لهذه الغاية . وأنفق على الاساتذة من اموال الخزينة ، وحرّم عليهم  
اعطاء دروسٍ خصوصية<sup>٢</sup> . ويلاحظ لهذه المناسبة ان اليونانية نالت حظاً  
اوفر من اللاتينية .

وفي السنة ٤٢٩ التفت المدبّر انطيوخوس الى القانون والقضاء ، فرأى  
ان ما صدر من القوانين ، منذ عهد قسطنطين الكبير ، أصبح متفرقاً

*Chronicon Paschale, I, 588; Meyer - Plath, B., und Schneider, A. M. ١  
Die Landmaner von Konstantinopel. Berlin, 1943.*

*Codex Theodosianus, XIV, 9, 3; Fuchs, F., Die Hoheren Schulen von ٢  
Konstantinopel im Mittelalter, Berlin, 1926.*

مبعثراً ، يصعب الوصول اليه والاطلاع عليه ، للفصل في الدعاوى . فاقترح تعيين لجنة من كبار القضاة والاساتذة والمحامين لجمع هذه القوانين وتبويبها . ووافق الامبراطور ثيودوسيوس الثاني فأمر بتعيين هذه اللجنة وتابعت اللجنة اعمالها ثمانية سنوات متتالية ، فأنتجت مجموعة ثيودوسيوس الشهيرة<sup>١</sup> . وظهرت هذه المجموعة في الشرق في السنة ٤٣٨ ، وفي الغرب في السنة التالية . وقسمت الى ستة عشر كتاباً ، بعضها في الادارة المدنية ، وبعضها في الشؤون العسكرية ، وبعضها في الدين ، وبعضها في الحقوق . وقسم كل كتاب الى عدد من الابواب (العناوين<sup>٢</sup>) . وما صدر من الابواب ، بعد ظهور هذه المجموعة ، اشير اليه بالعبارة : « القوانين المستجدة<sup>٣</sup> » . ومجموعة ثيودوسيوس تعتبر من اهم المراجع الاولية لتاريخ القرنين : الرابع والخامس<sup>٤</sup> .

الهون : وكان قد عظم شأن الهون واتسع سلطانهم ، فدوخوا جنوبي روسية ورومانيا والمجز وغاليسية . وكانوا منذ السنة ٣٩٥ قد بدأوا يتعرشون بالامبراطورية الشرقية . ففي هذه السنة عبروا القوقاس ، وتدفقوا الى سهول الجزيرة وسورية . فاسترضاهم ثيودوسيوس بان بذل لهم ، في السنة ٤٣٠ ، عطاءً سنوياً بلغ قدره ثلاث مئة وخمسين ديناراً ذهبياً . ثم توفي روى ملكهم في السنة ٤٣٤ ، فخلقه في الحكم ابنا اخيه بليدة وأتيلا . وكان أتيلا كثير المرائب ، واسع الاطماع ، فطلب الى حكومة ثيودوسيوس مضاعفة المال السنوي ، ومنحه رتبة قائده ، وغير ذلك من

<i>Codex Theodosianus.</i>	١
<i>tituli.</i>	٢
<i>leges novellae.</i>	٣
<i>Seeck, O., Die Quellen des Codex Theodosianus, Stuttgart, 1919.</i>	٤
<i>magister militum.</i>	٥

المطالب . فما ان ترددت حكومة ثيودوسيوس في القبول ، حتى عبر أتتلا الدانوب بمجموعه في السنة ٤٤١ واحتل قسماً كبيراً من شمالي البلقان . فاضطر ثيودوسيوس ان يجيب سؤل أتتلا ، وان يعقد معه صلحاً في السنة ٤٤٣ ، فيدفع اربعة آلاف دينار متأخر ، والفين ومئة دينار مالا سنوياً . وبقيت تحرك أتتلا مطامعه ، فقتل اخاه بليدة واستأثر بالسلطة . ثم لم يطل الوقت ، حتى غشيت جموعه البلقان ، ووصلت طلائعهم الى ثرموبولي ، وهددوا القسطنطينية . وعادت حكومة ثيودوسيوس الى المفاوضات . فأرسلت لهذه الغاية وفدأ من كبار الرجال ، بينهم المؤرخ بريسكوس . ونجح الوفد فانسحب أتتلا عبر الدانوب في السنة ٤٤٩ . وقد تم الاتفاق بينه وبين حكومة القسطنطينية على مال يؤدي له كل سنة . واتجهت انظار اتتلا شطر الغرب<sup>١</sup> .

**انشقاق في الكنيسة :** ولما أصبحت النصرانية دين الدولة عظم شأن الاساقفة والبطاركة واشتد التزامهم على الكرامى في الكنيسة فكان يظفر بها في بعض الاحيان من لم تكتمل فيه جميع المؤهلات الروحية . واشتدت المناظرة بين البطاركة ورؤساء الاساقفة والاساقفة فأدت في بعض الاحيان الى التنافر والتخادم . وظهرت الرهبانية وازداد عدد الرهبان وتدخلوا في هذه المناظرات والمشادات فأدخلوا فيها حماسة عمياء وكيداً عظيماً . وتقلص ظل الوثنية وانتشر ظل النصرانية فاشتوكت النوغاء في هذه المحاصمات وتدخل فيها جمهور السفلة بهاجهم وضجيجهم ونخرافاتهم ونزعبلاتهم .

**بطوريك القسطنطينية و بطوريك الاسكندرية :** وكان ثيوفيلوس

*Diehl et Marçais, Monde Oriental, 14-18.*

<sup>١</sup> وفيه مقتطفات طويلة من كلام المؤرخ المعاصر بريسكوس *Priscos*

بطريك الاسكندرية ( ٣٨٥ - ٤١٢ ) رجلاً مثقفاً وعالمياً رياضياً سخر مقدراته في الرياضيات لوضع جداول مضبوطة تنبئ بالازمنة التي يقع فيها عيد الفصح ، فاكسب بذلك شهرة واحتراماً في زمن امتد فيه الورع والتقوى . وكان ثيوفيلوس اديباً كبيراً بلغ من شغفه بالادب ورهافة ذوقه فيه مبلغاً كان يستطيع معه ان يستمرىء حلاوة قطعة ادبية يكون هو نفسه قد حرّم مطالعتها . وكان ايضاً سياسياً محنكاً بالغ القدرة في تسوية اعوص المشاكل واعتدها . ولكنه كان طمّاعاً مقتوناً بالمال والمجد يدب إليها بكل ما أوتي من دهاء وحكمة ومكر . وشعر ثيوفيلوس بالطاقة الكامنة في رهبانيات مصر وكان قد ازداد عدد افرادها حتى بلغ الالوف ، فتقرّب اليهم وتوخى السيطرة عليهم بان عمد الى التظاهر بما ليس فيه ، فقال قول اكثرتهم بالثبته اي ان لله شكلاً بشرياً ، وراح يقاوم قول اوريجانيوس بشدة وحماسة . وكان هذا من المتزّهة علم بان الله لا جسم له فهو لا يُرى ولا يمكن ادراكه . وبلغ من امر ثيوفيلوس ان لجأ الى العنف فهاجم بالقوة المسلحة ديراً كان رهبانه ما يرحوا متمسكين بتعاليم اوريجانيوس . فقرر اربعة من زعماء هؤلاء ، عرفوا فيما بعد بالاخوة الطوال ، الى القسطنطينية والتجأوا الى بطريكها يوحنا الذهبي الفم .

وكان ثيوفيلوس لا يقر المجمع المسكوني الثاني ( ٣٨١ ) على تقديم بطريك القسطنطينية في الكرامة على سائر البطاركة بعد بطريك رومة . فأضمر السؤ ليوحنا الذهبي الفم ودعا الى مجمع في خليدونية كما سلف لنا القول واستغل جراءة الذهبي الفم ومواقفه العنيفة من بعض رجال البلاط ونسأهم لاسيا افذوكسيّة الامبراطورة فتوصل بذلك الى ائزال بطريك القسطنطينية عن عرشه ودفعه الى المنفى .

المجمع المسكوني الثالث في إفسس : ( ٤٣١ ) ورتي كرمي القسطنطينية في السنة ٤٢٨ البطريرك نسطوريوس . وكانت الكنيسة قد

علّمت منذ البدء ان المسيح اله كامل وانسان كامل . فلما انكر آريوس عليها الاعتقاد بان للكلمة المتأنس طبيعة لاهوتية ايضاً عقدت المجمع المسكوني الاول وأقرت كمال لاهوت المخلص وحكمت بضلال آريوس وبطلان تعاليمه . ثم ظهر أبوليناريوس اسقف اللاذقية الذي اشتهر بدفاعه عن النصرانية في ايام يوليانيوس الجاحد وبتمسكه بتعاليم المجمع المسكوني الاول فعلم ان اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الانسان وبالتالي ان المسيح كان الكلمة في جسم انسان وانه لم يكن بإمكانه ان يختبر الضعف البشري ولا ان يكون معرضاً للتجربة . فقررت الكنيسة في مجمعها المسكوني الثاني كمال « ناسوت » المخلص . وكان من الطبيعي جداً ان تتم انطاكية الامر خصوصاً لان ابوليناريوس كان احد اساقفتها . فأصر رؤساؤها على كمال طبيعة المسيح البشرية . واشتهر بين هؤلاء ديودوروس الطرسومي وثيودوروس الموبسوتي .

وكان نسطوريس سوري الموطن انطاكي المذهب فأصر مع اساتذته على كمال طبيعة المسيح البشرية . فما ان تبوأ الكرسي البطريركي في القسطنطينية حتى بدأ يعلم ضد اتحاد الطبيعتين اتحاداً طبيعياً وجوهرياً ونهى عن تسمية العذراء بوالدة الاله « نيوتوكوس » ويستبدالها بالتسمية « والدة المسيح » مدعياً انها لم تلد الها بل انساناً آلة للاهوت وانها « قابلة » الاله لا والدة الاله . وما ان ذهب هذا المذهب حتى هاج الشعب في القسطنطينية وتظاهر ضده في الشوارع وفي الكنائس . فقابل نسطوريس هذا التظاهر بالشدة . وعقد مجمعاً محلياً في السنة ٤٢٩ وحرم كل من اعتقد غير تعاليمه<sup>١</sup> .

وذاغت آراء نسطوريوس وبلغت الى الاسكندرية فعارضها حبرها  
البطريك كيرلس (٣٧٦ - ٤٤٤) في بيانه الفصحي الذي اذاعه سنة ٤٢٩  
وأيد فيه الاعتقاد بالطبعين . ثم كتب الى زميله القسطنطيني موضعاً له  
ان تسمية البتول بوالدة الاله لا يعني ان مبدأ اللاهوت هو منها بل ان  
المولود منها هو اله كامل و انسان كامل . وكان نسطوريوس معجباً بنفسه  
فقابل كيرلس بالانتفاخ والتحقير . فكتب كيرلس بهذا الصدد الى حبر  
رومة و بطريك انطاكية و الى عدد من رؤساء الكهنة في الشرق . فعقد  
حبر رومة مجعاً محلياً في السنة ٤٣٠ و اعتبر تعليم نسطوريوس غير قويم ،  
و كتب اليه وهدده بقطع العلاقات . و كتب يوحنا بطريك انطاكية الى  
نسطوريوس ان يبرأ مما اعتراه من وهم بشأن تسمية العذراء بوالدة الاله ،  
وذكره ان هذه التسمية وردت لكثيرين من مشاهير المعلمين و الآباء .  
و كتب اكاكيوس رئيس اساقفة حلب و كان شيخاً اناث على المئة سنة  
الى كيرلس يرجو منه ان « يجتهد في اطفاء نار الخصومة ضناً براحة  
الكنيسة » .

و جاهر بعض رهبان القسطنطينية بمعارضة بطريركهم فطردهم البطريك  
واضطهدهم . فكتبوا الى ثيودوسيوس الثاني يطلبون عقد مجمع مسكوني .  
و طلب نسطوريوس نفسه عقد مجمع مسكوني . فقبل الامبراطور ودعا  
الى مجمع مسكوني في افسس في السنة ٤٣١ بعد العنصرة . و لبي الدعوة مبثا  
اسقف بينهم كيرلس بطريك الاسكندرية و نسطوريوس بطريك القسطنطينية  
ويوبينايلوس اسقف اوروشليم . و تخلف يوحنا بطريك انطاكية و ممثلو بابا  
رومة . و التأم المجمع برئاسة كيرلس بطريك الاسكندرية . و لكن  
نسطوريوس اضرب عن الاشتراك فحكم المجمع عليه بالقطع . ثم تليت  
الرسائل التي كان قد وجهها الى نسطوريوس كل من كيرلس بطريك  
الاسكندرية و كليستينوس بابا رومة كما تلي قرار مجمع رومة فصدقها

المجمع . وبعد خمسة ايام وصل بطريـك انطاكية ومعه اثنان وثلاثون اسقفاً . فانبأه المجمع بقطع نسطوريوس . فتكدر واعتبر عمل المجمع تسرعاً ونسب الى كيرلس الاستبداد . ثم عقد مجمعاً مؤلفاً من نحو اربعين اسقفاً وحكم فيه بالقطع على كيرلس وعلى سائر الاساقفة الذين قبلوا قرار المجمع بلا فحص ولا روية . ثم حضر نواب بابا رومة الاسقفان اركاذيوس وبرويـاكتوس والقس فيلبس . فاجتمع بجمع كيرلس مرة ثانية وتليت فيه رسائل البابا وأمضى فيها نوابه الاعمال السابقة . ودُعي بطريـك انطاكية الى الاجتماع . فلم يحضر . فحكم المجمع بالقطع عليه وعلى ثلاثة وثلاثين اسقفاً معه . فتحرك الامبراطور لما رأى من هذه البلبلة فطلب وفداً عن كل فئة . فلما حضر الوفدان وسمع دعوى كل منها أمر باعادة كل من كيرلس واسقف إفسس الى منصبه ، ونصّب على كرسي القسطنطينية احد اعضاء وفد كيرلس واسمه مكسيميانوس . وأمر بوجع الاساقفة الى اوطانهم .

وثبت المجمع الثالث دستور الايمان الذي كان تتيته قد سبق في المجمعين الاول والثاني ، وحرر اسقفية قبرص من الخضوع لبطريـك انطاكية ، فأصبحت كنيسة مستقلة منذ ذلك الحين .

ثم دعا البطريـك مكسيميانوس كلاً من بطريـك الاسكندرية وبطريـك انطاكية الى نيوميذية وحدهما . فحضرا وتسالما بعد مدة . ونفي نسطوريوس الى مصر فاغتاله احد رهبانها في السنة ٤٥١ .

المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية : (٤٥١) وكما نظرنا نسطوريوس معارضاً تعاليم ابوليناريوس فقال بكمال طبيعة الناسوت اي بكمال طبيعة المسيح البشرية فان اوطيخة Eutyches احد الآباء في القسطنطينية قال بكمال طبيعة اللاهوت معارضاً مذهب آريوس . فعلم ان المسيح التخص طبيعة واحدة وان جسده ببعض كونه جسد اله ليس مساوياً لجسدنا في

الجوهر لان الطبيعة البشرية اندثرت باتحادها مع الطبيعة الالهية . فانبرى ثيودوروس اسقف قورش مجمل على اوطيخة . وانبرى ديوسقوروس بطريك الاسكندرية مجمل على ثيودوروس وبيشج رهبان القسطنطينية ، وكتب الى ثيودوسيوس الثاني ان الكنيسة في الشرق قد اصبحت كلها نسطورية . فجمع فلايانوس بطريك القسطنطينية مجماً محلياً ودعا اليه اوطيخة فلم يمتثل . وكان يحركه الحصي خريساقيوس الذي كان قد حقد على البطريرك فلايانوس لان خريساقيوس طلب منه مالاً فارسل البطريرك اليه آتية الكنيسة . وعقد المجمع جلسة سابعة ودعا اوطيخة ، فحضر هذه المرة ومعه خريساقيوس الحصي وبعض الرهبان وزمرة من الحرس الامبراطوري . فسئل اوطيخة : هل تعترف بان المسيح مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت ومساوٍ لاه في جوهر الناسوت ؟ فأجاب : ان المسيح من طبيعتين قبل الاتحاد وانه طبيعة واحدة بعد الاتحاد . فحكم المجمع المحلي عليه وقطعه من كل رتبة كهنوتية ومن الشركة ومن رئاسة ديره . وكتب اوطيخة للبابا في رومة يتظلم . فكتب البابا لاوون الكبير الى بطريك القسطنطينية يستوضحه عما جرى . فأرسل فلايانوس بطريك القسطنطينية نص اعمال المجمع الذي حكم على اوطيخة . فعقد البابا مجماً في رومة وفحص الاوراق التي ارسلها اليه فلايانوس البطريرك فوافق عليها واعلن ذلك للامبراطور . ثم كتب خريساقيوس الحصي الى ديوسقوروس بطريك الاسكندرية يستنهضه لمساعدة اوطيخة . فعقد ديوسقوروس مجماً محلياً وحلّ اوطيخة من القطع ، وطلب الى الامبراطور عقد مجمع مسكوني . ففعل الامبراطور والتأم مجمع مسكوني في افسس في السنة ٤٤٩ برئاسة ديوسقوروس بطريك الاسكندرية . فتليت رسالة الامبراطور . ثم طلب وفد رومة ان تتلى رسالة البابا الى البطريرك فلايانوس . فرفض ديوسقوروس . واشتد الجدل . ففر بعض الاساقفة ومنهم نواب البابا . واستولى الرعب على الباقيين فامضوا على بياض ،

ولذا سمي هذا المجمع فيما بعد المجمع اللصوي .

ووقع الخلاف بين ثيودوسيوس الثاني وزوجته اذوكية فعادت شقيقته بلشيرية الى القصر ، وطُرد خريمافيوس الحصي من القصر ثم أُعدم . وكان البطريرك فلايانوس قد نفي وتوفي في منفاه فحصل عنه الرضى ونقلت جثته الى القسطنطينية بكل اكرام . وسقط ثيودوسيوس عن جواده وتوفي في السنة ٤٥٠ وخلفه مرقيانوس . وكتب بابا رومة وبطريركها لاوون الكبير الى مرقيانوس بوجوب عقد مجمع مسكوني جديد . فوافق مرقيانوس وامر بذلك فاجتمع الاساقفة في مدينة نيقية في السنة ٤٥١ . ومرض بعضهم واضطر للعلاج . ولم يستطع مرقيانوس نفسه ان يبارح العاصمة ، فأمر بنقل المجمع الى خلقيدونية في جوار من القسطنطينية .

وعقد المجمع جلسته الاولى في الثامن من تشرين الاول سنة ٤٥١ في كنيسة القديسة لافيمية في خلقيدونية . وقد اشترك في اعماله ٦٣٠ اسقفاً بينهم نواب رومة اسقفان وقسان والبطريرك القسطنطيني اناطوليوس والبطريرك الاسكندري ديوسقوروس والبطريرك الانطاكي مكسيموس واسقف اوروشليم يوبيناليوس . ووضع الانجيل في منتصف حلقة المجمع . وقصد وجهاء الدولة واعيانها . وفي هذه الجلسة الاولى اقر المجمع ان كل ما قد جرى في افسس انما كان جبراً وظلماً وان ديوسقوروس ومن ذهب مذهبه مستحق القطع . وفي الجلسة الثانية تليت رسالة كيرلس البطريرك الاسكندري الى نسطوريوس . ورسالة البابا الى فلايانوس بطريرك القسطنطينية . وفي الجلسة الثالثة قرأ رئيس وفد رومة الاسقف باسكاسينوس Paschasinus نص الحرم الذي كان قد أصدره البابا ضد ديوسقوروس . فوافق عليه المجمع . وفي الجلستين الرابعة والخامسة دار البحث حول العقيدة . وبعد جدال طويل وافق المجمع على النص التالي : **واننا نعلم جميعنا تعليماً واحداً تابعين الآباء القديسين . ونعترف بان واحد هو هو**

نفسه ربنا يسوع المسيح . وهو نفسه كامل بحسب الناسوت . الـ حقيقي وانسان حقيقي . وهو نفسه من نفس واحدة وجسد مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت . وهو نفسه مساوٍ لنا في جوهر الناسوت ، بمائل لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ، مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت . وهو نفسه في آخر الايام مولود من مريم العذراء والدة الاله بحسب الناسوت لاجلنا ولـ اجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحاً وابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال . من غير ان ينفي فرق الطبائع بسبب الاتحاد بل ان خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً واقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مجزئاً الى شخصين بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الانبياء منذ البدء وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلمنا دستور الآباء . »

وفي هذا المجمع نفسه رفع اسقف صور المتروبوليت فوتيوس شكوى على اسقف بيروت المتروبوليت افسطاثيوس الذي كان من انصار ديوسقوروس . مفاد هذه الشكوى انه بعد ما اقدم ثيودوسيوس على ترقية افسطاثيوس من اسقف خاضع لمتروبوليت صور الى رتبة متروبوليت مستقل قد وهب بطريرك القسطنطينية اناطوليوس لافسطاثيوس هذا اسقفيات بيباوس (جيل) وبوتريس (البترون) وطرابلس واورثوسياس وعكار واندراادوس وجميعها اسقفيات خاضعة لمتروبوليت صور . فلام المجمع البطريرك القسطنطيني على هذا التعدي . وحكم باعادة تلك الاسقفيات الى متروبوليت صور .

وفي الجلسة السادسة حضر مرقيانوس وخطب محرضاً على السلام واستقامة الرأي . ثم تلى التعديد فأفضاه الآباء وصدقه الامبراطور . وفي الجلسة السابعة سلخت فلسطين الأولى والثانية والثالثة عن انطاكية وضمت الى

اوروشليم . وتصلح البطريكان الانطاكي والاوروشيبي واعيدت فينيقية  
وبلاد العرب الى البطريكية الانطاكية . وعرف اسقف اوروشليم بطريركاً  
لاول مرة . وفي الجلسة الخامسة عشرة سنّ المجمع ثلاثين قانوناً وقررت  
رتب الأسقفيات الرئيسة ومن يقدم ويؤخر من البطارقة . واثبت في  
قوانين المجمع ان تكون لاسقف القسطنطينية « رومة الجديدة » المنزلة نفسها  
التي لاسقف رومة القديمة . ولكن نواب البابا اعترضوا على هذا القرار  
واظهروا عدم الرضى .

## الباب الرابع

# تطور النظم وتمشيق الفكر والفن والدولة

•

## الفصل التاسع

### اباطرة النصف الثاني من القرن الخامس

(٤٥٠ - ٥١٨)

موقيانوس : ( ٤٥٠ - ٤٥٧ ) وتوفي ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من تموز سنة ٤٥٠ ولم يترك ولداً ذكراً . فانهى بوفاته حكم الامرة الثيودوسية . وأوصى قبل وفاته بان يخلفه مرقيانوس احد قادة جيشه . وتزوجت بلشيرية اخت ثيودوسيوس من مرقيانوس هذا ولكن زواجاً سميماً ، فقد اشتطت ان تبقى عذراء وان تقتصر زيجتها على المشاركة في ادارة الامبراطورية . وهكذا اصبح الامبراطور الجديد صهر الاسرة المالكة ، وكان رجلاً حازماً عادلاً يتمتع بتأييد الجيش ، فوفقت فيه رومة الجديدة الى حاكم مناسب .

وأعلن مرقيانوس انتهاء الظلم والفوضى باعدام خريسايفوس الحضي . ثم منع بيع المناصب وتنازل عن الاموال المتأخرة للدولة وحوّل المبالغ التي

كانت تنفق على الالعب السنوية الى ترميم الاقنية وجر المياه . واسعفه الحظ بان توفي زينون زعيم الاسوريين . وكان هؤلاء قد عاثوا في البلاد فساداً منذ السنة ٤٤١ فسكنوا بموت زعيمهم واستتب الامن في آسية الصغرى . وضرب مرقيانوس مناذرة الحيرة احلاف الساسانيين ضربة قاضية ، فتعمت سورية بالراحة والطمأنينة . وسار هذه السيرة في مصر فوقف هجمات اهل النوبة ودفع شرم . وفي فلسطين وسورية ولبنان اعتق عدد من الرهبان بدعة ديوسقوروس وهاجوا وماجوا احتجاجاً على مقررات مجمع خلقيدونية فعهد مرقيانوس الى اخضاعهم بالقوة المسلحة . وكذلك وافقه الحظ بان توفي اتيلا زعيم الهون فتمكن مرقيانوس من استبقاء المال الذي كان يدفع سنوياً لهؤلاء .

لاوون الاول : ( ٤٥٧ - ٤٧٤ ) وتوفيت بلثيرية في السنة ٤٥٣ وتبعها مرقيانوس في السنة ٤٥٧ ولم يكن لهما وارث . فاتجهت الانظار الى قائد الجيش الاعلى أسبار . على انه لم يكن باستطاعته ان يتبوأ العرش لانه كان آلانياً آريوسياً . فوقع الاختيار على وكيل خروجه لاوون فتربع على عرش القسطنطينية . وكان لاوون ادارياً قديراً وسياسياً محنكاً ، فاصطنع منافساً ينافس أسبار هو زينون الاسوري وذلك بان انشأ حرساً امباطورياً من الاسوريين الجبلين الاشداء . واتي بزعيمهم وازوجه من بنته ارياذنة ( ٤٦٧ ) . ويطش زينون ورجاله البسلاء بأسبار وحرسه ( ٤٧١ ) . فتجت بذلك رومة الجديدة من حكم البرابرة .

ونشب خلاف بين لاوون وبين فيروز ملك الفرس حول مصير دويلة مسيحية على شاطئ البحر الاسود بين الامباطورية الرومانية وبين القوقاس هي امارة « لازقة » خلقيس القديمة . ولكنه خلاف لم يؤد الى حرب او قتال . وكان اهم منه تدفق القوط الشرقيين على ايليرية واحتلالهم ديبراتزو .

فعاد لاوون يدفع الاعانة المالية السنوية الى القوط وهدأت الحال (٤٥٩) وجعل ملك القوط ابنه ثيودوريك رهينة في القسطنطينية . غير ان هؤلاء القوط الشرقيين ما عتصوا ان استأنفوا الغزو في السنة ٤٦٧ متعاونين هذه المرة مع الهون . ثم اسرع الشقاق الى صفوفهم فأعلنوها فيما بينهم حرباً شعواء ادت الى اضعاف الطرفين .

زينون : (٤٧٤ - ٤٩١) وتوفي لاوون الاول في السنة ٤٧٤ فتولى العرش بعده حفيده لاوون الثاني ابن بنته ارياذنة . وكان لا يزال في السادسة من عمره . فأشرك الولد والده زينون الاسوري في الحكم ، وتوفي بعد بضعة اشهر . فعظم امر الاسوريين في الدولة وتسنموا اعلى الوظائف واكبرها . وما يرحوا كذلك حتى انتهاء عهد زينون .

وفي ايطالية كانت السلطة كلها قد اصبحت محصورة بالقواد العسكريين البرابرة ، فكانوا ينصبون الاباطرة ويعزلونهم حسب اهوائهم . ومن غرائب الاتقان ان آخر الاباطرة في الغرب دعي رومولوس اوغوستولوس . وهكذا وافق اسمه اسم المؤسس الحرافي لرومة نفسها . وقد خلعه العسكر البرابرة في السنة ٤٧٦ ونصبوا مكانه احدم ادواكر . ثم ابلغ القادة البرابرة زينون في القسطنطينية انهم يعترفون بسيادته . فصدر امره الى ادودواكر ان يتولى زمام الحكم وان يتسع بقلب « نيل » .

ولكن ادودواكر استقل بالحكم ولم يكتوث لسيده الشرعي في القسطنطينية . ورأى زينون ان ليس بوسعه ان يكرهه على الطاعة . وخاف مغبة امره . فالتفت زينون شطر القوط الشرقيين في شمالي البلقان الغربي . وكان هؤلاء يستوجبون اهتمامه اهتماماً كلياً . فعمل زينون على توجيههم شطر ايطالية ووفق الى ما اراد . فكان ان زحف ثيودوريكوس ملك القوط الشرقيين الى ايطالية قبيل وفاة زينون واستولى على رايينة ثم بعد وفاة زينون (٤٩٣) خلع ادودواكر وجلس مكانه ملكاً على

ملكة قوطية شرقية ذات حول وطول. وامتدت سلطته على ايطاليا وصقلية وجزء من غالية واسبانية .

الايوثيكون : ( ٤٨٢ ) ولم يخضع الجميع لمقررات المجمع المسكوني الرابع فظل السواد الاعظم من النصارى في مصر وسورية وفلسطين يقول بالطبيعة الواحدة . ولم يشر حزم مرقيانوس ولاون الاول . وسعر زعماء الكنيسة بخطورة الموقف . وأراد اكاكيوس بطريرك القسطنطينية ( ٤٧٢ - ٤٨٨ ) وبطرس بطريرك الاسكندرية ( ٤٧٧ - ٤٩٠ ) ان ينقذا الموقف وان يعيدا الى الكنيسة وحدتها المفقودة . فاقترحا على زينون ان يصار الى التراخي بانتهاج سبيل وسط . فأصدر زينون في السنة ٤٨٢ الايوثيكون «كتاب الاتحاد» فشجب تعاليم نستوربوس واوطيخة معاً وقرأ رأي كيولس الاسكندري واجتنب الكلام في الطبيعة الواحدة والطبيعتين . وهكذا رفض رفضاً لبقاً ما كان اقره المجمع الخلقيدوني الاخير . ولكن الايوثيكون بدلاً من ان يؤلف القلوب ويوحد الصفوف سقر نار الشقاق والتفرقة لانه لم يرض الارثوذكسين ولا اصحاب الطبيعة الواحدة . وانشق في مصر عن البطريرك بطرس قسم من جماعته فألفوا طائفة مسموها الآكيغلي اي العادمة الرأس . وكتب الارثوذكسيون الى اكاكيوس بطريرك القسطنطينية يلومونه على مماثاته بطرس الاسكندري . فلم يكثر البطريرك بل أجبر الكثيرين منهم على القول بكتاب الاتحاد . فكتبوا الى بابا رومة فيلكس الثالث ( ٤٨٣ ) . ولكن هذا بدل ان يرسل اكاكيوس مستوضحاً حسب العادة القديمة عقد جمعاً محلياً وحرّم بطرس واكاكيوس . فلما علم اكاكيوس بهذا محا اسم البابا من ذبتيخا الاساقفة . وهكذا نشب شقاق استمر اكثر من خمس وثلاثين سنة ( ٤٨٤ - ٥١٩ ) . وتوفي اكاكيوس في السنة ٤٩١

فخلفه في كرسي القسطنطينية افراويطاس<sup>١</sup> ( ٤٨٨ - ٤٨٩ ) وكان مداهاً متلاعباً . ولكن سرعان ما انتقض مدته . فخلفه اوفيسيوس<sup>٢</sup> العاقل ( ٤٨٩ - ٤٩٥ ) فظهر استقامة رأيه في ما بعث به من رسائل التحية الاخوية لمناسبة تبوئه السدة البطريكية . واوشك ان يعود الاتحاد بين الشرق والغرب لو لم يطالب البابا بحو اسم اكاكيوس من الديثيخا .

واما في انطاكية فان راهباً من رهبان القسطنطينية بطرس القصار<sup>٣</sup> ألف حزباً ضد البطريك مرتيريوس ( ٤٥٩ - ٤٦٩ ) واحداث قلاقل . فاستقال مرتيريوس . وحل القصار محله بطيريكاً وأيد اوطيخة واحداث زيادة في التسييح وعلم هكذا : قدوس الله ، قدوس القوي ، قدوس الذي لا يموت ، « الذي صلب من اجلنا » ، ارحمنا . ومن السنة ( ٤٨١ - ٤٨٥ ) تولى كلنديون الكرسي البطريكي في انطاكية وجمع جمعاً محلياً رجوع فيه الى تأييد قرارات خلقيدونية .

وهكذا دخلت الكنيسة في دور من الفوضى كثرت فيه سيامة الاساقفة زوجاً زوجاً ارثوذكسين ومونوفيسيين في وقت واحد . ومدت الايدي الى الكرامي لخلع هذا وتنصيب ذلك . وكان من اهم اسباب هذه الفوضى سعي الاباطرة لاسترضاء المونوفيسيين في مصر وسورية لكثرة عددهم ولضعف هيئة السلطة المركزية اذ اخرجتها مشاغل اخرى . وظلت الحال على هذا المنوال حتى ظهرت كنيسة مونوفيسية مستقلة في مصر ، وكنيسة مثلها في سورية ، واخرى في ارمينية .

انسطاسيوس الاول : ( ٤٩١ - ٥١٨ ) وكان زينون قد سعى سعياً

*Fravitas.* ١

*Euphemios.* ٢

*Pierre le Foulon.* ٣

حينئذ لا جلاس اخيه لونيغينوس على العرش بعده . ولكن زوجته ارياذنة الامبراطورة لم ترَ في لونيغينوس الكفاءة اللازمة فانتمت انسطاسيوس الورع ورفعته الى منصة الحكم وكان انسطاسيوس في الحادية والستين من العمر ، قد قضى شطراً وافراً من حياته في القصر معاوناً في التشريعات ، وله شهرة في الورع والتقوى ودمائة الخلق . وعلى الرغم من ميله الى القول بالطبيعة الواحدة فان الشعب قابل ارتقاءه بالهتاف : « ليكن عهدك في الحكم كعهد مرقيانوس وكسيرتك في حياتك الشخصية . » وامتدط البطريك اوفيموس العاقل الا يجيد الامبراطور عن العقيدة الارثوذكسية وان يكتب قبل التوقيع تعهداً بذلك . ففعل وتقبل تلجه من يد البطريك .

وتبين له فوراً ، بعد جلوسه على العرش ، ان الشعب لم يكن راضياً عن سلوك الاتوريين رجال زينون في العاصمة ، وان هؤلاء كانوا ينسجون مؤامرة عليه . فعزلهم عن مراكزهم العالية وصادر املاكهم ، واقصاهم في خارج العاصمة . فسار ثائرم في بلادهم في غربي آسيا الصغرى . واضطر انسطاسيوس ان يلجأ الى القوة فحاربهم ست سنوات متواصلة الى ان اخضعهم . ثم نقلهم الى تراقية ( ٤٩٨ ) .

وكانت قد ظهرت طلائع القبائل البلغارية تتبعها قبائل الصقالبة . وبعض هؤلاء كان قد دخل في خدمة الدولة ، فلم يكن بد من الاصطدام واستعمال القوة . واندفع الصقالبة فبلغوا الى ثسالبة في السنة ٥١٧ . فرأى انسطاسيوس ان يوسع النطاق العسكري حول العاصمة . فأنشأ سوراً جديداً امتد من بحر مرمره حتى البحر الاسود مسافة ثمانية وسبعين كيلومتراً . فسمي السور الطويل كما سمي سور انسطاسيوس . ولم يرض انسطاسيوس عن ثيودوريكوس . ولم يعترف بحكمه على

إيطالية قبل السنة ٤٩٧. وفي السنة ٥٠٥ تدخل ثيودوريكوس في شؤون  
البلقان وعاون فريقاً من البرابرة على فريق. فارس انسطاسيوس في  
السنة ٥٠٨ اسطولاً الى مياه ايطاليا للمساعدة والتخريب. ورأى ان  
كلوفيس ملك الافرنج هو عدو ثيودوريكوس فانعم عليه بلقب قنصل.  
فوجد ثيودوريكوس ان ليس من الحكمة ان يمضي في تحدي الامبراطور  
فأظهر ليناً وتم بينهما اتفاق ولكن على مضمض وقلب عكر.

الحرب الفارسية: (٥٠٢-٥٠٦) وكان قد اعتلى عرش ساسان  
قباد الاول ابن فيروز. وأحب ان يوطد سلطته في بلاده. فراقه مذهب  
المزادكة من اتباع ماني، ولاسيا مطالبتهم بالعدل الاجتماعي وبالمساواة بين  
القوي والضعيف، والغني والفقير. فرأى قباد ان في ذلك وسيلة للتخلص  
من تصلب الزعماء وتصلفهم. ولكن هؤلاء تيقظوا للامر فتألبوا عليه  
وعاونهم في ذلك رجال الدين القومي القويم دين زرادشت. ثم تغلبوا عليه  
وابعدوه عن الحكم وجاؤوا باخيه بيلاش. واستطاع قباد ان يفر من  
السجن ويلوذ بالهون البيض في شمالي ايران والى شرقها، وكانت بينه  
وبينهم مودة. ووعدهم بزيادة الاثاوة التي كانت تدفعها اليهم حكومة  
فارس اذا هم امدوه فلبوه، فتمكن بعد سنتين (٤٩٩) من ان يستعيد  
زمام الحكم.

وطلب قباد الاول الى زميله انسطاسيوس الاول ان يُجده بقرض  
مالي يدفع به ما ضمنه للهون. ولكن انسطاسيوس كان بطبيعته مقتصداً،  
ورأى الا يدفع شيئاً الى قباد كي لا تتمكن اواصر التعاون بينه وبين  
الهون. ففضض قباد وجأ الى الحرب مستعيناً بالهون، وبالنعمان الثاني ملك  
الحيرة وقومه العرب<sup>١</sup>. وخان قومس ارمينية الرومية سيده فاستولى قباد على

١ وهو في الارجح الثمان ابن الاسود. قضى مدة حكمه خارج الحيرة بجارب الروم  
في سورية والجزيرة. وتوفي في السنة ٥٠٤ في اثناء حصار الرها.

ارضروم (ثيودوسيوبوليس) دون مقاومة (٥٠٢). ثم حاصر آمد (ديار بكر) فدافع اهلها عنها دفاعاً مجيداً. ولكن ذهول قته من الرهبان، كانوا قد وظفوا على حراسة قطاع معين من الاسوار فناموا نوم السكارى، مكثن قبازمن الاستيلاء على آمد والفتك باهلها (٥٠٣).

ثم فوجيء قباز بموجة جديدة من المون تدفقت عبر القوقاس وبانضمام زعيم ارمني وامير عربي الى قوات انطاسيوس فاستطاعت قوات الروم ان تعبر حدود فارس (٥٠٤) وان تتوغل في اراضيها، فطلب قباز السلم في السنة ٥٠٦. وحصن انطاسيوس دارا واقامها قلعة في وجه نصيين الفارسية، كما زاد في تحصينات اليرة والصالحية على حدود الفرات<sup>١</sup>.

المالية: واشتهر انطاسيوس بشقته وراقته، فأدخل اصلاحاً مالياً لا يزال غامضاً، لان احداً من المؤرخين المدققين لم يعن به بعد. وانما يستدل من بعض النصوص الاولية ان انطاسيوس ألغى في السنة ٤٩٨ ضريبة كانت تجبي ذهباً وفضة من جميع اصحاب الحرف والمهن ومن الخدمة والشحاذين والنساء العموميات، وهي ضريبة الخريسانغريون<sup>٢</sup>، كما انه ألغى في السنة نفسها مسؤولية الكوريالس (القبابات) عن مجموع الضرائب المفروضة على بلدتهم وانشأ نظاماً للجباية المباشرة. واستعاض عن النقود البرونزية الصغيرة باربعة انواع اكبر منها سهلت التعامل التجاري واعانت على الانعاش الاقتصادي. وانشأ انطاسيوس ضريبة على الاراضي<sup>٣</sup>

*Christensen, A., L'Iran sous les Sassanides, 335, 347-353.*

*Chrysargyron.*

*Chrysoteleia.*

١

٢

٣

لدفع مرتبات الجند في اوقاتها.

الطبيعة الواحدة : وكان انسطاسيوس كلما زاد سنًا ازداد تعلقاً بالطبيعة الواحدة . فأدى تشبهه بها الى اضطرابات متتالية في العاصمة وفي الاسكندرية وانطاكية . وحاول ان يسترجع التعهد الذي كان قد كتبه قبيل تنويجه وسله الى البطريك اوفيموس فلم يستطع . فجمع مجعاً حلياً سنة ٤٩٦ وقطع البطريك ونفاه . قتولى البطريكية بعده مقدونيوس الثاني . وكان هذا نقي السيرة مستقيم العقيدة محبوباً ، فعني عناية خاصة بمصالحة بعض وهبان القسطنطينية الذين تباعدوا عن الكنيسة منذ ظهور الابنوتيكون فلم يستطع . فعقد مجعاً حلياً ثبت فيه قرارات المجمع المسكوني الرابع . ونوى ان يكتب بذلك الى كنيسة رومة . فمنه الامبراطور وحاول اقناعه بوجوب شجب قرارات المجمع المسكوني الرابع . فلم يجب البطريك طلبه . فلجأ انسطاسيوس الى المشاغبة وشجع البعض على الدخول الى الكنيسة في اوقات الصلاة لاضافة العبارة « المصلوب من اجلنا » في التسبيح الثلاثي وذلك فيما المرتلون يرتلون . وفي السنة ٥١١ نفى البطريك مقدونيوس واوعز بتنصيب تيموثاوس الاول ( ٥١١ - ٥١٨ ) . وكان هذا رجلاً متقلباً فحرم قرارات المجمع الرابع وعقد اتفاقاً مع يوحنا النيقاوي بطريك الاسكندرية وسويروس بطريك انطاكية وكانا من اصدقاء المجمع الرابع . واضطر متروبوليت سلانيك ان يوافق تيموثاوس خوفاً من الامبراطور فتظاهر الشعب ضد الامبراطور والبطريك معاً . وعقد اربعون اسقفاً من البلقان وبلاد اليونان مجعاً

١ وافضل ما يرجع اليه في هذا الموضوع عموماً ما يلي :

*Wright, W., The Chronicle of Joshua the Stylite, Brooks, E. W., The Eastern Provinces from Arcadius to Anastasius, Stein, E., Studien zur Geschichte des Byzantinischen Reiches.*

وقطعوا علاقاتهم مع تيموثاوس ودخلوا في شركة البابا بطريرك رومة .  
ثورة فيتاليانومين : ( ٥١٢ - ٥١٨ ) وتتابع ضغط الامبراطور على  
الارثوذكسيين فثار فيتاليانوس قائد فرقة بلغارية في الجيش واحتل وارثة  
على البحر الاسود ثم تقدم نحو العاصمة مطالباً بالغاء التسبيح المونوفيسيقي  
وباعادة البطارقة الارثوذكسيين من منقاهم وهاجم العاصمة براً وبحراً .  
فصدّ ولكنه لم يُغلب . فعاد برفاله الى بورغاس وبقي فيها ثراً غاضباً  
حتى وفاة الامبراطور في التاسع من تموز سنة ٥١٨ .

## الفصل العاشر

### تمشيق الفكر والفن والدولة

الدولة تتطور وتتحول الى دولة شرقية : وانتهى أمر الامبراطورية الغربية بسقوط رومة في السنة ٤٧٦ . واستقر البرابرة في غالبية واسبانية وافريقية وايطالية وفي جزء من ايليرية . فأصبح ما بقي من الدولة الرومانية شرقياً صرفاً . واشتمل على شبه جزيرة البلقان ما عدا اطرافها الشمالية وعلى آسيا الصغرى حتى جبال ارمينية وعلى سورية حتى الفرات وعلى مصر والقيروان . وقيل اهتمام الاباطرة بالغرب وشؤونه فنودي بمرقيانوس امبراطوراً في السنة ٤٥٠ دون استشارة الامبراطور الغربي في راينة . وجرى مثل هذا في السنة ٤٥٧ عندما تبوأ لاوون الاول عرش القسطنطينية . ولم تبعاً حكومة القسطنطينية بما حل برومة من كوارث . فلم يحاول مرقيانوس بذل اي مساعدة عندما دخل الوندال الى رومة في السنة ٤٥٥ . واختط لاوون الاول لنفسه سياسة سلم ومسالمة في علاقاته مع البرابرة في الغرب . وزاده تمكناً بهذه السياسة فشله في حملته على افريقية في السنة ٤٦٨ . ولم تكن محاولة التوحيد بين الشرق والغرب ، تلك المحاولة التي قام بها زينوب في السنة ٤٨٨ ، سوى حلم طارىء لا قيمة له .

وتطور في هذه الآونة نفسها نظام الحكم في الداخل فأصبح شرقياً

أكثر من ذي قبل . فتسلم مرقيانوس في السنة ٤٥٠ تاجه من يد بطريك القسطنطينية لأول مرة في تاريخ الدولة . وحذا حذوه لاوون الأول في السنة ٤٥٧ . فانخذ التتويج صفة دينية . وأصبح الحق في الحكم إلهياً شرقياً . واستعاضت العامة عن لقب امبراطور باللقب فيلسف . وبدأت اللغة اليونانية تنتشر في الدوائر الرسمية . وظهر الفيلسوف وبلاطه وعماله بظاهر الابهة والجلال الشرقيين ، إن في الملابس ، او في الاثاث ، او في العربات . يؤيد ذلك ما رواه صاحب سيرة بورفيربوس اسقف غزة . ذكر عن هذا الاسقف انه عندما دخل الى القصر واشترك في حفلة عماد الطفل ثيودوسيوس الثاني في السنة ٤٠١ خال انه في الجنة لا على الارض . واستوعى هذا التزييد الشرقي في البذخ والترف انظار يوحنا الذهبي الفم وسيناسيوس فحملا عليه بشدة .

وتمشقت الكنيسة ايضاً وأصبح الشرق هو الحيز الذي تدور فيه حوادثها الكبرى ، وتنطلق منه حركاتها الفكرية . فاعظم المشاكل التي اعترضت تاريخ الكنيسة قد حدثت في الشرق ، وكذلك مجامعها المسكونية كلها انعقدت في الشرق . وهذا ما خول بطريك القسطنطينية ، وهو يناظر زميله بابا رومة ، بعد خضوع الغرب لملوك من الآريوسيين البرابرة ، ان يقول : « لم يبق سوى امبراطورية مسيحية واحدة هي امبراطورية الشرق . ولم يبق سوى كنيسة مسيحية واحدة هي كنيسة الشرق . »

**الفكر والفن والثقافة :** وكانت حضارة الامبراطورية الرومانية قد تأثرت منذ زمان بعيد بنفوذ المدنية اليونانية الهلينية . ولكن هذه الحضارة في القرنين الرابع والخامس ألفت مقاليدها الى الشرق واتخذته اماماً تأتم

*Vie de Porphyre de Gaza (éd. Grégoire), 47-48; Bury, Later Rom. Emp. ١ I, 142-147; Paeck, Saint Jean Chrysostome et les moeurs de son Temps, (Paris), 1891.*

*Duchesne, Hist. Anc. de L'Eglise, III, Ch. XIII.*

به في الفكر والثقافة . ومع ان اللغة اللاتينية بقيت اللغة الرسمية في الشرق .  
فان اللغة اليونانية أصبحت دون ريب هي اللغة السائدة .

وأصبح النتاج الفكري والفني في الشرق آسيوياً افرقياً اكثر منه  
اوروبياً . ويذهب الاستاذ كرومباخر الاختصاصي الالماني الى ان مبلغ النتاج  
الفكري الذي كانت تنتجه الولايات الاوروبية في الدولة الرومانية الشرقية لم  
يكن يتجاوز العشرة في المئة من مجموع النتاج . وكانت اهم مراكز هذا  
النتاج الاسكندرية وانطاكية وبيروت وقيصرية فلسطين وقبوقية والرها .  
الاسكندرية : ولا يخفى ان اساتذة المتحف الاسكندري العظيم

كانوا قد حُرموا التخصّصات اللازمة لعمالهم منذ اوائل عهد كركلا (٢١١)  
وان هذا الامبراطور الغاشم كان قد طرد من الاسكندرية العلماء الغريباء  
عنها . ولا يخفى ايضاً ان جنود زينب الزباء عندما دخلوا الى الاسكندرية  
ظافرين (٢٧٠) نهبوا واحرقوا المباني العمومية التي كانت تحيط بقبر  
الاسكندر . واتسع هذا التخريب حتى لم ينج منه المتحف العظيم . ومع  
ان هذه المؤسسة بقيت تعمل بعد القرن الثالث فان نتاجها بات نزرأ  
ضعيفاً . فلم يشتهر من اساتذتها شهرة واسعة سوى اباتية الفيلسوفة  
( ٣٧٠ - ٤١٥ ) بنت ثيون الرياضي . وكانت جميلة الخلق والخلق ترتدي  
زي الفلاسفة وتلقي الدروس في الافلاطونية الجديدة في بعض مدارس  
الاسكندرية ، وفي باحاتها العمومية . وعرف من تلامذتها سيناسيوس  
القيروني واورستوس الحاكم وهو الذي كان سبباً في هلاكها . فقد  
زجر اورستوس الجماهير المسيحية عندما صفت على اليهود في السنة ٤١٥  
وقبض على احد الرهبان المتهورين وشدد عليه في التعذيب فتوفي بين يديه .  
فثار عليه سخط الجماهير . ولما كانت اباتية معلمة وصديقة لاورستوس فقد

هاجها الجمهور اذ صادفها خارجة من بيتها وانمال عليها حتى ماتت تحت الضرب<sup>١</sup>.

وأدى الصراع بين الوثنية والنصرانية الى الاجتهاد في التاريخ والمنطق والفلسفة : وكان من الطبيعي جداً ان يحدث الجدل في امهات المدن ولاسيما الاسكندرية ، وان تعنى الكنيسة فيها بهذه العلوم العالية في سبيل الدفاع عن الايمان . ولا نعلم بالضبط متى نشأت مدرستها اللاهوتية الفلسفية التي عرفت بالاسم اليوناني الـذيداسقاليون . والذيداسقالية عند اليونان طريقة الشعراء في تدريب الممثلين . ويقول يوسيبوس المؤرخ : « اشتهرت كنيسة الاسكندرية منذ عهد قديم بمدرسة للعلوم المقدسة ، كان يتولى امرها رجال عرفوا بقوة العارضة وتميزوا بالاجتهاد في الصلاح والحث على التقوى . وكان اطولهم باعاً بنطينس النابغة في ادب الحكمة<sup>٢</sup> ، وخلف بنطينس هذا في رئاسة ذيداسقاليون الاسكندرية في السنة ٢٠٠ تلميذة اقليس الاسكندري<sup>٣</sup> ( ١٤٥ - ٢٢٠ ) . ولد وثناً ايضاً في آثينة وتميز في الفلسفة وطاف بلاداً كثيرة حتى « ألقى عصاه في الاسكندرية » . وكان يجتمع حول منبره طبقات الناس من علماء واغنياء وغيرهم . وكان هو يجرتض الوثنيين على هجر خرافاتهم ، ساخراً من آلهتهم ، ويعلم المهتدين مبادئ الرسالة المسيحية . وافضل ما اشتهر به في تاريخ الفكر

١ وقد خلف الروائي الانكليزي تشارلس كنزلي قصة ابائية يرامه الساحر ونقل روايته الى العربية العالم البناني الدكتور خليل سعادة .

٢ عن الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة لعلامة الطريرك اغناطيوس فرام برصوم ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .  
وبنطينس هو Pantaeus الشهير . كان وثناً من ابداع زينون الفيلسوف قصير واجتهد في تفسير الاسفار المقدسة . وبشر بالايان في اليمن ويقال في الهند ايضاً . وهو الذي يقال عنه انه وجد في اليمن او في الهند نسخة من انجيل متى بالآرامية .

قوله : « ان الفلسفة تقود الى الكمال من يلي دعوة المسيح » ، وقوله : « ان الفلسفة في نظري ليست الرواقية ، ولا الافلاطونية ، ولا الابيقورية ، ولا الارسطوطاليسية ، وانما هي كل ما تعلمه هذه المذاهب للوصول الى العدل والحقيقة<sup>١</sup> . » وكان هدفه الاسامي فيما يظهر ان يبرهن للملأ ان العقيدة المسيحية لم تكن لتقل شيئاً عن اي فلسفة زمنية . وهكذا يكون اقليس الاسكندري اول من حاول ان يعطي العقيدة المسيحية المرتبة اللائقة بها ، ويكون ايضاً في مقدمة الآباء الذين حاولوا التوفيق بين النصرانية والفلسفة . وأشهر مؤلفاته كتاب ارشاد اليونانيين ، وكتاب المعلم ، وكتاب الاستومات او « الوشاء » كما اقترح غبطة البطريك اغناطيوس افرام ، وهو مجموعة آداب وتأملات وتفسير وتأويل لبعض ما جاء في التوراة<sup>٢</sup> . ولما اغلقت مدرسة الاسكندرية ، لما حلَّ بالنصارى من الاضطهاد في السنة ٢٠٢ ، لجأ اقليس الى قبطية وأقام عند تلميذه الكسندروس اسقف قيسرية . ثم انتقل الى انطاكية في السنة ٢١١ . وكانت وفاته في السنة ٢١٥ او ٢٢٠ .

على ان اشهر من علم في ذينداسقاليون الاسكندرية اوريجانيوس العظيم . ولد في مصر في بيت مسيحي في السنة ١٨٥ او ١٨٦ ، وتلقى مبادئ علومه عن ابيه ليونيداس وأخذ عن اقليس ايضاً . وأستشهد والده في السنة ٢٠٢ وصودرت أمواله واوريجانيوس لا يزال في السابعة عشرة . فشكته سيدة مسيحية بعطفها . فتابع دروسه في الفلسفة والدين . وأنجز علومه الفلسفية وهو في الخامسة والعشرين في مدرسة امونيوس صقاس<sup>٣</sup>

*Patrologia Graeca. VIII, 717 - 720.*

٢ الدرر النفية في تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

*Ammonius Saccas.*

الافلاطوني الجديد . ودرس العبرية ليستعين بها على فهم التوراة . ودرّس في الديداسقاليون وأدخل اليه العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية . وعلمّ الشبان والشابات معاً . ودفعاً للريبة وزيادةً في التعبد والتشف عمل بمنطوق الآية الثانية عشرة من الفصل التاسع عشر من انجيل متى . ولم يؤثر عمله هذا في تعلق طلابه به واحترامهم له . وفي السنة ٢١٢ ذهب الى رومة لزيارة الكنيسة « العريقة في القدم » . وفي السنة ٢١٥ لجأ الى فلسطين من شدة الاضطهاد الذي أنزله كركلا بالمسيحيين في مصر . وأقام في قيصرية . فوكل اليه اسقفها واسقف اوروشليم شرح الاسفار المقدسة . ثم عاد الى الاسكندرية واستأنف التدريس حتى السنة ٢٣٠ . وفي اثناء هذه الحقبة عاد فرّ بقصرية فلسطين فاحتفى به اسقف قيصرية اوروشليم وساماه قساً . فاعتاز اسقف الاسكندرية واسقطه من وظيفة التعليم وحرمه . ولكن ذلك لم ينل من ميمته . وبقيت الكنيسة تحترمه لسيرته النقية وعلومه الجمّة . فخرج من الاسكندرية الى فلسطين وأقام في قيصرية وأسس فيها مدرستها اللاهوتية . وفي السنة ٢٤٠ زار آثينة . وزار في السنة ٢٤٤ بلاد العرب . وتوفي في السجن في صور ضحية اضطهاد الامبراطور داقبوس .

ويقول ايفانيوس القبرصي ان اوريجانيوس ألف ستة آلاف كتاب . وأثبت يوسيبوس المؤرخ الفين منها او ما يناهز هذا العدد . ومن مؤلفاته المكسبة<sup>١</sup> ، اي ذو الاعمدة الستة . وهو مؤلف كبير اشتمل على ست ترجمات للتوراة في ستة اعمدة . وخص المزامير بثاني ترجمات في اعمدة ثمانية ، فعرف مؤلفه هذا بالأوكتابلة<sup>٢</sup> . وشرح اسفار التوراة والانجيل

*Hexapla.*

١

*Octapla.*

٢

برسائل عديدة ، فعمد الى الاستعانة بالمعاني الرمزية والتأويل . ورد على قلسوس  
 الفيلسوف الوثني مدافعاً عن النصرانية<sup>١</sup> . وكتب في المبادئ<sup>٢</sup> في اللاهوت  
 وفي القيامة وفي الصلاة وفي التحريض على الاستشهاد وما الى ذلك .  
 ويرى الاستاذ بركت ان ما ذهب اليه اوريجانيوس من تأويل في  
 كتاب المبادئ لم يثر ضجة كبيرة عند ظهوره وان قطع اوريجانيوس فيما  
 بعد انما نشأ عن عوامل شخصية اهمها الحسد<sup>٣</sup> . وبما أحتج به عليه فيما  
 بعد قوله بخلق النفوس خلقاً سابقاً على الاجساد وقوله بان العذاب في  
 الآخرة منتبه الى نهاية وبان العفو يشمل حتى الشياطين ، ثم قوله بالتناسخ  
 وتقمص النفوس وبالطهير بالنار في الآخرة وبالتفاوت بين الاقانيم الثلاثة ،  
 عدا ارتيابه في حقيقة جسد المسيح ودمه<sup>٤</sup> . ومكانة اوريجانيوس في  
 تاريخ الفكر تستند الى انه سبق غيره من الآباء في تأسيس علم اللاهوت  
 علماً قائماً بذاته . وجل ما فعله غيره من الآباء الذين سبقوه كاقليمس  
 ويوستينوس هو انهم حاولوا ان ينقلوا المبادئ المسيحية الى الاوساط  
 العلمية بثوب فلسفي يوناني . اما اوريجانيوس فانه سخر الفلسفة اليونانية  
 ولاسيما الافلاطونية الجديدة لتشييد بناء فلسفي نصراني على دعائم من  
 الاسفار المقدسة .

وبما ان معظم كتب اوريجانيوس مفقودة فليس من اليسور بحث

*Contra Celsam.*

١

*De Principiis.*

٢

*Burkitt, G. F. , Christian Church in the East (Cambridge Anc. Hist.*  
*Vol. XII, Ch. XIV), p. 484.*

٣

٤ الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

٥ ويجدر بكل راغب ان يقرأ الفصل السابع بكامله من كتاب دانيال روبس : « كنيسة الرسل  
 والشهداء » .

آرائه لمن شاء ذلك . ويزيد في الطين بلة ما تعرضت له مصنفاته من تحريف وما نسب اليه من اذليل لم يكن هو صاحبها . « وصفوة القول ان هذا العلامة أحب الحقيقة المسيحية حباً صادقاً ووقف عليها حياته وقريحته وقواه بامرأها . فصحة دينه ورسوخ تقواه تعدلان سمو علمه بالرغم عما هفا فيه من السقطات التعليمية . »

وخلف اوريجانيوس في رئاسة مدرسة الاسكندرية هيرقليوس ثم ديونيسيوس البطريك ( ١٩٠ - ٢٦٥ ) . ولد ديونيسيوس في مصر من امرة وثنية . وتنصر ، وقرأ على اوريجانيوس ، وعلت منزلته فسم بطريكاً على الاسكندرية وتوابعها في السنة ٢٤٨ . وله مؤلفات منها كتاب في الطبيعة نقض فيه نظرية آتومستيك في خلق العالم ، وكتاب في المحن والاضطهادات ، وآخر في المواعيد الالهية نقض فيه الاعتقاد بالملك الف سنة وغير ذلك . وليس لنا ان نذكر هنا جميع من لمع من رجال هذه المدرسة في القرن الثالث ، ولكن لا بد من القول انها قد عظم شأنها منذ ايام اوريجانيوس وأصبح رئيسها هو الثاني بعد البطريك في كنيسة الاسكندرية . وقد رقي أغلب رؤساء هذه المدرسة السدة البطريكية .

فاما في القرن الرابع فكان اشهر رجالها القديس اثناسيوس البطريك الاسكندري . ولد وثنياً حوالى السنة ٢٩٥ في الاسكندرية . وقرأ ودرس في مدرستها . وسامه البطريك الاسكندري الكسندروس شامساً في السنة ٣١٨ واستصعبه الى مجمع نيقية المسكوني الاول سنة ٣٢٥ فأظهر من الذكاء والعلم والمعرفة ما جذب اليه القلوب . وخلف معلمه في بطريكية الاسكندرية في السنة ٣٢٨ فتناضل في سبيل « المساوي في الجوهر » نضالاً طويلاً ونقي خمس مرات . ولم يكن ذلك الكاتب الاديب

١ العلامة البطريك اغناطيوس فرام برصوم في : الدرر النقية ، ج ١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

الكامل ولا ذلك الفيلسوف الدقيق العميق . ولكنه كان محامياً واضح التفكير قوي الحجة واسع الاطلاع . كتب في تجسد الكلمة وفي لاهوت الابن وفي الاربوسية . واشهر مؤلفاته واكثرها انتشاراً واقواها اثرأ كتابه في سيرة الاب انطونيوس مؤسس الرهبانية في مصر . فقد ظل هذا الكتاب مدة طويلة افضل الكتب في تحييب الترهب في الشرق والغرب معاً . وتوفي البطريرك آثناسيوس في السابع عشر نيسان سنة ٣٧٣ .

وولتّى اثناسيوسُ ذينيسَ الاعمى رئاسة المدرسة حوالي السنة ٣٥٠ وما زال ذينيس رئيساً عليها حتى وفاته في السنة ٣٩٨ . وكان اوريجانياً معتدلاً . على ان تأليفه لم يبق منها سوى كتابيه في الروح القدس والتالوث الاقدس .

ومن اشهر تلاميذ مدرسة الاسكندرية في هذه الحقبة الاخيرة من القرن الرابع سيناسيوس القيروني . ولد وثنياً ودرس في الاسكندرية على ابائية الفلسوفة وغيرها فقبل الافلاطونية الجديدة ومارس اسرارها المصرية . ثم استبدل افلاطون بالمسيح وتزوج من مسيحية . وفي اواخر حياته سيم اسقفاً على بتوليايوس . وكان شديد الاهتمام بالسياسة كما تدل على ذلك رحلته الى القسطنطينية (٣٩٩ - ٤٠٢) وقد سبقت الاشارة اليها . ولم يكن سيناسيوس مؤرخاً . ولكن رسائله المته والست والحسين تشتمل على معلومات تاريخية هامة وتظهر درجة تقدمه في الفلسفة وعلوم اللسان . واصبحت هذه الرسائل فيما بعد نموذجاً مثالياً يقتدي به كل اديب خطيب . اما ترانيمه فانها مزيج غريب من الفلسفة والنصرانية .

وتضعفت مدرسة الاسكندرية بعد وفاة ذينيس الاعمى . ونقلها

رودون الى سيدة في بامفيلية . ثم انقضت حوالى السنة ٤١٠ . وجاء ذلك موافقاً لما حدث في مصر من عدول الاكثوية الى القول بالطبيعة الواحدة ، ما ادى الى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الام بعد المجمع الرابع ( ٤٥١ ) انفصلاً صرفها الى الاهتمام بالقبطية والابتعاد عن اليونانية لغة الفكر والبحث .

انطاكية : وأخطب خطباء هذا العصر وأفصحهم انطاكيان احدهما وثني ليبانيوس والاخر مسيحي يوحنا الذهبي القم . وقد يكون ليبانيوس لبنانياً وقد لا يكون . ولد في انطاكية في السنة ٣١٤ بعد الميلاد وتوفي فيها في السنة ٣٩٣ . وتعلم في انطاكية ثم في آثينة . وعلم في نيقية ونيقوميذية والقسطنطينية . وعاد الى بلده في الاربعين من عمره . وما فقه فيها يعلم ويخطب ويكتب حتى قضى نفيه بعد اربعين عاماً . ولا يزال قسم كبير من خطبه ورسائله محفوظاً حتى يومنا هذا . وفيها صور رائعة لحياة ذلك العصر . وكان ليبانيوس يعتز باليونانية ويزدري اللاتينية فلا يتنازل لتعلمها . واحترق النصرانية واعتبرها عدوة الحضارة وحزن لموت بوليانوس الجاحد فقال قوله المأثور : « اني ذاهب الى الحقول لاتحدث الى الحجارة » . ولما شرع في هدم الهياكل الوثنية قال : « ان هدم الميكل كقطع العين فالهياكل روح المناطق وأعرق المباني فيها » . واما يوحنا الذهبي القم فقد سبق لنا عنه الحديث . ولعل افضل ما يعبر عن اثره في النفوس ومنزله في التاريخ ما قاله نيقوفوروس كالبيستوس في القرن الرابع عشر : « لقد قرأت اكثر من الف عظة له تتدفق حلاوة . ولقد احبته منذ حداثتي

Monnier, E., *Hist. de Libanus*, Paris, 1866; Stevers, *Das Leben des Libanus*, Berlin, 1868; Seeck, O., *Die Briefe des Libanus etc.* Leipzig, 1906; Pack, R. A., *Studies in Libanus*, Michigan, 1935.

واصغيت الى صوته كأنه صوت الله . واتي مدين له بجميع ما اعرفه  
وبنفسى ايضاً . »

واشتهرت انطاكية ايضاً بأميانوس مرسلوس ( ٣٣٥ - ٤٠١ ) . ولد  
في انطاكية من ابوين يونانيين عريقين في الشرف . والتحق بالجيش وتولى  
القيادة العامة . ولعب في غالية وفي ما بين النهرين . ثم تقاعد فعني بالتأريخ  
فكتب تكملة لتاريخ تاسيتوس وذلك بعبارة لاتينية متينة فصيحة<sup>٢</sup> .  
ولم يكن يرى فضلاً في النصرانية ولكنه كان اقل تعصباً من ليبانيوس .  
واحب انطاكية وسورية ولبنان وفاخر بها : « انطاكية لا مثيل لها ،  
وفينقية عند قدم لبنان فتانة جميلة<sup>٣</sup> » .

وكان طبيعياً جداً ان تهتم الاوساط النصرانية في انطاكية في القرون  
الاولى اهتمام الاسكندرية للدفاع عن النصرانية وان تنشأ فيها مدرسة من  
طراز ذينداسقاليون الاسكندرية . فنحن نقرأ انه في السنة ٢٦٩ اتخذ  
بجمع انطاكية المحلي قراراً بقطع بولس السيساطي اسقف انطاكية وصديق  
زينب التدمرية . ونقرأ ان الذي تولى امر تنفيذ اذليل هذا الاسقف كان الاب  
ملكيون « رئيس مدرسة العلوم اليونانية » في انطاكية . ثم نقرأ انه في  
السنة ٢٩٠ اتفق القساوسة لوقيانوس ودوروثاوس وجماعة من الاساقفة  
والقسوس على جعل دارهم مدرسة لتدريس الاسفار المقدسة وشرحها .

وكان لوقيانوس ( ٢٣٥ - ٣١٢ ) سيساطي الاصل درس على الاسقف  
بولس السيساطي الذي علم ان الآب والابن والروح القدس ليسوا سوى  
اقنوم واحد وان المسيح لم يكن ابن الله على الحقيقة وانما كان انساناً

*Patrologia Graeca, CXLVI, 933.*

١

*Res Gestae.*

٢

٣ الفصل الثامن من الكتاب الرابع عشر .

حلّ فيه اللاهوت . وتشرب لوقيانوس شيئاً من تعاليم معلمه فأصابه حكم  
المجمع الذي قطع استاذة . وبقي مبعداً عن الكنيسة حتى نكل عن بعض  
ما قاله فردة البطريرك كيوتس ( ٢٧٧ - ٢٩٩ ) الى درجته في الكهنوت .  
وعني لوقيانوس بتحري نص التوراة السبعينية ونص الانجيل . فضبط  
لهذين السفرين الترجمة التي عمّ استعمالها الكنائس الشرقية . وتوفي لوقيانوس  
وزميله دوروثاوس شهيدين في نيقوميذية ( ازמיד ) في السنة ٣١٢ .

واشهر الآباء الانطاكيين في تاريخ الفكر الديني العقائدي ديودوروس  
الطرسوسي ( + ٣٩٤ ) ويوحنا الذهبي الفم ( + ٤٠٧ ) وثيودوروس المبسوتي  
( + ٤٢٩ ) وثيودوريطس القورشي ( + ٤٥٧ ) . ولد ديودوروس في انطاكية  
في بيت عريق في الشرف والنفوذ . ودرس في آثينة ثم في انطاكية .  
وقام باعباء الخدمة في انطاكية في اثناء المحنة التي ادت الى نفي سيده  
البطريرك ملاتيوس الشهير ( ٣٦٥ - ٣٧٨ ) . وسيم اسقفاً على طرسوس  
في السنة ٣٧٨ . وبوصفه اسقفاً اشترك في اعمال المجمع المسكوني الثاني  
في القسطنطينية سنة ٣٨١ . وكتب في الفلسفة واللاهوت وفي تفسير  
الاسفار . واما ثيودوروس المبسوتي او الانطاكي ، فانه ابصر النور في  
انطاكية في السنة ٣٥٠ او ما يقاربها في بيت وفرّ ويسار ونفوذٍ واقنذار .  
ودرس على ليبيانوس . ثم اجتذبه يوحنا الذهبي الفم الى الدين المسيحي .  
فتقبل النعمة وتنسك وجاور ديودوروس الطرسوسي وكان هذا لا يزال في  
انطاكية . ولم يقدر على متابعة الزهد فعاد الى انطاكية ليتزوج . فوجه  
اليه يوحنا الذهبي الفم رسالته Ad Theodorum Lapsum فعاد الى الرهبانية  
والزهد . وما فتئ يدرس العلوم الدينية على ديودوروس حتى السنة ٣٧٨  
سنة سيامة استاذة اسقفاً على طرسوس . فأما ثيودوروس فإنه سيم كاهناً  
في السنة ٣٨٣ ورحل بعدها الى طرسوس والتحق بعلمه . وما زال فيها  
حتى سيم اسقفاً على مبسوتي في جوار طرسوس . وتوفي في السنة ٤٢٨ .

وهو اكبر من صنف في اللاهوت من رجال انطاكية . ولم يبقَ من تأليفه الا " نزر يسير نظراً لموقف المجمع المسكوني الخامس من تعاليمه . وهو استاذ نسطوريوس . وپروى ان نسطوريوس زاره في مبسوتي وهو في طريقة الى القسطنطينية ليتبوا كرسيا البطريركي فرحب به ثيودوروس واوصاه بالاعتدال<sup>١</sup> . اما ثيودوريطس القورشي فإنه انطاكي ايضاً . ولد في انطاكية سنة ٣٩٣ . وبشّر بولادته مقدونيوس الناسك معلناً استعداد المولود الجديد لتكريس نفسه لخدمة المسيح . فنشأ ثيودوريطس راهباً . واخذ كثيراً عن يوحنا الذهبي الفم وعن ثيودوروس المبسوتي . ورافق في عهد التلمذة نسطوريوس ويوحنا الانطاكي . وقد سيم اسقفاً على قورش في السنة ٤٢٣ وكانت وفاته في السنة ٤٥٧ . وكتب كثيراً . وانفع ما صنف تكملة تاريخ يوسيبوس<sup>٢</sup> .

وكانت مبادئ مدرسة انطاكية توجب في كل موضوع بساطة في المنهج وكلاً في الايضاح وادراكاً في تعليم الايمان . وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص المقدسة فتبتعد كل الابتعاد عن التأويل . وكانت تعتمد ارسطو اكثر من افلاطون . ومن ثم كانت هذه الفروق بينها وبين مدرسة الاسكندرية .

ولهذا السبب كانت تميز مدرسة انطاكية بين اللاهوت و الناسوت في شخص المسيح الواحد . ومع انها كانت تعتقد بان المسيح واحد وليس اثنين فأنها كانت ترفض التعليم بالاتحاد الطبيعي وبالزج بين الطبيعتين . وكانت تعتبر اتحادهما اضافياً بمعنى السكنى والارتباط حفظاً لكمال الطبيعة

*Amann, E., Théodore de Mopsueste, (Dict. de Théologie Catholique);* ١  
*Sweete, H. B., Theodor von Mopsuestia, (Dict. of Christian Biography).*  
*Hist. Ecclesiastica; Bardy, G., Theodoret, Evêque de Cyr, (Dict. de* ٢  
*Theol. Cath.)*

البشرية التي زعم ابوليناريوس انها كانت ناقصة وشهد بذلك يوحنا الانجيلي بقوله ان الكلمة «سكن فيها»، ويقول بولس الرسول ان الكلمة «ظهر بها». وكانت تنكر على الناسوت خواص اللاهوت كالحضور في كل مكان والقدرة على كل شيء، وعلى اللاهوت اهواء الناسوت وآلامه كالولادة والتألم والموت. ولهذا السبب كان معلوما يتجنبون كل تعبير يؤدي الى مثل ذلك المعنى كتسمية العذراء بالولدة الاله. ومع اعتقادهم بكمال الطبيعة الالهية كانوا يعتقدون بوجود كمال الطبيعة البشرية ايضا، لان لوقا الانجيلي يقول في الاصحاح الثاني ان يسوع «كان يتقدم بالحكمة والقامة» وهذا لا يقال الا في طبيعة بشرية. وكانوا يعلمون «بوجود السجود للناسوت بمعنى انه إناء للكلمة فيقولون اننا نسجد للارجوان من اجل المتردي به، وللهيكل من اجل الساكن فيه، ولصورة العبد من اجل صورة الله، وللحمل من اجل رئيس الكهنة، وللمتخذ من اجل الذي اتخذه، وللمكوّن في بطن البتول من اجل خالتي الكل». على انهم ما كانوا يعلمون باقنومين بل باقنوم واحد ذي طبيعتين متحدتين بلا امتزاج ولا اختلاط ولا تشويش. ولهذا الاسباب كانوا يقدمون للمخلص سجوداً واحداً من الجهة الواحدة، ويرفضون من الجهة الاخرى الاعتراف بالاتحاد الطبيعي او الجوهرى حذراً من حصر اللاهوت او من تأليه الناسوت.

«فينتج بما تقدم ان معلمي انطاكية والاسكندرية كانوا يعلمون التعليم المستقيم على مناهج مختلفة مع محاذرة استعمال عبارات مستقيمة او مع استعمال عبارات اشد من المستقيمة تحصيئاً للتعليم القويم بحسب اقتضاء مراكزهم. فكان المصريون يشدّون العبارات المتعلقة بايضاح كمال طبيعة اللاهوت حذراً من بدعة آريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال اللاهوت. وكان الانطاكيون يطلبون ايضاح كمال طبيعة الناسوت حذراً من بدعة ابوليناريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال طبيعة

الناسوت . ولكنه قام في المدرستين اناس تطرفوا في التعليم فسقطوا في الضلال . فقام في مدرسة انطاكية من تطرف في التعليم بالطبيعتين الى التعليم بشخصين او اقنومين حتى انكر الاتحاد الحقيقي . وهذا هو نسطوربوس واتباعه . وقام في الاسكندرية من تطرف من التعليم باتحاد الطبيعتين الى التعليم باختلاطهما طبيعة واحدة ، ولم يعد يميز بين اللاهوت والناسوت . وهذا هو افتيشيس او اوطيخة وانصاره<sup>١</sup> .

قيصرية فلسطين : واشتهر اوريجانيوس ونفر من ديمتريوس بطريك الاسكندرية . فخرج منها في السنة ٢٣٢ وأم قيصرية فلسطين المدينة التي رحبت به من قبل وأصغت اليه وسامته كاهناً مسيحياً . فأقام فيها وأسس مدرسة جديدة . وقرأ عليه فيها غريغوريوس العجائبي واخوه اثينادوروس ويوسيبيوس المؤرخ وغيرهم . وفيها جمع مكتبته الشهيرة وصفف المكسبة في شرح الاسفار المقدسة . ومنها خرج لزيارة آثينة سنة ٢٤٠ وبلاد العرب سنة ٢٤٤ . وفيها اذاه داقبوس الامبراطور مر الاضطهاد ( ٢٥٠ ) فخرج منها رغم انه وسبق الى صور حيث سجن وتوفي في السنة ٢٥٤ او ٢٥٥ .

وبعد اوريجانيوس ام قيصرية بمفيلبوس البيروتي . وكان هذا قد وزع امواله على الفقراء والمساكين ورحل الى الاسكندرية فدرس فيها على خلف اوريجانيوس ثم استوطن قيصرية فلسطين وانشأ فيها مدرسة لتدريس العلوم الدينية . وجمع ما كان قد تبعثر من كتب اوريجانيوس ونسخ ما لم يتمكن من اتياعه منها بخط يده . وكان يستنسخ الكتب الالهية مستنداً الى ما اورثه اياه اوريجانيوس فينثرها في البلاد نثراً . وكان

١ الكلام لرئيس اساقفة بيروت جراسيموس في كتابه : تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٢٠١

٢٠٣-١٩٣١٤ ، بيروت

يوسيبوس تلميذه يعاونه في عمله هذا على ما تشهد به بعض النسخ .  
ومن اشتهرت بهم قيصرية فلسطين يوسيبوس المؤرخ . ولد يوسيبوس  
في قيصرية او في مكان قريب منها في حدود السنة ٢٦٥ . وقرأ العلم  
على بفيليوس البيروتي وعلى دوروثاوس الانطاكي . واتخذ بفيليوس خديناً  
له وتسمى باسمه وتقلد الكهنوت من يد سلفه الاسقف اغايوس . وسيم  
اسقفاً على قيصرية في حدود السنة ٣١٣ . ووعى علوم زمانه فبرع بحسب  
مقياس ذلك العصر في تاريخ الاسفار المقدسة وفي تاريخ الوثنية وتاريخ  
الشرق القديم وفي الجغرافية والفلسفة والفلك وحساب التويم . فشرح  
اشعيا والمزامير وغيرها . وحسب لعيد الفصح مع ما في ذلك من عقد  
ومشاكل . وعرف جغرافية فلسطين وتاريخها معرفة جيدة تمكن من  
ارشاد الحجاج الذين بدأوا منذ عهده يزورون الأماكن المقدسة .  
وكان خطيباً حسن اللفظ اتيق اللهجة فصيحاً بليغاً . ومن موافقه الخطابية  
المأثورة خطبته في مجمع نيقية . وذاع صيته فحظي عند قسطنطين بمكانة سنية  
وأعد لهذا الامبراطور خمسين نسخة من الكتاب المقدس بناء على طلبه .  
« وكان يوسيبوس من المنتصرين لاوريجانيوس . وقد وافق آريوس  
في اسلوبه دون نظرياته . وبما يستدعي الاسف انه بعد ما وقع اعمال  
المجمع النيقاوي . واطأ خصوم هذا المجمع على مقاومة اصوله فشارك  
الآريوسيين في مجامعهم وعده بعضهم من انصاف الآريوسية مع انك لا  
تجد في تاريخه البيعي وكتابه الظهور الالهي الأ اجهاراً صريحاً للاهوت  
السيد المسيح . »

وتمددت مصنفات يوسيبوس لانه ظل يكتب حتى الثمانين . ومصنفاته

١ واللفظ لنبلة بطريرك اغناطيوس برصوم في كتابه : الدرر النفية ، ج ١ ، ص ٥٩

تشكل محاولة جبارة لاحلال النصرانية المنزلة اللائمة بها ولورد على من استخف بها وطعن فيها امثال يورفيوريوس الفيلسوف . فالنصرانية في نظر يوسيبوس قُدّر لها منذ الازل ان تراث الأرض وما نشأ عليها من حضارة . وما تمّ السلم الروماني في عهد اوغسطس الا ليمهد السبيل للرسول في عملهم التبشيري . ويورفيوريوس لم يضع ضد النصرانية تصانيفه ال *Historia Philosophos* الا ليفسح في المجال ليوسيبوس ان يعد مؤلفه الكبير *Historia Ecclesiastica* وكذلك خرونيقون يورفيوريوس افصح المجال ايضاً لخرونيقون اوسع واكبر لتبجيل النصرانية .

وقد بدأ يوسيبوس خرونيقونه بسيرة ابراهيم ولم يتجاوزها الى الخليفة كما فعل يوليوس افريقانوس . وخص القسم الاول منه باهم الحوادث في تاريخ الشعوب بالغاً في ذلك الى سنة ٣٢٥ . ثم جعل من القسم الثاني جداول متوازية تشتمل على أهم الحوادث مرتبة حسب سني وقوعها . وما قصده من وراء ذلك الا ان يورد حوادث معينة وقعت في اماكن مختلفة في وقت واحد ثم يستعملها لتأييد نظريته في ان هذه الحوادث انما تلازمت في الزمن واختلفت في المكان لتم بها غاية الخالق . وأهم ما حدث من هذا القبيل في نظره وقوع احصاء كورينثوس في عين الوقت الذي ولد فيه المسيح . وبما اثلج صدر يوسيبوس ان موسى سبق هوميروس وان حوادث التوراة جاءت اسماً سابقاً لغيرها من حوادث العالم القديم . ولا يزال خرونيقون يوسيبوس مرجعاً حتى يومنا هذا لتعيين تواريخ قسم كبير من حوادث الرومان واليونان .

ووضع يوسيبوس ال *Præparatio* ليظهر اباطيل الوثنية واضرارها وليبين تفوق التوحيد العبري عليها . ثم صنف ال *Demonstratio Evangelica* ليردّ التهمة التي وجهها اليهود الى النصارى في قولهم ان هؤلاء انما تهودوا ليخرجوا على اليهودية . فهو يرى في ال *Demonstratio* ان شرائع موسى

انما انزلت لتكون حلقة وصل بين عهد البطاركة الاولين وعهد المسيح . ولم يكن التثليث في نظره وما يتبعه من خلاص سوى تمة طبيعية لعقيدة اليهود ونبوات الانبياء مع ايضاح كامل لبعض ما جاء غامضاً ناقصاً في الفلسفة الافلاطونية .

وبعد ان طهر بوسيبوس عقول قرائه من ادران الوثنية وأبان قدم عهد النصرانية ومكائنها في تاريخ العالم وسمو منزلتها في منهاج الخالق ، وضع تاريخاً خاصاً للكنيسة *Historia Ecclesiastica* منذ ظهور السيد ليبن امانتها لتعاليمه وانها واسطة خلاص الانفس من الخطيئة . وما عذاب اليهود في نظره وتشردهم بعد ظهور السيد سوى برهان ساطع على تخلي الخالق عنهم . ولم تجب مساعي الاباطرة مضطهدي النصرانية في نظر هذا المؤرخ الا بقوة الايمان وعظمته . وما انتصار قسطنطين على مكسنتيوس اولاً وعلى ليكينيوس ثانياً سوى اتمام ساطع باهر لوعود الله عز وجل<sup>١</sup> .

وفي هذا القرن اشتهر عدد من المؤرخين غير بوسيبوس فكان سقراط القسطنطيني الذي اكمل عمل بوسيبوس بـ *Historia Ecclesiastica* اخرى اوصل فيها تاريخ الكنيسة الى السنة ٤٣٩ . وكان ايضاً صوزومانوس القزتي فالف كتاباً بامثالا وقف فيه عند السنة ٤٣٩ . وثيودوريطس القورشي الذي سبقت اليه الاشارة والى تاريخه . وهو يعنى بالمدة بين السنة ٣٢٥ والسنة ٤٢٩ .

بيروت : وكانت بيروت قد اصبحت منذ اوائل القرن الثالث مركزاً لتعميم القوانين ونشرها . وكانت تجارها واسعة ودخلها كبيراً فاستهوت دعاويها القائمة امام محاكمها اكبر المحامين واشهر الاساتذة . وبالطبع

*Patrologia Graeca, CXLVI ; Laquer, R ,Eusebins als Historiker seinre ١  
Zeit ; Bagnes, N. H., Eusebins and the Christian Empire, (Ann. de  
l'Inst. de Phil. et. D'Hist. Orient. II, 1934.)*

استتبع ذلك نشوء مدرسة الحقوق وازدهارها فيها ونبوغ طائفة من اساتذة القانون اشتهر منهم على تعاقب العصور اوليانوس الصوري ( ١٧٠ - ٢٢٨ ) وبابنيانوس ( + ٢١٢ ) ثم غايوس ومرقيانوس وتريفونيوس في القرن الثالث ودومينيونوس في القرن الرابع وهو الذي واسله ليبانيوس فأوصاه ببعض طلاب انطاكية . ولع في القرن الخامس افذكسيوس وابنه لاونطيوس ( + ٥٣٠ ) الذي تولى برايفاكثورة الشرق في عهد انسطاسيوس . ويميليفوس وكيرلس صاحب كتاب « التعريفات » وبارثيقيوس الاستاذ الكبير . واستحق هؤلاء لقب « اساتذة العالم » وشهروا بيروت حتى رفعها الامبراطوران ثيودوسيوس الثاني وفالنتينيانوس الثالث الى شرف الحواضر « متروبوليس » فأصبح اسقفها متروبوليتاً ولا يزال . وتوالت عليها الالقاب فأصبحت « ام العلوم » و « موطن العلماء » و « ظئر الشرائع » . وكان لاساتذة يعينون في اول الامر بموافقة مجلس شيوخ المدينة . ثم استقرت لاوليانوس الجاحد ( ٣٦٢ ) ان يكون التعيين بموجب حك يوقعه القائد المحلي ويوافق عليه مجلس شيوخ المدينة . ثم فرض ثيودوسيوس ان يعرض عليه قرار القائد والشيوخ قبل التنفيذ . وكانت السلطة منذ السنة ٤٢٥ تقوم بجميع نفقات الاساتذة . وتقاطر الطلاب الى هذه المدرسة من كل صوب . فحفل معيها ببناء غزوة وعسقلان وانطاكية والرها وميساط وغيرها من مدن الشام وفلسطين . وأما غيرهم من مصر واسبانية وايطالية والبلقان وبر الاناضول . وكان لا بد لهؤلاء الطلاب من دروس تمهيدية في اليونانية واللاتينية وفي الخطابة والفصاحة يتهاون بها لدرس القانون . فكانوا يحصلونها إما في مدينتهم او في بيروت نفسها بطرق خاصة . وكان نظام المدرسة يحدد سن الطلاب ، فلا يجيزم الا بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين . ولم يستثن من هذا الا الطلاب العرب الذين كانوا يصلون متأخرين في ثقافتهم . وكان الطلاب في اول عهد الكلية من الطبقة الوسطى

في المجتمع لانصراف ابناء العائلات الكبيرة الى درس اللغة والحطابة . ثم تحول هؤلاء ايضاً الى درس الحقوق . فأبدى ليبيانوس اسفه لان العدد الغفير من ابناء الاعيان في انطاكية اصبحوا يجرون الحطابة . وبقيت اللاتينية لغة التعليم حتى اواخر القرن الرابع ، ثم حلت محلها اللغة اليونانية . وكان الاستاذ يفتح درسه بتلاوة بعض النصوص ثم يفسرها معلقاً عليها ثم يفسح في المجال للسؤال والجواب . وكانت مدة التدريس اربع سنوات ثم اضيف اليها سنة خامسة للتخصص<sup>١</sup> .

واشتهر في اواخر القرن الخامس واولائل القرن السادس شماس بيروت رومانوس المرتل وهو اول ناظم للقنادق . وأشهر ما نظم ورتل القنداق : « اليوم تلد العذراء الفائق الجوهر . فتقدم الارض المغارة للذي لا يُدنى منه . والملائكة يجردونه مع الرعاة . والمجوس يسرون اليه مع النجم . فانه ولد من اجلنا صبيّ جديد . هو الاله الذي قبل الدهور . » وقد أجاد لفظاً ومعنى واستعارة وتشبيهاً فأصبح « بيندار » الروم على ممر العصور ، وموضع اعجاب رجال الاختصاص في عصرنا هذا .

قبدوقية : ولمع في سماء آسية الصغرى في قبدوقية في القرن الرابع اقرار ثلاثة اكسبوا قبدوقية شهرة واسعة وعظمة ليس بعدها عظيمة . والاشارة هنا الى غريغوريوس الثاولوغوس وباسيليوس الكبير وانخيه غريغوريوس النيساوي .

ولد غريغوريوس الثاولوغوس ( اللاهوتي ) في قرية اريثزوس بالقرب من تزينزوس في السنة ٣٢٨ وكان ابوه قد تنصر بتأثير زوجته نوتة ثم سقّف على تزينزوس او نازيائة . وقد توّرع غريغوريوس على المبادئ

١ راجع عاضرة الاستاذ فؤاد البستاني ، عن التعليم في لبنان ، في مجلة الندوة ، السنة الرابعة ، ص ١٦٣ - ١٦٨ ، ثم كتاب الاستاذ كوليت في تاريخ مدرسة بيروت :  
*Collinet, P., Hist. Ecole de Droit de Beyrouth, Paris, 1925 .*

الصالحه . وتلقى مبادئ علومه في قيصرية قبدوقية ثم في قيصرية فلسطين فالاسكندرية فأثينة . وفي آثينة انعقدت اواصر الصداقة بينه وبين باسيلوس الكبير . وتلقى المعمودية حوالى السنة ٣٦٠ . ثم أعرض عن الدنيا ومال الى النسك ، فترهب مع باسيلوس الكبير في البونط . وعاد الى بلده فشرطنه والده كاهناً لكنيسة نازيانزة في السنة ٣٦٢ . فأقام في خدمتها حتى السنة ٣٧١ او ٣٧٢ فسامه باسيلوس الكبير اسقفاً على ساسية اوزاسية . ولكنه لازم خدمة والده حتى وفاته في السنة ٣٧٤ . وفي اوائل السنة ٣٧٩ استقدمه ارثوذكس القسطنطينية لمساعدتهم ضد الآريوسية . فسار اليهم وجمعهم في دار رجل من اصدقائه جعلها كنيسة صغيرة واسماها انطاسية . « وفيها ألقى خطبه الرنانة في الثالث الاقدس ومنها تدفقت سيول الفصاحة على اسماع المؤمنين . » فما عددهم على حساب الآريوسيين . وفي السنة ٣٨٠ أقر الامبراطور ثيودوسيوس الاول رئاسته على القسطنطينية ، وأيد ذلك المجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٨١ فرعاها حتى السنة ٣٨٢ . وكان حساساً جداً فلم يوافق جو القسطنطينية مزاجه فقال قوله المأثور: « ردوني الى الانفراد ! ردوني الى الله ! » فكان له ذلك ، وعاد راجعاً الى نازيانزة حيث قضى فيها باقى عمره ، وتوفي في السنة ٣٩١ . وأشهر مصنفاته خطبه في العقائد والاعباد والقدسين ، وتأيينه واسعاره اللاهوتية ، وقصيدته الطويلة في تاريخ حياته . واهتم في دقائق اللاهوت الى عبارات لطيفة موفقة . وتجلت في خطبه ومواعظه مقدرة فائقة في التعبير والافتعاع ، فلقب بالثاولوغوس ( اللاهوتي ) ، واحياناً بالثاولوغوس الثالثي ، لانه تكلم كثيراً في الثالث وفي وحدانية جوهره وطبيعته<sup>٢</sup>.

١ الدرر النخية ، ج ١ ، ص ٥٥٢ .

٢ Fleury, E., *Saint Grégoire de Naziance et Son Temps*, (Paris, 1930) .

واما باسيليوس الكبير<sup>١</sup> فقد سبق عنه الحديث . ويجدر بنا هنا ان  
 نضيف ان جدته لايه القديسة مقريئة تلمذت لغيرغوريوس العجايبى ،  
 وان جده لامه حاز شرف الشهادة ، وان اخته الكبرى مقريئة ترهبت ،  
 وان والدته اميلية قضت اعوامها الاخيرة في العبادة ، وان اخويه بطرس  
 وغيرغوريوس كانا في مصاف الاساقفة . وأشهر الاثنين غيرغوريوس .  
 ويعرف بالنيسي . وقد فاق اخاه باسيليوس الكبير وصديق اخيه غيرغوريوس  
 الثاولوغوس في الدقة والتعمق . ولد في قيصرية قبدوقية حوالى السنة  
 ٢٣٥ ، وتآدب فيها وعلّم الخطابة مدة من الزمن . ثم أثر الثاولوغوس  
 في نفسه فتنسك . ثم سامه اخوه باسيليوس استقفاً على نيسة سنة ٣٧١ .  
 وعزله الأريوسيون سنة ٣٧٦ ، ولكنه عاد اليها بعد سنتين . واشترك في  
 اعمال المجمع المسكوني الثاني ، فأحرز احتراماً عظيماً لتفوقه في جودة  
 التفكير ووضوح التعبير . وصنف كثيراً . وأشهر مؤلفاته رده على انوميوس  
 وابوليناريوس . وكانت وفاته في السنة ٣٩٤ في الاربع .  
 وتضلع جميع هؤلاء الاحبار الثلاثة من العلوم الكلاسيكية . واجتهدوا  
 اجتهاداً صالحاً في اللاهوت . وتوافقوا فشكّلوا ما عرف فيما بعد بالذهب  
 الاسكندري الجديد . استعانوا بالفلسفة وأصروا على تحكيم العقل في العقيدة  
 ولكنهم لم يتطرفوا في التأويل نظرف اساطين الاسكندرية ولم يتخلوا  
 عن تقاليد الكنيسة الموروثة . واضافوا الى تصانيفهم الكثيرة في العقيدة  
 مجموعات من الخطب والرسائل تشكل في حد ذاتها مواد اولية هامة لتفهم  
 الفكر والثقافة في هذه الفترة موضوع هذا الفصل . ولم يقم بعدم في  
 قبدوقية من حافظ على هذه المكتبة العالية التي اوصلها اليها في تاريخ الفكر  
 هؤلاء الافاضل الامائل .

*Fialon, E., Etude hist. et lit. sur Saint Basile, (1869) .*

واختلف الآباء فيما بعد في التفاضل بين باسيليوس الكبير وغريغوريوس  
الثاولوغوس ويوحنا الذهبي الفم . ثم اتفقوا نحو السنة ١١٠٠ فأقروا عيداً  
تذكاريّاً للثلاثة معاً عرف بعيد الأعمار الثلاثة . ورتب يوحنا اسقف  
افخاطية خدمة كنيائية خاصة لهذا العيد .

« هلموا نلتئم جميعاً ونكرم الثلاثة الكواكب العظيمة للاهوت  
المثلث الشموس التي انارت المسكونة باشعة العقائد الالهية وأنهار الحكمة  
الجارية بالعدل التي روت الخليقة كلها بسواقي معرفة الله باسيليوس العظيم  
وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الشهيد الذهبي اللسان وتمدحهم بالاناشيد  
يا عاشقي مواعظهم فأنهم يتشفعون الى الثالث فينا دائماً » ( ٣٠ ) كانون  
الثاني ) .

الرها : وروى برحذبشبا العربي اسقف حلوان في النصف الثاني من  
القرن السادس اخذاً عن التقليد الشائع ان أذى البشير انشأ مدرسة في  
الرها لتدريس العلوم الدينية<sup>١</sup> . وهي رواية ضعيفة نظراً لطريقة نقلها ولبعد  
برحذبشبا عن عصر الرسل . واول من ورد ذكره من طلاب الرها  
لوقيانس ثم يوسيبوس الرهاوي اسقف حمص ( + ٣٥٩ ) . ولما احتل  
الفرس نصيبين سنة ٣٦٣ في عهد يوفيانوس الامبراطور جلا عنها افرام  
الكبير واساتذة مدرستها وبعض الاشراف وساروا الى آمد فالرها .  
وارتاح افرام الى السكنى في الرها فأقام فيها وزملاءه وانضوا الى  
مدرستها فاطلق عليها اسم مدرسة الفرس نسبة الى طلابها والاساتذة  
النازحين اليها . والقديس افرام السرياني هو نفسه الذي قال عنه الذهبي  
الفم : « افرام كنارة الروح القدس ومخزن القضايل معزي الخزانى ومرشد  
الشبان وهادي الضالين كان على المرافقة كسيف ذي حدين » . واشهر ما

صنف ميامره الشعرية في الاسرار والبتولية والتوبة والايام والكهنوت والرهبانية . وقد نقل جانب وافر من هذه الميامر الى اليونانية وناظمها لا يزال في قيد الحياة . اما وفاته فكانت في السنة ١٣٧٩ .

**الفن البيزنطي :** وتمشقت الدولة بفنها ايضاً . وعلماء القرن العشرين ينقضون ما ذهب اليه زملاؤهم في القرن التاسع عشر من ان الفن الروماني كان قد طغى على الفن الهليني في الشرق في القرنين الاولين بعد المسيح . ويثبت أينالوف في كتابه الاصول الهلينية للفن البيزنطي<sup>١</sup> ، واستراجيكوفسكي في كتابه «الشرق او رومة»<sup>٢</sup> ان الشرق لا الغرب هو الذي لعب الدور الرئيسي في انشاء الفن البيزنطي وان هذا الشرق شمل ، بالاضافة الى آسية الصغرى وسورية ومصر ، بلاد فارس واواسط آسية . ويذهب استراجيكوفسكي الى ابعد من هذا فيجعل منزلة ايران في التأثير على الفن البيزنطي كمنزلة بلاد اليونان الام في التأثير على الفن الكلاسيكي<sup>٣</sup> . ويرى بعض رجال الاختصاص تطرفاً مالموساً في نظريات استراجيكوفسكي ولكنهم لا ينكرون عليه ان الشرق لا الغرب قد لعب الدور الرئيسي في تكوين خصائص الفن البيزنطي<sup>٤</sup> . والواقع الذي لا المفر منه هو ان روائع الفن البيزنطي جاءت ثمرة لامتزاج وتفاعل موفق بين عوامل ثلاثة : الدين المسيحي والحضارة الهلينية واوضاع الشرق . واشهر الآيات الفنية التي تعود الى هذه الحقبة من تاريخ الروم كنائس قدس وييت لحم والناصره وجميعها اقيمت في عهد قسطنطين الكبير . ومن

١ اولؤو المشور ، بطريرك اغناطيوس ارام برصوم ، ص ١٩٦ - ٢٠٢ .

٢ Ainalov, D. V. Hellenistic Origin of Byzantine Art., (Petrograd, 1917.)

٣ Strzygowski, J., Orient or Rome.

٤ Strzygowski, J., Origen of Christian Church Art.

٥ Diehl, C., Manuel d'art Byzantin, I, 16 - 21 .

أشهر ما انشئ في آخر القرن الخامس دير مار سمعان العمودي - قلعة سمعان - بين حلب وانطاكية<sup>١</sup>. وتعود آثار قصر المشي في شرقي الاردن الى هذه الحقبة نفسها ايضاً. وقد اثبت العالم الاثري كلوفمان الالماني ان آثار كنيسة القديس مينا في مصر تعود الى عهد الامبراطور ارقاذيوس<sup>٢</sup>. وفي القسطنطينية أقام قسطنطين الكبير كنيسة الرسل وكنيسة القديسة ايرينة ، كما شيّد كنيسة الحكمة التي أعاد بناءها يوستينيانوس كما سنرى . ولا تزال اسوار ثيودوسيوس ماثلة لليوم بما فيها الباب الذهبي الرائع Porta Aurea الذي كان يلججه الاباطرة في المواكب الرسمية .

١ راجع ديل في كتابه المشار اليه هنا ، ولاسيا المخططات والصور ، المجلد الاول ، ص ٣٦ - ٣٧ و ٤٥ - ٤٧ .

٢ Kaufmann, C. M., Die Menasstadt, (Leipzig, 1910.)

## الباب الخامس كرامة ومجد وعظمة

الفصل الحادي عشر

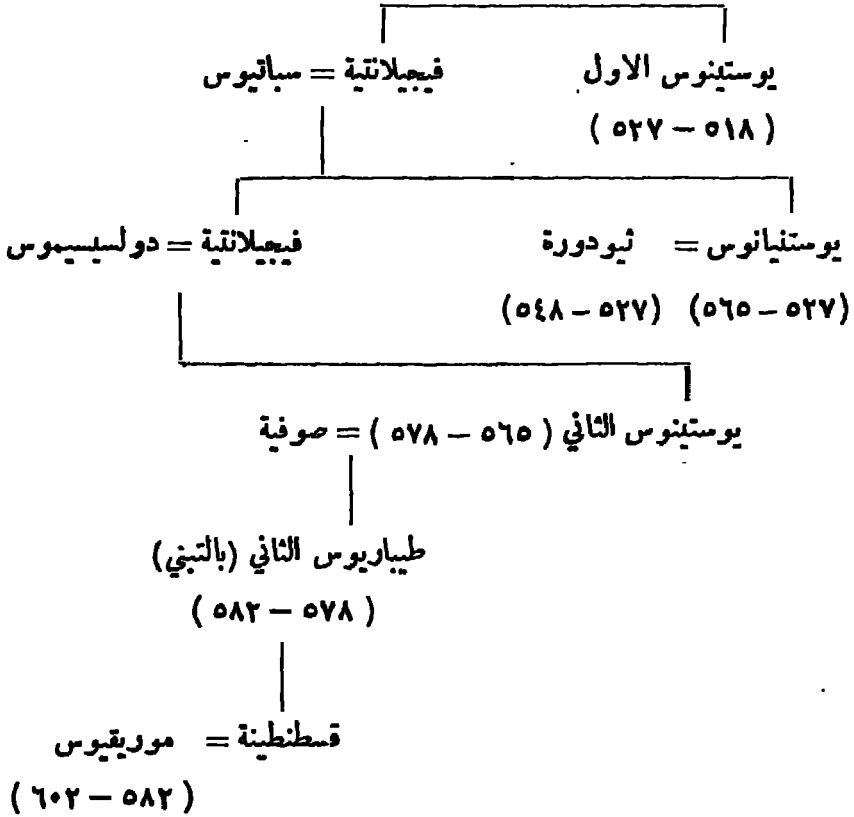
يوستينوس ويوستينيانوس

(٥١٨ - ٥٦٨)

اصل هذه الاسوة : وقد كان السائد حتى اواخر القرن الماضي ان هذه الامرة تحدرت من أصل صقلي . والذي حمل على هذا الاعتقاد ما ورد من اسماء صقلية تُدعى بها يوستينانوس وانسابه ، في ترجمة لهذا الامبراطور نسبت الى معلمه ثيوفيلوس . ولكن المؤرخ الانكليزي جايمس برايس اثبت في اواخر القرن الماضي ان هذه الترجمة هي من نتاج القرن السابع عشر وانها بالتالي لا تستحق عناية المؤرخ واعتماده . والذي يراه رجال الاختصاص اليوم ان يوستينوس ويوستينيانوس تحدرتا من أصل ايليري او ألباني ، وان يوستينانوس ولد في احدى قرى مقدونية العليا في جوار

*Bryce, J., Life of Justinian by Theophilus, Eng. Hist. Rev. II, 1887, 657 - 684 .*

اسكوب على حدود البانية . اما بريشيك فيرى انها من أصل روماني<sup>١</sup> .  
وبما لاشك فيه انها تكلمت اللغة اللاتينية .



يوسطينوس الاول : ( ٥١٨ - ٥٢٧ ) وتوفي انسطاسيوس في التاسع من تموز سنة ٥١٨ بدون عقيب . فتولى العرش بعده يوسطينوس أحد قادة الحرس الامبراطوري<sup>٢</sup> بتدبير لا يزال غامضاً . وكان يوسطينوس هذا وضيع الاصل ، مغمور الذكر ، جاء العاصمة مغامراً يمشي على القدمين من مقدونية . الا انه كان جندياً باسلاً فألحق بالحرس الامبراطوري .

*Jirecek, C., Geschichte der Serben, I, 36.*

*comes excubitorum.*

١

٢

وظل يتقدم حتى أصبح قومن احدى فرق الحرس . على انه في الواقع لم يكن شيئاً غير جندي باسل . وقد رأى فيه المؤرخون المعاصرون له امياً لا يقرأ ولا يكتب ، متطفلاً على السياسة واهلها ، جاهلاً علم اللاهوت . ويقولون انه لولا مساندة ابن اخته يوستينانوس له لناءً مجمله وضاع في مناهات الادارة والسياسة . وكان يوستينوس قد استقدم يوستينانوس اليه في حدائته ، وعني بتثيقه وتهذيبه ، فأصاب يوستينانوس شطراً وافرأ من العلم في مدارس العاصمة . فلما تبوأ نخاله عرش القسطنطينية كان يوستينانوس قد أنهى علومه وخبر الحياة السياسية وتحلى بالنضج والاتزان .

وكان الاثنان كاثوليكين ارثوذكسين يقولان بقرارات المجامع المسكونية الاربعة فأنها ما كان قد وقع من شقاق بين القسطنطينية ورومة من جراء اينوتيكون (٤٨٢) زينون ، وأقصيا اصحاب الطبيعة الواحدة عن المراكز الهامة ، وربما أنزلا بعضهم شيئاً من العذاب . وكاث هؤلاء كثراً في ارمينية وسورية ولبنان وفلسطين ومصر . فنقرت هذه الاقطار من سياسة الاسرة الجديدة . وشعر يوستينانوس بهذا النفور ، وخشي سوء العاقبة في حقل السياستين الداخلية والخارجية في الشرق . فكتب رسالته الشهيرة الى البابا هورميرزاداس في السنة ٥٢٠ مقترحاً استعمال اللطف مع اصحاب الطبيعة الواحدة « كي يتم الشفاء بدون تفتح جروح جديدة . »

يوستينوس وكالب : وكانت قد تسربت النصرانية الى بلاد اليمن بعد انتشار اليهودية فيها . وكان آخر ملوك حمير ذو نواس يهودياً فيما يظهر . واشتدت المنافسة بين النصارى العرب واليهود العرب ، وانقلبت عداة مريأ . وكان ذو نواس يرى في النصرانية ما يذكره بالاحباش واحتلالهم . فأوقع بالنصارى في السنة ٥٢٣ مذبحه فجران

الشهيرة . ثم جمع من نجح منهم وغيرهم بين القتل واليهودية . فاختاروا القتل . فخذ لهم اخذود النار ذات الوقود . وجاء في الطبري<sup>٢</sup> ان دوس ذا ثعلبان أفلت ولبأ الى امبراطور الروم يستنصره على ذي نواس ، وان يوستينوس قال له : « نأت بلادك عنا فلا تقدر ان نتناولها بالجند ولكني ساكتب الى نجاشي الحبشة وهو اقرب ملوك النصرانية الى بلادك . » وبما يروى ايضاً ان النجاشي انتصر على ذي نواس مرتين متواليتين في السنة ٥٢٣ وفي السنة ٥٢٥ . وهنا ربّ معترض يقول : كيف اضطهد يوستينوس اصحاب الطبيعة الواحدة في بلاده ثم تعاون مع النجاشي كالب الذي كان يقول هو ايضاً بالطبيعة الواحدة ؟ والجواب ان صاحب القسطنطينية كان يعتبر نفسه حامياً ذمار النصرانية في كل المسكونة .

وتحدث الاحباش طويلاً بهذا التعاون بين يوستينوس وكالب وتناقوا الخبر جيلاً بعد جيل ودونوه في القرن الرابع عشر في تاريخهم القومي الكبير : « كبرى نجشت » ، ومعناه فخر الملوك . فقالوا ان امرتهم المالكة تحدرت من سليمان وبلقيس وان دولتهم أشرف من دولة الروم وانه كان ليوستينوس ولكالب ان يلتقيا في اوروشليم ليقتما الاوض باجمعها<sup>٣</sup> .

يوستينيانوس وثيودورة : وتحفظ لنا فيفساء سان فيتالي في راينة قسبات وجه يوستينيانوس كما رسمها رسام في السنة ٥٤٧ . ويقول معاصروه انه كان يميل الى البساطة في العيش ، والتودد في معاملة الناس ، وانه كان يواصل العمل ليل نهار حتى لقبه احد رجال بلاطه بـ « الامبراطور الساهر » اذ كان يحرق ان يعلم كل شيء ، وان يدقق في كل شيء ، وان

١ سورة البروج ، الآية الرابعة .

٢ ج ١ ص ٩٢٧ - ٩٢٨ .

Vasiliev, A. A., *Justin I and Abysstnia*, (Byzantinische Zeitschrift, XXXII, ٢ 1933, 67-77.)

يقرّ كل شيء. والواقع ان يوستينيانوس كان شديد الاعجاب بمواهبه وموهلاته لا يسمح لاحد من رجاله ان يعارضه في أمر، ولا يثق باحد منهم، حتى ولا بقائده الامين بليساريوس العظيم. وعلى الرغم من تظاهره بالعزم والحزم والثبات فانه كان في قرارة نفسه متورداً شديد التأثر بآراء الحاشية ولاسيا زوجته ثيودورة<sup>١</sup>.

ويقول بروكويوس المؤرخ في كتابه عن اسرار هذه الحقبة ان ثيودورة هذه تلطخت منذ حداثتها بفساد المحيط حولها. فانها نشأت ابنة لمروض الدبية في مسارح القسطنطينية وسببت على شيء من الاباحية. وما طال الامر حتى احقرها سكان العاصمة، فكانوا اذا التقوها في شوارع المدينة ابتعدوا عنها خوفاً من ملامستها والتلوث بها<sup>٢</sup>. ويقول شارل ديل الافرنسي ان ثيودورة شغلت العاصمة فألقتها لا بل فتنها ثم جرت الحزى عليها<sup>٣</sup>. ولكن يجب الا يغيب عن البال ان بروكويوس انما كتب ما كتب ليحطم به يوستينيانوس وزوجته. وهو والحالة هذه راي مفروض لا تقبل شهادته بدون تبصر وروية وجرح وتعديل. ويجب الا تنسى ان ثيودورة ترصنت بعد طيئها وذهبت الى افريقية فبقيت فيها بضع سنوات عادت بعدها الى القسطنطينية متعلقةً متزينةً مهتمةً بالقضايا العامة ولاسيا الدينية منها، منهكةً بغزل الصوف في ساعات الفراغ، وان يوستينيانوس لم يعرفها قبل دخولها في هذا الدور من حياتها. وأعجب يوستينيانوس بجيئها فقلها الى القصر وجعل منها بطريقةً ثم تزوج منها. وشعرت ثيودورة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها، فتعاونت وزوجها في سبيل العرش والدولة، وأخرجته في كثير من الاحيان من مأزق حرجة كما سير بنا.

*Diehl, Ch., Justinian, Cambr idge Med. Hist. II, 2*

١

*Historia Arcana, 9, 25.*

٢

*Byzantine Portraits, 54 ; Théodora.*

٣

سياسة يوستينيانوس الداخلية : وجوبه يوستينيانوس في اول عهده بثورة داخلية كادت تدك عرشه دكاً . وهي التي عرفت بثورة النصر « نيكاً » باليونانية . ولا بأس في تفصيل نبأ هذه الثورة من التوقف والرجوع قليلاً الى الوراء ، ذلك انه كان يقوم في قلب العاصمة ملعب فسيح لسباق الخيل يدعى الـ Hippodrome . وارتاحت نفوس سكان العاصمة الى سباق الخيل في الهيودروم ونشيطوا لمراقبة هذه السباقات وتحمسوا لها . وكان على سائقي عربات السباق ان يتزوّوا بواحد من اربعة الوان إما الاخضر او الازرق او الالبيض او الاحمر . فانقسم النظارة من سكان العاصمة الى احزاب رياضية اربعة : الخضـر والزرق والبيـض والحمر . وانتظمت هذه الاحزاب ، وتكتل افرادها وتكاتفوا ، فانشأوا لكل منها صندوقاً خاصاً لتشجيع السائقين وشراء الجياد السبّاقة والعناية بها . ولا نعلم بالضبط كيف وقع الاختيار على هذه الالوان التي سمت بها هذه الاحزاب ، ولكننا نعلم انها قديمة جداً وان رومة الجديدة ورثتها عن رومة القديمة . ويرى بعض رجال الاختصاص انها ربما اشارت في الاصل الى العناصر الاربعة : الارض والماء والهواء والنار ، الارض الخضراء ، والماء الازرق ، والهواء الالبيض ، والنار الحمراء . ثم نتج عن هذا التضامن في حقل الرياضة تضامن في السياسة والاجتماع . وانضم البيض الى الخضـر والحمر الى الزرق فأصبح في العاصمة حزبان سياسيان اجتماعيان ، حزب الخضـر وحزب الزرق . وأيد الزرق الارثوذكسية فأيد الخضـر القول بالطبيعة الواحدة . وكان قد سبق في عهد انطاسيوس ان حلّ بالزرق اضطهاد شديد لان هذا الامبراطور كان يميل الى القول بالطبيعة

·Guerdan, R., *Vie, Grandeur et Misères de Byzance*, (Paris, 1954), ١  
45-58.

الواحدة فهرع الزرق الى الميودروم ونادوا بسقوط انسطاسيوس . وكاد يتم ذلك لولا اتران الامبراطور واستعطافه الرأي العام . فلما رقي يوستينوس ويوستينيانوس العرش دبّ الى عروق الزرق النشاط ولكن ثيودورة عطفت على الحضر ، فانقسم البلاط نفسه الى ازرق واخضر . ويجوز القول ايضاً ان الزرق كانوا في الغالب من طبقات الشعب العليا ، وان الحضر جاؤوا من الطبقات السفلى بحيث أصبح الصراع بينهما في بعض الاحيان صراعاً طبقياً .

وقد تعددت اسباب ثورة النصر التي نشبت في السنة ٥٣٢ ، فبعضها كان دينياً عقائدياً نشأ عن اضطهاد من قال بالطبيعة الواحدة . وبعضها كان مرده الى تنافس الاسر على العرش وحرمان اقارب انسطاسيوس من الملك . وبعض هذه الاسباب كان عمومياً وهو الاقوى . وتفصيل الامر ان يوستينيانوس اعتمد في اول عهده على تريونيانوس في القضاء وعلى يوحنا القبدوقي في الادارة . وطفى الاثنان وتجاوزا الحد في ابتزاز المال وفي القسوة . فهبّ الزرق والحضر معاً وهرعوا جميعاً الى الميودروم ثم انطلقوا منه يخربون ومجرقون . وسادت كلمة النصر على افواههم « نيكاً » فسميت بها حركتهم هذه . وفاوضهم يوستينيانوس فلم يرضوا ونادوا باحد انساب انسطاسيوس امبراطوراً . فضفي يوستينيانوس العاقبة وجمع اخصاءه وشاورهم في الفرار من العاصمة . وكادوا يجمعون على ذلك ولكن ثيودورة انتصبت بينهم وقالت كلمتها التاريخية : « يستحيل على امرئ يبيء هذا العالم ألا يموت ولكن من يمارس السلطة لا يطبق النفي . وان تشأ ايها الامبراطور ان تنقذ نفسك فلن تجد صعوبة والبر

*Uspensky, Th., Hist. of Byz. Emp., I, 506.*

*Manojlovic, M., le Peuple de Constantinople, (Byzantion, 1936), 617-716.*

قريب ، والمراكب مجهزة ، والمال موفور . ولكن تريت قليلاً وصل نفسك : ألن تندم بعد فرارك ووصولك الى ملجأ امين . فتود لو كنت آثرت الموت على الامان ؟ أما انا فأرى ان الارجوان لا بأس به كفتناً<sup>١</sup> . فانتعش بوستينانوس وأمر بليساريوس ان يخضع الثاثرين بالقوة بعد ان مضت على ثورتهم ستة ايام . فأحاط بهم بليساريوس بجنوده ولزّمهم حتى أكرههم على اللجوء الى الهيودروم . ثم قنك بهم قتكاً فقتل ثلاثين او اربعين الفاً بينهم انساباً انسطاسيوس وثبتت هيبه السلطة<sup>٢</sup> .

وكان قد ظهر في آسية الصغرى ومصر وغيرها من اجزاء الامبراطورية عدد من أصحاب العقارات الكبيرة الذين استغلوا الظروف السياسية والادارية فقرضوا ملكيتهم فرضاً ، واغضبوا املاك الدولة ، وعبثوا بالسلطة المركزية فاحاطوا انفسهم بالحراس ، وجرتوا وراءهم الجماهير ، وسدوا افواه الولاة بالذهب<sup>٣</sup> . وأشهر من اشتهر من هؤلاء في مصر امرة الايون . فكان الواحد منهم يملك القرية بعد القرية ، ويفرض ضرائب الخاصة ويجيبها على يد جباته ويعيش عيشة الملوك<sup>٤</sup> . واتسعت كذلك املاك الاديرة والكنائس وتمتع اصحابها بسلطة واسعة .

ورأت الحكومة في هذا كله تحدياً لا مبرر له فقاومت مقاومة طويلة الامد ، تذرعت في اثنائها بشتى الوسائل ، كأثت تتدخل في حق الارث احياناً ، او ان تكره احياناً اخرى بعض الكبار على وقف املاكهم على الامبراطور ، او ان تصادر بعض الاملاك بداعي عدم الدليل على الملكية ، او ان تهتم ديراً من الاديار بالزندقة فتحوّل ارزاقه الى الدولة . ولكن برغم

*De bello persico*, I, 24,35-37 ; éd. Haury, I, 130 ; éd. Dewing, I, 230-233. ١

*Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 156-157.* ٢

*Novelle*, 30, (44), 5, éd. Zacharia von Lingenthal, I, 268. ٣

*Bell, H., Byz. Servile State in Eg., Journal of Eg. Arch. IV, 101-102.* ٤

هذا كله لم يتمكن يوستينيانوس من القضاء على هذه الطبقة .  
ولس يوستينيانوس عيوب الادارة ومواطن الخلل فيها كبيع الوظائف  
وتبديد الاموال والسرقة والبص . وعلم حق العلم ان هذه النقائص  
تؤدي حتماً الى الفقر والحراب والى اثاره الفتن والمشاكل . ورغب كل  
الرغبة في ازالة الضرر واصلاح الحال . وشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه .  
وكان يقول بالحكم المطلق . فرأى ان افضل الوسائل لمداواة الحال هي  
السعي لتقوية الحكومة المركزية وانتداب رجال اكفاء للقيام بمهام الحكم .  
وعني بادىء ذي بدء بمالية الدولة فذكر بنقعات الحرب وطلب الى  
الراعايا ان يؤديوا ما وجب دفعه باخلاص وعلى الوجه الاكمل . وأمر  
الموظفين ان يعاملوا الراعايا بعطف ابوي وان يرفعوا عنهم الظلم ويمتنعوا  
من الرشوة ويعدلوا<sup>١</sup> . ثم عاد فذكر الموظفين بوجود السعي لتغذية  
الحزينة<sup>٢</sup> . واجتهد يوستينيانوس اجتهاداً حثيثاً في سبيل الاصلاح على اساس  
هاتين القاعدتين : امانة الموظف واخلاص المكلف . ولكنه رأى بعد وقت  
ان ذلك لم يكف لتغذية الحزينة فلبأ الى انقاص النفقات باتقاص الجيش  
وابتباع رضى الخصم على الحدود . ولم يفتن الى ان مثل هذه الحطة  
يؤدي الى الاضطراب في الداخل وضعف الهيبة في الخارج فضلاً عن نقص  
الموارد وازدياد النفقات .

وبما زاد في الطين بلة انتشار الاوبئة في عهده وحلول الزلازل .  
واشهر الاوبئة طاعون السنة ٥٤٢ . فإنه ظهر في مصر وانتقل الى سورية  
ولبنان فالقسطنطينية فبر الاناضول فما بين النهرين ففارس ثم عبر البحر  
الى صقلية وايطالية . ودام انتشاره في العاصمة اربعة اشهر . وتزايد فتكه

*Novella, 8, (16), 8, 10 ; éd. von Lingenthal, I, 102, 104.*

١

*Novella, 28, (31), 5 ; von Lingenthal, I, 197.*

٢

فهبجر السكان المدن والقرى ووقف الحرث والزرع وعمّ الجوع فاضطربت الدولة بأسرها .

وتعددت الزلازل . واشهرها زلزال السنة ٥٥١ وفيها اهتز الساحل اللبناني من ارواد حتى صور وعمّ الخراب . واصاب بيروت السهم الاوفر ، وقيل ان البحر فيها ارتد ميلاً ثم عاد بطفيان هائل فأغرق سفناً عديدة والوف الناس . ويقول اغاثيوس المؤرخ « ان بيروت زهرة فينيقية ذوت بعد هذه الزلزلة العظيمة وتقلص ظل جمالها ودكت ابنتها الشائخة البديعة فتقوضت ولم يبقَ منها الا ردم وخراب . وهلك تحت انقاضها جم غفير من الاهلين والاجانب . واختطف الموت نخبة الشبان الاشراف الذين كانوا قد قدموا بيروت لدرس الحقوق الرومانية في مدرستها الشهيرة التي كانت فخراً لها وتاجاً على مفرقها تباهي بها اخواتها من المدن العظمى . »

واتخذ يوستينانوس الفيلسوف ما بين السنة ٥٢٥ والسنة ٥٣٦ طائفة من الاجراءات لتعزيز السلطة المحلية مع تثبيت نفوذ السلطة المركزية . وكان قسطنطين الكبير ، كما سبق ان اشرنا ، قد جزأ الولايات الكبيرة الى ولايتين او اكثر وفصل السلطة الادارية في الولايات عن السلطة العسكرية ليؤمن شر التمرد والعصيان . ولكن يوستينانوس اراد ان ييسر الامور ليسهل عمل الادارة فقتل عدد الولايات وأنقص عدد الموظفين وزاد في رواتبهم

*Zinsser, H., Rats, Lice, and History, 144-149.*

١

*Patrologia Graeca, éd. Migne, 88: 1359.*

٢

وعلى اثر هذه الزلزلة انتقل الاساقفة الى صيدا ريثا يتجدد بناء بيروت ثم عادوا اليها بعد سنين قليلة . ولكن نارا شبت بها في السنة ٥٦٠ فالتهمت ماؤها وهدأ كبراً من دور السكن ليا .

وضع السلطين العسكرية والادارية في يد واحدة<sup>١</sup>. وأنعم بالقب «يوسنياني» على الحكام فزادهم فخراً ووقاراً.

وعني يوسنيانوس عناية خاصة بإدارة العاصمة فعين عدداً من الحكام «برايتوريوس الشعب» في السنة ٥٣٥ للنظر في السرقات والاعتقالات وحوادث الزنى. وفي السنة ٥٣٩ انشأ وظيفة الكوايسيتور *Kuacsitor* لمراقبة الذين كانوا يفدون على العاصمة من ابناء الولايات بلا موجب فيعقدون احياناً مشاكلها بتصرفهم. ونزولاً عند رغبة ثيودورة اعاد تنظيم وظيفة المحافظين على الآداب العامة وأمرهم بالتشديد على المقامرین والمجذفين وعلى «اولئك السفلة الذين لم ينتظروا سدول الليل ليستروا بها معاصيهم». واهتمت ثيودورة لامر الزانيات ف جعلت من قصر قديم على ضفة البوسفور الآسيوية ديراً للتائبات منهن اسمته دير التوبة. ومنع يوسنيانوس سباق الخيل في الهيبودروم وأمر بمراقبة الاحزاب الرياضية السياسية مراقبة شديدة<sup>٢</sup>.

وحضّ يوسنيانوس الحكام والزمهم ان يحافظوا على الطرقات والجسور واقنية المياه والاسوار وادمم بالمال. فنشطوا لتحقيق هذا الواجب وانشأوا طرقات جديدة وشيدوا لها الجسور وحفروا الآبار والاحواض على جوانبها ليؤمنوا للمياه للقوافل وانباء السبيل. وجرّوا المياه الى المدن وبنوا الحمامات. وعملاً برغبة يوسنيانوس قامت مدن جديدة في بعض الانحاء تحمل لقب يوسنيانية اعترافاً بفضل الامبراطور. وبذل يوسنيانوس بذلاً سخياً لاغاثة انطاكية بعد الكارثة التي حلت بها

١ التي وظيفة النواب *Vicarii* ورفع حكام بعض الولايات ومنها سورية وارمينية الى رتبة برايتوريوس *praetorius*.

٢ *Diehl. Ch., Justinian's Govt. in the East, Cambridge Med. Hist., II, 39.*

في السنة ٥٤٠ . فجدد الاقنية والمجاوير وانشأ الحمامات ودور اللهب والساحات العامة . ولم يقصر في البذل عندما حلت الكارثة في السنة ٥٥١ ببيروت وغيرها من مدن لبنان وسورية . وفي السنة ٥٣٢ بدأ بتشييد كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية بأشراف اسيدور الملطي وانثيموس الترتي . واستمر العمل فيها خمس سنوات حتى تم بناؤها في السنة ٥٣٧ . فجاءت آية من بدائع الآيات أنحف بها يوستنيانوس عالم الفن . وهي ما زالت قائمة راسخة موطدة بارزة جريئة واضحة نقية . وانشأ في السنة ٥٣٨ القصر المقدس بمدخله الفخم وقاعة عرشه العظيمة Consistorium التي بهرت العيون بالوان معادنها الثمينة ودقائق فنها الحاصل . وعينت ثيودورة بكنيسة الرسل وبعدها كبير من المستشفيات للمرضى والانتزال للسافرين . ولا تزال احواض برة بتان سراي « القصر الغائر » وبيك برديرك « الف عمود وعمود » تنطق بالعمل الجبار والجهود المتواصلة التي بذلها يوستنيانوس لتوفير المياه على العاصمة .

**يوستنيانوس والاقتصاد :** وأراد يوستنيانوس ان يحرر تجار الامبراطورية ورجال الصناعة فيها من تحكّم الفرس في مقدراتهم . فانه لم يكن بإمكان الروم في القرن السادس ان يتناوعوا مباشرة من الصين والهند بعض المواد اللازمة للبخ والتعظيم والتعظيم ، كالحزير والحجارة الكريمة والاطايب والافاويه . ذلك ان هذه المواد كان محتوماً لها ان تمر عبر فارس اذ كان الفرس يتناعونها في اسواق بخارى وعند تخوم الصين وفي جزيرة سيلان ثم ينقلونها الى حدود الروم عند الفرات ولا يرضون بيعها الا باغلي الاسعار او لا يسمحون بتصديرها الا بكميات محددة . فسمى يوستنيانوس للوصول الى بخارى عن طريق البحر الاسود فزيقه فبحر قزوين متعاشياً الدخول في حدود فارس . وكذلك سعى لتشجيع الروس الجنوبيين على الاتصال بتخوم الصين للغاية نفسها . ثم دفع تجار بيروت

وصيدا والاسكندرية الى استيراد هذه البضائع عن طريق البحر الاحمر  
 ومرافئ حمير الجنوبية . وجعل من مرفأ آيلة بالقرب من العقبة ومرفأ قلزم  
 بالقرب من السويس قاعدتين تجاريتين ، كما انشأ على جزيرة تيران في  
 خليج العقبة جمر كآ امبراطورياً لهذه الغاية نفسها . وكانت مراكب  
 الاحباش وعرب الجنوب تجوب بحر العرب والمحيط الهندي حتى سيلان .  
 فاتصل يوستينانوس في السنة ٥٣٠ او ٥٣١ بالنجاشي «ملك ملوك» الاحباش  
 وحسّن له نقل سلع الهند والصين من سيلان الى مرافئ البحر الاحمر .  
 فافتتح النجاشي بالامر وحضّ عليه تجارته . ولكن الفرس كانوا في مرافئ  
 الهند اوسع نفوذآ من الاحباش فقاوموا تجار الاحباش مقاومة شديدة .  
 وفي السنة ٥٣٢ جاء السلم بين الفرس والروم فعادت الامور الى مجاريها  
 الطبيعية وعاد الروم الى الاستيراد عن طريق فارس . غير ان العلاقات  
 عادت فتأزمت في السنة ٥٤٠ كما سنرى فلجأ يوستينانوس الى تحديد سعر  
 الحرير واكره التجار على قبول تعرفه حكومية . فشل بذلك نشاط  
 التاجر الفرد ولحق بالتجار اللبنانيين خسارة فادحة كادت تقضي على صناعاتهم .  
 ثم افلت سرّ تربية دود الحرير من الصين ، نقله قيسان مسيحيان بين  
 السنة ٥٥٢ والسنة ٥٥٤ الى الروم . فتلقاه اللبنانيون بالتهليل واقبلوا على  
 تربية دود الحرير في لبنان . وفعل مثلهم يوان المورة وبعض الجزر .  
 فأصبح لدى الروم انتاج محلي من الحرير استعاضوا به بما كان قد لحق  
 بهم من خسارة وباتوا بمأمن من تحكّم الفرس في مقدراتهم . واستطاعوا  
 هم بدورهم ان يحافظوا على سرّ تربية دود الحرير زمناً طويلاً . واتسع  
 نطاق عمل اللبنانيين بنوع خاص فراجت بضائعهم الحريرية في جميع اسواق  
 البحر المتوسط وفي فرنسا والمالية وبريطانية . ونشطوا في تصديرها الى

الشرق الاقصى فكثير طلابها في الصين نفسها . وعظمت تجارة القسطنطينية فتقاطرت اليها المراكب من كل حدب وصوب من مرافئ المتوسط والبحر الاسود لتحمل اليها المواد الخام على انواعها وتنقل منها انتاجها الصناعي . واصبحت بفضل هذه التجارة واهتمامها بالفضة المركز الاعظم للتداول المالية وللصرافة ايضاً . والاسكدرية بفضل موقعها وعظم مرفأها ظلت تعتم بدخل موفور : وكان اهم ما تتجر به حبوب مصر ومعادن افريقية ونفائس الشرق الاقصى . وقامت فيها جالية لبنانية هامة تستغل سوقها العظيمة .

وُسِّرَ يوستينيانوس بازدهار التجارة وهنا نفسه انه استطاع بسعيه وحسن تديره ان يقدم «زهرة اخرى» الى الدولة التي احب والتي وكل الله اليه امرها . وليس في كلامه هذا ما لا يتفق والحقيقة فأعمال الحفر والتنقيب في السبعين السنة الاخيرة قد دلت على هذا الازدهار دلالة واضحة<sup>١</sup> .

يوستينيانوس والقضاء : وأحب يوستينيانوس النظام . وورغ رغبة اكيدة صادقة في تأمين «العباد الذين وكل الله امورهم اليه» وفي نشر لواء العدل بينهم . وثاقت نفسه الى المجد الروماني السابق . واران ان يعيد الى الامبراطورية الرومانية سابق وحدتها . وعلم العلم اليقين ان هذا يتطلب اموالاً لا حصر لها . فرأى بنظره الاداري الثاقب ان افضل الوسائل لجمع المال من الرعايا هو حمايتهم من ظلم الحكام وتصلفهم . وهكذا عني منذ بداية عهده يجمع القوانين المتراكمة وتنسيقها وتعديلها وفوض امرها الى مدبره الكبير تريبونيانوس . فدعا تريبونيانوس هذا لجنة من كبار

*Diehl, Ch., Justinian's Govt. in the East, Camb. Med. Hist., II, 40-42. ١*

رجال القانون في الامبراطورية وذلك في ١٣ شباط سنة ٥٢٨ ووكّل اليهم العمل . وكان ام هؤلاء بطبيعة الحال اساتذة مدرسة بيروت الشهيرة : اناطوليوس ابن لاونطيوس وتلاوس واسطفانوس ويوليانيوس ودوروثاوس واذوكسيوس . وتمّ الجمع والتنسيق والحذف وما الى ذلك على يد هذه اللجنة . فظهرت مجموعة القوانين الـ Code في السابع من نيسان سنة ٥٢٩ . وفي الخامس عشر من كانون الاول سنة ٥٣٠ عنيت لجنة ثانية باستخلاص قوانين الاحوال الشخصية Pandectae وكان ألمع اعضاء هذه اللجنة واكثرهم نشاطاً الاستاذ البيروتي اذوكسيوس . فتمّ العمل في ١٥ كانون الاول سنة ٥٣٣ وظهر الديجستـ Digesta الى حيز الوجود . ووضعت هذه اللجنة كتاب الانظمة Institutes لتسهيل درس الحقوق فظهر في الحادي والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها ٥٣٣ . وفي السنة ٥٣٤ ظهرت مجموعة القوانين بجملة جديدة وهي المجموعة التي لا يزال يتداولها رجال القانون حتى يومنا هذا . فأما مجموعة السنة ٥٢٩ فلم يبقَ منها اي اثر .

يوستينيانوس والكنيسة : وكان يوستينيانوس يرى ان واجبه يقضي بالمحافظة على حرمة الكنيسة والدفاع عنها ضد المعتدين . وكان يقول ان انتظام الكنيسة هو دعامة الملك . وكان يرى في نفسه رئيساً للدولة وللكنيسة في آن واحد فيتدخل في المناظرات والمباحثات اللاهوتية وييدي رأيه فيها ويقطع الاساقفة ويعين غيرهم في مناصبهم ويدعو الى الجامع ويدير اعمالها ويوافق على قراراتها او يعدلها او يلغيها . ومن هنا هذه الفصول

١ وام اخبار هذه المؤلفات ورد في مقدمتها فلتراجع في مقالاتها . راجع ايضاً :  
*Roby, H. J., Roman Law, Cam. Med. Hist., II, 53-108; Vasiliev, A. A., Byz. Empire, 142-147; Justinian's Digest, Studi Bizantini e Neellenici, 1939, 711-734.*

في مجموعة قوانينه الكبرى وفي قوانينه المستجدة في نظام الاكليروس وفي ادارة الاديرة والاقواف وغير ذلك مما كان يلحق بشؤون الكنيسة .

وكان يوستينانوس في مقابل هذا ابدأ مستعداً للدفاع عن الكنيسة ورفع الضيم والاذى عنها تأييداً لها بالمال والنفوذ كما تقضي على الهرطقة في صفوفها . وكان ايضاً يبذل بسخاء لتشييد الكنائس والاديرة والمقامات في طول الامبراطورية وعرضها .

وكان يوستينانوس ارثوذكسي العقيدة كما سبق ان اشرنا فأصدر في السنة ٥٢٧ وفي السنة ٥٢٨ قوانين صارمة ضد الهرطقة . فأبعد الهرطقة عن الوظائف والمهن الحرة ومنع اجتماعاتهم واغلق كنائسهم . ثم حرّمهم حقوقهم المدنية قائلاً : يكفي هؤلاء ان يؤذن لهم بالعيش . واضطهد الوثنيين وحملهم على التنصر جماعات جماعات . ورأى ضرورياً ان يقضي على عقائدهم وفلسفاتهم فأمر في السنة ٥٢٩ باقفال جامعة آثينة . ودّمّر هياكل ايسيس وعمون في مصر . ولم يكن اقل شدة في موقفه من اليهود . فنشبت ثورة السامرة في السنة ٥٢٩ وجرت عليهم ضيقاً وخوفاً فوق ما كانوا يكابدون . ولم ينبج من الاضطهاد سوى اصحاب الطبيعة الواحدة لانهم كانوا اقوى الهرطقة واكثرهم عدداً . فرهبانهم في مصر كانوا يؤلفون جيشاً متواصلاً مستعداً لتنفيذ اوامر بطريركهم واعيانهم . وكانوا في سورية وفلسطين ولبنان والرها وارمينية لا يزالون يتربعون في اعلى المراكز ويتمتعون بعطف وتأيد في قلب العاصمة نفسها .

وكان يوستينانوس شديد الايمان بكنيسة واحدة جامعة مقدسة وسولية . فما ان تبوأ خاله عرش الامبراطورية حتى عمد الى ازالة الانشقاق بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومة . على انه لبث يواجه مشكلة اخرى . ذلك ان ولاياته الشرقية كانت تشتمل على عدد كبير من القائلين بالطبيعة الواحدة . فوجد نفسه بين شرّين : شرّ الابتعاد عن رومة وعن الكنيسة

الارثوذكسية ، وشرّ انفصال الولايات الشرقية عنه او شرّ القلاقل فيها واستعداد اهلها لمناوأة في كل فرصة تنتهز . فأحب بلء الاخلاص ان يضع حلاً وسطاً يرضي به اصحاب الطبيعة الواحدة ولا يجيد به عن ارثوذكسيته . وهكذا نزاه في السنة ٥٢٩ يلغي قرار النفي عن بعض الرهبان من اصحاب الطبيعة الواحدة . ونزاه يستقدم الى القسطنطينية سوبروس بطريرك انطاكية المقطوع عن وظيفته ليتداول معه في طريقة الوصول الى حل وسط . ونزاه كذلك يطلق لاصحاب الطبيعة الواحدة حرية الوعظ والارشاد . ولما توفي ايفانيوس بطريرك القسطنطينية في السنة ٥٣٥ اقنعت ثيودورة زوجها الامبراطور باقامة اثيمسيوس متروبوليت طرابزون وصديق سوبروس بطريركاً في العاصمة . وكان اثيمسيوس يقول بالطبيعة الواحدة سراً . ولكن ما لبث ان قدم العاصمة البابا اغايتوس في السنة ٥٣٦ فعلم بما في الزوايا من خبايا . فدعا اساقفة القسطنطينية ومقدمي الكهنة فيها الى مجمع محلي برئاسة قطع فيه اثيمسيوس ومن شاركه رأيه . ثم انتخب الاكليروس والامبراطور والشعب ميناس بطريركاً على القسطنطينية . وفي هذه الآونة وصل الى العاصمة رهبان من فلسطين وسورية ولبنان ليشكوا سوبروس وغيره من اصحاب الطبيعة الواحدة . ورفعوا بذلك لوائح الى يوستينانوس والبابا . على ان البابا اغايتوس مرعان ما توفي في القسطنطينية . ومع ذلك فقد انعقد مجمع برئاسة البطريرك ميناس وعضوية اساقفة القسطنطينية والاساقفة الذين كانوا صحبة البابا اغايتوس ووكلاء البطاركة الشرقيين المقيمين في العاصمة وشجبوا الهرطقة شجباً .

وبعد وفاة البابا اغايتوس انبرى في رومة ايوديا كون اسمه سيلباريوس ، وطمع في منصب الباباوية فرشا الملك ثاواذاتوس . فأكره ثاواذاتوس المجمع على قبول سيلباريوس مهدداً كل معارض بالقتل . وكتبت ثيودورة الى هذا

البابا ان يساعد انثيموس على ميناس فرفض . فاتفقت ثيودورة مع فيجيليوس *Vigilius* وكيل البابا في القسطنطينية ووعده بالكرمي الباباوي وزودته بتحارير الى بليساوريوس القائد شرط ان يطعن فيجيليوس بالجمع الرابع ويساعد سويروس وانثيموس على ميناس . فقبل ذلك وسافر الى رومة . فخلع بليساوريوس المنتية والامو فوربون عن البابا سيلباريوس وألبسه ثوب الرهبنة ونفاه . واقام فيجيليوس محله بابا على رومة . فثبت فيجيليوس المعتقد بالطبيعة الواحدة وفنّد قرارات مجمع خلقيدونية ورسالة لاوون الكبير وحرم كل من يقول ان في المسيح المخلص طبيعتين وكل من يقول انه صلب من حيث هو انسان ولا يعترف ان ابن الله هو نفسه الذي صلب . ثم ندم فيجيليوس على ما قال وفعل . فأخذت ثيودورة ترتقب فرصة تستدرجه فيها الى القسطنطينية لتنتقم منه . فتمّ لها ذلك في السنة ٥٤٧ بمناسبة البحث في الفصول الثلاثة .

**الفصول الثلاثة :** وكان لا يزال اوريجانيوس الاسكندري ومؤلفاته موضوع جدل ونزاع بين علماء الكنيسة واساقفتها ، فريق منهم يحترمه لعلمه واجتهاده وطهارته وفريق آخر يكرهه لان بعض آرائه كانت قد اصبحت حجة لمن قال بالطبيعة الواحدة . وبرغم ان احد المجامع كان قد اصدر حكماً على اوريجانيوس ومؤلفاته ، فان عدداً كبيراً كان لا يزال يحترمه فيدعي ان الهراطقة عبثوا بمؤلفاته ليستندوا عليها . ولكن في السنة ٥٣٩ أصدر افرام بطريك انطاكية حكماً جديداً بتحريم اوريجانيوس ومؤلفاته . فطلب بعض رهبان فلسطين الى بطرس بطريك اوروشليم قطع البطريك افرام . فلم يعرهم سمعاً . الا انه ارسل وفدأ الى القسطنطينية يبين واقع

*Diehl, Ch., Justinian's Govl. in The East, Cam. Med. Hist., II, 45-46.* ١

جرايموس ، تاريخ الالتحاق ، ج ١ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٣ .

الحال ويرجو اتخاذ موقف واضح من اوريجانيوس ومؤلفاته . فكان من بطريك القسطنطينية ميناس ان عقد جمعاً عملياً بموافقة الامبراطور حكم فيه على اوريجانيوس وتعاليمه . واتفق ان كانت في البلاط ثيودوروس اسكيزاس اسقف قيصرية . وكان هذا يحترم اوريجانيوس وتعاليمه ويقول بالطبيعة الواحدة ويتقرب الى ثيودورة . ومثله كان دوميتيانوس كاتم اصرار الامبراطور . فتقدم الثلاثة ثيودورة وثيودوروس ودوميتيانوس من يوستينانوس واقنعوه بان انضمام اصحاب الطبيعة الواحدة الى الكنيسة سهل جداً متى حرمت الفصول الثلاثة . وهذه الفصول هي مؤلفات ثيودوروس الموبوستي ورسائل ثيودوريطس ضد كيرلس والرسالة المنسوبة الى الاسقف ايبيا . ورأى هؤلاء في ذلك كله وسيلة لتجريح قرارات المجمع المسكوني الرابع ولارضاء اتباع اوريجانيوس بالحكم على من كتب ضده ولاغضب الارثوذكسين . فوافق يوستينانوس وأصدر في السنة ٤٤٤م تحريماً للفصول الثلاثة وطلب الى الاساقفة ان يوافقوه عليه ، وهدد المعارضين بالجزل . فلم يخضع اساقفة الغرب لامر الامبراطور وجاراهم في ذلك البابا فيجيليوس . وكتب اسقف قرطاجنة الى الامبراطور انه لا يجوز ايقاع الحرم بشخص بعد موته . فاستدعى يوستينانوس البابا فيجيليوس الى القسطنطينية . فحضر اليها وانتهى بالتزول عند ارادة الامبراطور فأنشأ رسالته المعروفة بالجوديكاتوم *Judicatum* وفيها شجب الفصول الثلاثة . ولكن اساقفته انتقضوا عليه وعينوا له وقتاً للندامة . فلبث فيجيليوس في القسطنطينية ورجع عن قوله في الجوديكاتوم . ثم أصدر يوستينانوس امراً ثانياً بشجب الفصول الثلاثة وطلب الموافقة عليه مرة اخرى . فأبى البابا فيجيليوس ودخل كنيسة واحتمى بها وربط نفسه بعمود المائدة . فسحبه

الجود بالقوة فانسحب العمود معه وسقطت المائدة<sup>١</sup>. وبما يجدر ذكره ان الاصل في تسمية الفصول الثلاثة بهذا الاسم هو ان الامر الذي أصدره الامبراطور بالشجب حوى فقرات ثلاثاً تتعلق بمؤلفات ثيودوروس وثيودوريطس وإيبيا. ثم تنوسي ذلك فأصبحت الفصول الثلاثة تدل على اشخاص ثيودوروس وثيودوريطس وإيبيا انفسهم.

المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية: ولكي يضع الفيلسفس حداً لهذا النزاع الجديد دعا الى مجمع مسكوني ينعقد في السنة ٥٥٣ في القسطنطينية. وقد اشترك في اعمال هذا المجمع مئة وخمسة وستون اسقفًا، بينهم افتيشيوس بطريرك القسطنطينية وابوليناريوس بطريرك الاسكندرية ودمنوس بطريرك انطاكية ونائبان عن بطريرك اوروشليم. وكان البابا فيجيليوس لا يزال في القسطنطينية مع عدد من اساقفة الغرب. فدعي للاشتراك في المجمع وتروّس الجلسات ولكنه امتنع. فتأس المجمع بطريرك القسطنطينية وأقر جميع قرارات المجمع المسكونية السابقة ثم دقق في الفصول الثلاثة فحكم برفضها ورفض كل من يدافع عنها *ad defensionem eorum*<sup>٢</sup>. وفي جلسته الثامنة والاخيرة وجه المجمع لوماً شديداً لبابا رومة لانه امتنع عن الاشتراك في جلساته. واعتبر يوستينيانوس قرارات هذا المجمع ملزمة واكره الاساقفة على قبولها ونفى من عارضها. وفي طلبعة هؤلاء البابا فيجيليوس فقد أكره على الإقامة في احدى جزر مرمر. ثم وافق فيجيليوس على قرار المجمع فأذن له بالعودة الى رومة. ولكنه توفي في مرقوسة قبل ان يصل. وأصر اساقفة الغرب على موقفهم المؤيد للفصول

١ في موقف الاساقفة الثريين راجع:

*Fulgentii Ferrandi Epistola, VI,7; Patrologia Latina LXVII, 926.*

*Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, IX, 376.*

الثلاثة وامتنعوا عن الخضوع لقرار المجمع الخامس . وظلوا متمسكين بذلك حتى عهد البابا غريغوريوس العظيم ( ٥٩٠ - ٦٠٤ ) . فانه اعلن في احدى رسائله ان ليس في قرارات المجمع الخامس مما يتعلق بالفصول الثلاثة اي تغيير في الدين او خروج عنه<sup>١</sup> .

ولكن رغم هذا كله اصر اصحاب الطبيعة الواحدة على متابعة الانفصال . غير ان يوستينانوس لم يكن يتغير عليهم حتى يعود الى التقرب منهم والعطف عليهم الى ان ادركته المنية في السنة ٥٦٨ . واذا كان يوستينانوس قد اخفق آخر الامر في تحقيق وحدة الكنيسة فمن الواجب ان يُعترف له باهتمامه البالغ لنشر النصرانية وراء حدود الامبراطورية . فقد نصر قبائل المروبي على الدانوب وقبائل القوقاس وافريقية الشمالية والنيل الاوسط<sup>٢</sup> . سياسة يوستينانوس الخارجية : وأحب يوستينانوس منذ بدء عهده ان يعيد الى الدولة الرومانية مجدها الغابر وان يحقق فعلاً ما كان له من سيادة اسمية على ايطالية وافريقية واسبانية وفرنسة ولو أدى به ذلك الى الحرب والفتح . ولكن لم يتسن له شيء من ذلك قبل منتصف السنة ٥٣٣ لاستغاله بجارته الكبيرة فارس الساسانية .

الحرب الفارسية الاولى : ( ٥٢٧ - ٥٣٢ ) وهاهز قياد الثمانين وأحب ان يضمن الملك من بعده لابنه الاصغر كسرى انو ثروان ، ففاوض يوستينوس في ذلك وطلب اليه ان يتبني كسرى وان يدافع عن حقه في الملك . ونظر يوستينوس في الامر وساور فيه رجاله ثم أجاب قياد انه مستعد للقيام بتلك المهمة شرط ان يكون التبني على الطريقة العشائرية

*Epistolae Gregorii Magni, II, 36.*

١

*Maspero, Patriarches d'Alexandrie, 135.*

٢

وفي هذا المؤلف بحث جميل في مشكلة الطبيعة الواحدة في عهد يوستينانوس .

الامانية . ولا نعلم بالضبط شروط هذا النوع من التبيي . ولكن يلوح لنا انه كان أيسر بما اراده قباذ . وكان الوفد الفارسي في الوقت نفسه يفاوض للوصول الى تفاهم بين الدولتين حول قضية لازيقة « لازستان » . فلما عاد الوفد الى عاصمة فارس وأطلع قباذ على اقتراح زميله يوستينوس حقد قباذ وأضمر السوء . وكان يقش عن ظرف يستعين به للظهور بمظهر المدافع عن الدين الفارسي القديم ، فأمر جرجان ملك إيبيرية في القوقاس ان يمنع هو وشعبه المسيحي عن دفن الموتى وان يتبعوا في ذلك الطريقة الفارسية القديمة فيعرضوا الجثث لطيور السماء . ولكن جرجان ابى وامتنصر يوستينوس فنصره . وهكذا دخلت الدولتان دولة الروم ودولة الفرس في حالة حرب منذ السنة ١٥٢٧ .

وصمد بليسايريوس قائد الروم في وجه الفرس عند دارا في السنة ٥٣٠ . وفي السنة ٥٣١ اقبل المنذر اللخمي من الحيرة وأغار على خلقيس ( قنسرين ) ثم سار الى انطاكية وعاث في ضواحيها وغنم مالا وافراً واسر كثيرين وعاد الى الفرات . ثم عاود الكرة والفرس من ورائه واغار على اليهود . فهب بليسايريوس لصدده وانتصر عليه وعلى اسياده عند الفرات في كلينيكوم Callinicum فدهم بذلك عن غزو سورية الشمالية . وتوفي قباذ في السنة ٥٣٢ . فعرض خلفه كسرى أنو شروان صلحاً دائماً قبله يوستينيانوس دونما تردد بالنظر لما كان يفكر فيه من انصراف الى العمل في الغرب لاعادة وحدة الامبراطورية . وقبل ان يتجه نحو الغرب انشأ حلفين شرقيين : حلفاً مع امراء القوقاس في الشمال والآخر مع نجاشي الحبشة في الجنوب ليأمن بها شر حرب ثانية مع الفرس ٢ .

*Christensen, A., Iran sous les Sassanides, 355, 356-357.*

١

*Diehl, Ch., Justinien et la Civ. Byz., 381-385, 394-398.*

٢

وعني يوستينيانوس في هذه الآونة نفسها بتوطيد علاقاته مع القبائل العربية الضاربة في بادية الشام ليوازن بنفوذها نفوذ شقيقاتها في بادية العراق و"هن" عمال كسرى . وكان بنو غسان قد وفدوا الى سهول حوران من اليمن او ما يليها في فترة من الفترات التي تصدع فيها سد مأرب ، وحلوا بين عشائر قضاة وُسليح . ثم سيطروا عليها وجمعوها في كيان سيامي . فاستعان بهم الروم في القرن الخامس لمراقبة غيرهم من القبائل العربية التي كانت تجوب اطراف الجزيرة المتاخمة لبادية الشام واستعملوهم لصد هذه القبائل اذا هي حاولت الانصباب على اراضي الامبراطورية . ووجد الروم في الغساسنة ايضاً خير معاون لهم على عرب الحيرة انصار فارس . وبلغ الغساسنة الاوج في اوائل القرن السادس فانضوى تحت لوائهم جميع شيوخ العشائر العربية من لبنان شمالاً حتى الحجاز جنوباً . ورأى يوستينيانوس ان يزيدهم هبة فرفع اميرهم الحارث بن جبلة الى رتبة فيلارخوس وبطريق ، وبذلك جعله يوازن في اللقب امراء الحيرة عمال فارس<sup>١</sup> .

الحرب في افريقية واطالية : ( ٥٣٣ - ٥٤٠ ) وثار غلمار على هيلدريجنوس الوندالي في شمالي افريقية . وكان غلمار آريوسياً . فاستغل يوستينيانوس المناسبة وتدخل باسم الدين القويم ، كما كان قد استغل اقدام ثيوداتيوس على خنق ابنة عمه وريثة ثيودوريجنوس في ايطاليا . وفي حزيران من السنة ٥٣٣ اقلع بليساريوس القائد على رأس قوة مؤلفة من خمسة عشر الف رجل ومن اثنتين وتسعين ذرومونة الى جوار قرطاجة فوصلها في ايلول من السنة نفسها وتغلب في غير مشقة على غلمار

<sup>١</sup> Diehl, Ch., op. cit., 387-396 ; Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 91-92.

راجع ايضاً كتاب الامويين والبيزنطيين للدكتور ابراهيم احمد المدوي ، ص ٨-١٢ .

ودخل قرطاجة منتصراً فصادف فيها لستقبالاً حاراً . وعين يوستينيانوس احد القادة ، سليمان ، حاكماً على افريقية الشمالية وأشار على بليساريوس بالانتقال حالاً الى صقلية فايطالية . ولكن سليمان لاقى مقاومة شديدة من البربر الذين لم يسبق لهم ان خضعوا للوندال . فاضطر بليساريوس ان يعود الى قرطاجة لينتصر على هؤلاء . ولم تهدأ الاحوال في افريقية الشمالية قبل السنة ٥٣٩ . وجعل يوستينيانوس من افريقية برايقتورة جديدة وانشأ في وجه البربر ليموساً جديداً .

وتم الاستيلاء على ايطالية بالسياسة والحرب معاً . فبعد ان استمال يوستينيانوس بعض المشائير القوطية انفذ الى ايطالية حملتين احدهما عن طريق ايليرية بقيادة مندوس والآخرى الى صقلية فايطالية بقيادة بليساريوس نفسه . وأجلى بليساريوس القوط عن صقلية في يسر وسهولة ، ثم اجتاز مضيق مسينة في ربيع السنة ٥٣٦ فحاصر نابولي عشرين يوماً واخذها عنوة . وفر منها ثيوداتيوس والتجأ الى رومة فاغتناله احد رجاله . ثم انتخب القوط ملكاً عليهم جندياً نكرة لم يقوَ على صد بليساريوس عن رومة . ودخل الروم رومة في العاشر من كانون الاول سنة ٥٣٦ فأحاط بهم القوط وحصروهم فيها سنة كاملة ثم ارتدوا عنها . فخرج بليساريوس الى شمالي ايطالية وتابع فيها الحرب . ولكن مناظرة نوسه الحصي له عوقت سير الحرب اشهرآ . ولم يدخل بليساريوس رايننة قبل ايار السنة ٥٤٠ . وأعاد الامبراطور برايقتورة ايطالية واتخذ لنفسه لقب قاهر القوط Gothicus .

**الحرب الفارسية الثانية : ( ٥٤٠ . ٥٦٢ )** وأفضت هذه الانتصارات

مضجع كسرى انوشروان وجاءه رسل القوط يحثونه على القتال . فجهز جيشاً كثيفاً وأغار فجأة على سورية واحتل ثغورها على الفرات وأباح

لعساكره النهب والسبي ففعلوا . ثم تقدم نحو منبج Hierapolis فاشترى  
اهلها الامان بالفي دينار فضة . ونهض كسرى الى انطاكية . وكاث  
جرمانوس احد انبساء يوستينيانوس قد رابط فيها بثلاث مئة جندي واقام  
ينتظر وصول بقية الجيش الامبراطوري . وكان منذ ان دخلها قد باشر  
تحصينها وترميم اسوارها وقلاعها . وكان موقع انطاكية عند العاصي ،  
بما يحيط بها من صخور وحواجز طبيعية اخرى فضلاً عن الحصون الصناعية ،  
معقلاً منيعاً . ولم يكن في جهاز الدفاع عنها الا ثغرة واحدة  
عرفها جرمانوس واراد تلافياها ، غير ان الضباط الذين كانوا حوله اشتد  
بهم الخوف لدى وصول كسرى فهربوا الى قيليقيه . وهبّ الاهلون لجمع  
المال يشترون به الامان من العدو ، ولكن وفدأ امبراطورياً وصل الى  
المدينة وقال : لا يلقى بالحاضرة الثانية في الامبراطورية ان تشتري اماناً  
من غزاتها . فعزمت المدينة على المقاومة . فضرب كسرى عليها الحصار ، ولم  
يلبث ان اهتدى الى الثغرة في السور فدخل منها . فدافع الانطاكيون ما  
وسعهم الامر ثم فروا الى دفنة يحتمون بها . فسيطر كسرى على انطاكية  
واباحها للنهب والحريق . ثم انحدر الى سلوقية وذبح عند شاطئها ضحية  
للشمس . ومنها سار الى ابامية فدخلها وسلب كنيستها ونهب الدور  
والمباني . وكان الوفد الامبراطوري قد فاضه بالكف عن القتال لقاء  
قدر من المال يدفع اليه في كل سنة . فقبل كسرى وارتند عبر الفرات  
بالوف الاسرى الى عاصمته طيسفون . وبني لاولئك الاسرى مدينة خاصة  
سماها انطاكية كسرى<sup>١</sup> .

وفي السنة ٥٤١ هجم كسرى على لازيقه ( لازستان ) وليبيرية في  
القوقاس . وفي السنة ٥٤٢ دخل قوموجينية وأخرب وأحرق وسبي .

*Procopius, Bell. Persicum, II, 8-11; Diehl, Ch., op. cit., 213-215.*

وظهر في السنة التالية على حدود ارمينية البيزنطية ، ثم عاد في السنة ٥٤٤ الى حدود الفرات وحاصر اورقة حصاراً شديداً . وكان قادة الروم مشغولين عنه بماشغل داخلية شخصية . فغضبت ثيودورة على بليساوريوس وخذلته . الا ان يوستينانوس انفذ في السنة ٥٤٣ ثلاثين الفاً الى ارمينية الفارسية . غير ان حملته ردت ومنيت بالفشل . وما لبث الطرفان المتحاربان ان شعرا بصعوبة القتال في القوقاس نظراً لطبيعة البلاد الجبلية ووعورة مسالكها وكثرة احراجها . فتهدئا في السنة ٥٤٤ وجددا الهدنة مرتين ثم جعلاهما معاهدة دائمة في السنة ٥٦١ . وقضت شروط هذه المعاهدة ان يفصل السلم بين الطرفين خمسين سنة على ان تجلو قوات الفرس عن اللازستان ويدفع يوستينانوس الى كسرى ثلاثين الف اوري في السنة ويتمتع عن التبشير بالنصرانية في الاراضي الفارسية ، وفي مقابل ذلك يحترم كسرى حقوق النصارى من رعاياه فيرفع عنهم الاضطهاد<sup>١</sup> .

**توتيلة :** وعاد القوط الى المقاومة في ايطالية وبايعوا توتيلة احد زعمائهم . ووافق ذلك ان دب الشقاق الى صفوف زعماء الروم في ايطالية . فانطلق توتيلة برجاله من الشمال بالغا الى اقصى الجنوب . واحتل في السنة ٥٤٣ نابولي . فهرع بليساوريوس لقتاله ولكنه لم يتمكن من صدده لثقة العدد والعدد . وهكذا دخل توتيلة رومة في السابع عشر من كانون الاول سنة ٥٤٦ . ثم انشأ اسطولاً وغزا صقلية فاستولى عليها في السنة ٥٤٩ - ٥٥٠ . فثارت ثورة يوستينانوس فجهز قوة كبيرة وأمر عليها نوسيس ودفع بها الى ايطالية عن طريق الشمال . فتمكن نوسيس في السنة ٥٥٢ من القضاء على توتيلة في موقعة بوسنة في اومبرية<sup>٢</sup> .Busta Gallarum .

*Guterbock, Byzanz und Persien, 57.*

*Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 261-269.*

الدانوب : والمشاكل التي عاناها يوستينيانوس في الغرب والشرق معاً

قضت عليه بسحب جنوده من ضفة الدانوب واستعمالهم في جبهات اخرى

واضطرته الى الاستعاضة عنهم بسلسلة كبيرة من الحصون والقلاع . فأنشأ

ورمم وحصن أكثر من أربع مئة مدينة في البلقان . ثم تذرع بسياسة

« فرق تسد » فحالف اللومباردين ضد الغييد Gepides في المجر وصادق

المون الاوتيغور Ontigours في شرقي ازوف ضد المهون الكوتريغور

Koutrigours بين الدون والدينستر واستعان بالافار Avars ضد

عشائر الدانوب . ولكن هذا كله لم يمنع البرابرة من التسرب خال حصون

البلقان نظراً لصغر الحاميات . فكان في السنة ٥٣٩ - ٥٤٠ ان انتشر

مئات من الصقالبة والبلغار والمون في قرى عديدة من الادرياتيك

حتى القسطنطينية ينهبون ويحرقون ويذبحون . وفي السنة ٥٥٨

تحرك سبعة آلاف كوتريغور من الدانوب فاتجهوا جنوباً وعبروا سور

انطاسيوس والقوا الرعب في اوساط القسطنطينية نفسها . وظل ذلك دأبهم

حتى جمع بليسايريوس بضع مئات من الابطال المجرين من سكان

العاصمة وانتض بهم على العدو فولوا الابدان .

الفوات وسائر الحدود الشرقية : ولم يحصر يوستينيانوس اعماله

التحصينية في منطقة البلقان . فإنه انشأ في افريقية كما سبق أن اشرنا

ليوساً جديداً . وانفق اموالاً طائلة للغاية نفسها في آسية الصغرى وسورية

وشرق الاردن .

وكانت حدود الامبراطورية في الشرق تنبسط من البحر الاسود حتى

البحر الاحمر فتؤلف خطاً طوله الفا كيلومتر . ولم يسبق لرومة في الشرق

ان شيدت في عصر من عصورها ليوساً متصلاً على نحو ما فعلت

في الشمال بين الرين والدانوب او في الجنوب في افريقيا الشمالية . ذلك

بأن جبال آسية الصغرى الشرقية وبادية الشام شكلت حاجزاً طبيعياً

موافقاً يمكن الانتفاع به في الحرب والدفاع . ومن هنا اكتفت رومة في هذه المناطق بإنشاء قلاع موزعة في مواقع معينة تحمي بها الطرق الرئيسية والجسور والممرات الطبيعية وما الى ذلك ، فأصبح حدها الشرقي « منطقة مراقبة » على حد تعبير ليون هومو أكثر منه ليوساً او اطاراً مانعاً . وكانت هذه المنطقة ذات الحصون تبدأ عند طرابزون فتتجه جنوباً حتى مجرى الفرات الاعلى فمصب الخابور فحدود البادية حتى العقبة . وكان خط الدفاع الممتد نحواً من ثمانائة كيلومتر بين قرقيسية *Circesium* عند مصب الخابور وبين العقبة يتألف من طريق معبدة موازية للحدود محمية الجانبين ولا سيما عند مفارق الطرق بعدد كبير من الابراج . وكانت تدر ودمشق والبتراء تدخل بقلاعها وحصونها والطرق الموصلة اليها في هذا الحط من الدفاع . وتدل اعمال التنقيب التي أجريت في شرق الاردن بعد الحرب العالمية الاولى ان الطريق العسكري الروماني الذي كان يمر بشرق الاردن كان يصل بصرى بباديا والبتراء فالعقبة ، وان رومة قد اقامت على جانبي هذا الطريق ابراجاً محصنة يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثين كيلومتراً ، وانما انشأت قلاعاً لحماية موارد المياه الى شرقي هذا الطريق في القسطل والبحون وغيرهما ٢ .

وجاء يوستينانوس يؤمن « ساساً وطبائنة » لشعبه و « يزيل كل ما كان يشجع البرابرة على الغزو والنهب » فاهتم بحصون ارضروم وكيثارزون ومرتيروبوليس وآمد وقسطنطينة ودارا . وكانت دارا هذه تقع بين نصيبين وماردين وتدعى « حصن الامبراطورية الرومانية » . واظهر يوستينانوس اهتماماً مماثلاً بنحط من الحصون جاء وراء هذه الحصون الامامية :

*Home, L., Emp. Romain, 203.*

١

*Abel, F. M., Hist. de la Palestine, II, 55-57.*

٢

ستالة وكولونية ونيكوبوليس وسبسطية وملاطية Miletene ثم اورفة وحرّان  
 وكلينيكوم ثم سورية على الفرات وهيرابوليس ( منبج ) وزقمة فانطاكية<sup>١</sup>.  
 يوستينيانوس في دوره الاخير: وليس يختلف اثنان فيما نعلم ان  
 مشاريع يوستينيانوس العظيمة لم تتناسب وطاقته المالية . فالعظمة والبذخ  
 واسترضاء زعماء البرابرة وحروب الفتح والانشاء والتعبير في طول البلاد  
 وعرضها كلها تتطلب انفاقاً كبيراً لم يكن آتئذٍ يوسع الدولة . وكان  
 انستاسيوس قد خلف وفراً قدره ٥٠٠ , ٣٢٠ ليرة ذهباً او ما تعادل  
 قيمته اربعة عشر مليوناً من الليرات الاسترلينية . فأنقذه يوستينيانوس في  
 بضع سنوات وبات يشكوقلة النقد . وقلة نقده أطالت حروبه وزعزعت  
 معنويات جيشه وواقفت اصلاحه الاداري او عرقلته ثم أدت الى زيادة  
 الضرائب وانتقال كاهل الاهلين بها .

وفي السنة ٥٤٨ توفيت ثيودورة بداء السرطان ففقد يوستينيانوس بوقاتها  
 مستشارة نشيطة امينة . فانكشفت نقائصه واهمها التردد والهوس باللاهوت  
 فأهمل واجباته الادارية وكرّس معظم ليلاليه للجدل الديني . فصح فيه  
 قول كوريبوس « انه بات لا يبالي شيئاً وان روحه كانت كالتي انتقلت  
 الى السماء . »

وتضائل جيشه فتناقص من ٦٤٥ , ٠٠٠ مقاتل الى ١٥٠ , ٠٠٠ وختل  
 حصونه من الرجال حتى قال اغاثيوس : انها اصبحت خالية خاوية لا  
 يسمع فيها نباح كلب واحد . وباتت العاصمة نفسها مهددة بالخطر لان  
 سور انستاسيوس كان قد تثلّم في الف موضع وموضع ولأن الحرس  
 الامبراطوري كان قد قلّ وضعف ولان الفيلسفس كان لجأ الى البلبص  
 والمصادرة للحصول على المال المطلوب . وعاد الحضر والزرق الى المناظرة

*Diehl, Ch., Just. Govt. in the East, Cam. Med. Hist., II, 32 - 34.*

والمشاحنة والخاصمة ونزلوا بذلك كله الى شوارع العاصمة فهاجوا وماجوا  
مراراً ما بين السنة ٥٥٣ و ٥٦٤ . وادى تردد يوستينيانوس في تعيين ولي  
عهده الى التخاصم والتآمر ولاسيما بين انسابه .

ولكن ليس من العدل في شيء ان نحكم على عهد يوستينيانوس كانه  
حكماً مبنياً على ما آلت اليه الامور في آخر سنواته . فالواقع الذي  
لا مندوحة عن الاعتراف به ان اهداف الرجل كانت نبيلة ، وان سعيه  
لإعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه من الاتساع والمجد كان عظيماً في  
حد ذاته لاثنافاً بالامبراطور ، وان محاولته لتوحيد الكلمة في الكنيسة كانت  
في مصلحة الدولة والكنيسة معاً ، وان انشأته العسكرية على حدود الدولة  
كانت في مصلحة الشعب ، وان اهتمامه بالادارة والقضاء والتشريع انما نجم  
عن رغبة اكيدة في ضمان الامن ونشر لواء العدل . ولئن كان ثمن هذا  
كله باهظاً فالعمل في حد ذاته كان كبيراً . وهل أكبر من مجموعة  
القوانين وكنيسة الحكمة الالهية !

## الفصل الثاني عشر

### خلفاء يوستينيانوس

(٥٦٥ - ٦٠٢)

يوستينوس الثاني : (٥٦٥ - ٥٧٨) ولم يختلف يوستينيانوس عقياً ، ولم يشرك احداً معه في الارجوان . ولكنه كان يثق بابن اخته يوستينوس ويستشيريه في امور الدولة . ولس اعضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا يوستينوس فعولوا على انتخابه فور وفاة الامبراطور الشيخ . وقد أدرك يوستينيانوس الثالثة والثمانين ومرض مرضه الاخير ولم يفه بكلمة واحدة تنبئ عن يريده خلفاً له في الحكم . وكاد يلفظ انقاسه في ليلة من ليالي الحريف ، فجلس يوستينوس وزوجته صوفية في احدى نوافذ قصرهما التي تطل على البوسفور وباتا ينتظران . وعند الفجر أبلغهما الرسول وفاة الامبراطور ورجاء مجلس الشيوخ ان يتوليا العرش . وقضت التقاليد بان يرفض يوستينوس الرجاء ففعل . ثم قبل وذهب توأ الى القصر (١٤ تشرين الثاني سنة ٥٦٥) وخرج منه متودياً الارجوان الملكي ، متزيناً بالجواهر التي اقتنصها بليساريوس من القوط ، فرفعه الجند حسب التقليد على الترس معلنين بذلك موافقتهم على ارتقائه العرش . ثم أيدته الكنيسة الارثوذكسية فباركه البطريك ووضع التاج على رأسه . وكان لا يزال جثمان يوستينيانوس مسجى في قصره مخنطاً ، فنقل الى كنيسة الرسل بمجانزة

مهيبة مشى فيها المصلون من رجال الاكليروس والعداري رافعين الشموع .  
وهناك دفن الجثمان في قبرٍ مذهب . وما ان تم الدفن حتى أُزيح ستار  
الحزن وارتفعت الاصوات مهللة بارتقاء الفيلسوف الجديد .

وكان يوستينوس الثاني نشيطاً مجتهداً شجاعاً جريئاً . فانه منذ ان  
تبوأ العرش أظهر من العزم والأنفة في علاقاته مع البرابرة ما يليق بمقامه  
الجليل . فامتنع عن ان يؤدي لهم المنح السنوية ، وكانت قد بلغت في اواخر  
عهد خاله يوستينيانوس ثلاث مئة الف ليرة ذهباً ، وأعاد العناية بالجيش  
واهتم بالمالية وحاول محاولة صادقة في ازالة المم والعناء عن جميع الرعايا .  
وأعلن انه « سيحيي الليل بطوله للمحافظة على مصالح الدولة ولإصلاح كل  
ما ينبغي اصلاحه ، كما أعلن ان همه الوحيد هو ان يقدم للولايات افضل  
الشرائع كي يضمن لاهلها الامن والعدل . » ولكن الحوادث تأتت قوية  
عنيفة فجاءت بما لم يشته وكعبته كعباً . وكان يوستينوس ، على مزايه ،  
سائحاً متغطراً تعوزه الحيلة فلم يتسن له الوصول الى رغائبه . وفي  
اواخر السنة ٥٧٣ أصيب في عقله اصابة ظاهرة ، قصدت زوجته صوفية  
للقيام باعباء الحكم مستعينة بقومس الحرس طيباريوس الامين . ثم ان  
يوستينوس تبنى طيباريوس . وفي السابع من كانون الاول سنة ٥٧٤  
اعلنه قيصرآ . فصرّف طيباريوس الامور باسم سيده اربع سنوات متتاليات  
الى ان قضى يوستينوس فانقرض بالحكم .

طيباريوس الثاني : ( ٥٧٨ - ٥٨٢ ) ورغب طيباريوس رغبة اكيدة  
في تخفيف الضرائب فتعلق الشعب به واحبه كثيراً . وكان يوم وفاته  
يوم حزن وحداد في جميع انحاء الامبراطورية ، فرثاه كثيرون ، وقال

فيه بوحنا النيقاوي : « ان البشرية ، فيما يظهر ، لا تستحق اميراً طيباً كهذا الامير . » ولكن طيباريوس لم يبلغ الى هذه المرتبة من تقدير الشعب له وتعلقه به الا على حساب مالية الدولة . ففي وقت قصير جداً بدد ما كان قد جمعه سلفه بحكمته وتقديره . وحسبنا شاهداً ما قد جاء في احد المراجع انه لما تبوأ العرش وأراد توزيع الدوناتيوم التقليدية أعطى كل شخص خمس صلدات ، فبلغ مجموع ما أنفق لهذه الغاية واحداً وعشرين الف ليرة ذهبية<sup>١</sup> .

موريقيوس : ( ٥٨٢ - ٦٠٢ ) وأشهر خلفاء يوستينيانوس وأذكارهم واقدرم موريقيوس اليوناني<sup>٢</sup> . ولد في ارابيوسوس في آسية الصغرى في السنة ٥٣٩ وفيها تلقى علومه ثم تركها شاباً وأمّ القسطنطينية فالتحق بالادارة المدنية وأصبح في وقت ما كاتب عدل . ثم دخل في خدمة الجيش وترقى حتى أصبح في السنة ٥٧٣ قائد الحرس الامبراطوري وقائد المتطوعة من البرابرة<sup>٣</sup> . واشتهر بشجاعته ورزاقته وتبصره ، فاحترمه الشعب وأكرمه . وكان حازماً عادلاً ، لا يتبذل في مخالطة ضباطه وجنوده ، فوقعت في قلوبهم هيبة فأكبروه وأجلّوه<sup>٤</sup> . وأحبه طيباريوس ووثق به وأعاره سمعه ، فزوجه من ابنته قسطنطينية في السنة ٥٨٢ ورفع الى رتبة قيصر . ثم بعد ايام توفي طيباريوس فعلا موريقيوس اريكة الملك .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان موريقيوس كان خبيراً في شؤون الدولة واسع الباع في تناولها ومعالجتها قوي الاهتمام بها ، ولا سيما العسكرية والادارية

Stein, op. cit., 57-58; Jean de Nikion, éd. Zotenberg, 522. ١

٢ ويرى بعض انه كان ارمينياً ولكنه قول ضعيف . اطلب :

Goubert, P., Byzance avant l'Islam, (Paris, 1951), 36-41.

Goubert, P., op. cit., 42-48. ٣

Stein, op. cit., 70-71. ٤

والمالية منها . فعارب التبذير و اوجب الاقتصاد وتلقى بصدور رجب سهام الانتقاد المرّة التي وجهت اليه من جراء هذا الاصلاح .

سياسة خلفاء يوستينيانوس : وما يستوعب النظر في هذا الموضوع ان اثنين من خلفاء يوستينيانوس الثلاثة كانوا عسكريين ، وان الخلفاء الثلاثة جميعاً كانوا اقل طموحاً من يوستينيانوس واكثر وضوحاً في سياستهم وتحديداً لعلاقاتهم الخارجية .

فلا بدع ، في مثل هذه الحالة ، ان يرفض يوستينوس دفع شيء لقبائل الهون او للعرب ، بما كان يدفعه سلفه استرضاءً . ويقول يوحنا الابيفاني ان يوستينوس صمم منذ اللحظة الاولى ان لا يترك الدولة خاضعة للفرس وانه تربص وريثاً تسنح له الفرص حتى يقضي على سلم السنة ٥٦١ . وكان طياريوس يقول ان السلم الذي يشرى لا يدوم ، وانه لا بد من ان تقدم الحرب ضد الفرس على سائر مصالح الدولة . وكان موريقوس ايضاً يقول بهذا كله وقد زاد عناية فائقة بالجيش . ولعل ابرز ما فعله من هذا القبيل هو ايثاره العناصر الوطنية على العناصر البربرية في التعبئة . ومن الدلائل الواضحة على هذا الاهتمام بالجيش واعادة النظر في تنظيمه رسالته في فنون الحرب Strategikon تعود الى اواخر القرن السادس . وبعض الباحثين يرى انها من وضع موريقوس نفسه<sup>٢</sup> .

ولم يهمل خلفاء يوستينيانوس الغرب وواجبهم تلقاءً . ففي عهدهم كانت حملة بادواربيوس على ايطالية في السنة ٥٧٤ - ٥٧٥ ، وانتصارات جناديوس في افريقية في السنة ٥٧٨ . وفي عهدهم ( عهد طياريوس خاصة ) جرى

١ Corippus, *Just.*, III, 151; *Fragmenta Historicorum Graecorum*, IV, 274.

٢ Aussenances, *L'Armée byzantine à la fin du VIe Siècle*, (1909); Stein, *op. cit.*, 123-127.

بذر اموال كثيرة في الاوساط اللومباردية العالية في السنتين ٥٧٧ و ٥٧٩ .  
وتم ايضاً استدراج الافرنج الى غزو ايطالية لمصلحة الامبراطورية . وان  
تسّ فلا ننسّ ظهور نظام الاكسرخوسية في ايطالية وافريقية لتقوية  
الدفاع عن هاتين الولايتين .

الحرب الفارسية : ( ٥٧٢ - ٥٩١ ) وكانت قد قضت معاهدة السنة  
٥٦١ على الروم بدفع مال جزية للفرس عن سبع سنوات تسبقاً . وقد  
دفع هذا المال في حينه . فلم يكن من موجب ، اذآ ، لبده الحرب قبل  
السنة ٥٦٩ . على ان هذا لم يمك يوستينوس الثاني عن الاستعداد للحرب  
في حقلي السياسة والتنظيم . وهكذا نراه في السنة ٥٦٨ يستقبل وفداً  
مفاوضاً من اواسط آسية بما وراء فارس ، فيكرمه ويضفي اليه ، ويثبت  
بواسطته علاقات ودية مع اعداء فارس في الشرق . وكان هذا الوفد  
المفاوض ، من قبل الخاقان إسماعي خاقان الاتراك الذين سبق لهم ان قضا  
على الهون البيض في ما وراء فارس ، قد أمّ القسطنطينية في السنة ٥٦٨  
ليحالف الروم ضد الفرس ، وليعرض استعداد الاتراك للقيام بنقل الحريز  
الصيني من حدود الصين الى مياه البحر الاسود مباشرة ، دون المرور  
بفارس .

وفي السنة ٥٧٠ نرى يوستينوس يتدخل في امور ارمينية الفارسية وفي  
مشاكل ايبيرية فيرد عليه كسرى في السنة ٥٧١ بتدخل بمائل في حمير في  
جنوبي الجزيرة العربية محرّضاً ابناء هذه المنطقة على التحرر من نير  
النجاشي صديق يوستينوس وحليفه . وفي السنة ٥٧٢ ثار الارمن على  
الفرس وقتلوا المرزبان . والتجأ زعماء الثورة الى القسطنطينية فقبولوا فيها  
بمقاوة وحرارة . وجاء وفد فارسي يطالب بالجزية المالية وكانت قد  
استحقت مجدداً ، فرفض يوستينوس دفعها وأكد لاعضاء الوفد انه لن  
يرضى ابدأ عن اضطهاد الارمن ابناء ملته المسيحيين . فوجه اليه كسرى انذاراً

بوجوب الدفع فقابله يوستينوس باعلان الحرب .

وحالف النصر الفرس في بادئ الامر . ذلك ان الروم هجموا بمعظم قواتهم على ارمينية الفارسية تاركين حدودهم في سورية وليس عليها الأ قوة صغيرة من الجيش يدعمها حلفاؤهم الفساسنة ومن شد ازرهم من القبائل العربية المتاخمة . على ان هذه القبائل خانت والتوت فعبر الفرس الفرات واكتسحوا الموقف وحاصروا دارا « حصن الامبراطورية الحصين » فسقطت في ايديهم . وأدى خبر سقوطها الى انهيار عقل الامبراطور . ففاوضت زوجته صوفية لهدنة في مطلع السنة ٥٧٤ تدوم عاماً ودفعت في هذا السبيل غرامة حربية كبيرة . وعند انتهاء الهدنة في السنة ٥٧٥ قام كسرى بجيش عظيم وعدد كبير من القبلة الى ارمينية فحاصر ثيودوسيوبوليس (ارضروم) وهاجم اماسية ثم دخل قبدوقية وأحرق سبسطية (سيواس) . غير انه ما لبث ان فوجيء بقوة كبيرة من الروم بقيادة يوستينانوس ابن جرمانوس اكرهته على التراجع بعد موقعة كبيرة دارت رحاها في ضواحي ملاطية وهلك فيها كثيرون من الفرس . ففاوض كسرى في الصلح ثم عاد فعدل عن المفاوضة بعد انتصارين صغيرين . فعاد الروم الى الحرب بقيادة موريقوس في السنة ٥٧٨ وقاموا بهجوم خاطف باتجاه ارزنين بين بتلس وبين الدجلة وبلغوا الى الدجلة . وتوفي كسرى في السنة ٥٧٩ فعاد الطرفان الى المفاوضة . ولكن هزم الرابع ابن كسرى اساء استقبال الوفد الرومي فاستؤنف القتال . وزحف موريقوس في السنة ٥٨٠ يحاول قطع الفرات عند قرقيسية قاصداً طيسفون عاصمة الفرس . الا أنه ارتد على اعتابه بسبب مناورة ناجحة قام بها الفرس في ما بين النهرين وبسبب معاكسات لقيها من المنذر الفساني كما سيجيء في حينه . على ان موريقوس عاد في السنة ٥٨٢ فانتصر انتصاراً كبيراً عند قسطنطينة تبعته انتصارات . وفي السنة ٥٨٦ استطاع قائد الروم فيليبقيوس ان يضرب الفرس ضربة

قاسية في سولاخان في ارمينية<sup>١</sup> .

ورغب الاتراك في استغلال هذا الظرف واوجبوا زيادة باهظة في الاتاوة السنوية التي كانت يدفعها الفرس لهم . فغضب هرمز واخذ الام ورفض ان يدفع الزيادة المفروضة . فقام خاقان الاتراك من دلخ عاصمته بعشائه وجموعه وقصد فارس غازياً . فأنفذ هرمز بهرام بوشين<sup>٢</sup> بجيش كبير لصددهم سنة ٥٨٨ . فكسروهم وقتل الخاقان في المعركة . ثم امر ابن الخاقان في معركة ثانية ودخل دلخ عاصمة الاتراك واستولى على ما وجدته فيها من الذهب وكان كثيراً . ولم تأت السنة ٥٨٩ حتى كان بهرام قد عاد الى فارس ظافراً غنائماً . فأكرمه الشاهنشاه وأمره على كل جيوشه ومنحه لقب بهوان وعلا قدره بين الفرس وتعلقوا به . فأنفذه هرمز الى منطقة سوانية الخاضعة للروم في القوقاس . فدخلها فنهب وسبى . وارسل الغنائم الى هرمز في طيسفون . وتحرك الروم للدفاع في شتاء السنة ٥٨٩ فتوجه رومانوس بجيش مجرب الى سوانية فكسر بهرام وستت شمل رجاله . ولم يكتفِ هرمز بما أرسله اليه بهرام من غنائم فسخط عليه . فأدى ذلك الى ثورة داخلية اسقطت هرمز عن عرشه وأحلت بهرام محله وذلك في السنة ٥٩٠<sup>٣</sup> .

*Goubert, P., op. cit., 68-117 ; Stein, op. cit., 40-97 ; Burg, Hist. of Later Rom. Emp., II, 95-113.*

٢ « بهرام خشن وعرف بجويين . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .  
٣ « ثم خاف بهرام ومن معه هرمز فظلموه وساروا نحو المدائن واظهروا ان ابنه ابرويز اصبح للملك منه . وساعدتم على ذلك بعض من كان بمضرة هرمز . وكان غرض بهرام ان يستوحش هرمز من ابنه ابرويز ويستوحش ابنه منه . وكان يحدث نفسه بالاستقلال بالملك . فلما علم ابرويز ذلك خاف اياه فهرب الى اذربيجان . فاجتمع عليه عدة من المرازبة والاصبيذيين . ووثب الظلم بالمدائن ، ولهم بندويه وبسطام خلا ابرويز ، فظلموا هرمز وسلموا عليه . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

وقرّ ابرويز بعيله وثلثين من اخصائه الى قرقيسية عند مصب الخابور في الفرات . فكتب محافظها بذلك الى الامبراطور وكتب اليه ابرويز ايضاً لاجتاً مستغنياً . ووعده بان يعيد دارا ومرتيروبوليس ( ميفارقين ) وقسماً من ارمينية اليه وان يبقى في سلم دائم معه والا يطالبه بمال البتة . فدعا موريقوس اليه اعضاء مجلس الشيوخ وشاورهم في الامر . فاجابوا بعدم القبول وابانوا ان الفرس لا دين لهم ولا قانون ، يعدون في الضيق وينكثون عند الفرج ، وانهم الحقوا ضرراً كبيراً بالروم فليقتلوا وليسحق بعضهم بعضاً وليدعوا الروم هادئين مطمئنين<sup>١</sup> . ولكن موريقوس رأى مع ذلك ان الشرف والشهامة والمصلحة تقتضي بتقديم المساعدة المطلوبة الى ابرويز فوعده بها وتابع الحرب ضد بهرام . وقام ابرويز الى اذربيجان فوافاه اليها بندويه وغيره من المقدمين والاساورة في جيش كبير من اصهبان وقارس وخراسان . ونهض الروم بقيادة نرسيس لمعونة ابرويز . والتقى الجيشان بعدوهما في سهول تبريز<sup>٢</sup> في خريف السنة ٥٩١ . فدارت الدائرة على بهرام وقرّ لاجتاً الى بلاد الاتراك .

وبرّ ابرويز بوعده فأعاد دارا ومرتيروبوليس الى الروم وتنازل عن قسم هام من ارمينية الفارسية ولم يطالب بعد ذلك بالاثاوة السنوية . فوصلت حدود الروم الى بحيرة وان ومداخل تقليس . ووقع ابرويز وصديقه موريقوس سلماً دائماً .

خلفاء يوستينيانوس والعبوب : وأراد يوستينيانوس ان يستعين بالعرب الضارين في جوار حدوده على العرب عند حدود خصبة الفارسي فجعل من الحارث ابن جبلة الغساني في السنة ٥٣١ فيلرخوساً وأمدّه

*Sebeos, Hist. d'Heraclius, éd. Macler, 15.*

١

٢ راجع *Diehl, Ch., Monde Oriental, 130; Ganzaca*

بالمال له ولشيوخ العرب في بادية الشام . ثم رقباه في مراتب الدولة فجعله بطريقاً من البطارقة هو واحفاده من بعده . وقال الحارث وربعه بالنصرانية وبالطبيعة الواحدة فقال من عطف ثيودورة الشيء الكثير وأصبح حامياً لزمارة اصحاب الطبيعة الواحدة في جميع الاقطار الشامية . وبين هؤلاء كان يعقوب البرادعي الشهير مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية . ودامت سيادة هذا البطريق مدة طويلة حتى وفاته في السنة ٥٦٩ . وقد احتل فيما بعد مركزاً سامياً في نخيلة العرب . فهو الحارث الذي يشيد بذكره الشاعر عمرو ابن كلثوم وهو ايضاً الحارث الذي قهر المنذر ملك الحيرة . وجاء بعد الحارث الغساني ابنه المنذر ( ٥٦٩ - ٥٨٢ ) . فهب لمحاربة عرب الحيرة وقد كانوا اغاروا على سورية بعد وفاة والده الحارث . فقاتلهم وانتصر عليهم عند عين أباغ . فأكثر شعراء العرب من ذكر هذا النصر وتغنوا بجزاة الحارث لإبعاده في الغزو الى عين أباغ . واهتم المنذر ابن الحارث لمشاكل النصرانية آتئذٍ فعقد مجعاً محلياً تحت رعايته للنظر في بعض البدع المحلية . ولم يرضَ يوستينوس عن المنذر فقطع عنه المال السنوي واوعز بقتله . فشقَّ المنذر عصا الطاعة ثلاث سنوات متتالية . فانتهر عرب الحيرة هذا الظرف واغاروا على سورية الشمالية وعاثوا فيها ما ساءوا . ثم اجتمع المنذر بالبطريق يوستينانوس في الرصافة وتفاهما فعادت المياه الى مجاريها .

وتوفي يوستينوس في السادس من تشرين الاول سنة ٥٧٨ . فتولى العرش بعده طيباريوس . وأحب هذا ان يسعى لتوحيد الكنيسة ، فرأى

١ ابن قتيبة ، ٣٠٤ ، الحفاسة ، ٤٠٢ .

٢ تولدكه : امراء غسان ، ص ٢٥ .

٣ يوحنا الانسي ، ٦ : ٤ ، ص ٣٥١ .

ان يوحد كلمة اصحاب الطبيعة الواحدة اولاً ليسهل عليه التوفيق بينهم وبين الكنيسة الارثوذكسية الام . فاستدعى المنذر النسطائي الى القسطنطينية . فأتمها هذا البطريق مع ولديه ووصل اليها في الثامن من شباط سنة ٥٨٠ . فاستقبله الامبراطور بكل احترام وتبجيل . وانعم عليه بلقب ملك الشرقين<sup>١</sup> . وسمح له بان يستبدل الاكليل البطريقي بتاج ملكي<sup>٢</sup> . ثم طلب اليه ان يوفق بين صفوف اصحاب الطبيعة الواحدة . ووقف الامبراطور الاضطهاد الذي كان قد حلّ بهؤلاء منذ عشر سنوات او اكثر تسهلاً لعمل الملك الجديد ، اي المنذر . وعاد المنذر الى سورية وعقد جمعاً برعايته في الثامن من اذار سنة ٥٨٠ ، واتصل بغريغوريوس بطريرك انطاكية الارثوذكسي وفاوضه في المهمة الموكولة اليه . وأصبح المنذر النسطائي ملكاً محلياً وحكماً في اعوص مشاكل ذلك العصر واشدّها تعقيداً .

ولم يرضَ البطريرك افتيخيوس عن هذا التسامح والتساهل مع اصحاب الطبيعة الواحدة . وشاركه في رأيه هذا عدد من كبار رجال الجيش والسياسة وبينهم موريقوس القائد . وفي السنة ٥٨٠ اراد هذا القائد ان يقاوم الفرس بهجوم خاطف عن طريق الفرات متعاوناً مع المنذر وقبائله . فلما وصل الى الفرات وجد الجسر الكبير مهدوماً . فتراجع خائباً وعزا خيبته الى خيانة المنذر وتواطؤه مع الفرس وشكاه الى الامبراطور . وبرغم ان المنذر عاد فاغار وحده على اراضي عدوه امير الحيرة واهل في عاصمته النار وقفل من غزوة بغنائم عظيمة<sup>٣</sup> ، فان موريقوس تشبث برأيه وأصرّ

<sup>١</sup> *Aramandaras Saracenoram Rex.*

<sup>٢</sup> راجع تولدكه : امراء غسان ، ص ٢٦ . *Michel le Syrien, X, 344.*

<sup>٣</sup> وقد ذكر هذه الحادثة الشاعر الحيري المعاصر عدي ابن زيد ، الاغاني ٢ : ٢٧ ،

الطبري ، ١ : ١٠٢١ ، ياقوت ٣ : ٦١٢ .

عليه . وسافر بنفسه الى القسطنطينية ليثبت رأيه امام الامبراطور<sup>١</sup> . ويرى الاب غويير اليسوعي ان موريقوس كان محقاً في شكواه وان هنالك ما يدعو الى الشك في امانة المنذر والى الظن بانه كان يتوخى الاستقلال بدافع الطموح الشخصي والسعي لرفع الضيم عن اخوانه اصحاب الطبيعة الواحدة<sup>٢</sup> .

وأصدر طيباريوس أمره في ربيع السنة ٥٨١ بالقبض على المنذر . فأرسل ماغنوس Magnus حاكم سورية الى المنذر يدعوه الى حواريين بين تدمر ودمشق للاستراخ في حفلة تدمشين الكنيسة التي اقامها فيها . فلبى المنذر الدعوة . فما كاد يبلغ حواريين حتى القى عليه الحاكم القبض وارسله مخفوراً الى القسطنطينية . ولم يقتصر طيباريوس على نفي المنذر وانما عمد ايضاً الى قطع الاعانة السنوية عنه . فقام ابناء المنذر الاربعة وسقوا عصا الطاعة واوغلوا في البادية واخذوا يشنون منها الغارات على اراضي الدولة . ودخلوا بصرى واضطروا حاميتها ان تتخلى لهم عن الذخائر والاموال التي صايرتها منهم وبينها تاج المنذر . فجرد طيباريوس حملة ضدهم وانفذ معها اخاً آخر للمنذر ليخلفه في وظيفته ولكنه توفي بعد عشرة ايام . اما القائد البيزنطي فإنه تمكن بالمكر والخذاع من القاء القبض على النعمان اكبر ابناء المنذر . وتوفي طيباريوس في السنة ٥٨٢ فتولى العرش بعده موريقوس عدو المنذر فأمر بابعاد الملك العربي ومن معه الى صقلية<sup>٣</sup> . وطالت الحرب الفارسية وحمي وطيسها وشعر موريقوس بالحاجة الى من يوحد

*Jean d'Epiphane, III, 40, 129 et VI, 16, 231.*

*Goubert, P., op. cit. 252-254; Devresse, Mgr., Patriarcat d'Antioche, 276, 281, n. 3.*

٣ تولدكه : امراء ضمان، ص ٣٠ - ٣٤ .

كلمة القبائل العربية في سورية ويقودها الى الحرب ضد الفرس . فاستحضر  
النعمان في السنة ٥٨٤ ووعده بإرجاع والده من المنفى ثم طلب اليه ان  
يحارب الفرس معه وان يعتنق الارثوذكسية . فأجاب النعمان ان جميع  
قبائل طي يعاقبة وانهم يذبحونه ذبيحاً ان هو تقبل قرار «المجامع» . فغضب  
موريقيوس وأمر بسجنه ثم ألقاه بوالده<sup>١</sup> .

ويرى نولدكه في رسالته امرأ غسان ان احوال العرب في سورية  
اخطرت بعد اعتقال المنذر وابنه النعمان وان عرى وحدتهم تكسكت  
فاختارت كل قبيلة منهم اميراً لها ، فتطاحت وتنازعت فيما بينها وان هذه  
المنازعات لم تنحصر بالبادية وانما تعدتها الى البلدان العامرة وان القبائل اخذت  
تسطو بلا خوف ولا وجل على اموال الفلاحين المتحضرين فتنهب مواشيهم  
وتحصده دون ان ترزع . ويزيد نولدكه ان هذا كله حمل الروم على التفكير في  
تنصيب عامل لهم رئيسي جديد يقوم مقام المنذر وانهم رأوا ان يكون  
هذا العامل من آل جفنة ايضاً لما كانت لهؤلاء في الماضي من الهيبة في  
القلوب<sup>٢</sup> .

وقضت ظروف العداة بين الفساسنة وعرب الحيرة ان يشتد كره  
عرب الحيرة لكل من قال بالطبيعة الواحدة وان يتقربوا من الكنيسة  
الارثوذكسية الأم . وانتهت الحرب بين فارس والروم في مصلحة  
الروم ، فطلب النعمان ملك الحيرة ان يتلقى المعبودية على يد كاهن  
ارثوذكسي في الرصافة وقبلها معه رجاله . وكان خالص النية فيما فعل ،  
فلما عاد الى الحيرة رمى بتمثال الزهرة الذهبي في النار ، وجمع ذهبه بعد  
انصاره ووزعه على الفقراء . ولعل الكاهن الارثوذكسي الذي حمد النعمان

*Jean d'Epiphane, III, 56, 135.*

٢ امرأ غسان ، ص ٣٤ - ٤١ ، و ٥٧ - ٦٦ .

ورجاله هو البطريرك الانطاكي غريغوريوس نفسه . فانه هو الذي كرس تقدمات ابرويز وزوجته المسيحية سيرين على اسم القديس سرجيوس في الرصافة ( سيرجيوبوليس ) . وانطلق البطريرك من الرصافة الى البادية يرد الضالين في القرى والاديرة الى الدين المستقيم<sup>١</sup> ، وعاد الى احضان الكنيسة الام بعد هذا النصر كثيرون في سورية والعربية وارمينية وبلاد الكرج بمن سبق لهم ان قالوا بالطبيعة الواحدة . وتعددت البنايات والانشاءات الدينية الارثوذكسية في الاردن والبنية وحووان في مادبا ومعين وجرش والجولان والجزيرة بين بصرى ودرعة وفي الطيبة وغاريا الغربية وفي قسّم وفي حياة بالقرب من الشبهاء<sup>٢</sup> .

**الآفار والصقالبة :** ( ٥٥٠ - ٦٠٢ ) ولم ينتظر الآفار والصقالبة نهاية الحرب الفارسية ليقوموا بغاراتهم في البلقان . ولكن خلفاء يوستينانوس آثروا قبل التصدي لهم ان يفرغوا من المشكلة الفارسية . وذلك لاسباب اهمها ان المناطق موضوع النزاع بينهم وبين فارس كانت آهلة بشعوب قوية شديدة يمكن الاعتماد عليها لتغذية الجيش بالرجال . ثم ان التغلب على فارس كان ضرورياً لاضفاف معنويات من قال بالطبيعة الواحدة من سكان ارمينية وسورية ولارجاعهم الى احضان الكنيسة الام وتوحيد الكلمة في داخل الامبراطورية . وهكذا نرى يوستينوس الثاني يبتاع سكوت الآفار في السنة ٥٧١ ونوى طياريوس طلباً للغاية نفسها يدفع في السنة ٥٧٤-٥٧٥ قدرأ كبيراً من المال ثمانين الف صلدة ذهبية . وفي السنة ٥٨٠ هبّ عدد كبير من الصقالبة قدّره ميناندر من مؤرخي ذلك العصر بمئة الف رجل

*Evagre, Hist. Ecc., éd. Bidez, VI, 22, 238 ; Charles, H., le Christianisme des Arabes Nomades sur le Limes et dans le Désert aux Autours de PHéjire, ( Paris, 1936. )*

*Gouberl, P., op. cit., 265, 266-268.*

فعبروا الدانوب وغمروا البلقان غمراً مخربين محرقين ناهين<sup>١</sup>. ويرى اهل الاختصاص ان هذه الموجة الكبرى كانت اشد اثراً من اي موجة اخرى في تطور تاريخ الروم لانها ابقت في البلقان عدداً كبيراً من الصقالبة فصلبته منذ ذلك الحين<sup>٢</sup>.

وحدثت المشكلة الفارسية في السنة ٥٩١ حلاً نهائياً. وعاد جيش الروم منتصراً قوياً. فتغير الموقف في البلقان تغييراً اساسياً. وشن موريقوس على الآفار والصقالبة حرباً متواصلة عنيفة. ورغب في ان يتسلم القيادة بنفسه. وكاد يفعل لولا تدخل الحاشية. فعهد بالامر الى بريسقوس القائد. وكتب النجاح لبريسقوس فأبعد البرابرة حتى ضفة الدانوب. ثم عبره وحاربهم في ذاقية. وعاد خاقان الآفار فدفع بمئة الف اخرى من الصقالبة عبر الدانوب. فتدفقوا جنوباً حتى ثيسالونيكية والقسطنطينية. ولم تتج' الاولى منها الاً باعجوبة<sup>٣</sup>. وهرع موريقوس للدفاع عن العاصمة بنفسه. فجمع المتطوعة من سكانها والحق بهم الحرس الامبراطوري ودفع بهم جميعاً الى السور الطويل. وقُدّر لبريسقوس ان ينتصر في بلغراد في السنة ٥٩٨ وفي طولي في السنة ٥٩٩. فتهدن الطرفان سنة ٦٠٠ جاعلين الدانوب حداً فاصلاً بينهما. ثم نشبت الحرب مجدداً في السنة ٦٠١ ورجعت كفة بريسقوس فعبر الدانوب غازياً وما برح حتى وصل الى نهر الثيس. وعوّل الامبراطور على ابقاء جنوده وراء الدانوب طوال فصل الشتاء. ولكنه فوجيء بان تمرّد بعضهم عليه في السنة ٦٠٢.

*Menandre, 404-406.*

١

*Vasiliev, A. A., Les Slaves en Grèce, Viz. Vrem., V, 1898.*

٢

*Acta S. Dimitriti, 107-121.*

٣

*Theophylactus, VII, 289-298.*

٤

ثورة السنة ٦٠٢ : تمرد الجند في خريف هذه السنة وعبروا الدانوب  
بإمرة فوقاس احد ضباطهم واتجهوا نحو القسطنطينية . وكانت العاصمة خالية  
من الجند . فحشد موريقيوس متطوعة من سكان العاصمة ودفع بهم الى  
سور ثيودوسيوس . وليته لم يفعل لان قسماً كبيراً من السكان كان قد  
سم كباراه الامبراطور واساليه الارستقراطية . وشعر موريقيوس بهذا  
وخشي بمآلة ابنه ثيودوسيوس ونسيبه جرمانوس للجند فأمر بالقاء القبض  
على جرمانوس . ولكن جرمانوس التجأ الى كنيسة الحكمة الالهية  
فاضطر الامبراطور ان ينتهك حرمة هذا المعبد ليقبض فيه على خصمه .  
وأيد الشعب جرمانوس واخلى المتطوعة مراكزهم على السور وانجازوا الى  
الجمهير المتظاهرة . ففرّ الامبراطور بعائلته عبر البوسفور الى نيوميذية .  
وفي الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ٦٠٢ نادى الشيوخ والشعب  
بقوقاس امبراطوراً . ودخل فوقاس في اليوم التالي «مطراً الذهب على  
الشعب امطاراً» . ثم وجه الى نيوميذية بمن ذبح موريقيوس وعائلته  
ذبحاً .

ويرى لفتشكو الاستاذ في جامعة لينينغراد<sup>٢</sup> ان ثورة السنة ٦٠٢  
كانت في حد ذاتها نزاعاً طبقياً بين الفلاحين والصناع والجند من جهة ،  
وبين الذين عززتهم حكومة موريقيوس من اصحاب الاملاك الكبيرة والاموال  
الوافرة من جهة اخرى . ويرى الاستاذ نفسه في هذه الثورة التي حمت  
آسية الصغرى وسورية ولبنان ومصر ثورة اجتماعية دينية بين النصارى  
واليهود وبين من كان من النصارى يقول بالطبيعة الواحدة ومن كان

*Theophylactus, VIII, 7-15; Krafschev, Der Sturz des Kaiser Mauricius, ١  
1896.*

*Levchenko, M. V., Byzance, 116-121.*

يستمسك بقرارات المجامع المسكونية وبين الخضر والزرق . وهو يرى ايضاً ان فوقاس لم يتبن مطالب هذه الطبقات الرضية وانما سعى لتوطيد عرشه فقط .

فوقاس : ( ٦٠٢ - ٦١٠ ) وعلم ابرويز ملك الفرس بما حل بموريقيوس وبامبراطورية الروم وكان موريقيوس نفسه قد كتب اليه يستجده . وسمع ابرويز ايضاً بالثورة التي اعلنها نوسيس القائد على فوقاس في اورقة في السنة ٦٠٣ ، فرأى ان يستغل فرصة مناسبة فزحف بنفسه الى اورقة وحاصرها . ثم تغلب على الروم بين اورقة ونصيبين في السنة ٦٠٤ . وفي السنة ٦٠٥ سقطت دارا بيده فاتجه ابرويز نحو سورية وارمينية وانتشرت جيوشه في السنة ٦٠٧ في سورية وفلسطين تنهب وتحرق وتدمر . وفي السنة ٦٠٨ توغل الفرس في آسية الصغرى وبلغوا في السنة التالية الى خليدونية حمال القسطنطينية .

وكان فوقاس منهكاً في توطيد دعائم عرشه فقضى في السنة ٦٠٧ على قسطنطينة ارملة موريقيوس وعلى بناتها وعلى جرمانوس . وحاول استمالة كبار الضباط فجعل بريسقوس قائد الحرس وزوجه من ابنته ولكنه عاد فظن به سوءاً واتهمه بال مؤامرة عليه . ولم يعط فوقاس الخضر شيئاً فقاموا عليه واهانوه علانية في الهيبودروم . ثم نشبت ثورة في انطاكية تلتها مؤامرة في القسطنطينية . وهكذا دواليك حتى عمت الفوضى واصبحت الدولة في امس الحاجة الى شخصية كبيرة تتولى إنقاذها .

## الفصل الثالث عشر

### الفكر والفن في القرن السادس

التاريخ والمؤرخون : وكما كان الأمر في القرون السابقة ، كذلك كانت كتابة تاريخ في القرن السادس هي السجل الرئيسي للفكر البيزنطي ومجلى تطوره . وبرز المؤرخين في هذه الحقبة واكثرهم عناية بروكويوس القيصري . درس الحقوق والحمامة ثم أصبح مستشار بليساريوس القائد وكاتم اسراره ، وقد صحبه في حروبه ضد الوندال والقوط والفرس . واطلع على مخبراته وخفايا اموره فجمع لمؤلفاته ما لم يقسن لغيره ادراكه . وبرغم تقهره في اليونانية واخذه باساليب هيروdotوس وثوقيديذس فإنه ظل سلساً في انشائه نشيط الخيال ضليعاً شديداً يقظاً . ومؤلفاته ثلاثة : الحروب والملح والابنية<sup>١</sup> . ويقع كتابه في الحروب في ثمانية اجزاء وصف فيها حروب يوستينانوس في افريقية وايطالية والشرق . وأفرد كتابه الملح لقصص وروايات اظهر بها خفايا الحياة السياسية في العاصمة ولاسيا القصر المقدس وحياة عاهليه يوستينانوس وثيودورة . وضمن كتابه الابنية

*De bellis, Historia arcana, De aedificiis, (Bibliotheca Scriptorum Graecarum, Vols. I-III), Eng. Trans. Dewing, 7 Vols., London and New York, 1914-1940.*

اخبار يوستينانوس في حقل البناء ، فذكر فيه جميع الابنية التي امر  
بتشييدها<sup>١</sup>.

وقد عاصر يوستينانوس وبروكوبيوس مؤرخ آخر هو بطرس البطريرق؛  
كان محامياً لامعاً وسياسياً مفاوضاً فمثل الروم مراراً لدى الفرس والقوط  
الشرقيين . وكتب في تاريخ الامبراطورية منذ عهد اوغسطس . ووضع  
سفرآ خاصاً في التشريعات . وقد ضاع الشطر الاكبر من هذين المؤلفين  
ولم يبقَ منهما سوى شذرات منثورة .

وقام بعد بروكوبيوس اغاثيوس المحامي فأرخ لهدد يوستينانوس منذ  
السنة ٥٥٢ حتى السنة ٥٥٨ . وجاء ميناندر في ايام موريقوس فأرخ  
للسنوات ٥٥٨ - ٥٨٢ . ولكن ضاع هذا المؤلف ولم يسلم منه سوى  
بعض نتف مفيدة جداً من جهة المعلومات الجغرافية والمعرفة بالعناصر  
البشرية الطارئة على الامبراطورية . وظهر ثيوفيلاقوس السيموقاطي القبطي  
فسجل تاريخ الحوادث في عهد موريقوس (٥٨٢ - ٦٠٢) وكان كاتباً  
لاسرار هرقل القسطنطيني وبرغم خياله المشتط وصوره الرمزية وحكمه  
المقتضبة واساطيره وخرافاته فانه لا يزال المرجع الرئيسي لتاريخ  
موريقوس ان في حروبه الفارسية او في البلقان<sup>٢</sup> . وفي اواخر القرن  
سادس كان المؤرخ ثيوفانس وقد ذكره البطريرك فوتيوس في مؤلفاته  
ونقل عنه نبذة منها نبذة في ادخال دود الحرير الى حوض البحر المتوسط .  
واما تاريخ الكنيسة في القرنين الخامس والسادس فأفضل من عاجله من  
المؤرخين ايفاغوريوس السوري . وتتضمن كتبه الستة تاريخ الكنيسة منذ

*Dahn, F., Procopius von Caesarea, Berlin, 1865 ; Haury, Zur Beurteilung  
des Geschichtsschreibers Procopius von Caesarea, 1897.*

*Krumbacher, K., Gesch. der byz. Litt., 249.*

جمع لافس في السنة ٣١؛ حتى السنة ١٥٩٣ .

الجغرافية والجغرافيون : وما يلفت النظر في تاريخ الفكر في القرن السادس كتاب قوزمة البحري<sup>٢</sup> «الكوسموغرافية المسيحية» ، وضعه في منتصف هذا القرن . ولد الرحالة قوزمة البحري في مصر ، وتعلم التجارة في حدائقه . ثم أعرض عنها لكساد سوقها . فعاد مصر منتقلاً في سيناء ، والحلقة ، وحوض البحر الاحمر ، والشاطئ الجنوبي من الجزيرة العربية ، وسيلان . ثم انقلب الى مصر زاهداً قتنسك وترهب . وقد كتب كتابه هذا ليبيّن للمسيحيين ان الارض صندوق مربع مستطيل بشكل تابوت العهد ، وان شكل الكون هو شكل مظلة اسرائيل ، وان قول بطليموس الجغرافي بكروية الارض قول مردود . واهم من هذا وذلك هو ان قوزمة دون في مصنفه هذا ما شاهده في اثناء تجواله ، وما سمعه . وفرّق بوضوح تام بين سماعه وعيانه ، بحيث صار مؤلفه مرجعاً هاماً لتاريخ هذا العصر<sup>٣</sup> .

ومن كتب في الجغرافية في القرن السادس هيروكليس اللغوي . فانه وصف الامبراطورية وصفاً سياسياً جغرافياً على حالتها قبيل السنة ٥٣٥ متناولاً ولاياتها الاربع والستين ، ومدنها التسع مئة والاثنتي عشرة<sup>٤</sup> .  
التأريخ بالحوليات : وأشهر من دون الحوادث في القرن السادس مرتبةً بحسب تاريخ وقوعها ، يوحنا ملاس الانطاكي . فإنه وضع خرونيقوناً لتاريخ العالم منذ اقدم الازمنة حتى نهاية عهد يوستينيانوس .

*Fragmenta Historicorum Graecorum, Patrologia Graeca.* ١

٢ بحري بحر الهند *Cosmas Indicopleustes* .

*Cosmas Indicopleustes, Topographia Christiana, XI, éd. Migne.* ٣

*Krumbacher, Gesch. der Byz. Litt., 417.* ٤

وبرغم انه لم يفرّق بين الفث والسبين ، والاساطير والوقائع الراهنة ، فان كتابه مفيد في بعض ما يروي ، عدا انه استعمل فيه اليونانية الدارجة في عصره ، مستعيناً ، بين آن وآخر ، ببعض الاصطلاحات اللاتينية الشائعة في زمنه<sup>١</sup>.

وبين هؤلاء ايضاً يوحنا الافسي . ولد في آكل من ولاية آمد في السنة ٥٠٧ ، ونشأ ناسكاً في دير ارعازبتا . وأجاد السريانية واليونانية ، ورحل في طلب العلم الى انطاكية والاسكندرية والقسطنطينية . وفي السنة ٥٤٧ اختاره يوستينانوس لتبشير الوثنيين في بعض نواحي آسية الصغرى . وحوالي السنة ٥٥٨ رسمه يعقوب البرادعي مطراناً على من قال بالطبيعة الواحدة في افسس . فأقام على رعاية هؤلاء تسعاً وعشرين سنة . وفي السنة ٥٦٦ ، بعد وفاة ثيودوسيوس الاسكندري ، أصبح يوحنا الافسي رئيساً لجميع من قال بالطبيعة الواحدة في القسطنطينية وسائر بلاد الروم . وفي السنة ٥٧١ اضهد يوستينوس الثاني من لم يقل قول الكنيسة الام ، فشم هذا الاضطهاد يوحنا المترجم له ، فسجن ثم نفي ، ثم اعتقل مرة ثانية في عهد طيباريوس وأبعد عن العاصمة في اواخر السنة ٥٧٨ . وكانت وفاته في السنة ٥٨٦ او ٥٨٧ .

وأرّخ يوحنا الافسي للكنيسة في ثلاثة مجلدات . تناول بالمجلدين الاول والثاني حوادث التاريخ منذ عهد قيصر حتى السنة ٥٧١ . وجعل في المجلد الثالث اخبار الكنيسة والعالم من السنة ٥٧١ حتى السنة ٥٨٥ . وله ايضاً سير النساك الشرقيين ، وهو يشتمل على ثمان وخمسين ترجمة . وفيه فوائد عن السيرة النسكية ، والعادات الرهبانية ، وسير الديارات في ذلك

*Olmstead, A. T., Chicago Theol. Seminary Register, 1942, 22.*

العصر<sup>١</sup>، واهمية هذه المؤلفات هي انها تحفظ لنا بالدرجة الاولى شيئاً من ثقافة القائلين بالطبيعة الواحدة واتجاهاتهم القومية ، وتلقي ضوءاً على آخر مراحل النزاع بين النصرانية والوثنية<sup>٢</sup>.

أخبار القديسين : وأهم من عني بأخبار الرهبان والنسك والقديسين يوحنا كليماكوس الذي اعتزل في طور سيناء ووضع كتابه الشهير السلم الروحية<sup>٣</sup> في ثلاثين فصلاً. وقد استعار التسمية من الفصل الثامن والعشرين من سفر التكوين : « ورأى يعقوب حلاًماً وأذا سلم من منصوبة على الارض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . » وحاول يوحنا كليماكوس ، في كتابه هذا ، ان يبين مراحل التقدم في الحياة الروحية للوصول الى الكمال . فراج كتابه هذا بين جمهرة رهبان الروم وترجم الى السريانية واللاتينية واليونانية الحديثة والاطالية والاسبانية والفرنسية والسلافية . وفي نسخه المخطوطة تصاوير جميلة للحياة الدينية والرهبانية<sup>٤</sup> .  
واما كيرلس اليبساني الذي قضى آخر دور من حياته في دير مار سابا في فلسطين فقد رغب في تدوين سير القديسين في كتاب ضخم ولكنه توفي قبل ان ينجز عمله . امتاز كيرلس بتفهيم الحياة الرهبانية وبضبطه وتدقيقه وبساطة اسلوبه . فهو والحالة هذه من افضل المراجع لتاريخ الثقافة عند الروم<sup>٥</sup> .

ومن اشهر المؤرخين في اخبار القديسين يوحنا موسخوس الفلسطيني .

١ المؤلف المتور بطريرك اغناطيوس برصوم ، ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

*Dyakonov, John of Ephesus, 359.*

*Scala Paradisi.*

*Dalton, O. M., East Christian Art. 316.*

*Schwartz, Ed. Kyrillos von Skythopolis, Leipzig, 1939.*

وهو من الاعيان الذين وصلت حياتهم بين القرنين السادس والسابع ،  
وضع المروج الروحية<sup>١</sup> بعدما زار اديرة فلسطين وسينا ومصر وسورية  
وآسية الصغرى وتجول في جزر المتوسط واجه، قسسى له ان يدون اشياء  
كثيرة عن الرهبان والاديرة في عصره . ومصنفه هذا مفيد لتاريخ  
الحضارة .

الشعراء : وأشهرهم رومانوس المرتل وقد سبقت الاشارة اليه .  
وهو افضل من نظم في عهد يوستينانوس . وقد وقف شاعريته على  
الابتهالات الدينية . ومن شعراء هذا العصر بولس الصامت الذي خص  
كثيرة الحكمة الالهية بقصيدتين وصف بهما هذه التحفة النفيسة فخدم  
تاريخ الفن خدمة كبيرة وأحرز تقدير معاصريه وبينهم اغاثيوس المؤرخ<sup>٢</sup> .  
وأم القسطنطينية في هذا العصر نفسه الشاعر كوريبوس الافريقي ولبث  
فيها ينشد باللاتينية امامايح يوحنا القائد الذي اخذ ثورة البربر في افريقية .  
وبرغم ركاكة نظمه فان شعره يتضمن بعض القوائد الجغرافية والتاريخية  
الضرورية لتاريخ افريقية الشمالية في القرن السادس . ونظم كوريبوس  
ايضاً شعراً في يوستينوس الثاني وتسببه العرش فأفاد به المؤرخ اكثر كثيراً  
بما افاد الادب . ومن فرض الشعر في هذا القرن ذيوسقوروس القبطي .  
ولد في صعيد مصر في قرية صغيرة وتعلم علوم زمانه ثم درس الحقوق  
وتعاطى الادب، ولكنه لم يكن مجيداً في نظمه . وما بقي من ابياته على وريقات  
البردي لا يزيد الادب المهليني فخراً . يضاف الى هذا انه لم يحسن قواعد  
اللغة فجاءت ابياته وكبيكة ضعيفة . واهتمام المؤرخين بآثاره يعود الى ما

*Pratum Spirituale.*

١

*Friedlander, P., Johannes von Gaza und Paulus Silentiarus, Berlin, 1912.* ٢

تركه من وثائق شرعية واخبار اجتماعية لا الى تفوقه في الفكر او الشعرا .  
 الفن : ومؤرخو الفن يعتبرون عصر يوستينيانوس العصر الذهبي الاول  
 في تاريخ الفن عند الروم . ويعدون كنيسة الحكمة الالهية آية من آيات  
 فن البناء في العالم بامره . وفضل الكتب التي <sup>صنفت</sup> في هذا الموضوع هي  
 تقارير الاستاذ هويتبور عن اعماله الترميمية التي بدأت في السنة ١٩٣٣ ،  
 يضاف اليها كتاب الاستاذ سويقت آجيا صوفيا<sup>٢</sup> . واعجب ما في هذه  
 الكنيسة قبتها العظيمة . فانها تشخ ضمن محيط قدره واحد وثلاثون متراً  
 على علو خمسين متراً فوق سطح الارض . وهو عمل لا يزال يعتبر حتى  
 ساعتنا هذه من معجزات فن البناء . وشكل الكنيسة مربع مستطيل  
 عظيم يقسمه صفان من الاعمدة الى ثلاثة أبعاد . والارض والاعمدة والاقسام  
 السفلى من الجدران جميعها من رخام ملون . وما تبقى من الجدران  
 والسقف جميعه مغشى بالفسيفساء المذهبة . ويطل النور على المصلين من  
 اربعين نافذة عند اسفل القبة الكبرى فتعكسه الفسيفساء المذهبة الملونة  
 اشعةً متنوعة رائعة . اما الفناء امام هذا المعبد فانه كان فيما مضى واسماً  
 كبيراً تتناسب مساحته وحجم الكنيسة وراءه . وكانت تحيط به من  
 جهاته الاربع اروقة ذات أعمدة متقنة الصنع . وتقوم في وسطه نافورة  
 مزخرفة جذابة .

وهدم يوستينيانوس كنيسة الرسل التي كان قد شيدها إما قسطنطين  
 الكبير او قسطنديوس . واعاد يوستينيانوس بنيانها بشكل صليب مربع

*Bell, H., Byz. Servile State, Journal of Eg. Arch. IV, ( 1917 ), 104-105 ; ١*

*Greek Papyri in the Brit. Mus., Journal of Eg. Arch., V, III-IV.*

*Swift, E. H., Hagia Sophia, New - york, 1940.*

الاجنحة . وعهد العمل الى انثيموس التراتي واسيدور الاضر . وبقيت هذه الكنيسة البديعة مدفناً لابطارة الروم حتى القرن الحادي عشر . ولما استولى الاتراك على القسطنطينية امروا بهدمها لينشئوا في موضعها جامع السلطان محمد الفاتح . وباستطاعتنا ان نستعيد صورة شكلها قياساً الى كنيسة القديس مرقس في البندقية او كنيسة القديس يوحنا في افسس او كنيسة سان فرون في بيرغوا في فرنسة ، فان هذه الكنائس جميعاً قد شيدت على طراز كنيسة الرسل في القسطنطينية<sup>٢</sup> .

وربما تمدّر علينا اليوم ان نتلذذ تلذذاً تاماً بوجوده الاتقان والبداعة في الفسيفساء على جدران كنيسة الحكمة الالهية لان الاتراك قد حولوها عند الفتح الى جامع وطمسوا هذه الآثار بطلاء من الطين وغيره . ولان اعمال التنظيف والترميم التي أمر اثنوروك باجرائها في هذه الكنيسة لم تتم بعد ، ولكن بإمكاننا ان نلمس لطائف هذا الفن وروعته على جدران كنيسة القديس الشهيد فيتال في رايننة . ورايننة هذه كانت في القرن الخامس بعد الميلاد ملجأ لابطارة الغرب ثم اصبحت في اوائل القرن السادس عاصمة القوط الشرقيين . ولما تغلب يوستينانوس على هؤلاء وفرض سلطته على ايطالية ، اصبحت رايننة مركز حكم الروم في ايطالية ومقر الاكسرخوس فيها وذلك طوال قرنين منذ منتصف السادس حتى منتصف الثامن . وآثار رايننة الفنية تعود الى عهد غالية بلاسيدية بنت ثيودوسيوس الكبير والى عهد ثيودورينخوس ويوستينانوس . وشمل يوستينانوس رايننة بعنايته فأكمل بناء كنيستين فيها ورصعها بالفسيفساء . ولا تزال هذه الفسيفساء محفوظة

*Saint Front de Périgueux.*

*Heisenberg, A , Die Apostelkirche in Constantinopel, Leipzig, 1908.*

بأكملها في كنيسة القديس فيتال حتى يومنا هذا . واشهر ما فيها صورة  
الامبراطور على جدار الحنية وراء المذبح يحيط بها اسقف راينه ورجال  
الحاشية ، وصورة ثيودورة ووصيفاتها .

## الباب السادس

# تطور وتغيير في عناصر الشعب وفي حدود الملك وانظّمته

### الفصل الرابع عشر

### هرقل والفرس والصقالبة والآفار

( ٦١٠ - ٦٣٤ )

سقوط فوقاس وقيام هرقل : وطغي فوقاس وجاوز الحد في الظلم والقسوة . قتل قسطنطينة ارملة موريقوس وبناتها الثلاث . ونقض العهد الذي قطعه لثيسيس القائد وأحرقه حياً . فكان ان كثرت المؤامرات ضده ولكنه استطاع ان يقضي عليها جميعها وان يعذب المتآمرين وينبجهم . وتوغل الفرس في آسية الصغرى في قبدوقية وغلاطية حتى وصلوا الى ابواب خلقيدونية وأحرقوا القرى والمزارع على الشاطئ الآسيوي قبالة العاصمة . واكتسح الصقالبة ليليرية وتراقية . ولم يبقَ جزء من اجزاء الامبراطورية لم يلمس به اذى الا افريقية . وكان يحكمها آنثذ اكسرخوس "مسن"

صالح يدعى هرقل . أحبه الشعب في افريقية حباً جماً . فلم يحسر فوقاس ان يمسه بسوء . فاتصلت احزاب العاصمة بهذا الاكسرخوس اكثر من مرة وحرّضته على القيام بواجب لا يستطيع القيام به غيره . فاستجاب وأعد اسطولاً وجيشاً . واتصل بكبار الملاكين في مصر وحرّضهم على الثورة فلبوه وشاركهم الشعب في ثورتهم ، فتمعوا تصدير الحبوب الى العاصمة فانشر فيها الجوع . وجبه هرقل فوقاس بما لم يكن مهياً له<sup>١</sup> . ثم دعا هرقل ولده الذي سماه هرقل ايضاً وأمره على الاسطول وأنفذ ابن اخيه نيقيطاس على رأس فرقة كبيرة من الفرسان الى مصر وما وراءها .

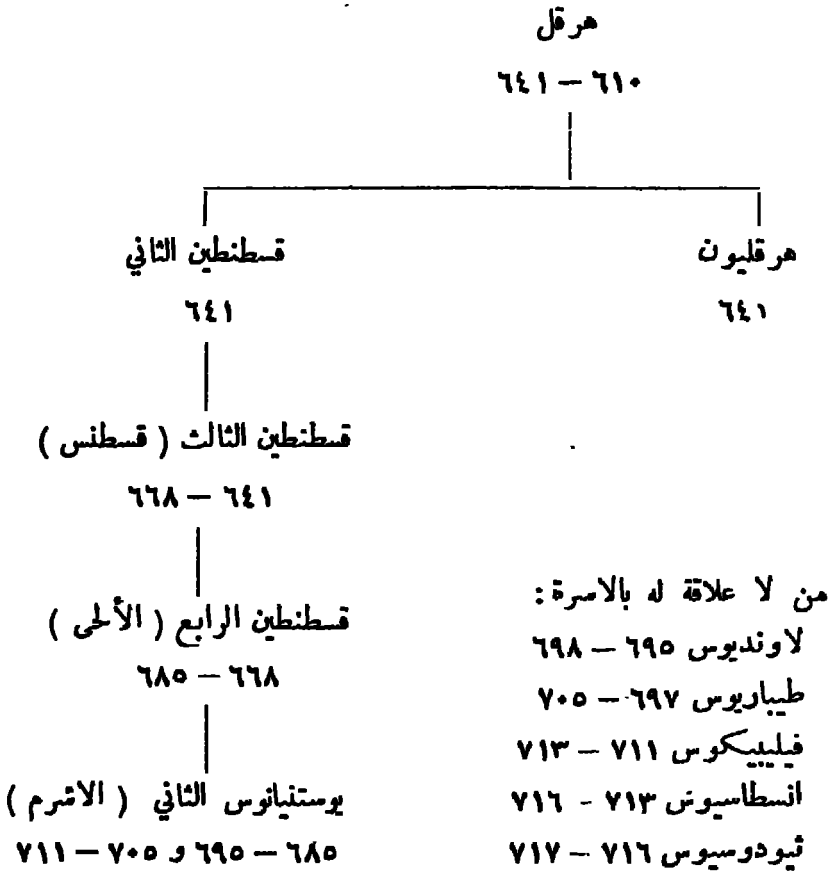
ووصل هرقل الابن باسطوله الى الدردنيل . والتجأ اليه زعماء المعارضة . وظهر اسطول هرقل على اسطول فوقاس . وقرّدت عناصر هامة في جيش فوقاس . ففتحت المدينة ابوابها لهرقل . واعتقل فوقاس في قصره موظف<sup>٢</sup> كان الامبراطور قد اساء اليه اساءة بالغة . وأحضر فوقاس بين يدي هرقل صاغراً . فقال له هرقل : « أهكذا حكمت الامبراطورية ؟ » فأجاب فوقاس : « وهل تحكمها انت خيراً بما حكمتها ؟ » فركله هرقل بقدمه وقطعه البحارة ارباً ارباً<sup>٣</sup> . واعتذر هرقل وأراد ان يتولى العرش بريسقوس ، ولكن الشيوخ ابوا ان يتولاه احد غير الذي اتقدم . فنادوا بهرقل فيلسفياً في اليوم نفسه وتقدموا به من البطريرك سرجيوس فتوجه هذا الى كنيسة الحكمة الالهية . وتزوج هرقل من افذوكية في اليوم نفسه ايضاً فنودي بها فيسليسة . وبعد ثلاثة ايام أحرق تمثال فوقاس في الهيودروم ومعه علم الزرق<sup>٤</sup> .

١ بشهادة ثيوفانس . *Lertchenko, M. V., Byzance, 119-120* .

٢ اومان : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، ص ١٠٢ .

٣ *Baynes, N. H., Successors of Justinian, Cam. Med. Hist., II, 288* .

أسرة هورقل : وقد جاء في تاريخ الامبراطور هرقل لسيوس المؤرخ الارمني الذي شهد ذلك العصر ان هرقل متحدر من اصل ارمني وانه يمت بصلة الى الامرة الارمنية الملكية امرة الاراشكة<sup>١</sup> . ويؤيد هذا القول اليوم عدد من الباحثين وفي طليعتهم الاستاذ غريغوار<sup>٢</sup> . ويشك



*Sebeos, The Hist. of Emp. Heraclius, French Trans.108.*

*Grégoire, H., An Arm. Dyn. on the Byz. Throne, Armenian Quart. I, ٢ (1946), 4-21.*

فيه عدد مقابل من رجال البحث فلا يرون في ادلة زملائهم ما يضمن السلامة لما استنتجوه<sup>١</sup>.

الحرب الفارسية : ( ٦١٠ - ٦٢٨ ) وكانت الامبراطورية في حالة من الفوضى والاضطراب تدعو الى القلق الشديد . فكتب هرقل الى ابرويز يعلمه بالتفاصيل الذي اتزله بفوقاس ويؤكد له ان اعادة السلم بين الدولتين اصبح ميسوراً . ولكن ابرويز لم يجب . وكانت جيوشه قد قطعت الفرات واحتلت قرقيسية عند مصب الخابور وكليتيك الى شمالها . فأنفذ هرقل بريسقوس القائد الى قيصرية قبذوقية ليطرد الفرس منها . فطردهم بعد حصار دام سنة كاملة . ولكنهم خرجوا منها مفتحين لهم طريقاً بالقوة واتزلوا بالروم خسارة كبيرة . ثم اتجهوا سطر ارمينية لتبضية فصل الشتاء . واستطاعوا ان ينتصروا على الروم في سورية فأخذوا حصص عنوة في السنة ٦١١ . فما اطلت السنة ٦١٢ حتى سافر هرقل من القسطنطينية الى آسية الصغرى ليدرس الموقف مع بريسقوس عن كتب . فنباطاً القائد في استقبال الفيلسفس متدرباً بالمرض . وفي النهاية أفهم هرقل انه لن يرضى عن تدخله في امور الجيش . فسكت هرقل على هذه الواقعة لانه لم يكن بإمكانه آتئذ ان يقاوم قوة بريسقوس بقوة بمائلة . وفي خريف السنة ٦١٢ أمّ العاصمة نيقيطاس ليقاوض الفيلسفس في شؤون مصر . وقدمها بريسقوس ايضاً ليشترك في استقبال هذا الضيف الملكي . وكان قد ولد لهرقل ولد ذكر فأعلم الفيلسفس بريسقوس بوجود بقائه في العاصمة لحضور حفلة عماد الطفل في الخامس من كانون الاول . فصعد بريسقوس بالأمر ، ولم يبرح العاصمة . وانتهاز الفيلسفس هذه السانحة فاتهم القائد بالحياة العظمى وأمر بالقاء القبض عليه وايداعه احد الاديرة . ثم اطل على جنود

العاصمة فصيّوه قائداً اعلى . ثم جعل نيقيطاس قائداً على الحرس واخرج فيليبيقوس من الدبر الذي كان قد التجأ اليه وسلمه القيادة . واشرك اخاه ثيودوروس فيها ايضاً .

ورأى هرقل ان يواجه الفرس في الجبهتين في آن واحد ، فأنفذ فيليبيقوس بجيش الى ارمينية وقام هو واخوه ثيودوروس الى سورية الشمالية ليصدّوا ابرويز عن احتلال سواحل لبنان وفلسطين ومصر . وكان ابرويز قد لمس ضعف الروم لمس اليد فأحب ان يستغل الموقف . فالتقى الجيشان واشتبكا حول اسوار انطاكية في السنة ٦١٣ ، فدحر الروم وتراجعوا الى مداخل قيليقية فغلبوا فيها ايضاً ، واحتل الفرس طرسوس وقيليقية باكملها . ومثل هذا وقع لفيلبيقوس في ارمينية . وفي السنة ٦١٤ تابع الفرس زحفهم الى الجنوب بقيادة شهربراز وزحفوا من قيصرية فلسطين الى اوروشليم وهي البلد المقدس عند اعدائهم . فحاصروها عشرين يوماً ثم دخلوها عنوة . فقتلوا جموعاً غفيرة من النصارى سبعة وخمسين ألفاً واسروا خمسة وثلاثين ألفاً وأحرقوا الكنائس والقوا القبض على البطريك زخريا واستولوا على عود الصليب وارسلوه الى فارس . وكان شهربراز قد حالف اليهود على النصارى . فلما تم له ما أراد نفى من المدينة المقدسة جميع اليهود ثم اذن بترميم الكنائس . وهرع نيقيطاس الى المدينة المقدسة فلم ينقذ من آثارها سوى الحربة المقدسة والاسفنجة<sup>١</sup> . وفي السنة ٦١٥ حاول شاهين قائد الفرس ان يكمل احتلال آسية الصغرى ولكنه لم يفلح فتراجع . وفي ربيع السنة ٦١٩ هـ عاد شهربراز الى الفتح فزحف على مصر واحتل بليسيوم وميفيس وبابل . ثم

*Antiochus Strategus, Capture of Jerusalem by the Persians, Trans. by ١  
N. Marr; Peeters, P., La Prise de Jérusalem par les Perses, Mel. Univ.  
St. Joseph, IX.*

عرج على الاسكندرية فحاصرها واستولى عليها .

وهكذا خسر هرقل ارمينية وما وراءها وهي أخصب البقاع بالرجال لتعبئة الجيش ، وخسر مصر وهي مركز نمون العاصمة ، وأضاع المدينة المقدسة وعود الصليب وهو ذخر النصارى . وكانت البلقان كما سنرى مسرحاً كبيراً لطغيان الآفار والصلابة . فلم يبقَ والحالة هذه من جميع اقطار الامبراطورية قطر يمكن اللجوء اليه والاعتصام به سوى افريقية . فاراد هرقل ان يقطع اليها ليغزو منها مصر ويحلي الفرس عنها . وعلم الشعب في القسطنطينية بما نواه الفيلسفس فهبوا يردعونه ، وألح عليه البطريك بوجود البقاء في القسطنطينية ، ولم يكف عنه حتى أقسم بانه لن يبرح العاصمة . وفي اثناء هذا كله - ولنا ندرى متى كان ذلك بالضبط - هاجم الفرس القسطنطينية باسطول بحري ، ولعلمهم قصدوا بذلك الى معاونة الآفار كما سير بنا . على انهم لم يصادفوا التوفيق . فان الاسطول الرومي قضى على قوتهم البحرية وبدد شملها ، ففرق في بحر مرمر اربعة آلاف فارسي مع مراكبهم . وتنهبت الكنيسة فأمدت الفيلسفس بجميع ما لديها من الذهب والفضة ، شرط ان يعاد اليها ما يقابله بعد الحرب .

وكان هرقل قد استشفع الى العذراء في السنة ٦٠٩ عندما بدأ يستعد للحملة على القسطنطينية . فعاد اليها مستشفعاً في شتاء السنة ٦٢١ . واعتول للرياضة الروحية تأهباً للقيام بواجب مقدس : واجب الدفاع عن الدولة والكنيسة والدين . وفي الرابع من نيسان من السنة ٦٢٢ تقدم من المائدة المقدسة متناولاً القربان الطاهر . وفي الخامس من الشهر نفسه دعا اليه كلاً من البطريك سرجيوس والحاكم بنونوس والشيوخ وكبار الموظفين والوجهاء والاعيان . والتفت الى البطريك وقال : « اني اعهد الى الله والى والدته واليك بهذه المدينة وبابني من بعدي . » وبعد الصلاة في كنيسة الحكمة الالهية والابتهاال والتوسل تسلم ايقونة السيد المخلص . ثم ألق

بجنوده الى خليج نيكوميدية . وسار الى غلاطية وقبوقية لاجال التعبئة والتسوين والتنظيم . ومن هنا القول ان هرقل اول الصليبيين . وأراد هرقل ان يقصي الفرس عن مراكزهم في قلب آسية الصغرى ، فقام بحركة التفاف واسعة النطاق ، واتجه بجيشه شرقاً مهدداً مواصلات العدو وطرق تموينه . وحاول شهربراز ان يصرف هرقل عن خطته ففزا قليقية . ولكن هرقل لم يعره انتباهاً . فاضطر القائد الفارسي ان ينقلب الى الشرق ليحول بين هرقل وهدفه . وتواقع الحصان في أرمينية في السنة ٦٢٢ فدارت الدائرة على الفرس وسجل هرقل نصراً مبنياً . وانسحب الفرس من قبوقية والبونط . وعاد هرقل الى القسطنطينية لينظر في أمر الآقار . وفي ربيع السنة ٦٢٣ استأنف الهجوم في الشرق فقطع ارمينية واحتل دوخان ونشققان ، ثم توغل في اذربيجان واتجه نحو تبريز كنزآكة ليفاجئ ابرويز في قصره فيها . ففر ابرويز من المدينة . ودخلها الروم فأحرقوا معبدها الكبير وتعقبوا الفرس المارين وهم ينهبون ويدمرون . ثم رجع هرقل خوفاً من حركة التفافية خشي ان يقوم بها شهربراز او شاهين او الاثنان معاً<sup>١</sup> .

وبانتصاراته هذه تسنى لهرقل ان يستمد من شعوب القوقاس المسيحية ما عبا به الصفوف . وكر كرة اخرى الى الميدان في السنتين ٦٢٤ و٦٢٥ فضرب شهربراز عند بحيرة وان ، ثم ضربه في قليقية عند نهر ساروس . فاضطر القائد الفارسي ان يتراجع الى الشرق ، وعدل هرقل الى البونط

١ وجاء في الكامل لابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، وفي غيره : « ووصل خبر عودة ملك الروم الى شهربراز ، فأراد ان يستدرك ما فرط منه ، فارض الروم قتل منهم قتلاً ذريعاً ، وكتب الى كسرى وانفذ من رؤوسهم شيئاً كثيراً . وفي هذه الحادثة اتزل الله تعالى : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . يعني بلادى الارض اذرعان ، وكانت الروم قد هزمت بها في بعض حروبها . »

لتمضية فصل الشتاء . ثم نوى ان يتحرك من البونط بجيش عظيم في السنة ٦٢٦ ليستأنف انتصاره على الفرس ، ولكن تقدم الآفار في البلقات وحصارهم القسطنطينية اضطراره ان يؤجل قصده هذا حتى السنة ٦٢٧ .

وفي صيف السنة ٦٢٧ قام الخزر حلفاء هرقل بحصار تفليس ، وهب هو الى محاربة ابرويز ، فعبر نهر الآراس عند اتشيانان ، ثم دخل منطقة ارارات فاذربيجان ، وانحدر بعد ذلك الى وادي الزاب . وفي الثاني عشر من كانون الاول فازل ابرويز عند أطلال نينوى فأوقع به هزيمة شعاء . ثم عبر الزاب متجهاً شطر طيسفون عاصمة الفرس ، فاحتل المقر الموكي في دستجرد وانتزع منه ثلاث مئة لواءٍ رومي كان الفرس قد استحوذوا عليها في انتصارات سابقة ، واطلق سراح الوف من الامرى . ولما كان جيش شهربراز لا يزال كاملاً سالمًا ، وكانت خطوط الدفاع عن طيسفون قوية منيعة ، آثر هرقل التبرص لعدوه في تبريز . فقطع جبال الزاغروس في ابان الشتاء وبلغ الى تبريز سالمًا في الحادي عشر من آذار سنة ٦٢٨ .

وكان شيرويه ابن ابرويز قد تمرد على والده وتسلم العرش في الثامن والعشرين من شباط من السنة ٦٢٨ ، فكتب الى هرقل يطلب الصلح . فصالحه الفيلسفس على شروط اهمها : العودة الى الحدود القديمة ، واطلاق الامرى ، وارجاع الصليب المقدس . وقبل شيرويه هذه الشروط . فاتصل هرقل بشهربراز لتنفيذها ، وكان هذا القائد لا يزال مستوليًا على شطر وافر من املاك الروم في آسية . وبعد مفاوضات طويلة اجتمع هرقل وشهربراز في ارايبسوس في آسية الصغرى في حزيران من السنة ٦٢٩ . وعرف هرقل كيف يحدث شهربراز بما كان يراد نفس القائد الفارسي . وكان شهربراز يطمع بعرش الفرس . فعلمه هرقل بالامل ، فأمرع القائد الفارسي الى تنفيذ المعاهدة ، وأجلى جيوشه عما كان يجتله من اراضي الروم .

وفي اذار السنة ٦٣٠ تسلّم هرقل عود الصليب في منبج في سورية الشمالية ، فانتقل به الى المدينة المقدسة وأحله محله في الثالث والعشرين من الشهر نفسه<sup>١</sup>. وكان هرقل قد امتنع هو وأسلافه في المنصب الامبراطوري عن اتخاذ لقب فيسلفس برغم ان رعاياهم كانوا يطلقون هذا اللقب عليهم رداً على ما كان يتلقب به ملوك الفرس . فلما انتصر هرقل على الفرس ذلك النصر الباهر غير لقبه الرسمي من اوتوفاثور الى فيسلفس<sup>٢</sup>.

**الآفار والصقالبة :** وفي السنة ٦١٧ عبر الدانوب جمع غفير من الصقالبة ناقلين معهم عيالهم وامتعتهم ، فانتشروا في ايليرية وايروس وئسالية وآخية وتراقية ، وفي جزر بحر ايجه وشواطئ آسية ، وعاثوا في البلاد فساداً . وطوّقوا نيسالونيكية وحصروها شهراً كاملاً . ولم تكد تنجلي الحنة وينقضي عامان حتى كرت الصقالبة كرة اخرى جارت وراءهم الآفار ، وما زالوا حتى بلغوا الى ضواحي القسطنطينية ، فنهبوا ودمروا وأحرقوا وسبوا . ولم يتراجعوا الا بعد ان زاد لهم هرقل الاتاوة .

وقضت الحرب الفارسية بتغيب الامبراطور عن العاصمة ثلاث سنوات متتالية . فعاد الآفار الى سابق سيرتهم ، وارادوا هذه المرة اقتحام العاصمة نفسها في السنة ٦٢٦ . وتقدم الفرس في الحرب حتى خلقيدونية ، فنكت خاقان الآفار بعهد السابق ، واندفع بمجموعه الى اسوار القسطنطينية . وكان الامبراطور قد أقام ابنه نائباً عنه في الحكم ، وأقام البطريك سرجيوس وصياً عليه . فهب البطريك بفصاحته وشجاعته يثير الحمم ، ويشدد العزائم ، فيطوف العاصمة بالشعائر الدينية ، ويعلو بنفسه الاسوار

*Theophanes, Chronographia, ed. de Boor ; Sebeos, Emp. Heraclius; Minorski, V., Roman and Byz. Campaigns in the Atropalene. Burg, J. B., Selected Essays, 109.*

ومعه ايقونة المخلص وايقونة العذراء . فأصبح على تعبير احد المعاصر  
« خوذة العاصمة ودرعها وسيفها » . ويقول معاصر آخر : « ان البطيريك  
ما فتىء يواجه قوات الظلمة والفساد بايقونتي المخلص والعذراء شقيقة العاصمة  
حتى أدب» في قلوبهم الرعب والخوف . فكانوا كلما عرض البطيريك من  
الأسوار ايقونة الشقيقة أعرضوا هم عن النظر اليها . « وجمع الفرس اسطولاً  
وحاولوا الوصول الى الشاطئ الاوروبي مجراً ، ولكنهم أخفقوا لان  
مراكب الروم بددت شملهم عند القرن الذهبي « فصبغت المياه بدمهم  
وغطت البحر بجثثهم » . وانقضَّ خاقان الآفار بمجموعه على الاسوار  
لآخر مرة في العاشر من تموز فارتد خائباً وهو يقول : « اني رأيت  
امرأة متوشحة باثن الاثواب تطوف الاسوار من اولها الى آخرها ،  
وهكذا نجت العاصمة من هذا الخطر المدام ، فعزا سكانها انتصارهم على  
الآفار والفرس في آن واحد ، الى السيدة العذراء حامية المدينة . ونظم  
البطيريك مرجيوس تسييحته الشهيرة الأكاقيستون التي لا تزال نردها ونزغها  
باللحن الرابع حتى يومنا هذا مساء كل جمعة من الاسابيع الخمسة الاولى  
من الصوم الكبير :

اني انا مدينتك يا والدة الاله .  
ارفع لك رايات الغلبة ايتها القائدة المحامية .  
واقدم لك الشكر لنجاتي من الشدائد .  
ولما كنت ذات العزة التي لا تحارب ،  
فاعتقيني من انواع الشدائد ،  
حتى أصرخ اليك قائلاً :

السلام عليك يا عروسة لا عروس لها<sup>١</sup>. وكان هرقل يرى ان الخطر الفارسي اشد كثيراً من خطر هؤلاء البرابرة فأهمل الدفاع عن الغرب وخسر كل ما كان قد احرزه يوستينيانوس في اسبانية . وطمع الاكسرخوس القناريوس بعرش ايطاليا في السنة ٦١٩ ودخل رومة واعلن نفسه امبراطوراً عليها . وكانت قبائل الصقالبة طوال الحرب الفارسية تتسرب الى البلقان فاحتلت جميع مناطق البلقان الشمالية الغربية ، وثبتت اقدامها في بانونية وميسية ودلماتية . وبين الصقالبة الذين دخلوا البلقان في هذه الآونة واحتلوا ايليرية الصرب والكروات<sup>٢</sup> . وقد أبتقت هذه الموجات الطامية رواسب كبيرة من الصقالبة في مقدونية وبلاد اليونان نفسها . واذا صدقنا اسيدور اسقف سبيطة فتكون موجة الصقالبة هذه قد غمرت بلاد اليونان بأسرها<sup>٣</sup> . وبقيت احوال البلقان الشمالي والغربي مضطربة ، وظل الصقالبة الضيوف في هرج ومرج طوال عهد هرقل . ولم تتمكن حكومة الروم من فرض سلطتها وهيبتها عليهم حتى اواخر القرن السابع .

**القول بالمشيئة الواحدة :** وكان من الطبيعي جداً ان يؤدي دخول الفرس الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، الى اضطهاد ابناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقسطنطينية وتمسكهم بعقائدها ، كما كان طبيعياً ان يؤدي ذلك الى تنشيط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الواحدة . والواقع انه لما عاد الروم الى هذه الاقطار وجدوا ان جميع بطاركتها هم من اتباع الطبيعة الواحدة . فعادوا الى معالجة هذا الانشقاق

*Krumbacher, Gesch. der Byz. Litt., 671-673 .* ١

*Bury, J. B., op. cil., II, 275 ff ; Jirecek, C., Gesch der Serben, ( 1911 ٢ and 1918 )*

*Isidori, Hispalensis Episcopi, Patrologia Latina, LXXXIII, 1056 .* ٣

في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف خصوصاً لأن الاخطار كانت لا تزال تحيط بالامبراطورية وتهدد كيانها .

وكان طبيعياً ايضاً ان يشعر البطريك سرجيوس صديق هرقل الامين بالضعف الذي نجم عن هذا الاختلاف في العقيدة . ذلك بان البطريك كان يمارس الحكم ويطلع على خفايا الامور في اثناء غياب هرقل عن القسطنطينية في الحرب الفارسية . ويرى بعض الباحثين ان سرجيوس بدأ منذ السنة ٦١٦ يعرض على بعض الاساقفة القول بطبيعتين في السيد مع فعل واحد ، وان هرقل رأى في هذا القول مخرجاً من الازمة اللاهوتية المستعصية ، ووسيلة لتوحيد الصفوف . فلما كانت السنة ٦٢٢ فاوض هرقل جملة من الاساقفة في قبرص وارمينية . ثم في السنة ٦٢٣ فاوض كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد ونصح له ان يكتب الى سرجيوس في هذا الموضوع . فقبل كيروس وكتب الى سرجيوس ، فأجابه هذا بانه قد وجد بين رسائل احد اسلافه ميناس رسالة وجهها الى فيجيليوس بابا رومة اشار فيها الى فعل واحد ومشئئة واحدة . وأضاف انه لا يعرف احداً من الآباء يؤيد القول بالمشئتين . وهكذا قال كيروس بالمشئئة الواحدة .

ومرّ به هرقل وازداد شجاعة على المضي في هذه التسوية . ففاوض في السنة ٦٢٩ اثناسيوس بطريك انطاكية ، وكان هذا بمن يقول بالطبيعة الواحدة ، فقبل . ثم التأم في السنة ٦٣٠ مجمع ثيودوسيوبوليس فقبل كاثوليكوس الارمن لمِيز واساقفته اعتناق القول الجديد . وثبّت هرقل اثناسيوس على الكرسي الانطاكي ، وجعل كيروس بطريكاً والياً على مصر . وأصبح أمهلاً بالاتحاد وطيداً بعد ان قبل اربعة بطاركة بالحل الجديد . وعندئذ كتب سرجيوس بطريك القسطنطينية الى اونوريوس بابا رومة مبيناً ما تمّ من توحيد الكلمة راجياً منه ابداء الرأي . فجاء جواب البابا مبهماً غامضاً ولكنه لم يكن سلبياً . فانه اشار الى عبارة بولس الرسول

في رسالته الاولى الى اهل كورنثوس في الفصل الثاني عن « صلب ربّ  
المجد » كما اقتبس من كلام يوحنا الحبيب في الفصل الثالث من انجيله أنه  
« ليس احد صعد الى السماء الا الذي نزل من السماء ابن الانسان الذي  
هو في السماء » ، مبنياً انه يجوز القول ان الله قد تألم . وفي الوقت  
نفسه استدرك اونوريوس ان ليس من رأيه ان يصار الى الكلام في الفعل  
الواحد والفعلين بعد ان تمّ هذا الاتحاد في الكنيسة<sup>١</sup>.

وفي السنة ٦٣٤ تبوأ العرش البطريركي في المدينة المقدسة راهب شديد  
الشكينة قوي القلب ، صفرونيوس الشهير . وكان قد سبق له ان أمّ  
القسطنطينية وهو لا يزال راهباً ، واحتج على القول بالمشيئة الواحدة .  
فلما أصبح بطريكاً عقد مجمعاً محلياً في المدينة المقدسة وحرّم التعليم  
بالمشيئة الواحدة ، وكتب الى اخوانه البطارقة الآخرين كتابة صارمة ضد التعليم  
الجديد . فاضطرب البابا اونوريوس وكتب الى صفرونيوس وغيره كتابة  
بمعنى رسالته المشار اليها آنفاً . فلم ينتج عنها اي اتفاق لغموضها وقلة  
صراحتها . ولم يوفق كيروس كل التوفيق في مصر . فان السابريين وافقوه  
على القول بالمشيئة الواحدة ، ولكن اليونانيين والشيع الاخرى اعترضوا .  
فضايقتهم كيروس بما أعطي من صلاحيات مدنية وسجنهم وعذبهم وقتل  
منهم فريقاً . ففرّ رؤساؤهم الى البراري ليعودوا الى مصر مع العرب  
الفاتحين . وتوفي صفرونيوس في السنة ٦٣٧ ، سنة دخول العرب الى المدينة  
المقدسة . فأصدر الامبراطور دستور ايمان جديد سنة ٦٣٨ عرف  
بالاكتيسيس Ecthesis وحتّم فيه القول بالمشيئة الواحدة . وعقد مرجيوس  
مجمعاً في اواخر هذه السنة نفسها وصدق على الاكتيسيس . ثم ادركته الوفاة

*Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, 407 ; Zananiri, G., Hist. de l'Eglise* ١

*Bgz., 144-145.*

*Zananiri, G., op. cit., 147.*

فخلفه بيثس ووافق على ما كان قد أقره سلفه . وفي هذه السنة نفسها توفي البابا اونوريوس فخلفه سوبرينوس ( ٦٣٨ - ٦٤٠ ) ومات دون ان يجرّم القول بالمشيئة الواحدة<sup>١</sup> . اما البابا يوحنا الرابع ( ٦٤٠ - ٦٤٢ ) فإنه حرّم المشيئة الواحدة . وفي السنة ٦٣٩ تم للعرب فتح الشام فدخلوا انطاكية فصعبت الصلة وأوشكت تنقطع بين هذا المركز الديني والقسطنطينية . وفي السنة ٦٤١ توفي هرقل والحالة على ما وصفنا .

وهنا يحسن التذكير بموقف الكنيستين الرئيستين من القول بالمشيئة الواحدة . فهذا القول مجسب موقف الكنيستين مردود لأنه يناقض كمال اللاهوت والناسوت في السيد المسيح . فالطبيعة لا يمكن ان تكون كاملة وهي ناقصة الارادة والفعل . والاعتقاد بالطبيعتين يلزمه الاعتقاد بالمشيئتين والفعلين باتحاد وبلا انفصال . والمسيح لم يُرد ولم يفعل شيئاً من حيث هو انسان فقط بل من حيث هو اله وانسان معاً بلا اختلاط ولا انقسام<sup>٢</sup> .

Zanani. G., op. cit. 147.

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الاشفاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ، هامش .

## الفصل الخامس عشر

### هرقل والعرب

( ٦٣٠-٦٤١ )

النبى العويى والروم : ولما اشتدت الحرب بين الفرس والروم وبلغت انباؤها الى العرب كان النبى والمسلمون منحازين بعاطفتهم الى الروم لانهم كانوا فى نظرم اهل كتاب مثلهم . فاما كفار العرب فكانوا يميلون بعاطفتهم الى الفرس لانهم مثلهم اميون . ولا ادل على ذلك من ان ابا بكر الصديق ، وهو طليعة المسلمين ، قد راهن أيّ ابن خلف وهو من وجوه الكفار على مئة بغير ان الروم سينتصرون .

وكان الرسول قد استطاع ان يجمع حول رسالته عدداً من اهم قبائل العرب . وكان قد استقرّ فى يثرب واتخذها قاعدة عمله . ولكنه كان يسعى سعياً حثيثاً لفتح مكة فاعده العرب الدينية . وكان اليهود قد ناصبوه العداة واطهروا له الشرّ وقاتلوه فانزموا وخرجوا من يثرب شمالاً الى حدود الروم ، وبعضهم وصل الى اذرعاع ( درعة ) فى حوران . وكانوا يتصلون بالمشركين العرب فيحرضونهم على المسلمين . فعاد النبى الى قتال اليهود فضربهم ضربة شديدة فى خير . ولما طلبوا الصلح فيها بعث الى اهل فدك يخبرهم بين ان يسلموا او يسلموا اموالهم فصالحوه على نصف اموالهم من غير قتال . وتجهّز الرسول للعودة الى المدينة عن طريق

وادي القرى . فتجهز يهودها لقتال المسلمين وقاتلهم . ولكنهم اضطروا للصالح ففعلوا . وقبل يهود تيباء دفع الجزية بدون حرب . اما يهود واحات الجرباء ومقنا واذرح فانهم كانوا ابعد الى الشمال . وكان النبي لا يزال يستعد لفتح مكة وفرض سلطته عليها . فرأى فيما يظهر ان لا بد من جولة ثانية في الشمال يُرهب بها اليهود هناك ويؤمن مؤخرته قبل الزحف على مكة مطمح انظاره . ويؤخذ من بعض النصوص ان النبي أرسل بعد صلح الحديبية خمسة عشر رجلاً الى ذات الطلح على حدود الشام يدعون الى الاسلام في منطقة هؤلاء اليهود الشماليين ، فكان جزاؤهم القتل ولم ينج منهم الا رئيسهم .

وجاء في بعض المراجع العربية أيضاً ان الرسول أوفد بعد الحديبية الى هرقل وكسرى والنجاشي ، والى المقوقس ، والحارث النسائي ، والحارث الحميري ، رسلاً ورسائل يدعوهم بها الى الاسلام . وانه صنع لنفسه خاتماً من فضة نقش عليه : « محمد رسول الله » ونخم به رسالته ، وانه كتب في رسالته الى هرقل ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبدالله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله اجرک مرتين . فان توليت فانما عليك اثم الاربسين . » وتذكر هذه المراجع نفسها ان النبي دفع برسالته هذه الى دحية ابن خليفة الكلبي ، وان دحية هذا سافر الى هرقل ، فالتقاه في حصص في طريقه الى المدينة المقدمة ، وان هرقل لم يغضب ولم يثر تأثرته ، وانه ردّ على الرسالة ردّاً حسناً . وجاء في هذه المصادر العربية ايضاً : « ان الحارث النسائي بعث الى هرقل يخبره ان رسولا جاءه من محمد بكتاب يدعو فيه الى الاسلام ، وان الحارث

استاذن سيده بان يقوم على رأس جيش لمحاربة صاحب هذه الدعوة ، وان هرقل أجاب الحارث بان يوافيه الى المدينة المقدسة . ، ومما جاء في المصادر العربية ايضاً ان شرحبيل ابن عمرو النساني قتل الحارث ابن عمير الازدي رسول النبي الى صاحب بصرى في حوران ، وان النبي أنفذ حملة الى حدود الروم ليقصص ممن جرؤوا على قتل رسوله .

ومما تشتمل عليه المصادر العربية ايضاً ان المقوقس حاكم مصر بعث الى النبي في الرد على رسالته يقول : انه يعتقد ان نبياً سيظهر ، ولكنه سيظهر في الشام . وتضيف هذه المصادر ان المقوقس بعث الى النبي جاريتين وبعلة وحمراً وكية من المال وبعض خيرات مصر ، وان النبي قبل هذه الهدية وتزوج من احدي الجاريتين ماريا فولدت له ابراهيم ، وانه اهدى شيرين الجارية الثانية الى شاعره حسان ابن ثابت ، وانه اسمى البعلة الفريدة في بياضها دلدل ، والحمار عُفيراً او يعفوراً .

ويختلف علماء الفرنجة من رجال الاختصاص في تاريخ الروم والعرب في أمر هذه الرسائل . فقريق يراها صحيحة وآخر يشك في صحتها . وفي طليعة الفريق الاول بتلر صاحب كتاب فتح مصر ، وبيوري صاحب التأليف العديدة في تاريخ الروم<sup>١</sup> . وبين الفريق الآخر كابتاني ودبل<sup>٢</sup> . والحجة الرئيسة لمن يعترض على صحة هذه الرسائل ان ابن اسحق اقدم من كتب في السيرة لا يذكرها<sup>٣</sup> . ولكن لا يخفى ان سكوت المصادر لا يتخذ حجة الا بشروط معينة ابناها في كتابنا المصطلح<sup>٤</sup> . والبحث في صحة

*Butler, M., Arab Conquest of Egypt, 139 ff ; Bury, J. B., Const. of Later Roman Empire, II, 261 .*

*Caetani, L., Annali d'ell Islam, I, 731-734 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 174.*

*Becker, K., Cam. Med. Hist., II, 337.*

٣

٤ مصطلح التاريخ ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

هذه الرسائل يستوجب الرجوع الى القرآن نفسه لئرى اذا كان المراد به رسالة للعالمين او رسالة خاصة بالعرب . وهو في نظرنا رسالة للعالمين دونما ريب . والنبي الذي حمل هذه الرسالة بادية ذي بدء الى افراد قلائل من اقربائه ارادها في النهاية قوة تسيطر على العالم اجمع<sup>١</sup> .  
 اما قول غزيمه وكاتباني في ان القرآن أريد رسالة للعرب دون سواهم فانه قول ضعيف لا يركن اليه<sup>٢</sup> .

ومهما يكن من أمر هذه الرسائل التي صدرت عن النبي الى هرقل وغيره ، فان المراجع الاولية العربية واليونانية تجمع على ان النبي قد أنفذ في السنة ٦٢٩ حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل الى حدود الروم الى قرية المشارف ، وان المسلمين وصلوا اليها ثم انجازوا عنها الى قرية مؤته ليتحصنوا بها ، وان معركة حامية دارت رحاها في مؤته وأسفرت عن مقتل عدد كبير من المسلمين ، بينهم قائد الحملة زيد ابن حارثة ربيب النبي ، وجعفر ابن ابي طالب ، وان خالد ابن الوليد « دافع بالقوم وحاشى ثم انجاز وتحييز حتى انصرف بالناس<sup>٣</sup> . »

وايّا كانت الخاتمة التي لقيتها هذه الحملة فان نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى . فبينما رأى الروم فيها غارة كتلك التي اعتاد البدو ان يشنوها للسلب والنهب كانت حملة ربيب النبي من نوع جديد ولم يقدر الروم اهميتها . فهي غارة منظمة قامت لتؤدي مهمة خاصة ، وغدا انضمامها

١ اطلب تفصيل هذا في بحث شائق للشرق المستعرب غولزير :

*Goldzher, I., Die Religion des Islam - Die Religionen des Orients, III, 106.*  
*Grimme, H., Mohammed, I, 123 ; Caetani, L., Studi di Storia Orientale, ٢*  
*III, 236, 257.*

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ١٦١٠ ، وما يليها . ابن هشام ( الطبعة الاوروبية ) ، ص ٧٩١  
 وما يليها . الطبقات لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

*Theophanes, Chronographia, 333-335*

وقتل قائدها باعثاً جعل المسلمين يتطلعون باعين واسعة الى الشام . كذلك اضحى تحرق المسلمين للأخذ بثأرهم قوة دفعت الاداة الحربية الاسلامية في انطلاقتها السريع تطوي تلك البلاد<sup>١</sup> .

« ولما أصيب جعفر ذهب محمد الى منزله ودخل على زوجه اسماء بنت عميس ، وكانت قد عجنّت عجيناها وغسلت بنياها ودهنتهم ونظفتهم ، فقال لها : اثيني بيني جعفر . فلما اتته بهم تشمهم وذرفت عيناه الدمع . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فرّبت على كتفها وبكى<sup>٢</sup> . »

فلما كان العام التالي ، أي السنة ٦٣٠ ، قام الرسول بنفسه الى حدود الروم في ظروف قاسية حرجة « في زمن عسرة من الناس وجدب من البلاد وحين طابت الثمار وأحبت الظلال<sup>٣</sup> . » فوصل يجمعه الى تبوك . ولم تشبك رجاله مع اي قوة رومية . ولكنه صالح اهل جرباء واذرح ومقتا . وصالح يوحنا ابن رؤبة صاحب ايلة في خليج العقبة : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة واهل ايلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر . فمن احدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه . وانه طيب لمحمد اخذه من الناس . وانه لا يحل ان يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يردونه من بر او بحر . » ودفع يوحنا مقابل هذا ثلاث مئة دينار جزية في كل عام . وصالح النبي اكيدر ابن عبد الملك ملك دومة - وكان نصرانياً ايضاً - وذلك على جزية يدفعها كل عام<sup>٤</sup> . واكتفى النبي بهذا وعاد الى المدينة

١ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ٣٧ .

٢ حياة محمد للكتور حسين هيكل ، ص ٣٧٨ .

٣ الطبري ج ١ ، ص ١٦٩٣ .

٤ فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٥٩ . راجع ايضاً السيرة لابن هشام ، ص ٩٠٢ وما يليها .

يعد ان اقام في تبوك اسبوعين من الزمن .  
 الروم والنبي العربي : ولم يفقه الروم فيما يظهر كنه الرسالة العربية .  
 هأن ما تبقى من آثار جدلمه الديني يظهر انهم اعتبروا الاسلام خروجاً  
 لآخر عن الكنيسة الام من نوع خروج الذين قالوا بالطبيعة الواحدة  
 والمشيئة الواحدة والآريوسيين وغيرهم . وظل شيء من هذا عالماً باذهان  
 بعض المفكرين الاوروبيين طوال العصور الوسطى . ومن هنا قول دنتي  
 أن محمداً خرج على النصرانية وبذر الشقاق فيها . ونهج مؤرخو الروم  
 تهجاً . مماثلاً فلم يكتفوا بظهور النبي العربي ولم يكتبوا شيئاً في الاسلام  
 من ناحيته السياسية . وظنوا بادىء ذي بدء ان هذه القوات العربية  
 ليست سوى عصابت صغيرة تبغي السلب والنهب كسائر عصابات البدو  
 آنذاً .<sup>٢</sup>

ابو بكر الصديق والروم : وبقيت ذكرى هزيمة مؤته تستفز  
 المسلمين فتوجه انظارهم شطر الشام . فلما كانت السنة ٦٣٢ أعد النبي  
 جيشاً جديداً لمهاجمة الروم ، وأمر عليه اسامة ابن زبيد ابن حارثة  
 الذي سقط في ميدان مؤته . على ان الوفاة عاجلت النبي في الثامن من  
 حزيران من السنة نفسها قبل ان يتحرك الجيش . وتولى الخلافة بعده  
 ابو بكر . وحدث اوتداد في القبائل العربية . ونصح الناصحون  
 للخليفة الا يفرق عنه جماعة المسلمين ولكن الخليفة قال : والذي نفس  
 ابي بكر بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت بعث اسامة كما  
 امر به رسول الله .<sup>٣</sup> وغزا اسامة بينة بين عسقلان وياقة وسلم وغنم

*Dante, Inferno, XXVIII, 31-36.*

*Guterbock, K., Der Islam im Lichte der Byz. Polemik, 6, 7, 11, 67-68.*

٣ الطبري ، ج ١ ، ص ١٨٤٨ - ١٨٤٩ .

وعاد في اربعين يوماً<sup>١</sup>. ونهض في هذه السنة نفسها خالد ابن سعيد الى بلاد الروم واوغل في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق فانهزم وعاد الى المدينة.

وبعد انتهاء حرب الردة أعد ابو بكر جيوشاً اربعة وسيورها على الشام وعقد الويتها لابي عبيدة ابن الجراح ولعمرو ابن العاص وليزيد ابن ابي سفيان ولشريحيل ابن حسنة. وأمر ابا عبيدة ان يتجه نحو حمص وامر عمرأ ان يقوم الى فلسطين وأمر يزيد ان يصل الى دمشق وأمر شريحيل ان يأتي الاردن<sup>٢</sup>. فانتصر يزيد ابن ابي سفيان في اوائل السنة ٦٣٤ على مرجيوس بطريق فلسطين في وادي عربة المنخفض العظيم جنوبي البحر الميت. وكان حامل اللواء الاسلامي معاوية مؤسس الدولة الاموية فيما بعد. وارقد الروم على غزة فاقتتل الطرفان مرة ثانية في دائن في الرابع من شباط من السنة نفسها واندحر الروم مرة اخرى. اما الجيوش الثلاثة الاخرى فقد اوقع بها الروم ووقفوا تيار زحفها.

ويرى المستشرق المستعرب كارل بكر ان نجاح ابي بكر بحروب الردة في قلب الجزيرة العربية قد اكسبه مهابة وعظمة في نفوس عشائر بكر ابن وائل الضاربة عند حدود العراق الغازية في اطرافه وان هذه المهابة جعلت تلك العشائر تصادق من وراءها من العشائر والقبائل الاخرى التي كانت قد اعتنقت الاسلام. ويزيد بكر ان المثنى ابن حارثة كبير بني شيبان الوائلي الذي اشتهر بانتصاره على الفرس في موقعة ذي قار (٦٠٤ او ٦٠٦) هو الذي استدعى خالداً ابن الوليد وجماعته الى حدود العراق لمحاربة الفرس. ومن الناحية الثانية يرى بكر ان ابا بكر ومن

١ الطبري، ج ١، ص ١٨٥١.

٢ الطبري، ج ١، ص ٢٠٨٤ - ٢٠٩٠.

حواله اضطروا اضطراباً ان يُلهتوا من اسلم من القبائل العربية بغزو العراق كي لا تعود هذه القبائل الى غزو بعضها كما جرت عاداتها من قبل فتنتهك بذلك حرمة الاسلام ، والمسلم اخر المسلم . ويرى أيضاً ان خروج العرب المسلمين الى العراق سبق خروجهم الى الشام<sup>١</sup> .

« وشجا جموع المسلمين في الشام واشجوا » . فكتب ابو بكر الى خالد ابن الوليد ان يؤمر على العراق المثني وان يسير الى الشام . فهب خالد على رأس جماعته وكانت حروب الردة والعراق قد صهرت جنوده واورثتهم مناعة وقوة . بدأ بالزحف من الحيرة الى صندوءاء فلقه اعرابها فظفر بهم ، ثم لقيه جمع بالمصيخ والحصيد عليهم ربيعة ابن بيجير التغلبي فهزمهم . ثم سار من قراقر الى سوّى فاغار على اهل سوّى واكتسح اموالهم وقتل حرقص ابن النعمان البهراني . ثم اتى أرك فصالحوه . واتى تدمر فتحصنوا ثم صالحوه . ثم اتى القريتين فقاتلهم فظفر بهم . واتى حواريين فقاتلهم فهزمهم . واتى قضم فصالحه بنو مشجعة من قضاة . واتى مرج راهط من مضارب الفساسنة قرب عذراء وعلى بعد عشرين كيلومتراً من دمشق فاغار على غسان في يوم فصعهم وقتل وسبي ووجه بعض رجاله الى الغوطة فأتوا كنيسة فسبوا الرجال والنساء وساقوا العمال الى خالد . ونزل على قناة بصرى وعليها ابو عبيدة وشرجيل ويزيد ، فاجتمعوا عليها فرابطوها حتى صاحت على الجزية في اذار من السنة ٢٦٣٤ .

وكان عمرو ابن العاص قد سلك طريق أيلة ( العقبة ) فأغار على جنوبي فلسطين حتى غزة وقيصرية ، فقطع المواصلات بين المدينة المقدسة وبين

Becker, K., *Expansion of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 337-338.*

١ الطبري ، ج ١ ، ص ٢١٠٨ - ٢١٠٩ و ٢١٢٥ .

الساحل . فجيئش هرقل جيشاً كبيراً في نقطة وقعت الى جنوبي دمشق وعقد لواءً هذا الجيش الى اخيه القبطار ثيودوروس<sup>١</sup>. وصعب على ثيودوروس ان يستجلي خطة خصمه في الحرب . ولعل سبب ذلك ان هذه القبائل المغيرة لم تكن لها خطة عسكرية واضحة . وتقدم ثيودوروس ببطء واتجه جنوباً للدفاع عن المدينة المقدسة ، فرابط في اجنادين بين القدس وغزة . وخشي خالد سوء العاقبة على اخوانه في الجنوب ، وكان مترفعاً نبيلاً ، فلم يحفل بامكانات السلب والنهب بل أسرع الى الجنوب عبر شرقي الاردن ، وجمع الجموع في وادي عربة ، ثم دفع بها الى فلسطين لمجاهة ثيودوروس . وفي الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ نشبت معركة حامية بين الروم والعرب المسلمين في اجنادين . وكتب النصر للعرب ، فجلا الروم عن ارياف فلسطين كلها ولم يبق لهم فيها سوى مدنها المحصنة<sup>٢</sup> . ويستدل من العظة التي القاها صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة يوم عيد الميلاد من هذه السنة ان العرب غشوا فلسطين كلها بعد اجنادين وان الفوضى عمّت الارياض باسرها وانهم تقدموا شمالاً حتى حدود حمص<sup>٣</sup> .

عمو الكبير والوؤم : وتوفي ابو بكر بعد اجنادين وتولى الخلافة عمر ابن الخطاب . وكانت قبائل اليمن وما يليها من الجنوب قد بدأت تسمع بانتصارات خالد وغيره فهبت تلي النداء بمجموعها رجلاً ونساء واطفالاً . فرأى الخليفة الكبير بثاقب بصره ان لا بد من التنظيم . فوحد

١ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٣٤٧ . ولعل الاشارة هنا الى لقب الرومي *Curopalates* ومعناه قائد قوات القصر جميعها . وظل هذا لقب مستعملاً عند الروم طوال اربعة قرون من السادس حتى العاشر .

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢١٢٥ - ٢١٢٦ : « ليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ١٣ هـ . »

*Becker, K., op. cit., 341-342*

الجيوش ووحّد القيادة وعقد لوائها الى خالد ابن الوليد . وجمع هرقل  
 البقية الباقية من جنوده في دمشق واستدعى اخاه ثيودوروس الى  
 القسطنطينية وأمر على الجيش في سورية القائد بانس . ورأى هذا القائد  
 ان يصد في وجه العرب في فحلّ التي كانت تسيطر آتندز على مجاز  
 الاردن في جنوب بحيرة طبريا وتحمي الطريق المؤدية الى دمشق . وهدم  
 بانس سدود المياه ليعرقل سبل الفاتحين . ولكن هؤلاء استولوا على فحلّ  
 بالقوة في الثالث والعشرين من كانون الثاني سنة ٦٣٥ وتابعوا السير الى  
 دمشق . وفي الخامس والعشرين من شباط سجدوا نصراً آخر على جيش  
 الروم في مرج الصفر على بعد ثلاثين كيلومتراً من دمشق الى جنوبيها .  
 وفي ظرف اسبوعين من الزمن ظهروا امام اسوار دمشق وضرروا الحصار  
 عليها وشددوه . فتضايق السكان فتأمروا على الجند المدافع فاتصلوا بالعرب .  
 فكتب اليهم خالد يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد ابن الوليد اهل دمشق اذا دخلها  
 اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم . وسور مدينتهم لا يهدم . ولا يسكن  
 شيئاً من دورم . لهم بذلك عهد الله ورضة رسوله صلعم والحلفاء والمؤمنين . لا  
 يمرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية<sup>١</sup> . »

وفتح الباب الشرقي في آب او ايلول من السنة ٦٣٥ ودخل العرب  
 المسلمون الى دمشق واستولوا عليها وجعلوا الجزية ديناراً وجريباً وهو  
 مكيال من الخنطة على الرجل الواحد . « ثم تساقطت بعد ذلك حصص  
 وبعلبك وحماه وسواها من المدن كتساقط اوراق الحريف<sup>٢</sup> ، وذلك في

١ البلاذري ، ص ١٢١ .

٢ تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

اواخر السنة ٦٣٥ . وخرج اهل شيزر يكفرون ومعهم المقلّسون  
فاذعنوا .

وكان هرقل في اثناء هذا كله يسعى بنشاط بين انطاكية والرها لتجيش  
قوة كبيرة يتمكن بها من صد العرب ، واتقاذ سورية الجنوبية وفلسطين  
والعربية . وبرغم خسارته الكبيرة في الرجال ابان الحرب الفارسية ، وبرغم  
قلة المال في الخزينة ، فانه حشد في خريف السنة ٦٣٥ من الروم  
والارمن والعرب حوالي خمسين ألفاً . وأمر عليهم ثيودوروس تريثوريوس  
وأنفذهم في ربيع السنة ٦٣٦ الى سورية . وكان خالد آتئذٍ في حمص  
يتقصد الجبهة . فلما علم بقدم هذا الجيش الكبير جلا عن حمص ودمشق  
وسائر المدن المجاورة ، وجمع ما لديه من الرجال خمسة وعشرين ألفاً ،  
وانتقى وادي اليرموق ، احد روافد الاردن الشرقية ، فصعد فيه . وقام  
الروم من حمص عبر البقاع الى جلتين واتخذوها قاعدة لهم . وتناوش  
الفریقان وتناول بعضهم بعضاً في معارك صغيرة ردحاً من الزمن . وفيما  
خالد ينتظر وصول المدد ، كان الروم يتخاصمون فيما بينهم بدافع الحسد  
وقلة الانضباط . فانهزم ثيودوروس في عدد من تلك المناوشات ، فنادى  
الجند بيانس فيلسفاً وامتنع حلفاء الروم من العرب عن القتال وانسحبوا  
من الميدان . فجاءت هذه الفوضى وجاء هذا الانسحاب في مصلحة العرب  
المسلمين . واغتم خالد هذه الفرصة السانحة ، فقام بجرعة التفاف حول الروم  
من الشرق فقطع خط اتصالهم بدمشق . ثم احتل الجسر فوق وادي  
الرقاد فحرّمهم امكان التراجع غرباً . وفي الثاني والعشرين من آب سنة  
٦٣٦ انتقض عليهم بفرسانه الجريين فقتل من قتل وشرّد من شرّد .

وبذلك انقطع كل امكان للروم بان يصدوا في سورية . وفي خريف هذه السنة نفسها عاد العرب الى دمشق فدخلوها آمنين . وكان الخليفة أعلم الناس بمخالد يقدر مواهبه ويعرف مواضع ضعفه . وكانت الحرب قد تطورت تطوراً كبيراً في مصلحة العرب الفاتحين ولكن ادارة البلدان المفتوحة كانت لا تزال ضعيفة تقتصر الى التنظيم . وكانت ثمة مشاكل ادارية وسياسية . ولم يكن خالد رجل ادارة وسياسة . فرأى عمران لا بد من وجود والٍ اعلى يمثل الخليفة في الشام ويدبر سياستها بحكمة ولباقة . فانتقى لهذا المنصب ابا عبيدة وأرسله الى الشام حاكماً مفوضاً . ووصل ابو عبيدة قبيل موقعة اليرموق ولكنه ابقى القيادة بيد خالد لانه كان اعلم منه بتفاصيل الحرب واقدر عليها . فلما انتهت المعركة سلم ابو عبيدة مقاليد الامور فوزع السلطات العسكرية بحكمة ودراية واحتفظ بمخالد ملحقاً به . واتجه شمالاً ولم يلق مقاومة تذكر قبل قسرين ( خلقيس ) ، فدخل بعلبك وحمص وحلب وانطاكية بسهولة .

عودة الروم الى الميدان : وقضى هرقل سنة مستجماً بعيداً عن ميدان القتال . وكانت الجزيرة بين العراق والشام لا تزال خاضعة للروم . فراسلت قبائلها العربية النصرانية هرقل تطلب منه العون على مهاجمة العرب المسلمين . فراسلها بدوره وحضها على التجمع ريثما تتلقى مدداً يأتيها مجراً من مصر . واقبل هرقل يعد الجيوش مرة اخرى . وجدد الامل بنوع خاص لان معظم شعور الشام على البحر كانت لا تزال خاضعة له وطريق البحر لا يزال مفتوحاً امامه . وفي السنة ٦٣٨ اجرت جيوش الروم من الاسكندرية بقيادة قسطنطين ابن هرقل . والتت الحملة مرسها في اللاذقية

او السويدية وزحفت على انطاكية فاستولت عليها وانضمت الى القبائل العربية النصرانية في الجزيرة<sup>١</sup>. وألفى ابو عبيدة نفسه محصوراً في حصص على حين يسير. اعداؤه لمحاربه برأ وبجرأ. فكتب الى الخليفة في الحجاز يستنجده كما عقد مؤتمراً عسكرياً للتشاور في الوضع الحربي. فاستقر الرأي على التزام التريث والدفاع. ولكن خالداً قال بالمبادرة الى مهاجمة العدو. وأمر الخليفة في الوقت نفسه القعقاع احد قادة المسلمين في العراق ان يتوجه بامرعه ما يمكن لامداد ابي عبيدة. وجمع الخليفة النجدات من الجزيرة العربية وسار بنفسه على رأسها متجهاً نحو الشام. وكانت خطة المسلمين فيما يظهر ترمي الى اخراج القبائل العربية النصرانية في الجزيرة من دائرة الدفاع البيزنطي وبذلك يتيسر للعرب المسلمين ان يلاقوا الجيش البيزنطي وحده معزولاً، فانطلق سهيل ابن علي وعبدالله ابن عتبان للقيام بحركة التفاف حول اراضي الجزيرة بين العراق والشام ومهاجمة قبائلها. وكان لتعجيل المسلمين في ارسال النجدات وسرعة حركاتهم اثر في القاء الرعب في نفوس القبائل في الجزيرة. فتخلت هذه القبائل عن الروم وقلقت راجعة الى مضاربها مؤثرة السلامة<sup>٢</sup>. وبادر العرب المسلمون بالهجوم على الروم. فأظهر هؤلاء بأساً كان كفيلاً بصد المسلمين العرب لو ظلت القبائل النصرانية على تعصدهم ومساعدتهم. ولكن مقاومة الروم انهارت وانسحبوا مجرأ الى الاسكندرية والقسطنطينية<sup>٣</sup>.

عرب الشام والعرب الفاتحون: وتحفظ لنا المراجع العربية اسماء

*Caussin de Parceval, Essai sur l'Hist. des Arabes, III, 512.*

١

٢ الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ٢٢٤.

٣ مأخوذ بصرف عن كتاب الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للدكتور احد

المدوي، ص ٤٢ - ٤٤.

بعض القبائل العربية التي كانت ضاربة في بادية الشام وفي الارياف عند فجر الاسلام. وليس في هذه المصادر ما ينبيء بتأييد هذه القبائل لآخوانهم العرب الفاتحين<sup>١</sup>. وقبائل البادية لم تدعن لخالد ابن الوليد الا مكروهة. والفساسنة اعتدوا على رسول الرسول. وغسان وقضاة وقفوا الى جانب الروم في اليرموق. وهرقل «نزل انطاكية ومعه من المستعربة ثخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة»، وبعض هذه القبائل «مضى مع هرقل الى بلاد الروم بعد ان استتب الامر للمسلمين في الشام<sup>٢</sup>».

نصارى الشام والعرب: ويرى عدد من المستشرقين المستعربين ومن رجال الاختصاص في تاريخ الروم ان اختلاف النصارى حول الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وضغط الروم على من لم يشاركهم قولهم في العقيدة قد حمل قسماً كبيراً من نصارى الشام على الترحيب بالعرب الفاتحين. ويغيب عن بال هؤلاء ان هذه القبائل العربية التي وقفت الى جانب هرقل في وجه العرب الفاتحين كانت درع من قال بالطبيعة الواحدة وان هرقل كان قد ثبتت في رئاسة الكنيسة الانطاكية بطريركاً قال بالطبيعة الواحدة هو اثاناسيوس المشار اليه في الفصل السابق وان بابارومة اونوريوس وجميع البطاركة ما عدا صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة كانوا قد وافقوا هرقل على القول بالمشيئة الواحدة او سكتوا عن ذلك. فلا يجوز بازاء هذه الحقائق الناصعة ان نتقبل قول افيثيخيوس ان ابناء حمص رأوا في هرقل امبراطوراً «مارونياً» عدواً للدين القويم لانه قال بالمشيئة الواحدة<sup>٣</sup>. ولا ان تتبنى قول البلاذري بان نصارى الشام آثروا عدل

١ حركة الفتح الاسلامي للدكتور شكري ليميل، ص ٢٦ - ٢٩.

٢ الطبري، ج ١، ص ٢٣٤٧.

*Corpus Script. Christ. Orientalum, Scriptorum Arabici, II, 5, I, 4; ٣*

*Patrologia Graeca, CIX, 1088.*

المسلمين العرب على استبداد الروم واهانتهم<sup>١</sup> لان الشهادتين بحاجة الى الجرح والتعديل . فالشاهد الاول دون في القرن العاشر ، والثاني في القرن التاسع ، والحوادث المروية جرت في القرن السابع . وكذلك فان القولين صدرا في وقت كان النصارى فيه بحاجة الى الملاطفة والمداهنة والتلق . ونرى ايضاً ان المستشرق المستعرب ده غويه يَصلُّ فيعدل عن الحق عندما يرى في حروب الفتح محاولة لتحرير عرب الشام من ظلم الروم واضطهادهم<sup>٢</sup>.

لماذا خسر الروم : ونحن نرى ان حروب الفتح في الشام كانت في نظر الروم وعرب الشام حروباً دينية سياسية قبل كل شيء ، وان نصارى الشام من الروم والعرب والسريان وقفوا الى جانب الروم قدر المستطاع ، وان الروم لم يتمكنوا من صد الهجوم العربي الاسلامي لان الحرب الفارسية كانت قد استنفدت قواهم في المال وفي الرجال . ومن هنا اهمال الحصون ، وابطال الجراية التي كانت توزع على قبائل الحدود ، ومن هنا ايضاً قلة الانضباط وكثرة التمرد والفوضى .

عمو وفتح مصر : وجاءت حركة هرقل الاخيرة في انطاكية وشمالى سورية حافزاً قوياً لحل قادة العرب المسلمين على اعادة النظر في الموقف الحربي . فعقد الخليفة مؤتمراً في الجابية درس فيه الموقف مع قادة جيوشه ، وكانت مصر هي القاعدة التي انسحب اليها الارطوبون Arcton . وكان الارطوبون ادهى الروم وابعدهم غدراً . ولعله رأى ان التجمع في منطقة آمنة

١ *Liber Expugnationum Regionum, ed. De Goeje, 137; Barthold, Transactions of the Oriental College, I, (1925), 468.*

٢ *De Goeje, Mémoire sur la Conquête de la Syrie, I.* ٢

*Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 208-209.* ٣

يشنُّ منها هجوماً جديداً على العرب المسلمين اجدى من البقاء في الشام .  
ولذا تراجع عن فلسطين وذهب الى مصر . وكانت مصر ايضاً القاعدة  
التي انطلقت منها حملة قسطنطين ابن هرقل على انطاكية . وكان البحر  
لا يزال في ايدي الروم يدون منه قيصرية فلسطين بالمؤن والذخائر  
والرجال . وكانت قيصرية لا تزال صامدة في وجه عمرو ابن العاص .  
فهي لم تسقط في ايدي العرب المسلمين قبل السنة ٦٤٠ . وكانت مصر  
تُطل على الحجاز ، على مكة والمدينة . وقد ينطلق الروم منها الى الحجاز  
مباشرة فيصيبون الحركة الاسلامية في منابعها الرئيسة . وكانت مصر  
ايضاً لا تزال اهرآء القسطنطينية ومركز تومينها . وجاء في كتاب فتح  
مصر لابن عبد الحكم ان عمرو ابن العاص كتب الى عمر يقول : « إن  
فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي اكثر الارض اموالاً . »  
ولا بد من ان يكون قد شارك عمرو في رأيه هذا رجال الثروة والمال  
في مكة . فطبيعي ان يكون هؤلاء قد لمسوا عظمة التجارة بين الشرق  
والغرب ، تلك التجارة التي كانت تمر عبر مصر ولبنان وسورية ، وبعضها  
كان يمر بين ايدي الاثريه المكيين قادمًا من الجنوب ليلبغ الى ساحل  
مصر وفلسطين . وليس من المستبعد ان يكون عمرو ابن العاص ، وعثمان  
ابن عفان ، والمغيرة ابن شعبة ، وغيرهم من تجار مكة قد زاروا مصر  
قبل الاسلام ، وشاهدوا بأم العين اتساع الحركة التجارية فيها كما جاء  
في اخبار ابن عبد الحكم واخبار السيوطي<sup>٣</sup> . ويرى المستشرق المستعرب  
فيات Wiet ان مدينة قفط في الصعيد كانت قد اصبحت نصف عريضة

*De Goeje, Mémoire, op. cit., 167.*

١

٢ ص ٤٩ - ٥١ .

٣ حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٩٢ و ٩٩ .

## قبل الاسلام<sup>١</sup>.

وهكذا فان الدوافع التي حملت الخليفة عمر في مؤتمر الجالية ان يمنح عمراً سلطة فتح مصر كانت دوافع جوهرية . ولم يكن هذا الخليفة الكبير مفارماً . فانه عرف بجبهه للتأني ، وحرصه على ان لا يعرض قواته للخطر . ولهذا يجب اعادة النظر في الكتاب الذي قيل انه ارسله الى عمرو ، وعمرو في طريقه الى مصر ، يأمره فيه بالعودة ان لم يكن قد وصل الى مصر او بالسير قدماً في وجهته ان كان قد دخل الارض المصرية عند تسلمه الكتاب . فهذا قول لا تشجع الحوادث على قبوله ولا يتفق وما عرف من كياسة عمر الخليفة الكبير<sup>٢</sup> .

وسار عمرو ابن العاص من قيصرية فلسطين الى مصر في كانون الاول من السنة ٦٣٩ على رأس بضعة آلاف مقاتل . فلقى مقاومة في الفرما Pelusium شرقي بور سعيد اوقفته شهراً كاملاً . ثم تغلب عليها في اوائل السنة ٦٤٠ ، وتقدم منها الى بليس فأمّ دين Tendounya . فتحصن الروم في حصن بابليون على رأس الدلتا . وعسكر العرب في عين الشمس Heliopolis . واشتدت مقاومة الروم برئاسة البطريك كيروس ( المقوقس ) وقيادة ثيودوروس اخي الفيلس . واستنجد عمرو الخليفة فأمدّه ببضعة آلاف رجل بقيادة الزبير ابن العوام . ورغم تضاعف القوة فان العرب المسلمين لم يقدروا على مهاجمة الحصن لانه كان منيعاً ، ولانهم كانوا في فقر الى ادوات الحصار . فاكتفوا بسد المنافذ على الحصن . وطال الحصار بضعة

١ الموسوعة الاسلامية ، المقال « قبط » .

٢ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العديوي ، ص ٤٧ - ٤٨ .

راجع ايضاً حركة الفتح الاسلامي ، للدكتور شكري فيصل ، ص ٨٥ - ٨٦ ،

ومع في فجر الاسلام ، لسيدة اسماعيل كاشف ، ص ٨ - ١٠ .

اشهر ، وكانت مفاوضات بين كيروس وعمرو . وسافر كيروس الى القسطنطينية ليعرض نتيجة هذه المفاوضات على الفيلسفس . فاتمه هذا بالحياة ونفاه . وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ ، فانبعثت اختلافات داخلية قديمة حالت دون ارسال المدد الى حصن بابلون ، فدخله العرب في السادس من نيسان من هذه السنة نفسها<sup>١</sup> .

وبسقوط حصن بابلون مفتاح مصر السفلى والعليا انتشر العرب في ريف مصر السفلى . وتجمعت حاميات الروم بالاسكندرية . فسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها . وكانت حصونها منيعة تحميها غياض وبجيرات . وكان البحر لا يزال بيد الروم فكان يأتيها منه المدد ، فطال امر حصارها . وخلف هرقل ابنه قسطنطين الثالث ، وكان لا يزال حدثاً وشاركته والدته مرتينة في الحكم . وكثرت القلاقل في عاصمة الروم ، واستعجل امر اللومباردين في ايطاليا . فأعادت مرتينة البطريرك كيروس الى الاسكندرية ليقاوض العرب في الصلح . فلما بلغها سار ترواً الى بابلون وفاوض عمرو ابن العاص ، فانتهى الامر بينهما الى صلح الاسكندرية في الثامن من تشرين الثاني سنة ٦٤١ . وابرز شروط هذا الصلح الجزية لمن بقي في مصر ، والامن لمن رحل عنها ، والمدة احد عشر شهراً ليتسنى للجيش وتغييره من المدنيين الرحيل<sup>٢</sup> .

موقف الاقباط من العرب الفاتحين : ويختلف المؤرخون المحدثون

*Nikion, Jean, Chronique, 557.*

١ البلاذري ، ص ٢١٣ - ٢١٥ . وابن عبد الحكم ، ص ٥٦ وما يليها . والاستسق حنا النقيوسي اقرب الرواة للحوادث ، فانه من اعيان القرن السابع للبلاد .

٢ حوية النقيوسي ، ص ٥٧٥ .

في هذا . فبتلر صاحب كتاب فتح العرب لمصر<sup>١</sup> يرى ان الاسلام لم يدخل مصر من غير حرب وان القبط لم يرحبوا بالفتح العربي . وينبهي للرد عليه نفر من المؤرخين نذكر منهم الدكتور شكري فيصل الاستاذ في الجامعة السورية . فهو يرى ان المتقدمين من مؤرخي الاسلام يذكرون في مواقف كثيرة ان الاقباط كانوا عوناً للمسلمين في فتوحهم وان من يتبع هذه النصوص الاولية يخرج بفكرة ان ميول القبط لم تكن على الاقل معادية للحركة الاسلامية وان الاضطهاد الذي حل بالاقباط في السنوات العشر التي قضاها المقوقس ( البطريك كيروس ) على رأس الادارة المدنية والدينية في مصر قد دفع الأقباط ان يستشفروا في حركة الفتح العربي نوعاً من الانتاذا<sup>٢</sup> . وقد فات حضرة الزميل المؤرخ انه لما وصل كيروس الى الاسكندرية وتبوأ العرش البطريكي فيها كتب اعترافاً بامانه بالمشيئة الواحدة ودعا من قال بالطبيعة الواحدة من الاقباط في مصر للمواقفة عليه فقبله الساويريون فوراً فلاينهم البطريك ، ورفضه اليوليانيون فضيقت عليهم<sup>٣</sup> . وفاته ايضاً ان شهادة الاسقف يوحنا التقيومي اقرب في الزمن الى الحوادث المروية من شهادات المراجع الاسلامية العربية<sup>٤</sup> . وقد تكون الحقيقة التاريخية المنشودة وسطاً بين القولين ، اي ان معظم الاقباط وقفوا الى جانب النصرانية والروم وان بعضهم اي اليوليانين رحبوا

*Buller, A. J., Arab Conquest of Eg.*

١

وقد لله الى العربية الاستاذ محمد فريد ابو حديد بعنوان فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٣٣ .

٢ حركة الفتح الاسلامي ، ص ١٠٣ - ١٠٨ .

٣ جراسيموس ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

٤ حركة الفتح الاسلامي ايضاً ، ص ١٠٩ ، هامش .

بالعرب المسلمين . هذا وقواعد المصطلح تقضي بالابتعاد عن التعميم في امور  
تشمل الالوف ومئات الالوف من الناس .

## الفصل السادس عشر

### خلفاء هرقل

( ٦٤١ - ٧١٧ )

موتينة : وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ وتولى العرش بعده في آن واحد كل من ولديه قسطنطين الثاني وهرقلون علي ان يحكما باشراف القسيسة مرتينة زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون . ولكن الشعب لم يرض ان تتولى اموره امرأة فأضطرت مرتينة ان تحتجب شكلاً وان تدير دفة الحكم بالتعاون مع البطريك بيروثوس . وتوفي قسطنطين الثاني في اواخر ايار من السنة ٦٤١ مسموماً ، فاتهمت مرتينة بقتل ابن ضرّتها لكي يستأثر ابنها هرقلون وحده بالحكم . وتمرد الجند في آسية الصغرى بزعامة احد اخصاء قسطنطين في تشرين الاول من السنة نفسها وزحفوا على خلقيدونية واكروهوا مرتينة على اشراك قسطنطين الثالث ابن قسطنطين الثاني في الحكم . واستقال البطريك بيروثوس . ونشبت ثورة في العاصمة في مطلع السنة ٦٤٢ لا تزال اسبابها مجهولة ، فقطع لسان مرتينة وجُدع انف هرقلون ونُفيا الى رودوس ، وتولى الحكم قسطنطين الثالث وهو بعد في الحادية عشرة من عمره .

قسطنطين الثالث : ( ٦٤١ - ٦٦٨ ) ويدعى قنطنس الثاني ايضاً . وقد عمل على استرداد مصر والشام . وانفذ في اواخر السنة ٦٤٥ حملة على مصر بقيادة مانويل . فجاءت مفاجأة للعرب المسلمين . وسقطت الاسكندرية في يد الروم واتخذها مانويل قاعدة للتوغل في وادي النيل . وتغلغل في الدلتا وكاد يكتسح الموقف . ولكن الخليفة عثمان ابن عفان أعاد عمرو ابن العاص الى قيادة الجيش العربي الاسلامي في مصر . فانزل عمرو بمخيمه مانويل هزيمة شنعاء عند نيقوس . فتقهقر مانويل الى الاسكندرية واعتصم بها . وتبعه عمرو ابن العاص لحصارها وتمكن من الدخول اليها بخيالة احد حراسها فافتتحها في اوائل السنة ٦٤٦ . وجاء في المواعظ للمقرئبي ان عمراً اقسم ان هو استولى عليها ان يهدم اسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان<sup>١</sup> . وكان قسطنطين الثالث قد أنفذ في الوقت نفسه حملة ثانية لمهاجمة الشام . ففئت بدورها بالفشل . وكان الذي صدّها معاوية<sup>٢</sup> . ورأى عثمان ابن عفان وحكومته ان لا بد بعد هذا من انشاء اسطول لرد هجمات الروم في البحر . وكانت احواض الروم في الاسكندرية وعكة قد وقعت سائلة في يد العرب الفاتحين . فأنشأ عثمان فيها اول اسطول عربي . ولعله استعان باخشاب لبنان ولاسيا حرج بيروت وبيجارة الساحل اللبناني وساحل مصر<sup>٣</sup> . واستهل نشاطه البحري بهجوم على قبرص في السنة ٦٤٩ واحتلال جزيرة ارواد في السنة ٦٥٠ . ويرى الزميل الدكتور ابراهيم احمد العدوي بحق ان احتلال العرب لقبص لم

١ ج ١ ، ص ١٦٧ . راجع ايضاً ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، تحت اخبار السنة ٢٥ .

٢ الامبراطورية البيزنطية والهوية الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العدوي ، ص ٥٢ - ٥٣ .

Bury, J. B., op. cit., II, 288.

Becker, K., Expansion of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 352-353

يكن دائماً واتما توالى الاخذ والرد على هذه الجزيرة بينهم وبين الروم<sup>١</sup>.  
وجهز قسطنطين الثالث عمارة بحرية كبيرة وقادها بنفسه في السنة ٦٥٥  
للقضاء على استعدادات العرب البحرية . فكانت موقعة بحرية كبيرة عند  
فونكس قرب شاطيء ليقية في آسية الصغرى دعاها العرب معركة ذات  
الصواري لكثرة السفن ذوات الصواري فيها ، وقد وفق فيها العرب الى نصر  
حامم<sup>٢</sup>. ثم كانت الفتنة التي قتل فيها عثمان سنة ٦٥٦ ، ونشبت حرب اهلية في  
صفوف العرب المسلمين ، فقدّر لرمال الصحراء الافريقية ولجبال طوروس  
ان تقف سنوات حدآ فاصلاً بين العرب والروم .

وانتهز قسطنطين الثالث هذه الفترة من الهدوء في الخارج لاعادة النظر  
في ادارة الدولة ، فادخل بعض التعديلات التي سينظر فيها في فصل لاحق .  
وفي هذه الفترة ايضاً عالج مشكلة المشيئة الواحدة . وكان جده هرقل ،  
كما تقدم معنا ، قد بدأ منذ السنة ٦٢٢ يفاوض في امر المشيئة الواحدة .  
وكان قد اجمع على القول بها منذ السنة ٦٢٩ جميع البطارقة وبينهم البابا  
اونوريوس . وكان هرقل قد أصدر في السنة ٦٣٨ دستور ايمان رسمي  
عرف بالاكتيسيس أوجب به قبول المشيئة الواحدة . وكان البطريرك  
بيروس قد استعفى على اثر هياج الشعب في العاصمة ضد الفسيلة مرتينة  
ربيبته وهاجر الى افريقية . وكان قد قام بينه وبين مكسيموس جدال  
حول المشيئة الواحدة انتهى باقتناع بيروس سنة ٦٤٥ ورجوعه عن هذه  
البدعة .

وكان بيروس قد كتب الى بولس الثاني خليفته على عرش كنيسة القسطنطينية  
يهدده بالقطع ان لم يرجع عن الهرطقة ويرفع الاكتيسيس عن ابواب

١ الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

٢ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٠ و ١٩١ .

الكنائس . وكان بيروس ومكسيوس قد رحلا معاً الى رومة فايدهما البابا ثيودوروس الاول ( ٦٤٢ - ٦٤٩ ) . فألقى قسطنطين الثالث الاكثيسيس واصدر التيبوس Typon محظراً به كل تعليم بالمشيئة الواحدة او المشيئتين . ثم كان ان تبوأ عرش كنيسة رومة في السنة ٦٤٩ البابا مرتينوس الاول ( ٦٤٩ - ٦٥٥ ) فعقد مجعماً حرّم فيه الاكثيسيس والتيبوس ، وطلب الى الفيلسوف ان يعزل البطريرك بولس الثاني ويقيم غيره ارثوذكسياً . فاستعظم قسطنطين الثالث هذا الطلب وقبض على البابا وقيده بالسلاسل هو ومكسيوس وحكم عليهما بالعصيات . وتوفي البابا في المنفى بعد شذائد قاسية . وحاول قسطنطين الثالث ان يكره مكسيوس على القول بالتيبوس فلم يفعل . فغضب عليه وأمر بجلده ثم بقطع لسانه ويمينه ، فمات في السنة ٦٦٢ . اما بيروس فانه بعد ان رفض بدعته عاد الى القول بها . ثم رجع الى القسطنطينية فنصب بطريركاً للمرة الثانية بعد وفاة بولس الثاني ، ولكنه ما لبث ان توفي بعد خمسة اشهر سنة ٦٥٢ .

وأساء قسطنطين الثالث الظن باخيه ثيودوسيوس فألبسه ثوب الرهينة ثم قتله . فثار به ضميره وأصبح اخوه يتراءى له حاملاً كأساً من دمه ويقول له : « يا اخي اشرب » . فكره الإقامة في المدينة التي ارتكب فيها اثمه ونزح عنها . وفي السنة ٦٦٢ ذهب الى رومة فاستقبله فيها البابا ويتاليانوس بالحفاوة والاكرام . واغناظ الشعب في القسطنطينية لسفوه وتغيبه ولم يرض ان يتبعه في السفر زوجته واولاده . ثم بعد ست سنوات ضربه خادم حمامه في مرقوفة بصندوق من الصابون على رأسه فتوفي في السنة ٦٦٨ .

قسطنطين الرابع : ( ٦٦٨ - ٦٨٥ ) وفي اثناء غياب قسطنطين الثالث في ايطالية وصقلية كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو

بعدهُ فتى . فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في صقلية نهض اليها فاخذ  
بالتأمر وعاد والشعر قد نبت في وجهه فلقب بالالحى Pogonatus .  
ولما كانت الغاية التي من اجلها صدر الاينتيكون « كتاب الاتحاد »  
في عهد زينون ( ٤٧٤ - ٤٩١ ) وتبعته الفصول الثلاثة في عهد يوستينيانوس  
( ٥٢٧ - ٥٦٥ ) ، ثم صدر الاكتيسيس في عهد هرقل ( ٦١٠ - ٦٤١ ) ،  
والتيبوس في عهد قسطنطين الثالث ( ٦٤١ - ٦٦٨ ) - لما كانت الغاية من  
هذه النشرات كلها قد زالت بدخول الولايات النورية والمصرية والارمنية  
في حكم العرب المسلمين ، ولم يبقَ ثمة موجب سياسي للتساهل في أمر  
العقيدة ، فان قسطنطين الرابع اخذ يسعى لاستمالة اساطين الكنيسة الأم  
الكاثوليكية الارثوذكسية . فنجح بادىء ذي بدءٍ بابا رومة سلطة على  
متروبوليت رابينة . وعزل في السنة ٦٧٨ البطريرك ثيودوروس عن عرش  
كنيسة القسطنطينية وأقام جاورجيوس بطريركاً محله . وأعلن عزمه على  
عقد مجمع للملافة الانشقاق . وكتب الى بابا رومة والى سائر الاساقفة  
يدعوم اليه . فلما تلقى البابا اغاثون كتاب الفيلسوف عقد جمعاً محلياً سنة  
٦٧٩ أيد فيه قرار البابا مرتينوس وانتخب القسطنطين ثيودوروس وجاورجيوس  
والشماس يوحنا نواباً عنه وارسلهم الى القسطنطينية حاملين الوثائق اللازمة .  
المجمع المسكوني السادس : وفي السنة ٦٨٠ عقد في القسطنطينية  
المجمع المسكوني السادس ، وكان موضع انعقاده قاعة البلاط المقدس ،  
وهي القاعة التي تدعى اطرولتوس Trolus ، اي قاعة القبة . واشترك في  
اعمال المجمع ١٧٠ اسقفاً في طليعتهم البطريرك القسطنطيني جاورجيوس ،  
والمتروبوليت اسطفانوس رئيس اساقفة هرقلية ، والمتروبوليت يوحنا رئيس  
اساقفة آثينة ، وثلاثتهم من علماء عصرهم المشاهير . وجلس الفيلسوف في  
صدر المجمع يحيط به مجلس قضاة الدولة ، والى يمينه البطريرك القسطنطيني  
جاورجيوس ، فالبطريرك الانطاكي مكاريوس ، فنائب بطريرك الاسكندرية .

والى يساره نواب بابا رومة قنائب بطريك المدينة المقدسة ، ووضع الانجيل المقدس في الوسط . وقام نواب البابا فقالوا : « انا بحسب المرسوم الصادر عن دولتكم التي اقامها الله الى بابانا الجزيل القداسة قد جئنا من قبل البابا ومعنا منه معروض ومعرض آخر مجعني من الاساقفة الخاضعين له . وقد سلمنا المعروضين الى دولتكم ذات المقام السامي . » ثم شكوا المرطقة ومخترعيها والبطاركة سرجيوس ويروس وبطرس وكيروس وغيرهم وقالوا : « نناشد رجال كنيسة القسطنطينية الجزيلة القداسة ونسألهم متى واين وجد هذا التعليم الجديد ؟ » فأجابهم مكاريوس بطريك انطاكية نصير القول بالمشيئة الواحدة : « انه موجود في مجامع اشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية . » فطلب الفيلسوف البيثنة فأحضرت اعمال المجامع وقرئت في الجلسات الخمس التالية . فوجدت رسالة مزورة عن لسان البطريرك ميناس الى البابا فيجيليوس استند اليها مكاريوس . فقاومه نواب رومة ، فثبت فسادها وفساد عبارات كثيرة نسبت الى الآباء مبتورة محرقة . وفي الجلسة السابعة تقدم الرومانيون ببيثانهم . وفي الثامنة اعترف بصحة هذه الينات جاورجيوس بطريك القسطنطينية . ثم طلب الى مكاريوس البطريرك الانطاكي واساقفته ان يوافقوا . فوافق الاساقفة ولكن مكاريوس اعترف بمشيتين وانكر الفعلين « مفضلاً الموت مقطّعا او غريقاً على الموافقة . » فقطع من درجته في الجلسة التاسعة ونفي . وفي الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس ويروس وبطرس وبولس بطاركة القسطنطينية وعلى كيروس بطريك الاسكندرية وعلى اونوريوس بابا رومة . وفي السابعة عشرة صدق على اعمال المجامع المسكونية السابقة . وفي الثامنة عشرة في ١٦ ايلول سنة ٦٨١ تليت شهادة اقرها المجمع : « بمسيح وابن ورب ووحيد واحد هو نفسه بطبيعتين واقنوم وشخص واحد وبمشيتين وطبيعتين وفعلين طبيعيين بلا

انقسام ولا تغيير ولا تجزؤ ولا اختلاط<sup>١</sup> .»

قسطنطين والعرب : وكانت الاضطرابات الداخلية التي نجمت في الدولة العربية الاسلامية عن مقتل عثمان ابن عفان قد انتهت . فاستتب الامر لمعاوية ابن ابي سفيان ( ٦٦١ - ٦٨٠ ) . ومعنى هذا في رأينا ان الأمر استتب لتجار قريش اولئك الذين قدروا عظمة التجارة التي كانت تربط حوض المتوسط بالشرق الاقصى . فكان بالتالي طبيعياً ان يدركوا مبلغ الحسارة التي حلت بالبنانيين والسوريين والمصريين من جراء ما سبب لهم الفتح العربي من انقطاع عن اسواقهم في آسية الصغرى والبلقان واليونان وايطالية وفرنسة واسبانية والمانية وبريطانية . وهكذا لم يروا بدأ من متابعة الحرب ضد الروم ودفعها الى نتيجة حاسمة<sup>٢</sup> . وكان معاوية ومن حوله يعلمون علم يقين ان رغبة الروم في العودة الى القتال لم تنته . وقد اغتم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية فدرس الى جبال الساحل السوري اللبني بضعة آلاف من المردة يغيرون منها على الحواضر والارياف فيهددون سيادة العرب في الشام ويعيثون في البلاد فساداً . وكان معاوية قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط ان يقطع قسطنطين الاعانة عن المردة<sup>٣</sup> .

ولكن قسطنطين الثالث اغتيل سنة ٦٦٨ في مرقوسة . وفي مرقوسة هذه أعلن مزيزيوس Mizizios رغبته في العرش وثار سابوريوس Saborios القائد في ارمينية . واعلى اربكة الملك في القسطنطينية فتى يافع<sup>٤</sup> . وتمرد

*Manst, Amplissima Collectio Conciliorum, XI, 629-640 ; Brooks, E. W , ١  
Successors of Heraclius, Cam. Med. Hist, 400-405.*

جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

*Lewis, A. R., Naval Power and Trade in the Mediterranean, 54-55. ٢*

٣ البلاذري ، قسطنطينية ، ص ١٥٩ . *Theophanes, Chronographia, 347.*

الجند مطالبين بحق هرقل وطيباريوس شقيقى قسطنطين الرابع في الملك . واستنجد سابوريوس بالعرب . فرأى معاوية والحالة هذه ان الفرصة سانحة لضرب الروم ضربة قاضية يستولي بها على القسطنطينية نفسها . وكان قد احتاط لامر المردة فاستقدم عدداً كبيراً من الفرس واسكنهم مدن الساحل اللبناني - عكة وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس - واتبعهم في السنة ٦٦٩ غيرهم من اهل العراق<sup>١</sup> . وكان معاوية قد عني ايضاً بترميم الحصون الساحلية مع ما فيها أسوار الاسكندرية . واذا به يقوم ببناء سور عسكرية بحرية وبوية في الغرب ليضلل خصمه . فيغزو صقلية في السنة ٦٦٩ وينفذ عقبه في السنة ٦٧٠ الى حدود ولاية افريقية . ولكنه في الوقت نفسه عد الى سبر غور الدفاع البيزنطي في قبدوقية في السنة ٦٦٩ . فاذا بطلائع جيشه تصل الى القسطنطينية . وكان بطل هذه الحملة ابا ايوب الانصاري وقد توفي في اثناها ودفن خارج اسوار عاصمة الروم . اما قائد الحملة فكان فضلة ابن عبيد الانصاري يؤيده يزيد ابن معاوية .

ومن طريف الاخبار التي اقتصرت بهذه الحملة ما نقل عن بنت ملك الروم وبنت جبلة ابن الاعم التساني . فقد روي ان بنت ملك الروم كانت اذا رجعت كفة قومها تقيم الزينة على قصرها في العاصمة . وكانت بنت جبلة تقيم الزينة على قصرها اذا رجعت كفة العرب . وهذا ما رغب يزيد ابن ابي سفيان في فتح المدينة للحصول على بنت جبلة .

وفي ربيع السنة ٦٧٣ وصلت عمارة عربية اسلامية كبيرة الى مياه القسطنطينية . تحاصر عاصمة الروم من البحر وتحاول ازالة الجنود اليها . فصدمتها مراكب الروم . وفي الحريف عادت هذه العمارة الى شبه جزيرة

١ الاعلاق النبوية لابن رسته ، ص ٣٢٧ . والبلاذري ايضاً .

*Theophanes, op. cit., 532-533.*

كيزيكوس لتمضي فصل الشتاء وتلتقى المؤن والذخائر من الساحل السوري اللبناني . وفي الربيع التالي استأنف المسلمون الحصار فارتدوا ثانية . فعادوا يصرفون الشتاء في كيزيكوس . وظلوا كذلك حتى المرة الرابعة . واستعمل الروم في هذا الحصار الذي دام اربع سنوات ( ٦٧٣ - ٦٧٧ ) سلاحاً جديداً اعده مهندس لبناني كان قد فرّ من بلده بعلبك عند دخول العرب المسلمين اليها ، وهو كاليكوس الشهير . واخترع كاليكوس هذا الذي نشر الذعر في صفوف العرب المسلمين كان عبارة عن حراريق نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وغيرها من المواد السريعة الاشتعال اذا صبّت على جيش أحرقته وان سقطت في الماء لم تنطفئ . وقد دعاها الروم آتئذ النار البحرية ، ثم سميت فيما بعد النار الاغريقية<sup>١</sup> . واستخدم الروم جنودهم واصدقائهم في جبال طوروس والاماتوس ولبنان للقيام بغارات جريئة في بلاد الشام نفسها تعرقل اعمال التموين وتهدد العاصمة العربية نفسها<sup>٢</sup> . وجاءت السنة ٦٧٧ فاذا بالعرب يعودون الى الحصار . فانطلقت لصدّهم مراكب النار البحرية فأحرقت عدداً كبيراً من مراكب العرب . فاضطر ما بقي من العمارة العربية للعودة الى قواعده في الشام . وهبت عاصفة هوجاء حطمت قسماً آخر ، وطارد البيزنطيون البقية الباقية فغنموا معظمها<sup>٣</sup> . وفي السنة ٦٧٨ فاوض معاوية الروم في الصلح فأقروه

Zenghlis, G., *Le Feu Grégeois, Byzantion, 1932, 265-288* ; Schlumberger, ١  
G., *Un Empereur Byzantin, 53 ff.*

Theophanes, *Chron.*, 356 ; Lammens, H., *Moawia, 18-20.* ٢

Canard, M., *Expéditions des Arabes Contre Constantinople, Journal ٣  
Asiatique, (1925-26), 77-80.*

الدكتور ابراهيم احمد العلوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ - ٥٨ .

عليه ثلاثين سنة شرط ان يدفع لهم ثلاثة آلاف قطعة من الذهب وخمسين  
 عبداً وخمسين جواداً عربياً عن كل سنة قبل<sup>١</sup>. « فأصبح اسم قسطنطين  
 الرابع محط احترام القبائل البربرية الضاربة في الاراضي المحيطة بدولة  
 الروم ، وارسلت هذه القبائل تحطب ودّه . ورأت الدول الاخرى في غرب  
 اوروبة ان رومة الجديدة لم تقل في عظمتها واهميتها عن رومة القديمة  
 الخالدة<sup>٢</sup>. »

وغامر عقبة ابن نافع في هذه الآونة في افريقية الشمالية فبلغ طنجة  
 « وجول لا يعرض له احد ولا يقائله<sup>٣</sup>. » ، وأوطأ فرسه الماء حتى بلغ  
 الماء صدره وقال : « اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت  
 في البلاد اقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد احدٌ من دونك<sup>٤</sup>. » . وكان قد  
 اهل امر المدن المحصنة على ساحل البحر ، فتناول رجالها المدد من الروم  
 بعد ان حطّم الاسطول العربي . وتقاتلوا وكسيلة احد زعماء البربر ،  
 وعرضوا لعقبة في مكان يقال له تهودة في الجزائر في السنة ٦٨٣ قتلوا عقبة  
 ومن كان معه<sup>٥</sup>. واستغل كسيلة نصره ودخل القيروان فأقام بها الى ان  
 قوي امر عبد الملك ابن مروان<sup>٦</sup>.

وتوفي يزيد ابن معاوية في السنة ٦٨٣ وتولى الخلافة بعده ابنه معاوية الثاني.  
 ورأى هذا انه ليس باهل للخلافة فخلع منها نفسه ولم يعين له خليفة .  
 فعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل ثلاث سنوات عندما توفي معاوية

*Theophanes, Chron., 356.*

٢ الدكتور ابراهيم العدوي : المرجع نفسه ، ص ٥٨ - ٥٩ .

٣ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ .

٤ المالكي ، رياض النفوس ، ٢٥ .

٥ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ .

٦ ابن الاثير ، ج ١٤ ، ص ٩١ .

الاول . وتبوأ العرش مروان ابن الحكم والاعداء له بالمرصاد . وكان رجلاً طاعناً في السن . وكان قسطنطين الرابع قد استغل مشاكل يزيد فأكرمه على الخروج من قبرص . وجاءت مشاكل معاوية الثاني ومروان فزحفت جيوش قسطنطين عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت العرب عن جرمانية (مرعش) (٦٨٣) . وتوفي مروان فاضطر ابنه وخليفته عبد الملك ان يفاوض الروم وان يدفع مالا سنوياً اكثر بما كان العرب يدفعون من قبل . وتم الصلح على هذا الشرط في السابع من تموز سنة ٦٨٥ .

يوستينيانوس الثاني : (٦٨٥ - ٦٩٥) وتوفي قسطنطين الرابع بداء الزحار في اول ايلول من السنة ٦٨٥ . وتولى العرش بعده ابنه يوستينيانوس الاثرم ٢ ، وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . وكان كآبيه وجده ذكياً شجاعاً نشيطاً . وكان طموحاً مشبعاً بحب العظمة والمجد ، فأراد ان يحتذي مثال ميمه يوستينيانوس الكبير . ولكنه كسائر افراد أسرته كان يشكو شيئاً من قلة الاتزان . فتنطور سوء ظنه بالناس وحبه للعنف الى شراسة في الخلق وورغبة في سفك الدماء .

ونقض يوستينيانوس هذا معاهدة السنة ٦٨٥ مع العرب وارسل جيوشه لقتالهم . وكان عبد الملك لا يزال مرتبكاً مشغولاً في تثبيت دعائم خلافته ضد منافسين اقرباء ، فاسترى الصلح مع الروم في السنة ٦٨٩ وقبل ان يدفع ليوستينيانوس الثاني مالا سنوياً اعظم بما دفعه معاوية : ثلاث مئة وخمسة وستين الفاً من قطع الذهب ، وثلاث مئة وستين عبداً ، وثلاث مئة وستين جواداً كريماً . وقبل بان يقسم ولايات إيبيرية وارمينية وقبرص بينه وبين يوستينيانوس بالسوية .

*Brooks, E. W., op. cit., 405-406.*

*Rhinotmetus.*

١

٢

وعلم عبد الملك فيما يظهر ان خصمه كان ضعيف البصيرة ففأتمحه بجذال المردة والعمل على نقلهم من تلال لبنان وسورية والامانوس . فقبل يوستينانوس وحطم بيده « هذا السور النحاسي الذي كان يفصل حدوده عن حدود خصومه العرب المسلمين » . وبعث قائداً من جيشه الى امير المردة يوحنا متظاهراً يطلب النجدة منه ضد العرب . فجاء القائد الى قب الياس حيث مسكن الامير . فلقى ترحاباً وتكريماً ، وجلس يحدث الامير عن غزو العرب . ثم اشار الى جنده وكانوا على علم بمقصده فوثبوا على الامير فقتلوه وقتلوا بكثيرين من بطانته . ثم اعتذر الى الامير ممان ابن اخت الامير يوحنا معيداً الكلام على رغبة الفيلس في ان يتلقى نجدة المردة ، وطلق يزّين لهم ان يصحبوه الى القسطنطينية . فأجابوه الى ما طلب ، وتجهز اثنا عشر الفا منهم يتزعمهم الامير ممان ، وساروا الى الفيلس فوزعهم حرساً في ارمينية وتراقية وقزيقوس<sup>٢</sup> .

وجاء في تاريخ الطائفة المارونية ، للبطريك اسطفان الدويهي ، ان يوستينانوس الثاني لم يكتفِ بما فعل ، بل جيش على المردة جيشاً جرّاراً بقيادة موريق وموريقيان بعث به في السنة ٦٩٤ الى لبنان فقتلوا رهبان دير مار مارون على العاصي وحلّوا في الكورة بين اميون والناووس ، وتدقق الجليليون عليهم من اعالي الجبال فقاتلوم حتى قتلوا اكثرهم<sup>٣</sup> . ولعل هذه الحوادث وقعت في اثناء السنة ٦٨٩ عندما قام يوستينانوس بيفذ شروط معاهدته مع عبد الملك لا في السنة ٦٩٤ كما تقدم . ففي السنة ٦٩٤ كان يوستينانوس في حروب جديدة مع عبد الملك دارت

*Theophanes, Chron., 363, 364.*

١

*Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches, 257 .*

٢

٣ تاريخ الطائفة المارونية ، للبطريك اسطفان الدويهي ، ( بيروت ، ١٨٩٠ ) ،

رحاها في آسية الصغرى وأسفرت عن أندحار كبير امام جيوش الامويين<sup>١</sup>.  
 وجمال يوستينانوس في السنة ٦٨٩ جولة حرية ضد القبائل البلغارية ،  
 وأردفها في السنة ٦٩٠ بحملة موقعة ضد الصقالبة في البلقان . وجمع عدداً  
 كبيراً من هؤلاء وجعل منهم فرقة كبيرة وانزلهم في منطقة الدردنيل  
 ليرابطوا فيها فيدفعوا العرب عنها في حرب مقبلة . وكان العرب قد  
 جعلوا من هذه المنطقة ، في اثناء هجومهم الاخير على القسطنطينية ، نقطة  
 ارتكاز لهم قبل عبورهم المياه لحصار عاصمة الروم .

حرب القراطيس والدنانير : وكان عبد الملك ابن مروان قد بدأ  
 ينظم امور الدولة الاموية . وكانت الدولة البيزنطية لا تزال تستورد  
 الورق من مصر . وكانت قد جرت عادة الاقباط على كتابة اسم المسيح  
 وعبارة التثليث في اعلى الطوامير . ورأى عبد الملك ابن مروان ان هذه  
 العبارة لا تتفق ومظهر الدولة الاسلامية ، فاستبدل اسم المسيح وعبارة  
 التثليث بالعبارة : « قل هو الله احد » . وكتب في صدور كتبه الى  
 الروم : قل هو الله احد ، وذكر النبي مع التاريخ . فكتب اليه يوستينانوس :  
 انكم قد احدثتم كذا كذا فاتركوه والا اتاكم في دنائيرنا من ذكر نبيكم  
 ما تكرهون . وكانت العملة السائدة في البلدان الاسلامية لا تزال دنائير رومية  
 ودرام فارسية . فغضب عبد الملك وخشي ما قد يحدثه تهديد الفيلسفس  
 من اثر سيء في نفوس المسلمين . فأشار نخالد ابن يزيد على عبد الملك  
 بالتمسك بما احدثه في القراطيس وقال : « يا أمير المؤمنين حرّم دنائيرهم  
 فلا يُتعامَل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة بما كرهوا  
 في الطوامير<sup>٢</sup> . » وسكّ عبد الملك دنائيره الاولى في السنة ٦٩٢ وأرسل

١ والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان احداً من المؤرخين لم يوفق  
 بعد الى ضبط اخبار الروم والعرب وتعيين تواريخها في هذه الفترة .

٢ كتاب الفتوح لبلقوي ، ص ٢٤٩ . والكامل لابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

المبلغ السنوي المفروض عليه للفيلس من هذه الدنانير الجديدة . فغضب  
يوستينيانوس لخلو هذه الدنانير من صور اباطرة الروم ولحملها عبارات  
لم تخلُ من التحدي : « ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .  
فرفض الفيلس قبول هذه الدنانير وتحرك بجيوشه الى الحدود العربية  
الاسلامية . واصطدم الجيشان في السنة ٦٩٣ بين سبسطية وسيواس  
Sebastopolia . واستعاض العرب المسلمون عن الاعلام بنسخة من المعاهدة  
بينهم وبين الروم رفعوها عالياً . وقاد يوستينيانوس جيشه بنفسه وكاد  
ينتصر في الجولة الاولى . ولكن العرب اتصلوا بعناصر الصقالبة من جيش  
الروم وأغروهم بالوعود فتحاثوا الروم وانضموا الى العرب . فدارت رحى  
الحرب على الروم وخسروا ارمينية . وفي السنة ٦٩٤ عاد محمد ابن مروان  
فغزا ، فبلغ انيولية ومرعش وملاطية . ودخل عثمان ابن الوصيد الى ارمينية  
فهزم الروم فيها واثخن فيهم بالقتل والاسر . وعاد العرب الى الصوائف  
في الحرب . وما انفكوا يبعثون بالصائفة كتبية بعد اخرى حتى غنموا  
مالاً كثيراً . واقتص يوستينيانوس من بقي من الصقالبة في آسية الصغرى ،  
فأصبح موضع كراهيتهم . وحبا عبد الملك من التجأ اليه منهم بالساكن  
في ثغور الشام وقبرص ، فنجحوا وأثروا اثراءً غريباً ، وغدا بنو جنهم  
في آسية الصغرى اداة لخدمة العرب المسلمين في اي نضال حربي ينشب  
بين هؤلاء وبين الروم . « واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء الصقالبة اذ  
كانوا على علم بدروب آسية الصغرى ومسالكها ، فقاموا بوظيفة الادلاء  
للجيوش الاسلامية . ولذا تابعت الجيوش الاموية انتصاراتها واغاراتها على  
مدن آسية الصغرى دون ان تلقى جهداً كبيراً » .

*Cedrenus, G., Historiarum Compendium, I, 772; Zonaras, XIV, 229-231; ١*

*Theophanes, Chron., 365-367.*

٢ الامويون والبيزنطيون ، للدكتور ابراهيم احمد الدوي ، ص ١٨٠ .

المجمع البنيكتي « الخامس السادس » : ( ٢٦٢ ) وقال كاتب البيذليون في مقدمة كلامه على هذا المجمع : « ان ابرز الرؤساء في المجمع البنيكتي Penthekto اي الخامس والسادس كانوا بولس القسطنطيني وباسيليوس اسقف غورتني في كريت واسقف واينة - وهما نائباً البابا الروماني - وبطرس الاسكندري وانسطاس الاوروثليمي وجاورجيوس الانطاكي . وقد التأم هذا المجمع بأمر ملوكي لا ليخص هرطقة خاصة ولا ليحدد ايماناً حتى يكون مجعاً خاصاً قائماً بنفسه ، بل ليكتب قوانين ضرورية تتعلق بجالة الكنيسة واصلاحها<sup>١</sup> . واشترك في اعمال المجمع ٢٢٧ او ٢٤٠ اسقفاً . وسنّ المجمع مئة قانون تتعلق بنظام الكنيسة داخلاً وخارجاً وبالحياة المسيحية ، ولا تزال هذه القوانين مرعية الاجراء الى يومنا هذا . منها ما يبحث في علاقات الشمامسة بالقساوسة وفي زواج هؤلاء واولئك ، ومنها ما يعين السن التي يجب ان يبلغها الاكليركي قبل سيامته ، ومنها ما يحرم الدين بالربا على رجال الدين والرشوة للوصول الى المناصب الكنائسية ، ومنها ما يتعلق بالكتب المقدسة وكيفية استعمالها والمحافظة عليها والتعليم بها ، ومنها ما يبحث في الرهبانية والاديار ، وفي الجمعيات السرية وعتق الرقيق ، وفي أمر اليهود ، ومنها ما يحرم التصاوير البذيئة والسحر والكهانة .

وأشهر هذه القوانين القانون السادس والثلاثون الذي نص على ما يلي : « اننا نجدد ما استرعه الآباء القديسون المئة والخمسون الذين اجتمعوا في هذه المدينة المحروسة من الله وما استرعه الآباء الست مئة والثلاثون الذين

١ وفي الآداب النرية *Quiniseclum* .

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانتفاق ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، هامش .

اجتمعوا في خلقيدونية ... فترسم ان يكون لكرسي القسطنطينية التقدم اسوة بتقدم كرسي رومة القديمة . وان يُعظم مثله في الامور الكنائسية ليكونه ثانياً بعده . وان يحسب بعدهما كرسي الاسكندرية المدينة العظيمة ، ويحسب بعده كرسي انطاكية ، وبعد هذا كرسي مدينة الاوروشليميين .»  
 وعُرضت اعمال هذا المجمع على البابا مرجيوس ( ٦٨٧ - ٧٠١ ) ليوقعها بعد الفيلسوف فأبى محتجاً ببعض محتوياتها كتحرير الصوم ايام السبت والاذن للكهنة بالزواج . فأراد يوستينانوس ان يكرهه على ذلك ولكن جيشه في ايطاليا وقف الى جانب البابا .

خلع يوستينانوس : . واستنزفت حروب يوستينانوس كل ما في الخزينة . وبرغم هذا فإن الفيلسوف الذي كان يحذو حذو ميمه يوستينانوس الكبير اراد ان يقوم هو ايضاً باناشآت تخلد اسمه ، فاضطر وزيراه ثيودوتوس واسطفانوس الحصي ان يجمعا الاموال عن طريق الاعتصاب . وبما يروى عن ثيودوتوس انه كان يعلّق الذين يمتنعون من دفع الضرائب بالحبال فوق دخان النار . وبينما كان وزيراه يجران عليه كراهية الطبقات الشعبية كان هو يجر على نفسه كراهية رجال الكنيسة والجيش . ففي السنة ٦٩٤ طلب ان تهدم كنيسة في القسطنطينية ليقيم في مكانها بناية له . فكلف البطريرك المسكوني ان يصلي على الكنيسة قبل هدمها . فأجابه البطريرك : « أما لاجل بناء كنيسة فعندنا افشين ولكن لاجل هدم كنيسة فليس لنا ما نقول . » فأجبره الفيلسوف ان يصلي للهدم بالقوة . فوقف البطريرك ودموعه تسيل وصلى قائلاً : « المجد لله الطويل الأناة كل حين وكل اوانٍ والى دهر الدهارين . »

*Gorres, F., Justinian II und das Romische Papsttum, (Byz. Zeit., 1908), ١*

440-450.

وبعد الذي اصاب به يوستينانوس من مس في الحرب العربية بدأ يقتل ضباطه ويحبسهم ويستأصل ساقته جنوده المهزومين حتى اصبح العمل في القيادة العليا لجيشه يشبه في خطره التعيين لمنصب القائد الاعلى في اثناء اوهاب روبسيار ابان الثورة الافرنسية<sup>١</sup>.

وفي السنة التالية ( ٦٩٥ ) عين يوستينانوس لاونديوس قائداً اعلى . فخشي لاونديوس سوء العاقبة وأعتقد ان ايامه اصبحت معدودة . فنصح له واهب اسمه بولس ان يضرب ضربة جريئة لان الشعب والجيش يسرون وراؤه . فهاجم لاونديوس السجن وحرر عدداً كبيراً من السجناء السياسيين فانضمت اليه العامة ، فنادى بهم : « النصارى في كنيسة الحكمة » ، واذاع في البلد ان حياة البطريك في خطر . فاجتمع الشعب في باحة الكنيسة العظمى . وجاءهم البطريك فبارك عملهم قائلاً : « هذا هو اليوم الذي صنعه الله » . وسار لاونديوس الى القصر وقبض على يوستينانوس ووزيره . فجدع انف الفيلسوف وسلم الوزيرين الى الجماهير . فطافوا بها وحرقوهما . ثم نفى لاونديوس الفيلسوف الاشرم الى الحرسون في القرم . ونادى الزرق بلاونديوس فيلسافاً وتوجه البطريك<sup>٢</sup>.

الفوضى : ( ٦٩٥ - ٧١٧ ) وانهزم العرب المسلمون في تهودة كما ان اشرنا وانسحبوا من ولاية افريقية . وكان ما كان من امر الانقسامات الداخلية بينهم ونشوب الثورات على الامويين في الحجاز وفي العراق وغيرها ، فاستطاع الروم ان يستعيدوا ما كان لهم من نفوذ وسلطة في افريقية . وجيز عبد الملك ابن مروان في السنة ٦٨٨ جيشاً كبيراً أتر عليه زهير ابن قيس وبعثه لاسترداد افريقية وذلك رغم انشغاله بثورة

١ واللفظ في معظه للدكتور مصطفي طه بدر في كتابه الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣٨ .

Brooks, E. W., op. cit., Cam. Med. Hist., II, 408-410.

عبدالله ابر الزبير . وكتب النصر لزهير قهر كسيلة في ممس . ثم توغل في البلاد يخضع قبائل البربر الموالية للروم . وترك الروم المسلمين يطليون خطوط تموينهم . ثم انزلوا قوة كبيرة في برقة لتعمل في مؤخرة زهير او لتفاجئه وهو في طريق العودة الى مصر . ونشبت موقعة في برقة (٦٨٩) خرف فيها زهير صريعاً وانهمز العرب المسلمون . وفي السنة ٦٩٥ أعد الخليفة الاموي جيشاً آخر وأمر عليه حسان ابن النعمان . فسار حسان الى القيروان وقام منها الى قرطاج اعظم مدن الروم وامنعها . ووقع بهم هزيمة شعاء . واستولى على قرطاج في صيف السنة ٦٩٧ . فانسحب منها الروم الى صقلية . ثم عادوا الى قرطاج في خريف السنة نفسها بقيادة البطريق يوحنا فدخلوها عنوة . واعاد العرب الكرة عليها في صيف السنة ٦٩٨ مستعينين هذه المرة بقوة بحرية كبيرة فدخلوها آميناً<sup>١</sup> .

ونجا القسم الأكبر من جيش افريقية . وأبجر الضباط الى القسطنطينية . ودبروا في اثناء رحلتهم مؤامرة لخلع لاونديوس . واشركوا معهم في هذه المؤامرة طيباريوس عبسيروس درونغايريوس الاسطول ابي نائب القائد<sup>٢</sup> . ولدى انضمامه اليهم باسطول بحر ايجه نادوا به فيلسافاً . فاستولى على العاصمة متخذاً اسماً له طيباريوس الثالث ، وجدع انف لاونديوس وحبسه في احد الاديرة (٦٩٨ - ٧٠٥) . ووفق طيباريوس في خروبه ضد العرب واسترد مناطق الحدود التي كان قد فقدتها يوستينيانوس ولاونديوس وغزا

*Becker, K., Exp. of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 369-370.*

والفضل ما صنف بالعربية في فتح المغرب كتاب الاستاذ حين مؤلف « فتح العرب للمغرب » ( ١٩٤٧ ) ، ولصول الدكتور ابراهيم احمد المدوي في كتابه « الامويون والبيزنطيون » .

*Tiberius Apsinarns-drungarius.*

سورية الشمالية . « ولكن الاهالي والجيش كانوا قد اصبحوا لا يخضعون لسيطرة احد وكان الفيلس لا يستطيع ان يعتمد على احد وبات ادنى هزة كافية لقلب عرشه المتداعي » .

وفرت يوستينانوس الثاني من منفاه . ورسا مركبه في مياه البلغار . وكان تريبيل ملك البلغار يبحث عن حجة يتذرع بها لغزو الروم ، فلما استنصره يوستينانوس زحف تريبيل بجيشه على القسطنطينية . وكان سكان العاصمة آمنين لزوال حكم هرقل وخلفائه . فساد يوستينانوس الى العرش الذي خلع عنه ( ٧٠٥ ) . « وكان قد عول الأ يفعل شيئاً الا ان يثار لائقه المتور » . فأرسل في طلب لاونديوس وطيباريوس وشدهما بالحبال جنباً الى جنب ووضعهما على الارض امام عرشه في الملعب وجلس واتخذ جسيهما موطئاً لقدميه . ثم قطع رأسهما . واعدم عدداً من كبار الضباط ورجال البلاط وسمل عيني البطريك ووضع كثيرين من وجهاء القسطنطينية في اكياس ثم اغرقهم في البوسفور .

وفي السنة ٧١١ ثار عليه فيليبكوس البرداني فدخل العاصمة بينما كان يوستينانوس في سينوب . ثم قتل يوستينانوس وقتل ابنه طيباريوس من زوجته ثيودورة الحزيرة . وبذلك انتهى امر الهرقلين بعد ما حكموا مئة سنة وسنة . ولكن فيليبكوس هذا لم يكن سوى رجل لهو ولذة . ففضى وقته ( ٧١١ ٧١٣ ) منصرفاً الى المتع . ولما كان من اصحاب المشيئة الواحدة فقد عزل البطريك كيروس الى دير واقام يوحنا السادس بطريكاً محله . ثم عقد جمعاً محلياً في السنة ٧١٢ اجبر فيه الفيلس والبطريك الجديد اساقفته ان يحرقوا اعمال المجمع السادس . حتى اذا كانت السنة ٧١٣ اتفق قائدان من قادة الجيش فعزلا

فيلبيكوس . وأقام الشعب رئيس كتاب القصر ارتامنيوس فيلسافاً بام  
انسطاسيوس الثاني ، فضبط زمام الملك وعزل البطريك يوحنا السادس  
وأقام جرمانوس بطريكاً عوضه . وعقد الفيلسفس والبطريك الجديد  
جمعاً محلياً أيد قرارات المجمع السادس ( ٧١٥ ) . ولكن في السنة ٧١٦  
تمرد الجند واعلنوا خلعه ، ونادوا بشيودوسيوس الثالث فيلسافاً . فاستغنى  
انسطاسيوس وأقام راهباً في دير .

حصار القسطنطينية : ( ٧١٧ - ٧١٨ ) وكان البلغاريون والمسلمون  
في اثناء هذا كله يفزون ولايات الحدود كل من صوبه . وكانت غاراتهم  
تزداد حدة وتوغلاً . فسقطت تيانة في يد العرب المسلمين في السنة ٧١٥  
وأماسية في السنة ٧١٢ وانطاكية البسيديية في السنة ٧١٣ . وتوغل  
العرب في السنة ٧١٦ في فريجية وحاصروا عمورية . وباتوا لا ينتظرون الا  
النصر . ولكن الروم كانوا قد انجبوا لاون الاسوري رجل الساعة الذي  
تبوأ العرش برضى ثيودوسيوس الثالث وموافقة البطريك ومجلس الشيوخ  
ورجال البلاط .

وكان قد تولى الخلافة في دمشق سليمان ابن عبد الملك ( ٧١٥ - ٧١٧ ) ،  
وكان سليمان يحسب انه هو المقصود بالحديث القائل ان خليفة يحمل اسم  
نبي سيفتح القسطنطينية . فأعد اسطولاً كبيراً وجيشاً عظيماً وأسند القيادة  
في البر لاخيه مسلمة ، وفي البحر لوزيره سليمان . فقام مسلمة من طرسوس  
الى الدردنيل والتقى في ابيدوس بسليمان وعمارته . وكان لاوون قد حشد  
كل ما لديه في العاصمة للدفاع . فقطع الجيش العربي الدردنيل وزحف  
على القسطنطينية وحاصرها براً . وقامت العارة العربية بالعمل نفسه من

١ اطلب التفاصيل في كتاب الدكتور ابراهم احد العدي « الامويون والبيزنطيون »

س ١٨١ - ١٨٢ .

البحر . وحاول سليمان ان يسد طريق البحر الشمالية فانبرت لصدّه بوارج الروم فأنزلت بمراكبه ضرراً كبيراً . وبقي منفذ القسطنطينية الشمالي مفتوحاً للعدد من البحر الاسود . واعتمد مسلمة على تجويع المدينة اكثر من اعتماده على مهاجمتها جيبياً . ولكن لاوون كان قد حسب لهذا المخدور حسابه فأمر كل أسرة بان تحتزن مؤونة سنتين . أما مسلمة فانه لم يحسب الحساب لشتاء قارس يدهمه ، فجاه شتاء السنة ٧١٧ - ٧١٨ بثلج دام ثلاثة اشهر . فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار . وبين من لقوا حتفهم الوزير سليمان . وفي ربيع السنة ٧١٨ وصل اسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرسوس . واحتل هذا الجيش شاطئ البوسفور الآسيوي ورما الاسطول في مياهه . فقتلت سفن النار الرومية الى مرمى الاسطول المصري فأحرقته . ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغته ومزقته إرباً . وبدأت الجماعة المهاجم صفوف مسلمة . ثم فاجاه البلغار يون من الورا فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً . فترجع عن عاصمة الروم بعد ان فقد معظم جيشه . وتعرض الباقي من عمارته لعاصفة في بحر ايجه قلم بعد الى شواطئ الشام سوى خمس سفن فقط .

Canard, M., *Expéditions Arabes, Journal Asiatique, 1929, 102-80* ;

*Theophanes, Chron., 395-399.*

الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٤٦ .

## الفصل السابع عشر

### تطور وتغيير

الارض والسكان : وكان من جراء حروب القرن السابع ان تقلص ظل الروم عن قسم من ارمينية وعن الجزيرة والشام ومصر وافريقية . وفقد الروم معظم البلدان التي فتحها يوستينانوس في الغرب وتراجعوا عن خط الدانوب الى الجبال بين ميسية وتراقية . فنقصت امبراطوريتهم نصفها .

وكان الآفار والصقالبة قد بدأوا منذ اواخر القرن السادس يعبرون الدانوب فيعيشون فساداً في إيليرية وتراقية . فلما حلت الفوضى في عهد فوقاس ونشبت حروب هرقل الطاحنة في آسية تعددت هجمات هؤلاء البرابرة واصبحت الى هجرة شاملة اقرب منها الى غزير . واضطر الروم ان يدعنوا للواقع في بعض الاحيان فيعترفوا لبعض هذه القبائل كالكرواين والسرب بكيان خاص في داخل حدودهم . ولئن وفقوا في بعض الاحيان الى رد القبائل الزاحفة عبر الدانوب فإنهم لم يستطيعوا المحافظة على هذا الحد دائماً ، فكانت تعود القبائل فتسلل جماعات في الخفية وبالتدريج فتستقر داخل الحدود حيث تسع لهما بذلك الظروف . ومن هؤلاء الصقالبة .

ويستدل من بعض المراجع الاولية ان قبائل الكروات والصرب عبروا الدانوب في الربع الاول من القرن السابع ، واحتلوا بالقوة جميع ايليرية حتى شاطيء الادرياتيـك ، وان هرقل اعترف بوجودهم في هذه الاراضي لقاء معونة يقدمونها له ضد الآفار شرط ان يتقبلوا النصرانية<sup>١</sup> . وفرّ سكان البلاد امام تلك القبائل . فالتجأ ابناء سالونة الى حصن ديوقليتيانوس واسسوا مدينة اسبالاتو . ونزح ابناء ابيدورة فأقاموا في منطقة راغوزة . وفرّ غيرهم الى كاتارو والى جزر الشاطيء الى برازا ولاسينة وغيرهما<sup>٢</sup> . وهكذا لم يشرف القرن السادس على اواخره حتى كانت جماعات من الصقالبة قد استقرت في ميسية السفلى بين الدانوب وجبال الهاموس . وفي عهد فوقاس وهرقل سارت جماعات اخرى من الصقالبة في موكب الآفار فنزلت بنسائها واطفالها وجميع ما ملكت ايمانها في مقدونية وتراقية وغشيت الأرياف بكاملها<sup>٣</sup> . وبما جاء في اعمال القديس ديمتريوس ان الصقالبة في السنوات ٦١٧ - ٦١٩ ركبوا البحر في قوارب نقرت في جذوع الشجر ففتكوا بسكان ثسالية وآحية وايبيروسة وبعض آسية . وانتشروا في جميع جزر الارخبيل . وجاء أيضاً انهم في السنة ٦٢٣ بلغوا الى جزيرة اقريطش فقتلوا وسبوا وان الذعر شمل الجبناء والشجعان على حد سواء . فأيقن الجميع ان ليس امامهم الا الموت او عذاب الاسر<sup>٤</sup> . وبقيت هذه القبائل طوال القرن السابع تغزو في البر والبحر ولا يقر

*Constantius Porphyrogentius, Administrando Imperio, 143-144, 150, ١ 159, 162.*

*Sisc, Gesch. der Kroaten ; Jirecek, Gesch. der Serben ; Niderle, Manuel ٢ de l'Antiquité Slave.*

*Patrologia Graeca, Vol. 116, p. 1325.*

٣

*Ed. Tougard, 119-135.*

٤

لها قرار . وسعت حكومة العاصمة بما لديها من وسائل لاختضاع هذه القبائل ولكن دون جدوى . وفي السنة ٦٥٧ جرّد قسطنطين الثالث حملة عسكرية عليهم فهزمهم واشتق لنفسه طريقاً الى نيسالونيكية وارغمهم ان يخلدوا الى السكينة . ولكنهم عادوا الى سابق نزعاتهم فحاصروا هذه المدينة نفسها ما بين السنة ٦٧٧ والسنة ٦٨٠ . فقاد يوستينيانوس الثاني في السنة ٦٨٩ حملة اخرى عليهم واخضعهم ونقل منهم ثلاثين الفا الى شاطيء الدردنيل الآسيوي<sup>١</sup> .

وفي اواخر القرن السابع تدفق البلغار عبر الدانوب واستوطنوا . والبلغار من الشعوب الطورانية ابناء عم الهون والاتراك . وكانوا من قبل يعبرون الدانوب غزاة مغيّرين ولكنهم لا يلبثون ان ينقلبوا الى ما ورائه . وكان هرقل قد استعان بهم بين السنة ٦٣٥ والسنة ٦٤١ ضد الآفار منعماً على زعيمهم بلقب بطريق مقدماً له الهدايا . الا ان الحزب في السنة ٦٧٩ اضطروا هؤلاء البلغار ان يجاؤا عن اراضيهم في ما وراء الدانوب . فتدفقوا عبر هذا النهر بقيادة خاقانهم أسبروخ واحتلوا ما تلخم النهر من الاراضي حتى جبال البلقان . ثم أكره قسطنطين الرابع ان يعترف بالواقع وان يسترضيهم بمالٍ محدد يدفعه كل سنة . فنشأت دولة بلغارية قتيبة تمكنت من الاندماج بوعاها الصقالبة . فتقبلت لغتهم وتقاليدهم . ووحدت كلمتهم . فأصبحت خطراً كامناً على دولة الروم<sup>٢</sup> .

الادارة : وأدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في القرن السابع الى تغيير اساسي في اساليب ادارة الولايات . وكانت القاعدة الاساسية المتبعة في تنظيم ادارة الولايات منذ عهد قسطنطين الكبير توجب الفصل بين

*Diehl et Marçais, Monde Oriental, 212-218.*

١

*Runciman, S., The First Bulgarian Empire, London, 1930.*

٢

السلطين العسكرية والمدنية في ولايات الدولة وذلك خوفاً من تمرد الولاة او قادة الجيش على السلطة المركزية . لكن: هذه القاعدة انقلبت عند نهاية القرن السابع رأساً على عقب اذ لجأ الاباطرة الى دمج السلطين في يد قائد عسكري في كل ولاية . فصوّلت الولايات الى ثبات او بنود كما اسمها العرب<sup>١</sup> .

وكان بوستيانوس الكبير قد لجأ الى مثل هذه الحطة في ادارة ولايتي قرطاج ورايينة وذلك لتكرّر هجمات الومباردين في ايطاليا والمور في افريقية . فأنشأ وظيفة الاكسرخوس وجعله قائداً عسكرياً وحاكماً مدنياً في آن واحد . الا ان العلامة الالماني الدكتور ارنست اشتاين يرى ان هرقل درس عن كذب نظام الحكم عند اعدائه الالاء الاكسرة فأخذ عنهم دمج السلطين العسكرية والادارية في يد قائد عسكري يقوم على رأس جيشه في منطقة معينة ، فكان ان انشأ نظام الثيمات<sup>٢</sup> . ويرى غيره من رجال الاختصاص ان هذا النظام الجديد لم يعمم دفعة واحدة بل نشأ بالتدريج في ارمينية اولاً ثم في سائر آسية الصغرى فاوروبه<sup>٣</sup> . والواقع الذي لا سبيل فيه الى جدال هو ان آسية الصغرى عند نهاية القرن السابع كانت قد قسمت الى اربع ثيمات او بنود : (١) ثيمة

١ والبند لفظ فارسي معرب منناه العلم الكبير . وقال السعدي في كتابه التثية والاشراف : ارض الروم واسعة في الطول والعرض مقسومة من قديم الزمن على اربعة عشر قسماً اعمال مفردة تسمى البنود كما يقال اجناد الشام ، س ١٥٠ . ومن عن هذه الناحية من كتاب العرب ابن خرداذبه المتوفى سنة ٩١٢ ميلادية في كتابه المسالك والممالك الذي طبع في ليدن سنة ١٨٨٩ ، وقدامة في كتابه الخراج ، وهو من اعيان الصنف الاول من القرن العاشر .

٢ Stein, E., *Byzantinisch-Neugriechische Jahrbucher*, I, (1920), 84-85

٣ Kulakovskiy, J., *Byzantium*, III, 287-431 ; Bréhier, L., *Journal des Savants*, XV, 412-505.

ارمينية في شمالي شرقي آسية الصغرى ، (٢) ثيمة اناطوليكة<sup>١</sup> ، (٣) ثيمة الابسيق (اوبسيكيون) عند بحر مرمر ، (٤) ثيمة القبروت وكانت هذه تضم شاطئ آسية الصغرى الجنوبي والجزر المجاورة له وذلك للصدور في وجه الاسطول العربي . وكان قد نشأ ايضاً نظام مماثل في اوروبة فظهرت ثيمة تراقية لدرء خطر الصقالبة وثيمة هيلاس للفرص نفسه في بلاد اليونان وثيمة في صقلية للدفاع ضد العرب<sup>٢</sup> .

والاساس في نظام الثيمة كان فيما يظهر اقامة جيش دائم في منطقة معينة يسهر على الدفاع عنها . ويُقطعُ ضباطه وجنوده اراضي معينة في المنطقة نفسها يستثمرونها . وتمتاز هذه العناصر العسكرية بسكان المنطقة فثبت فيهم روح الشجاعة والجرأة وتدريبهم على حمل السلاح والقتال<sup>٣</sup> .

وتمه ما يدل على ان هرقل لم يحمل التشريع . فهناك قوانين اربعة منها في الفترة بين السنة ٦١٢ والسنة ٦٢٩ عني فيها ببعض مشاكل الاكليروس . وتوجد كذلك بقايا شرائع منها هذا الفيلسوس للحد من تزوير النقود والاختام والوثائق الرسمية . وقد كان لهذه الشرائع فيما يظهر اثر في ما شرعه الامان في الغرب والعرب في الشرق في هذا الموضوع نفسه .

الدولة تصح هلينية : وكانت الدولة منذ تأسيسها قد اصطبغت بطابع شرقي في مفهومها للسلطة والحكم وفي نظامها الرتي وتسلسل

١ من اللفظ اليوناني اناطولي ، ومنه اللفظ العربي التركي : الاناضول .

٢ *Constantinus Porphyrogenitus, De Thematibus, Corp. Script. Hist. Byzant. ed. Bekker, 1840.*

٣ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 223.*

٤ *Lopez. R., Byzantine Law in the Seventh Cent. and its Reception by Germans and Arabs, Byzantion, XVI, (1944), 445-461.*

الصلاحيات وفي التشريعات وتعظيم الامبراطور وما الى ذلك . وجاءَ القرن الخامس فتفككت عرى الدولة في الغرب ولم يبقَ منها صامداً سوى ولايتها الشرقية . وبرغم نجاح يوستينانوس في ايطالية وافريقية واسبانية ، فان الربط الذي اعاد احكامه بين الشرق والغرب لم يثبت طويلاً . وجاءَ القرن السابع فانفصلت اسبانية وأصبحت افريقية مهددة ، واضطربت ايطالية وسلخ العرب مصر والشام والجزيرة . واحتلّ الصقالبة والبلغار جزءاً كبيراً من البلقان . فأصبح العنصر اليوناني هو العنصر السائد في الدولة ، وأصبحت آسية الصغرى قلب الدولة ومركز الثقل فيها . قهلت الدولة وبقيت يونانية حتى آخر عهدها .

اللاتينية تتوارى فتزول : وكانت اللغة اللاتينية لا تزال في عهد يوستينانوس الكبير لغة الدولة الرسمية ولغة التشريع والادارتين المدنية والعسكرية . وحتى اوائل القرن السابع كان الامبراطور لا يزال ينادى بالقباه اللاتينية القديمة « التقى السعيد الدائم العظيم » . غير ان انتصار هرقل على الفرس جعله يزيد على القابه بصورة رسمية اللقب اليوناني « الفيلسوف » . وكان هذا اللقب شائعاً من قبل ولكن بصفة رسمية<sup>٢</sup> . وكانت اللاتينية لغة الامر الحاكمة . بقيت وكذلك حتى انقطاع اسرة يوستينانوس . فأما الامر التي عقبها فانها كانت اسوية كأسرة طيباريوس وموريقيوس وهرقل . ولذا رأينا البابا غريغوريوس العظيم ( ٥٩٠ - ٦٠٤ ) يتذمر لأنعدام وجود الترجمة الاكفاء الذين يجيدون اللاتينية في العاصمة البيزنطية<sup>٣</sup> . ولنا في التشريع شاهد آخر على صحة ما نقول . فأن يوستينانوس الكبير

*Pius, Felix, Perpetuus, Augustus.*

١

*Lingenthal, Z., Jus Graeco-Romanorum, III, 46.*

٢

*Grégorii, Epist., VII, 27.*

٣

الذي تكلم اللاتينية واشتدع بها وجد نفسه مضطراً ان يأذن باستعمال اللغة اليونانية في بعض القوانين التي أصدرها وان يفض النظر عن ظهور بعض الشروح باليونانية . حتى اذا اقبل القرن السابع أصبح التشريع كله باللغة اليونانية فقط .

ونفس التطور نفسه في لغة الادارة . فان يوحنا ليدوس الذي عاصر بوستينيانوس يفيد ان ترقية في سلك الوظائف المدنية يرجع الفضل فيه قبل كل شيء الى المامه باللاتينية هذه اللغة النادرة<sup>٢</sup>.

وتطورت اسماء الوظائف فأصبح معظمها في القرن السابع يونانياً ، وما بقي منها لاتينياً لحق به التحوير فاتخذ شكلاً يونانياً . وحتى عهد هرقل كانت اللاتينية لغة الجيش الوحيدة . وكان معظم كبار الضباط يتكلمون اللاتينية وهم من ابناء الولايات الاوروبية ويحملون اسماء لاتينية<sup>٣</sup>. واما في ايام هرقل فان رجال الجيش أصبح معظمهم آسيويين من ارمينية وسائر الولايات الآسيوية واصبحت لغة الجيش اليونانية . واذا كان الروم قد لبثوا يرددون بعض العبارات اللاتينية حتى القرن العاشر فانهم قليلاً ما كانوا يفقهون شيئاً مما يلفظون<sup>٤</sup>.

تزايد نفوذ الكنيسة : وتم اندحار الوثنية في القرن السادس واكتمل انتصار النصرانية . ولكن النصارى كانوا لا يزالون منقسمين شطرين رئيسين : ارثوذكسيين كاثوليكين ، ومونوفيسيين . وكان هم الاباطرة الاكبر ان يوفقوا الى ايجاد حل يجمع الشمل ويوحد الكلمة . فجاءت

*Novelles, 7,1.*

١

*Johannes Lydus, De Magistr., III, 68.*

٢

*Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 172-173 ; Aussaresses, L'Armée byz., ٨٢-٨٣ .*

*Bury, J. B., op. cit., II, 176 .*

٤

حروب الفتح العربي فسُلخت عن جسم الدولة كل من قال بالطبيعة الواحدة فأصبحت الدولة البيزنطية ارثوذكسية كاثوليكية موحدة . وأصبح الفيلسوف حراً طلقاً يقول بعقيدة يجمع عليها رعاياه ، وينتحل نحلة دينية لا يختلف فيها من رعاياه اثنان ، فيقسم عند تقبله التاج من يد بطريك العاصمة : « انه سيكون ابن الكنيسة البار وخادمها الامين » ، وانه سيرعاها بعنايته ويدافع عنها جهده ، ويحترم امتيازاتها وتقاليدها ، فيحرم كل ما تحرمه ، ويؤيد كل ما أقرته بجامعها<sup>١</sup>.

وتزايد نفوذ الكنيسة في الاوساط الشعبية ، فبهرت عظمة طقوسها العقول ، وحرّك وعظها الافئدة والصدور ، وتعلق الشعب برهبانها وعقد على صلواتهم ونضراتهم الآمال بالسعادة والنجاح . فأقبل الناس على التهب زرافات زرافات ، ورأوا في ارتداء الثوب افضل السبل الى خلاص النفس . وتعددت الاديرة فحوت منها العاصمة وحدها عدداً عظيماً<sup>٢</sup>.

وبسقوط الاسكندرية وانطاكية واوروشليم في يد العرب أصبح بطريك القسطنطينية زعيم الكنيسة الاوحد في الشرق . وكان بطريك القسطنطينية قد أصبح بطريكاً مسكونياً منذ السنة ٥٨٢ بقرار من مجمع محلي عقد في القسطنطينية للنظر في خصومة نشبت بين غريغوريوس بطريك انطاكية واستيريوس والي الشرق . وقد نشأ عن هذا القرار جدل عنيف بين حامل هذا اللقب يوحنا الصوام وغريغوريوس الذيالوغوس بابا رومة<sup>٣</sup>. وبطبيعة الحال أيد الفيلسوف بطريك عاصمته فبذرت بذور الشقاق والانفصال بين فرعي الكنيسة الام . وقضت ظروف سبقت اليها

*Codinus, Officis, ed. Bonn, 86-87.* ١

*Martin, E., Les Moines des Constantinople, ( Paris, 1896 ).* ٢

٣ ومن القابه ، ايضاً ، الاول والكبير . راجع تفاصيل هذا الجدل ، وتاريخ هذا القاب ، في تاريخ الانشقاق ، لجراسيموس متروبوليت بيروت ، ج ١ ، ص ٣١٢ - ٣٣٠ .

الإشارة بان يهاجم ضباط الجيش الامبراطوري القصر الباباوي سنة ٦٣٩ وان ينهبوا كنوزه . وفصل قسطنطين الثالث في السنة ٦٥٩ كنيسة رايبنة عن كنيسة رومة . وفي السنة ٦٥٣ اوقف اكسرنخوس رايبنة البابا مرتينوس وارسله الى القسطنطينية ، فتركت هذه الاعمال كلها اثراً سيئاً في نفوس ابناء رومة وغيرهم . وبما زاد في التباعد بين الفرعين الرئيسين للكنيسة الأم أن اللغة اليونانية في رومة قلّ تداولها وتفهمها بقدر ما قلّ تداول اللاتينية وتفهمها في القسطنطينية<sup>١</sup> . وبرغم الاتفاق الذي ساد جو المجمع المسكوني السادس المنعقد في السنة ٦٨٠ فان شيئاً كثيراً من الحذر وقلة الثقة بقي كامناً في الصدور . ثم جاء المجمع البنثيكتي في السنة ٦٩٢ فأكد مرة ثانية بان يكون لكرسي القسطنطينية التقدم « اسوة » بتقديم كرسي رومة القديمة<sup>٢</sup> . فلم يكن ذلك بما ارتاحت اليه النفوس في رومة الارتياع كله . وأدى تعاطف امر الرهبانية في الدولة الى زيادة كبيرة في عدد الرهبان وبالتالي الى نقص في دخل الخزينة ، لأن القانون أعفى الرهبان من دفع الضرائب ، كما منع جبايتها عن الاوقاف الدينية . وتوافرت ثروة الرهبانيات فقوي نفوذها ، وأصبحت عنصراً سياسياً هاماً يتدخل في أحيان فيعرقل سير السياسة ويعقد مشاكلها . ومن جراء الانسياق غير الواعي في موجة من التبعد الشديد ، ساد النفوس ضرب من القدرة الباعثة أفضل بدورها الى فقدان النشاط والعزم والحزم وروح المبادرة ، ولا سيما ازاء الحوادث الكبرى<sup>٣</sup> .

*Gregorii Magni Epistolae, VII, 29: XI, 74.*

١ القانون السادس والثلاثون .

٢ *Paparrigopoulo, K., Civilisation Hellenique, 184 : Diehl et Marçais, ٣ Monde Oriental, 228-231.*

## الفصل الثامن عشر

### الآداب والعلوم والفن في القرن السابع

وهو أشد القرون عمقاً في تاريخ الفكر البيزنطي . ولعل السبب في ذلك هول الاخطار التي احدثت بالدولة وتتابع الحروب الطاحنة التي استنفدت جهودها فشغلت ابناءها عن العمل في حقل الفكر والفن .

وافضل ما تبقى من آثار هذا القرن في التاريخ والآداب شعر جاورجيوس البسيدي شماس كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية . عاصر هذا الشماس هرقل ونظم في حروبه الفارسية وفي حصار القسطنطينية سنة ٦٢٦ قصائد خاصة بقيت موضع اعجاب الروم زمناً طويلاً . ورجال الاختصاص يجمعون اليوم على ان جرجس البسيدي افضل من نظم عند الروم في المواضيع الزمنية غير الدينية<sup>١</sup> .

وقد عاصر هرقل مؤرخ آخر هو يوحنا الانطاكي فكتب تاريخاً عاماً منذ آدم حتى آخر ايام فوقاس ( ٦١٠ ) . ويرى فريق ان ما ينسب اليه هو في الحقيقة نتاج قلم يوحنا ملاس الانطاكي . على انه قول ضعيف لان ملاس كتب بوصفه انطاكيًا ينظر الى تاريخ العالم من نافذة انطاكية دون سواها . اما يوحنا الذي نحن بصدده فإنه ينظر الى الحوادث العالمية

*Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Litt., 709.*

بوصفه رجلاً عالمياً لا انطاكياً فقط ، وهو اشد حذقاً في تناول مراجعه وتقديرها من يوحنا ملالاس . وفي عصر هرقل ايضاً نشأ اكليريكي مجهول فدّون خرونيقون الفصح Chronicon Paschale وذكر حوادث العالم ايضاً منذ آدم حتى السنة ٦٢٩ . ولهذا الخرونيقون اهميته لان صاحبه يذكر فيه مراجع زملائه المؤرخين ويدّون بعض ما شاهد أو عاصر من الاحداث والاشياء .

والجدل العنيف الذي نشب في القرن السابع حول المشيئة الواحدة نشط التأليف في هذا القرن . على ان ما صُنف في تأييد القول بالمشيئة الواحدة قد اهل ففقد بعد انتصار القول بالمشيئين . ولا سبيل الى تعرف من كتب في المشيئة الواحدة الا بطريق من كتبوا يدّون على هذا القول . وأشهر اصحاب الرد على القول بالمشيئة الواحدة مكسيوس المعترف . وهو قسطنطيني الموطن ، شريف النسب ، فيلسوف ولاهوتي مرموق . كان في اول امره كاتب سر لهرقل الفيلسفس . فلما قال الفيلسفس بالمشيئة الواحدة خرج مكسيوس من البلاط الملكي واعتزل في دير في خريسوبولي ( اسكي دار ) ، ثم صار رئيساً لهذا الدير . ومن هنا التعبير الغربي Maxime l'Abbé . وقد دافع عن القول بالمشيئين والفعالين ، وكتب الكتب متأثراً بمؤلفات اثناسيوس الكبير ، وغريغوريوس النزيمازي وغيرهما . وكان عهد قسطنطين الثالث فأمره ان يكف عن الخطابة والكتابة فأبى . فأمر الفيلسفس بقطع لسانه ويده اليمنى . ثم نفاه الى لازقة ، فتوفي في المنفى في السنة ٦٦٢ ، وأعلن في القديسين . ولا يزال الارثوذكسيون ، حتى يومنا هذا ، يقولون : « لئتمدحنّ حق الامتداح مكسيوس العظيم ، عاشق الثالوث ، الذي حكم بصراحة للايمان الالهي بان يبعد المسيح بطبيعتين ومشيئين وفعالين . ولنهتفنّ قائلين : السلام عليك يا كاروز الايمان . » ويرى بعض رجال الاختصاص ان مكسيوس المعترف جمع في

رسائله ومؤلفاته بين التصوف النظري الذي وضعه ذيونيسيوس الآريوباغوسي وبين مشاكل الرهبانية العملية ، فاستحق بذلك ان يدعى مؤسس التصوف البيزنطي<sup>١</sup>.

واتصلت آراء مكسيموس بالغرب فتأثر بها عدد من رجال اللاهوت . وفي طليعة هؤلاء يوحنا الارييجيني Johannes Scotus Eriugena من اعيان القرن التاسع . وكان يوحنا هذا قد عشق مؤلفات ذيونيسيوس الآريوباغوسي فاعترف انه لولا مصنفات مكسيموس « الفيلسوف الالهي الكلي الحكمة » لما تمكن من فهم ذيونيسيوس<sup>٢</sup>.

وعني صفرونيوس بطريك المدينة المقدسة الذي عانى متاعب حصارها من قبل العرب باخبار القديسين ، فكتب مطولاً في سيرة القديسين المصريين كيروس ويوحنا ، فأتحفنا بفذلكات مفيدة من جغرافية واجتماعية . وبما ينسب اليه انه هذب صلاة الشكر المسائي : الافشين « يا نوراً بهياً » . ومن اعيان هذا القرن أيضاً لاونديوس اسقف نياوليس في قبرص . ألف في سير القديسين ولاسيا سيرة يوحنا الرحوم بطريك الاسكندرية فأقادنا لانه اهتم في كتابته لناحيتي الاقتصاد والاجتماع . ويختلف لاونديوس عن معظم من أَلَّف في أخبار القديسين انه كتب متأثراً باللهجة اليونانية الدارجة في عصره ، اذ جعل هدفه ارشاد العامة قبل الخاصة<sup>٣</sup>.

وبمن اشتهر في هذا القرن ايضاً اندراوس الدمشقي الذي نشأ في دمشق وتوعرع فيها ، فعكف منذ حداثة على العلم . ثم تقبل النذر في فلسطين ، فصار كاتب ثيودوروس بطريك المدينة المقدسة . واشترك في

*Epifanovich, S., The Blessed Maximus Confessor and Byz. Theology, ١*

*137; Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Litt., 63, 141 .*

*Brilliantov, A., Influence of Eastern Theology upon Western, 50-52 . ٢*

*Gelzer, H., Leontios von Neapolls, 91 . ٣*

اعمال المجمع المسكوني السادس الذي انعقد في عهد قسطنطين الالحى سنة ٦٨٠ ، ثم صار شماساً للكنيسة العظمى ، فرئيساً لاساقفة اقريطس . وتوفي بين السنة ٧٢٠ والسنة ٧٢٣ . أما أشهر آثاره فاناشيده الدينية المعروفة بالقانون الكبير . ولعله اول قانونٍ من نوعه ، يشتمل على أهم حوادث الكتاب المقدس . ويتلى هذا القانون في الاسبوعين الاول والاخير من الصوم الكبير .

وكان طبيعياً جداً ان تحول الحروب الطويلة التي نشبت في هذا القرن دون العناية بانشاء المباني الفضة ، ولكن القليل الباقي من آثار البناء التي ترجع الى هذا القرن يدل بوضوح على ان الاسس الفنية التي وضعت في عهد يوستنيانوس الكبير كانت ما تزال متبعة في عهد هرقل وخلفائه . وتدل هذه الآثار نفسها على ان مدى تأثير الفن البيزنطي كان قد تعدى حدود الامبراطورية . فكتدرائية ايتشيمازن الارمنية التي رمت بين السنة ٦١١ والسنة ٦٢٨ تنطق بأثر الفن البيزنطي في ارمينية ، وكذلك كنيسة قلعة عانة ( ٦٢٢ ) وبعض تصاوير كنيسة القديسة مريم القديمة في رومة .

ويرى العلامة الفنان شارل ديل ان قبة الصخرة التي أنشأها الخليفة الاموي عبد الملك ابن مروان في بيت المقدس بين السنة ٦٨٧ والسنة ٦٩٠ بعد الميلاد هي من حيث فنها نموذج مكمل للفن البيزنطي في القرن السابع . فشكلها المثلث الزوايا وقبتها ولاسيما تليس جدرانها بالرخام وتزيينها بالفسيفساء المذهبة ، جميع ذلك ينطق بأثر الفن البيزنطي . ويرى هذا العلامة الرأي نفسه فيما يتعلق بالمسجد الاموي في دمشق فيذكر ان الوليد ، عندما أراد ان يحول كنيسة مار يوحنا المعمدان الى جامع ، استعان بزميله فيلنفس الروم فأرسل له الصناعات لهذه الغاية وان الكنيسة هذه اصبحت بعد تحويلها تشبه من الجهة الفنية بسبيلقة

بيزنطية ذات قبة وان الفسيفساء التي وشعت الجدران هي فسيفساء  
بيزنطية ايضاً .

*Diehl, Ch., Manuel d'Art Byzantin, I, 344-345 ; Saladin, Manuel d'Art \*  
*Musulman, 55-71, 80-87 ; Kondakof, Voyage, Syria, III.*

## الباب السابع

# انتعاش وتوطيد واستقرار

### الفصل التاسع عشر

### الاسرة الاسورية او السورية

( ٧١٧ - ٨٠٢ )

اصلها : وفي السنة ٧١٧ اعتلت عرش الروم أسرة ظلّ المؤرخون يعتبرونها لسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولكن في السنة ١٨٩٦ كتب العالم الالاماني شينك في مجلة الابحاث البيزنطية مقالاً قسماً في مؤسس هذه الامرة لاوون الثالث ، فجعله سورياً لا إسورياً<sup>١</sup>. ثم جاء بعده من اتّبعه<sup>٢</sup>، ومن عارضه<sup>٣</sup>. والسبب في هذا الاختلاف في الرأي هو ان ثيوفانس المرجع الرئيس في سيرة لاوون قال عنه انه من ابناء

*Schenk, K., Kaiser Leones, III, Byz. Zeit., V, 296 ff.*

١

*Iorga, N., Origines de l'Iconoclasme, Bulletin Acad. Roumaine, XI, ٢ (1924), 147.*

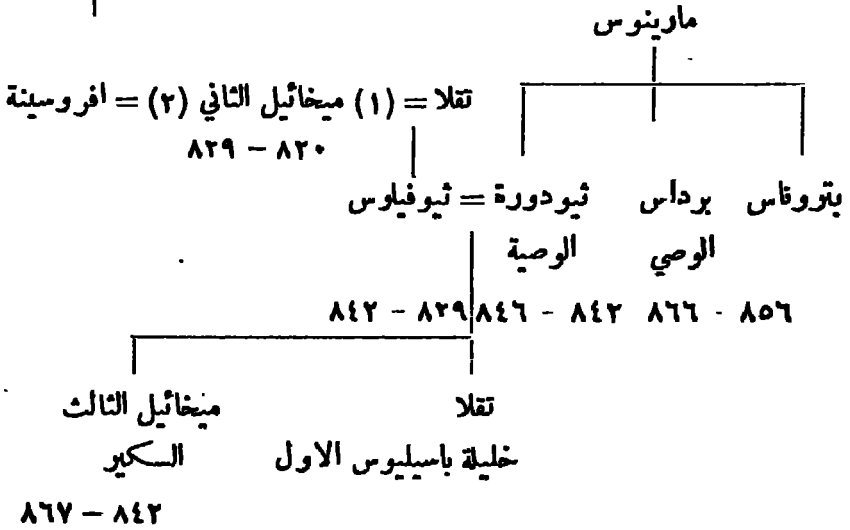
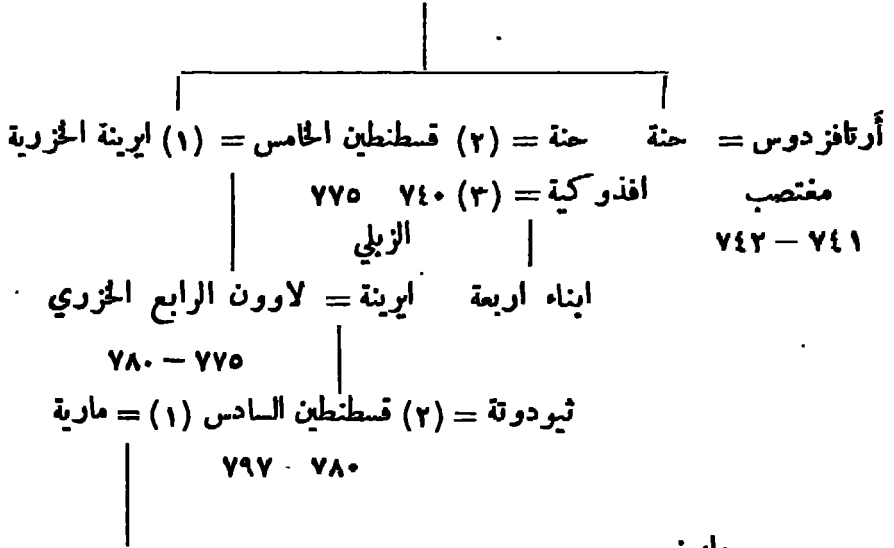
٢

*Kulakovsky, J. A., Hist., of Byzantium, III, 319.*

٣

لاون الثالث

٧١٧ - ٧٤٠



جرمانيكية (مرعش) ومن اصل لسوري<sup>١</sup> وان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس الى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته ان لاوون كان من ابناء جرمانيكية وانه كان سوري المولد<sup>٢</sup>. والواقع ان اسطفانوس الاصغر يؤيد القول بالاصل السوري ورفاقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب العيون والحداثئ الذي صنف فيما يظهر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. فهذا المؤرخ المجهول يجعل لاوون سورياً يجيد العربية كاليونانية<sup>٣</sup>.

وشجرة النسب الواردة في الصفحة السابقة تشمل الامرتين الامورية والعمورية. ويتضح منها ان لاوون الثالث، المؤسس المنظم المصلح كما سير بنا، توفي في السنة ٧٤١ وان ابنه قسطنطين الخامس الذي تزوج من ابنة خاقان الخزر جلس بعده على العرش فساس البلاد اربعاً وثلاثين سنة اثبت في اثناثا انه خير خلف لوالده المؤسس. وجاء بعده ابنه لاوون الرابع (الخزري) نسبة الى والدته، وتزوج من آثينية اسمها ايرينة. ولكن كان مريضاً بداء السل فمات صغيراً بعد ان حكم مدة وجيزة (٧٧٥ - ٧٨٠). وكان ابنه وخلفه قسطنطين السادس لا يزال في العاشرة فاصبحت ايرينة الوصية الوحيدة على العرش واقترن اسمها باسم ابنها القاصر في جميع شؤون الدولة. وكانت ايرينة هذه ذكية محبوبة من الجماهير. الا انها كانت شديدة الطموح. فما ان تولت منصب الوصاية حتى افعمها جاه المنصب استبداداً وطمعاً يشوبه الغرور. ومع ذلك نالت عطف الجماهير وتأييد رجال الدين لانها اوقفت حرب الايقونات. وقد ملأت جميع المناصب الهامة برجال من بطانتها.

*Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 391.*

*Chronographia Tripartita, ed. Boor, 251.*

وظالت مدة حكمها عشر سنوات وهي مستأثرة بالسلطة لا يشاركها فيها احد . واستولى عليها الغرور وعظمت ثقنها بنفسها فبقيت على استئثارها بالسلطة حتى بعد ان بلغ سن الرشد . فثار عليها لما بلغ الثانية والعشرين من عمره وتسلم ازمة الاحكام بالقوة . فبقيت ايرينة امأ شاذة لا ترضى عن استئثار ابنها بالسلطة وظلّت تحلم باستعادة نفوذها ، حتى كانت السنة ٧٩٧ . فتمكن المتآمرون الذين كانوا يعملون لحسابها من القبض على ابنها قسطنطين السادس فسلوا عينيه وحبسوه في احد الاديرة . وبذلك انتهى حكم هذه الاسرة الاسورية او السورية . اما قسطنطين فانه عاش سنوات عدة راهباً اعمى . وراقب عن بعد خمسة اباطرة تعاقبوا على العرش من بعده . واول هؤلاء امه ايرينة التي جلست على العرش خمس سنوات متتالية . والظريف الطريف عنها انها كانت تلقب فيلسفياً لافيلسفة لان الروم في عهدها كانوا يرون ان حق الاستراع من خصائص الرجال لا للنساء . ولم تسقط ايرينة قبل السنة ٨٠٢ عندما سيطر وزير ماليتها الكبير تقفور على بعض الحصيان ورجال البلاط . فقبض عليها بهدوء وحبسها في احد الاديرة . ولم يحرك احد ساكناً من اجلها . واعتلى تقفور العرش بهدوء ٢ .

الحروب العويية : وكتب على لاوون الثالث ان يصدّ العرب وان يمنع مسلمة من الاستيلاء على القسطنطينية كما سبق ان اشرنا . وكانت محاولة مسلمة تلك هي الاخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الامويين فلم يتسنّ لهم بعدها الدخول الى اوروبة الشرقية ولم يحاولوا الحرب مجد ونشاط بعد هذه الصدمة القوية . ولعل السبب في هذا كان ظهور الخزر في اقصى

Lingenthal, K. E. Z., *Jus Graeco-Romanum*, III, 55; Zepos, P., *Jus Graeco-Romanum* I, 45.

٢ اومان ، الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الشمال وتعاونهم مع الروم وانقراضهم على أذربيجان ، وقد حالف لاوون الثالث هؤلاء الخزر . وفي السنة ٧٣٢ أزوج ابنه قسطنطين الخامس ابنة خاقان الخزر ايرينة<sup>١</sup> . ولعل السبب في هذا أيضاً ان الذين تربعوا على عرش الامويين في هذه المدة كانوا اشخاصاً ضعفاء الهمة والعزيمة ، سقطوا صرعى للقواني والشراب ، وعبيداً للملذات والشهوات . وقد يكون السبب ايضاً ما وقع من التصادم بين القيسيين واليمنيين ، وما حصل من سخط مسلمي فارس على الامويين لانهم لم يساوا بين المسلم غير العربي والمسلم العربي<sup>٢</sup> .

بيد ان غزوات العرب الامويين لم تنته عند الفشل الذي حل بهم حول اسوار القسطنطينية في السنة ٧١٨ ، فقد اغاروا في السنة ٧٢٥ على قبدوقية واستولوا فيها على قيصرية وهددوا نيقية . وفي السنة ٧٣٧ عادوا الى الحرب وبلغوا تيانة في جنوبي قبدوقية ، فضربوا عليها الحصار في السنة ٧٣٩ . ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في يوم اكروينون<sup>٣</sup> ( افيوم قره حصار ) ، فاضطروا ان يجلوا عن غربي آسية الصغرى ، وان يتراجعوا شرقاً فيجنوباً . وفي هذا اليوم على الارجح قتل عبدالله البطل الذي تميز في حرب مسلمة فأصبح فيما بعد السيد غازي الذي اعتبره الاتراك بطلاً من ابطالهم ، فأنشأوا له قبراً بالقرب من اسكي شهر ( دوريلايوم ) وتكية فمسجداً للطريقة البكتاشية<sup>٤</sup> .

واستغل قسطنطين الخامس الغليان الداخلي في الدولة الاموية فانقضت في السنة ٧٤٥ على حدودها الشمالية واستعاد مرعش ودولوك ، وأجلى

*Lombard, Alfred, Constantin V, 31.*

١ الدكتور ابراهيم السدي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٦٣ - ٦٥ .

*Akroinon.*

*Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 238.*

نصارى الحدود الى تراقية . وفي السنة ٧٤٦ جهز اسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية ونحر به الى قبرص ، فقتى على اسطول عربي كان في مياهها واحتل الجزيرة . وفي السنة ٧٥١ جرّد حملة على حدود العرب في ارمينية فاستولى على ارضروم وملاطية . ثم اتجه نحو الفرات فاحتل حصن قلوذية وبلغ شمشات<sup>١</sup> .

وكانت جبال طوروس بسلسلتها هي الحد الفاصل بين الدولتين . وكان خط الدفاع البيزنطي ينقسم قسمين رئيسين ، احدهما يمتد من ملاطية الى عين زربة ، وهو مخصص لصيد الغارات من شمالي العراق ، والآخر يمتد مقابلاً الشام لصد الحملات المنبثقة منها . وعني الروم عناية فائقة بهذين الحطين الطبيعيين ولاسيما المرين عبرهما : المر الذي ينتهي عند ابواب قيليقية بين ادنة وسائر الاناضول الشمالي ، ومر كوردخاي بين مرعش والبستان<sup>٢</sup> . وكان على قمة شديدة الارتفاع عند اقصى المر الاول في جهة الشمال حصن حصين يتحكم بسهولة بقبوقية الجنوبية ويسمى قلعة اللؤلؤة ، وقد أصبح في هذا العهد الذي نحن بصدده مضرب الامثال في المناعة . وكان هذا المر يضيق جداً في جنوبيه فيصبح عرضه عند ابواب قيليقية بضعة امتار . وكانت تحيط به صخور شاهقة في ارتفاع عمودي ، وتشرف عليه قلعة الصقالبة ، بحيث تستطيع حاميتها وقف جيش كبير العدد . أما مر كوردخاي فكانت اهم قلاعه قلعة زبطرة<sup>٣</sup> ، وقلعة ملاطية لوقوعها عند ملتقى الطرق الرئيسة المؤدية من سبسطية وسيواس وقيصرية الى ارمينية وشمالي العراق . واطلق العرب على المر الاول امم درب السلامة ، وعلى

*Lombard, A., op. cit., 35-36; Laurent, J., l'Arménie entre Byzance et l'Islam, 184, 308.*

*Arabissos.*

٢

*Zapetra.*

٣

الممر الثاني اسم درب الحدث . وقد اقام الروم ، عبر آسية الصغرى ، من قلعة اللؤلؤة الى القسطنطينية ، سلسلة من المنارات لارسال الانباء باسعال النار . فكانت النار التي توقد على برج حصن اللؤلؤة يراها الحراس المقيمون في برج جبل ارغايوس المطل على بحيرة ثانة ومنه يراها الحراس في برج اغيوس ، ثم ينتقل خبرها الى معسكر دوراليوم الكبير ، فبرج ماماس ، فبرج موكيلوس ، فبرج خليج بيثينية ، فبرج القديس اوكرنتيوس ، فالقصر الكبير . وفي عهد الامبراطور ثيوفيلوس ( ٨٢٩ - ٨٤٢ ) ادخل لاوون الرضاحي تحسيناً على هذه الطريقة . فانه أعد ساعتين تسيرون في زمن واحد احدهما جعلها في القصر الكبير في القسطنطينية ، والاخرى في قلعة اللؤلؤة . ورتب لاوون ان تنفق السلطان : السلطة المقيمة في القصر ، والسلطة المقيمة في القلعة ، على اثني عشرة حادثة يرمزون لكل حادثة منها بساعة معينة من الساعات الاثني عشرة . وتكتب كل حادثة امام الرقم المخصص بها على واجهة الساعة . فاذا حدث ان أحس محافظ قلعة اللؤلؤة في الساعة الرابعة مثلاً ان العدو على اهة عبور الحدود انتظر الى الساعة السادسة ليتبين حركات العدو ثم اشعل النار . وعندما تنقل تلك الاشارة عبر المحطات الى القصر الامبراطوري ينظر الحراس الى الساعة فيعلمون متى اشعلت النار في قلعة اللؤلؤة ويقفون بذلك على معنى هذه الاشارة ، اي ان العدو اخذ يحرك ركابه للهجوم . واذا اشعلت النار في الساعة السابعة علموا ان الحرب وقعت بين الطرفين . واذا اشعلت في الساعة الثامنة دلت على ان العدو قد اعمل الحرائق وهكذا .

*Bury, J. B., op. cit., II, 244-245.*

ولله امرية بمظله من لفظ الدكتور احمد السوي ، الامبراطورية البيزنطية ،

ص ٧٠ - ٧٥ .

وعني العرب بمثل ما عني به الروم . فأسس هارون الرشيد ( ٧٨٦ - ٨٠٩ ) اقليم عواصم بالإضافة الى اقليم الثغور . فمثل اقليم العواصم حلب ومنبج وانطاكية الى الساحل . وجعل عليه ابنه المعتصم . واطليم العواصم هذا كان سلسلة من الحصون الداخلية تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وكان اقليم الثغور في عهده ينقسم قسمين : الثغور الجزرية لحماية العراق ، ومن حصونها زبطرة ومنصور والحدث ، والثغور الشامية ومن حصونها المصيصة واذنة وطرسوس<sup>١</sup> .

وليس في المراجع العربية او غيرها ما يدل على ان الخلفاء العباسيين قد هدفوا الى ما هدف اليه اسلافهم الامويون من حيث القضاء على دولة الروم والسيطرة على حوض البحر المتوسط . فالصوائف والشواقي في عهدهم لم تكن سوى غارات للاستيلاء على معاقل جبال طوروس او للنهب والسلب الشائعين في ذلك العصر . فغزو الربيع كان يبدأ من منتصف ايار بعد ان تكون الخيول العربية قد صمنت ، ويستمر شهراً من الزمن تجرد فيه هذه الخيول غذاءً وفيراً في مراعي الروم . ثم تتخذ الى الكينة شهراً ، وتستأنف بعده غارات تستغرق ستين يوماً . اما غزو الشتاء فكان يقع عادة في النصف الاول من آذار<sup>٢</sup> .

وفي السنة ٧٨٣ ثار الصقالبة على ايرينة فاضطرت ان تسحب بعض قواتها من آسية الصغرى لاختفاء هذه الثورة في مقدونية وبلاد اليونان . فاتتهز العرب الفرصة وتوغلوا في آسية الصغرى فكسروا الروم في دنون

١ البلاذري ، ص ١٧٦ . والعلوي ، ص ٧١ - ٧٢ .

*Le Strange, G., East. Callphate, 128.*

٢ قدامة ابن جعفر ، الحراج ، ٢٥٩ . راجع ايضاً الملحق الثاني من كتاب الدكتور

ابراهيم احمد العلوي ، ص ١٨٥ - ١٨٥ .

ووصلت طلائعهم الى ضفة البوسفور. فصالحت ايرينة على ان تدفع مالا سنوياً قدره سبعون او تسعون الف دينار. وفي السنة ٧٨٤ استولى العرب على ثيباسة في قبدوقية<sup>١</sup>. وكان الفريقان يراقبان السواحل فأمر الروم في السنة ٧٩٠ بضع سفن عربية وهي في طريقها من مصر الى الشام. واغار الاسطول العربي على قبرص في هذه السنة نفسها واتزل قواته في الجزيرة وهزم اسطول الروم في مياه اضاالية وأمر اميره ولكن خسارة العرب كانت فيما يظهر عظيمة<sup>٢</sup>. وفي السنة ٧٩٨ توغل العرب في آسية الصغرى مرة اخرى فاكتسحوا قبدوقية وغلطية فاضطرت ايرينة ان تدفع الى هارون الرشيد المال السنوي نفسه الذي كانت قد دفعته الى المهدي<sup>٣</sup>.

**البلغار والصقالبة:** وعاون البلغار لاوون الثالث على العرب اثناء حصارهم القسطنطينية. وظلّت العلاقات ودية بين الروم والبلغار ثلاثين سنة. اما قسطنطين الخامس (٧٤٠ - ٧٧٥) فإنه نقل الى البلقان عدداً كبيراً من الارمن والسوريين المسيحيين وانشأ سلسلة من الحصون عند حدود البلغار ثم شنّها حرباً على هؤلاء ليقتضي على دولتهم ولكنه لم يفلح، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين لقب ذابح البلغار<sup>٤</sup> Bulgaroctonus. وعند نهاية القرن الثامن اتخذ البلغار خطة الهجوم فأكروها قسطنطين السادس ووالدته ايرينة على ان يؤدوا لهم مالا معلوماً كل سنة.

وفي المراجع ما يدل على ان الصقالبة كانوا قد انتشروا في طول

*Honigmann, E., Ostgrenze des Byz. Reiches, 47.*

١

*Brooks, E. W., Relations between Emp. and Egypt, Byz. Zeit., (1913), 335; Weil, Gesch. der Chalfen, II, 157.*

٢

*Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 239.*

٣

*Lombard, A., Etudes, Constantin V, 59.*

٤

اليونان وعرضها عند منتصف القرن الثامن وانهم ظلوا يتدققون عليها حتى اصبحوا اصحاب الكلمة فيها وفي قسم كبير من البلقان . وقد سبقت الاشارة الى الحملة التي انفذتها ايرينة نفسها لمحاربة هؤلاء الصقالبة في السنة ٧٨٣ .

الاكلوغة : وعني لاوون الثالث بالتشريع ، فرأى ان القوانين والانظمة التي ترجع الى عصر يوستينانوس الكبير قد اصبحت تفتقر الى اعادة نظر وتعديل . رأى الناس في بعض الولايات الشرقية لا يزالون يؤثرون العرف حتى على بعض شرائع يوستينانوس ، كما رأى بعد تقلص الامبراطورية من جراء الفتح العربي وتغلب الصقالبة والبلغار على جزء كبير من البلقان ان اليونانية قد اصبحت هي اللغة الوحيدة التي يفهمها السكان ، وبالتالي لابد من تشريع باليونانية خلاف تشريع يوستينانوس الموضوع باللاتينية . فصمم لاوون على العمل في هذا الحقل فانتقى في السنة ٧٢٦ ، لا ٧٣٩ ، كما يرى البعض<sup>٢</sup> ، لجنة من كبار رجال القانون اسند اليها اعادة النظر في قوانين يوستينانوس واصطاء المفيد منها وتحسينه ووضعها باليونانية . وأطلق لاوون على مجموعته هذه اسم الاكلوغة *Ecloga* ومعناه المنتخبات . وبما جاء في مقدمة الاكلوغة هذه ان قوانين الاباطرة قد اصبحت صعبة المنال إما لتفرقها في الكتب الكثيرة او لصعوبتها على الفهم او لقلّة تداولها في الاوساط خارج العاصمة « المحروسة من الله » . وبما جاء في هذه المقدمة ايضاً انه يجب على القضاة ان يتجردوا من العاطفة وان يحكموا بالعقل والعدل ، والأب يحترقوا الفقراء والمساكين والا يتركوا الاقوياء المجرمين طلقاء الايدي وان يمتنعوا من قبول الهدايا . وكذلك نصّت هذه

*Vasiliev, A. A., op. cit., 240.*

*Ginnis, D., Das Promulgationsjahr der Isaurischen Eclogae, Byz. Zeit., ٧ (1924), 356-357.*

المقدمة على وجوب دفع مرتبات القضاة من الحزينة « الصالحة » كي لا تم  
نبوة عاموس « لانهم باعوا البار بالفضة والبائس لاجل نعلين قتلست علينا  
غضب الرب بتجاوز وصاياه » .

وتتضمن الاكلوغة في اقسامها الثمانية عشرة الحقوق المدنية والاحوال  
الشخصية . ولا تبحث في الجزاء الا قليلاً . وهي تختلف عما اشترعه  
يوستينيانوس اختلافاً بيناً في بعض الاحيان . فهي تأخذ بالعرف احياناً  
وباجتهادات القضاة السابقين احياناً اخرى . ويتساوى امامها الغني والفقير ،  
الامر الذي لا نلقاه دائماً في مجموعة يوستينيانوس . والاكلوغة مسيحية اكثر  
من الدجستا تحلّ فيها الاستشهادات بنصوص الكتاب المقدس محل  
الاستشهادات بالشرع الروماني القديم<sup>٢</sup> . ولكن مع هذا كله لا يرى رجال  
الاختصاص في الاكلوغة ما رآه المورخ اليوناني باباريفوبولو الذي صنف  
في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، فإنه رأى في الاكلوغة أسساً لم  
يتوصل اليها القانون في الغرب الا بعد الف سنة<sup>٣</sup> .

قانون المزارعين : وثمة ثلاثة قوانين اخرى تعود في الارجح الى  
عهد الاسوريين ايضاً . واشهر هذه القوانين قانون المزارعين . وهو في  
رأي الثقات من اشترع لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس . اما  
تاريخ صدور هذا القانون فقد كان في الوقت نفسه الذي صدرت فيه  
الاكلوغة ( ٧٢٦ ) او بعيد ذلك<sup>٤</sup> . ويرى العالم الرومي بنشكو ان  
هذا القانون مستمد من العرف الذي ساد الاوساط الريفية والذي لم

*Zepos, J., Jus Graeco-Romanum, II, 14, 16-17; Freshfield, E., A Manuel of the Roman Law, Ecloga, 68-70.*

*Bury, J. B., Constitution of Later Rom. Emp., II, 414.*

*Paparrigopoulos, K., Hist. Civ. Hellentique, 205-209.*

*Lingenthal, Z., Gesch. des Griechisch-romischen Rechts, 250.*

تشمله الاكلوغة<sup>١</sup> .

والداعي لاهتمام العلماء بهذا القانون خلّوه من الاشارة الى الكولوفي والاقنان Serf واهتمامه بظواهر جديدة بين الفلاحين كالملكية الفردية الحرة والملكية الجماعية او المشاع وحرية الانتقال ومنع الخدمة الاجبارية . وقد نغالي اذا قلنا مع ثودور اوسبنسكي ان هذه الظواهر الجديدة شملت الدولة باسرها وان الفلاح زمن الاسوريين دخل في عهد جديد فشكل طبقة جديدة حرة مستقلة<sup>٢</sup> . وقد نغالي ايضاً اذا قلنا مع شاول ديل وزميله جورج مارسه ان لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس حاولا بهذا التشريع ان يوقفا توارى الممتلكات الحرة الصغيرة وان يحدا من طغيان الممتلكات الكبيرة وان يضمنا للفلاح ظرفاً افضل<sup>٣</sup> . ولا يجوز التماذي في القول مع بعض العلماء ان لاوون وابنه اضطرا ان يدخلوا على شرع الدولة عرفاً خاصاً صقلياً في اسامه لكي يستهوا العناصر الصقلية في الدولة ويوقفا ميل هؤلاء الى التحالف مع البلغار والتعاون معهم . ويرى المؤرخ الكسندر فسيليف ان في مجموعات ثودوسيوس ويوستينانوس وفي اخبار القديسين ما يدل على ان الملكية الحرة الصغيرة كانت لا تزال باقية حتى عهدهما وان الدولة الرومانية عرفت نظام المشاع في اوائل عهدها وان الملكية الحرة الصغيرة بقيت منتشرة في الدولة البيزنطية الى جانب الملكية الكبيرة وكولونيتها وفدادينها<sup>٤</sup> . ولعل الأقرب الى الحقيقة ان تؤخذ هذه الأمور جميعها بعين الاعتبار .

القانون البحوي الرودوسي : ونجد في بعض نسخ الاكلوغة الخطية

*Pancenko, B. A., The Rural Code and Monastic Documents, 86 .* ١

*Uspensky, Th. I., Byz. Emp., I, 28 .* ٢

*Diehl, Ch., et Marçais, G., Mandé Oriental, 256, n. 23 .* ٣

*Vasiliev, Alexander, A., Byz. Emp. 246-247 .* ٤

القديمة ملاحق تتضمن قانونين آخرين أحدهما بحري والآخر عسكري .  
ويخلو هذان القانونان من اية اشارة الى تاريخ صدورهما . أما بعض وجال  
الاختصاص فقد رأوا في محتوياتها ما يدل على انها من انتاج الاسرة الاسورية .  
والقانون البحري الرودومي قانون تجارة بحري يبحث بنوع خاص في  
توزيع المسؤوليات عند تعرض السلع للخطر ، إما من جراء العواصف  
البحرية او القرصنة . وهو يختلف عما جاء من نوعه في تشريع يوستينيانوس  
فيقسم تبعة الحسارة بين صاحب المركب والتاجر والركاب . وتدل  
محتويات هذا القانون على انه صدر في عصر كانت قد شاعت فيه قرصنة  
العرب والصقالبة .

قانون الجند : اما قانون الجند فانه مأخوذ من قوانين يوستينيانوس  
ومن الاكلوغة ، ومصادر اخرى . وهو في اساسه قانون عقوبات عسكري  
يحدد الاحكام التي ينبغي للسلطة ان تجرئها على الجنود في حال رفض  
الطاعة ، او التمرد ، او الفرار ، او الفسق ، او ما اشبه . والعقوبات  
المفروضة صارمة جداً . فاذا صحت نسبة هذا القانون الى لاوون الثالث  
فانه يظهر عندئذ شدة الانضباط الذي أوجبه هذا القائد العسكري .<sup>١</sup>

الثبات او البنود : وليس لدينا من المراجع الاولية ما يثبت ما  
فعل لاوون الثالث بنظام الثبات . ولكن رجال الاختصاص يرون فرقاً  
بين ما حفظته مراجع القرن السابع الرومية عن هذا النظام ، وبين ما  
دوتنه ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك في القرن التاسع . وهم ينسبون  
هذا الفرق الى لاوون وابنه قسطنطين<sup>٢</sup> . ويرى هؤلاء الاختصاصيون على  
ضوء هذا الفرق ان لاوون جعل ثبات آسية الصغرى متناً بدلاً من اربع .

*Lugenthal, op. cit., 16-17; Byz. Zeit., III, 448-449.*

*Brooks, E.W., Arabic Lists of Byz. Themes, Journal of Hellenic Studies, ٢  
XXI, 67 ff.*

فاقتطع من ثيمة الاناضول في الغرب ثيمة جديدة اسمها التراقية نسبة الى الجنود التراقين المقيمين فيها . كذلك يرون انه قد جعل القسم الشرقي من ثيمة الابسيق مستقلة اسمها ثيمة البوكولاري نسبة الى جنودها البوكولاري الذين كانوا يعنون بالتموين . ولم يتجاوز عدد الثيمات في اوروبة في القرن الثامن اربعاً ، وهي : تراقية ومقدونية وهلاس وصقلية<sup>١</sup> . ولعل السبب في تقسيم الثيمات الاسيوية كان خوف لاوون من ان يجرؤ عليه القادة ، كما جرؤ هو على سيده ثيودوسيوس الثالث ، فصغر الثيمات لكي تنقص بذلك موارد القادة فيها وتتضاءل لديهم امكانيات الخروج على السلطة المركزية .

ونما لا ريب فيه ان لاوون عني في آخر عهده باسوار العاصمة فقرض ضريبة خاصة بها ، ورمم ما كان قد تساقط منها بفعل تكرار الزلازل . ولا تزال ابراج الاسوار الداخلية تحمل اسمه واسم ابنه قسطنطين الخامس حتى يومنا هذا<sup>٢</sup> .

حرب الايقونات : والايقونة لفظ يوناني معناه الصورة او الرسم . وهو يستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة الى صور القديسين . والايقونات في عرف الكنيسة نوعان : منها العادي ، ومنها العجائبي . وحرب الايقونات تنقسم الى مدتين منفصلتين : الاولى من السنة ٧٢٦ حتى السنة ٧٨٠ وتنتهي بالجمع المسكوني السابع ، والثانية تمتد من السنة ٨١٣ حتى السنة ٨٤٣ وتنتهي بارجاع الارثوذكسية الى حالتها الاولى .

واسباب هذه الحرب الداخلية الطاحنة لا تزال غير واضحة ولا ثابتة ، لان ما نعلمه عنها مأخوذ في معظمه من اقوال احد الحصين . فلقد ضاعت مصنفات

*Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bonn, 6.*

١

*Millingen, A., Byzantine Constantinople, 98-99.*

٢

الذين حاربوا الايقونات . وما بقي منها جاء في معرض الردود التي كتبها  
الخصوم . فهو والحالة هذه غير صالح للاخذ به لما يتقصه من العدالة . وما  
يصح من هذا القول على المصنفات العامة يصح كذلك على قرارات الجمعين  
الذين حرّموا اكرام الايقونات ، فمقررات مجمع السنة ٧٥٣ قد وردت في  
اعمال المجمع المسكوني السابع وهو المجمع الذي حرّمها . وكذلك قرارات  
مجمع السنة ٨١٥ فأنها وردت في تضاعيف احدى رسائل البطريرك  
نيقوفوروس .

والباحثون في اسباب هذه الحرب الداخلية يختلفون في الرأي ، فبعضهم  
يرى اسبابها دينية وغيرهم يراها سياسية . فالمؤرخ اليوناني المعاصر بابارنيغوبولو  
يرى في كتابه تاريخ الحضارة الملمنية ان حرب الايقونات كانت في  
اساسها حرب اصلاح سياسي اجتماعي وان لاوون الثالث ومن خلفه من  
اسرته أراد ان يحرر التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس وان العناصر  
المستنيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين والجيش قد اتدوا  
هذه الحركة الاصلاحية وان اخفاق هؤلاء اجمعين انما نتج عن تمسك العناصر  
الجاهلة من النساء والرهبان واهل الاوساط العادية بكل قديم<sup>١</sup> . ويرى  
المؤرخ الفرنسي لومبار في كتابه قسطنطين الخامس ان حرب الايقونات  
كانت حركة اصلاحية دينية ترمي الى تطهير النصرانية من ادران الوثنية،  
وانما جاءت في الوقت نفسه الذي جرت فيه محاولات اخرى للاصلاح  
سياسية اجتماعية ولكنها مستقلة لها تاريخها الخاص<sup>٢</sup> . ويقول العالم الفرنسي  
لويس براهيه ان محاربة الايقونات في تاريخ الروم ذات وجهين ، قسمة  
مشادة حول اكرام الايقونات وثمة بحث دقيق اذا كان يصح الرمز الى

*Paparrigopoulos, K., Hist. de la Civ. Hellenique, 188-191.*

١

*Lombard, A , Constantin V, 105, 124-128.*

٢

ما فوق الطبيعة بالرسم والتصوير وإذا كان يجوز ان يُمثَل القديسون والعدراء والسيد بالتصوير<sup>١</sup>. ويرى المؤرخ الروسي اوسبنسكي ان السبب الحقيقي الذي دفع بلاوون وخلفائه الى خوض غمار هذه الحرب انما كان خوفهم من ازدياد ثروة الرهبان وتزايد نفوذهم. فالمشادة كانت زمينة سياسية في مستهل امرها فجعلها الرهبان دينية ليوغروا صدور المؤمنين ويحضوم على مقاومة سياسة الحكومة<sup>٢</sup>.

والواقع ان الاعتراض على الايقونات لم يكن ابن ساعته. ففي بدء القرن الرابع حرّم مجمع ألفيرة Elvira المحلي في اسبانية اقامة الصور في الكنائس<sup>٣</sup>. ورأى يوسيبوس اسقف قيصرية فلسطين ومؤرخ الكنيسة ان اكرام صور السيد وبطرس وبولس كان من عادات « الامم » . وفي هذا القرن الرابع نفسه ظهر ايفانيوس القبرصي ايضاً فمزق ستاراً في الكنيسة لانه كان يحمل صورة السيد وأحد القديسين<sup>٤</sup>. وفي القرن الخامس اعترض اسقف سوري على الايقونات قبل سيامته. وفي القرن السادس ضجت انطاكية مستنكرة اكرام الايقونات. وفي هذا القرن ايضاً حرّم اسقف مرسيية ( مسالية ) اقامة الايقونات في الكنائس. فكتب اليه غريغوريوس العظيم بابا رومة يثني على عدم التعبدا لما هو من صنع البشر، الا أنه ذكره في الوقت نفسه بالمؤمنين الاميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون، وذكره

*Bréhier, L., La Querelle des Images, 3-4.* ١

*Uspensky, Th. I., Byz. Emp. II, 22-53, 89-109, 157-174.* ٢

*Mansi, J. D., Sacrorum Conciliorum Nova, (Consilium Liberitanum, ٣ Par. XXXVI.)*

*Historia Ecclesiastica, VII, 18, 4.* ٤

*Patrologia Graeca, XLIII, 390; For authenticity, see, Serruys, D., ٥ Acad. Inscriptions et Belles Lettres, (1904), 361-363.*

بضرورة اعانتهم على النظر الى ما لا يمكنهم ان يقرأوه في الكتب . وعاد فكتب اليه ثانية في ان عبادة الصور شيء والتعلم بها شيء آخر<sup>١</sup> .  
ويجب الا يغيب عن البال ان اليهود في الشرق والغرب معاً لم يوضوا قط عن شيء من هذا ، وان القرآن علم بان الانصاب رجس من عمل الشيطان ( سورة المائدة ) وان الخليفة الاموي يزيد الثاني أمر في السنة ٧٢٣ بتعظيم الايقونات في كنائس النصارى<sup>٢</sup> وان الاسوريين وخلفاءهم العموريين كانوا شرقيين آسيويين وانهم كانوا رجال سياسة وحرب قبل كل شيء ، وان المذهب البولسي كان قد ساع في آسية الصغرى ولاسيا في ولاية فريجية وان انصاره كانوا قد اصبحوا قوة مخيفة<sup>٣</sup> . وكذلك يجب الانسى ازدياد عدد الرهبان وتزايد ثروتهم ونفوذهم ، فانهم بلغوا مئة الف راهب في هذه الفترة وقد تزايدوا بصورة خاصة في العاصمة نفسها ، كما يجب ان نذكر ان هؤلاء جميعاً لم يكونوا من اهل الزهد والتقوى ، وان بعضهم لم يتشرف الا هرباً من احكام القضاة ورجال الامن<sup>٤</sup> .

وقضى لاوون الثالث السنوات العشر الاولى من حكمه في توطيد دعائم ملكه وفي اخماد نار الثورة التي اشعلها الفيلسوس انسطاسيوس الثاني ( ٧١٣ - ٧١٦ ) وقائد صقلية ، كما جهد في اعادة اليسر والطمانينة الى الولايات التي كانت قد اصبحت مسرحاً للحروب وميداناً للاربثة . وكانت العاصمة نفسها قد فقدت عدداً كبيراً من سكانها نتيجة هذه العوامل ولاسيا

*Epistolae, IX, 105 ; XI, 13, ed. Migne ; Patrologia Latina, LXXVII, 105.* ٦

*Becker, Ch., Islamstudien, I, 446.* ٢

*Lebedev, A. P., Ecumenical Councils of the Sixth, Seventh, and Eighth Centuries, 142.* ٣

*Kondakov, N. P., Iconography, II, 3 ; Andreev. I. D., Germanus and Tarasius Patriarchs of Const., 79 ; Vasiliev. A. A., Byz. Emp. 256-257.* ٤

الطاعون الذي غشيها في السنة ٧١٨ فتدارك لاوون هذا الشرّ بان نقل السكان اليها من الولايات الشرقية ولاسيما الولايات المتاخمة للعرب . كذلك اعاد النظر في تنظيم جيشه وأصلح القوانين كما سبقت لنا الاشارة<sup>١</sup> .

وقضى لاوون في السنة ٧٢٢ بتعميد اليهود . وفي السنة ٧٢٣ سمع بما أمر به يزيد الثاني من تحطيم الايقونات في بلاده واستمع لما دار بين بطريك القسطنطينية جرمانوس والاسقفين قسطنطين وتوما الاناضوليين حول رفع الايقونات من الكنائس ، فبدأ ييث الدعاية السلمية في اوساط العاصمة لاجل ترك الايقونات والاقلاع عن تكريمها .

وفي السنة ٧٢٥ او ٧٢٦ جمع لاوون الثالث مجلس الدولة الاعلى ودعا اليه البطريرك جرمانوس وباحثه في موضوع الايقونات ووجوب رفعها من الكنائس وحظر تكريمها . فاحتج البطريرك وذكر الفيلسوف بعموده للكنيسة تلك التي أقسم أن يراها عند تسلمه التاج . ولما لم تنفع الذكرى وضع الاموفوريون عن عاتقه واستغفى . وأصدر القيصر أمره بحظر تكريم الايقونات . وبدأ تنفيذ الامر بانزال تمثال السيد الذي كان يعلو باب القصر . فاندلعت في الحال ثورة اشتكت فيها النساء اشتراكاً فعلياً . ومزقت الجماهير الموظف الذي نفذ ارادة الفيلسوف . فرد لاوون على ذلك بالعنف فسقط عدد من القتلى . وهبت ثورة في اليونان وجزر الارخبيل فاخذها الجيش بالقوة . وفي السنة ٧٣٠ أصدر لاوون أمراً اشده من الاول فقاومه جرمانوس واحتج عليه . فاهانه لاوون وعزله ونصب في مكانه انسطاسيوس . وكتب البابا غريغوريوس الثاني كتاباً مرّة الى لاوون ولكنه لم يابه بها . واقتدى البابا غريغوريوس الثالث بسلفه

*Bréhier, L., Byzance, Vie et Mort, 77.*

فنهى الفيلسوف عن برنامجيه . فلم يعر رسالته اهتماماً . فعقد البابا غريغوريوس الثالث جمعاً محلياً في السنة ٧٣٢ ، وحرم مكافحي الايقونات . فأنفذ الفيلسوف قوة بحرية ضد البابا ومن قال قوله في ايطالية ففرقت السفن في الطريق فأرسل عمارة غيرها ورفع سلطة البابا عن ابرشيات صقلية وكلاوية وكريت وليليرية والحقها برئاسة بطريك المسكونة . فقطع البابا كل علاقة له كنائسية ومدنية بلاوون<sup>١</sup> . هذا وليس في المراجع الاولى شيء هام عن حرب الايقونات في السنوات العشر الاخيرة من حكم لاوون . وهنا لا بد من الاشارة الى رسالتي يوحنا الدمشقي ضد معظمي الايقونات ، فقد كتبت هاتان رسالتان في عهد لاوون . اما الرسالة الثالثة في المعنى نفسه فلا يمكن تحديد تاريخها بالضبط .

وتوفي لاوون والبابا غريغوريوس الثالث في السنة ٧٤١ . فتسلم قسطنطين الخامس ازمة الحكم في القسطنطينية وهو الذي اطلق عليه لقب الزبلي Copronymus لانه افرز في جرن العباد حين المعودية . ويرى ايضاً انه لقب بالزبلي لانه كان يجب راحة زبل الخيل . وما كاد يستوي على عرشه حتى انتزع الملك منه صهره آرتافزدوس زوج اخته حنة . فاضطر قسطنطين ان يحاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عيني صهره واعين ابنه ونفى الثلاثة معاً . ثم شرع في اضطهاد الكنيسة فسخر بالاحتفالات الدينية وبكل قديس . ومنع الاعياد والاصوام وخرّب الاديرة وجعلها ثكنات للجنود . وكتب اليه البطاركة والبابا يناشدونه ويردعونه ولكنه لم يصنع اليهم . وعقد جمعاً في السنة ٧٥٤ فأوجب اخراج الايقونات من الكنائس

*Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 404; Leclercq, «Constantin», Dict. d'Arch. Chrét., III, 248; Diehl, Ch., Leo III and Is. Dyn. Cam. Med. Hist., IV.*

والبيوت وقطع كل استقف او كاهن او شماس يقتنيا وقضى على كل راهب او علماني يقول بالايقونات ان يحاكم امام المحاكم المدنية بتهمة معاداة الله والمعتقدات الموروثة عن الآباء . ثم حرم جرمانوس «عابد الحشب» كما حرم منصوراً اي يوحنا الدمشقي «صديق الاسلام وعدو الدولة ومحرف الاسفار المقدسة» . ودعا لقسطنطين الجديد ولزوجته التقية الارثوذكية بطول العمر<sup>١</sup> .

وتقوى قسطنطين الخامس بقرارات هذا المجمع فاندفع في محاربة الايقونات اكثر من ذي قبل وصب غيظه وبلاؤه على الرهبان . فكم عين قلع ، وكم يهد واذن قطع ، فضلاً عن قتلهم . واكره طائفة منهم على الزواج اكرهاً . واستعرض مرة فقة منهم في ميدان الهيبودروم موجباً على كل منهم ان يمسك بيد امرأة في اثناء العرض . ويقول ثيوفانس ان حاكماً من حكام آسية الصغرى جمع رهبان ولايته وراهباتها في افسس فأمرهم بان يرتدوا الابيض ويتزوجوا حالاً ومن لم يطع فتسل عيناه ويقص الى قبرص . فهناه قسطنطين قائلاً له : لقد وجدت في شخصك رجلاً يحب ما أحب وينفذ جميع رغباتي<sup>٢</sup> . وصادر قسطنطين املاك الاديرة وضمها الى املاك الدولة . وهكذا فر عدد كبير من الرهبان الى ايطالية وجنوبي روسية وشاطيء لبنان وفلسطين . ويقدر الاستاذ اندوف الرومي عدد الذين فروا الى ايطالية بمخمين الفاً<sup>٣</sup> . واشهر الشهداء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة اسطفانوس الاصفر<sup>٤</sup> . ومن هنا ، على الأرجح ، كان

*Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, XIII, 323, 327, 346, 354, 355; ١*

*Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Bilderstreites, 7-29.*

*Theophanes, Chron. ed. Boor, 445, 446.*

*Andreev, I., Germanus and Tarasius, 78.*

*Patrologia Graeca, Cols. 1070-1186.*

رأي الاستاذ اوسبنسكي ان المؤرخين ورجال اللاهوت قد حرقوا الحقائق وشوهوها عندما رأوا في هذه الحوادث حرباً ضد الايقونات *iconomachia* لان الواقع انها كانت حرباً ضد الرهبان *monachomachia* والذي يراه الاستاذ اندريف الروسي ان موقف الجمع من هذه الحركة كلها قد أدخل شيئاً من الطمأنينة الى قلوب الشعب فجعلهم مؤمنين بها بضمير صالح . وبذلك تمكن الفيلسوف من أن يجعل كل مؤمن يقسم بانه سيبحثب تكريم الايقونات ٢ .

وكان من جراء العنف الذي لجأ اليه لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس ان نفرت رئاسة الكنيسة الغربية من حكومة الروم فتقربت من ملوك الغرب لتستعين بهم على دفع شر الاضطهاد . فأفتى البابا زخريا (٧٤١ - ٧٥٢) في السنة ٧٥١ ، بخلع كليديريك ملك فرنسا وتنصيب بيبيوس . وفي السنة ٧٥٥ قدم بيبيوس بجيش الى ايطالية مجارب اللومباردين فجعل البابا اسطفانوس الثالث (٧٥٢ - ٧٥٧) سيداً على كل ولايات الروم في ايطالية . ولما طالب قسطنطين الخامس بولاياته . هذه اجابه بيبيوس انه وهبها لكرمي رومة عن حب لبطرس الرسول كما تغفر له خطاياه . ومن هنا من هذا التباعد بين الفيلسوف والبابا ومن هذا التقارب بين البابا وبيبيوس زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة ، البذور التي ادت فيما بعد الى اتقسامها شطرين شرقية وغربية .

الجمع المسكوني السابع : وفي السنة ٧٧٥ توفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون الرابع . وكان لاوون الحزري مثل والده يرفض الايقونات ولكنه كان لين الجانب . وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين

*Uspensky, Ch., N., Hist. of Byzantium, I, 228.*

*Andreev, I., Germanus and Tarasius, 96.*

السادس وله من العمر عشر سنوات . وتولت امه ايرونة زمام الحكم باسمه وكانت من محبي الايقونات . ولكنها رأّت منذ بداية عهدها في الوصاية ان الجيش ما يزال معادياً للايقونات وان الصقالبة في غليان مستمر ، فأرجأت النظر في اعادة الايقونات الى وقت آخر . وكان البطريك بولس الرابع وغيره من كبار رجال الكنيسة قد اكرهوا اكرهاً على تقبل قرارات مجمع السنة ٧٥٤ فاستقال ونصح الى الوصية ان تجمع جمعاً مسكونياً وان يُرقى الى الكرسي البطريكي طراسيوس كاتم امرار المملكة . وكان طراسيوس عالماً تقياً فلم يقبل الدرجة الا بعد ان استوثق من الوصية بانها تدافع عن الرأي القويم<sup>١</sup> .

وفي السنة ٧٨٤ كتب البطريك طراسيوس وكتبت الوصية باسمها وباسم ابنها قسطنطين السادس الى البابا ادرينانوس الاول ( ٧٧١ - ٧٩٥ ) والى البطاركة الثلاثة الشرقيين ابوليناريوس الاسكندري وثيودوريتوس الانطاكي والياس الاوروشليمي من اجل مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية . فأجاب ادرينانوس مادحاً مبتهجاً ولكنه اعترض على ارتقاء طراسيوس من العوام وعلى لقبه بطريك المسكونة وطلب ان ترد له املاك بطرس الرسول والسلطة على الابريشيات التي اضافها لاوون الثالث الى الكرسي القسطنطيني . وفي السنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل ولكن الجند اندفعوا اليها شاهرين السلاح فدفعوا بالآباء الى الخارج . وفي السنة ٧٨٧ التأم هذا المجمع في مدينة نيقية . وكان مؤلفاً من ٣٦٧ اباً وكان رئيسه طراسيوس . وناب عن البابا ادرينانوس القسان بطرس وبطرس وعن البطاركة الشرقيين الثلاثة القسان توما ويوحنا

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

الان الظروف السياسية كانت شديدة على هؤلاء .

وعقد المجمع المسكوني السابع ثلثي جلسات واشتدع اثنين وعشرين قانوناً . وفي الجلسة الاولى خطب البطريرك طاراسيوس الرئيس خطبة وجيزة . ثم قرىء كتاب قسطنطين الفيلسوف ووالده الوصية ايرينة : « اننا قياماً بالوصية الانجيلية وصية المسيح رئيس الكهنة الابدي قد عتينا في ارجاع السلام الى الكنيسة فبرضاه ومسرته قد جمعناكم اتم كهنته الجزيل بركم الحافظين عهده بذبائح غير دموية ليكون حكمكم حكم المجمع المستقيمة الرأي » . وما جاء في هذه الرسالة ان طاراسيوس أغضب على قبول المنصب البطريركي وانه قال قبل ان يقبل الشرطونية : « اني ارى وانظر كنيسة المسيح المؤسسة على الصخرة التي هي المسيح المنا مقسومة الآن ومنشقة واننا نحن كنا نقول قبلاً بغير ما تقول الآن ومسيحيو الشرق المائلون لنا في الايمان يقولون قولاً آخر وواقفهم مسيحيو الغرب . ونحن غرباء عنهم جميعهم . وكل يوم نحرّم من الجميع . فأطلب عقد مجمع مسكوني يحضره نواب عن بابا رومة وعن رؤساء كهنة الشرق » .

وبعد ذلك دخل الاساقفة المتدعون واعترفوا بغلظهم وقدموا ندامة ورفعوا اعترافات ايمان مستقيم . وفي مقدمة هؤلاء باسيلوس اسقف انقيرة ، وقد قال في كتابه : « فأنا باسيلوس اسقف مدينة انقيرة قد اخترت ان اتحد بالكنيسة الجامعة اعني ادرينوس بابا رومة القديمة الجزيل القداسة وطاراسيوس البطريرك الجزيل الغبطة والكرامي الرسولية الجزية القداسة كرامي اسكندرية وانطاكية والمدينة المقدسة وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الارثوذكسين وقدمته اليكم انتم الذين نلتم السلطان عن الاصل الرسولي » .

وفي الجلسة الثانية قرئت رسائل البابا ورسائل البطاركة . وما جاء في

رسالة البابا ادرينوس التي وجهها الى « اخيه الحبيب طاراسيوس » : « وبما ان بركم قريب من الاقدام السامية اقدم ملوكتنا العظام الجزيل تقوam المتوجين من الله تضرعوا اليهم عنا ان يأمرؤا باعادة الايقونات المقدسة الى مركزها القديم في مدينة العاصمة المحروسة وفي كل مكان . » وسأل النواب طاراسيوس : هل يوافق على رسالة ادرينوس ام لا ، فأجاب : انه يوافق عليها لكونها ارثوذكسية وانه هو نفسه قد فحص وبحث وتعلم من الآباء واعترف ويعترف وسيعترف ويؤيد صحة التعالير التي قرئت قابلاً الايقونات المصورة على اثر تسليم آباءنا الاقدمين . فقال عندئذ القس يوحنا احد نائبي البطاركة : « انه يلقى بنا في الحاضر ان نزنم زبورياً : الرحمة والحق تلاقيا والعدل والسلام تلاقيا . فان الرحمة والحق تلاقيا اعني ادرينوس وطاراسيوس باتفاق رأبها وتعليهما . »

وفي الجلسة الثالثة قرئت رسالة طاراسيوس الى البطاركة واجوبتهم عنها . وفي الرابعة اعترف الآباء بوجوب تكريم الايقونات وقبلوا والغوا مجمع السنة ٧٥٤ لانه لم يكن مسكونياً . وفي السابعة كتب اعتراف الايمان وحدد فيه المجمع وجوب تقيل الايقونات والسجود الاكرامي لها واحتراماً للذين صورت عليهم لا عبادة لهم كما اتهم الكنيسة اعداؤها ، لان العبادة انما تجب لله وحده دون غيره .

رومة تستعيد حقها في انتخاب الامبراطور : وكان من جراء هذا الاضطهاد الذي لحق بالكنيسة في الشرق والغرب ايضاً ومن جراء استمساك بطريك القسطنطينية بلقب « بطريك المسكونة » ان حاول بابا رومة لاوون الثالث إعادة الحق الى رومة العاصمة الاولى في انتخاب

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الاتفاق ، ج ١ ، ص ٣٦٥ - ٣٧٠ .

*Manst, Amplissima Collectio Conciliorum, XIII.*

الامبراطور . فإنه اعتبر فيما يظهر سلطة ايرينة غير قانونية لانها امرأة  
ولانه لم يسبق لرومة ان اعترفت بحق امرأة في الملك . واعتبر عرش  
الامبراطورية الرومانية شاغراً بعد خلع قسطنطين السادس وسمل عينيه ،  
فتوجّ كارلوس الكبير ملك الافرنج امبراطوراً في كنيسة الكندراية  
وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ ، واعتبره خلفاً للاون الرابع وهرقل  
ويوستينانوس وثيودوسيوس وقسطنطين . واعتبرت الحكومة البيزنطية هذا  
العمل خروجاً على السلطة . وتوقعت زحف كارلوس الكبير على الشرق  
لخلع ايرينة وتسلم ازمة الحكم كما فعل غيره قبله من الاباطرة الذين  
قاموا في الغرب فزحفوا ووحّدوا<sup>١</sup> . ويرى البعض من رجال الاختصاص  
ان كارلوس علم حق العلم ان الحكومة البيزنطية ستنتقمي بعد ايرينة  
فلسفياً جديداً ففاوض ايرينة في الزواج ، وان ايرينة نظرت الى هذا  
الاقتراح بعين الرضى ولكنها غلبت على امرها فضلعت في السنة ٨٠٢ .  
ولذا فان برنامج كارلوس لم يتحقق<sup>٢</sup> . ولم يعترف الروم بلقب كارلوس  
الجديد قبل السنة ٨١٢ ولكنهم في مقابل هذا اضافوا رسماً الى اللقب  
الفيلسوس الكلمة « الروماني » . ولم يدم عهد هذه الامبراطورية الرومانية  
في الغرب . فان خلفاء كارلوس الكبير كانوا صغاراً . وفي النصف الثاني  
من القرن العاشر استعاض بابا رومة عن هذه الامبراطورية الرومانية  
بامبراطورية رومانية « مقدسة »<sup>٣</sup> .

*Bury, J. B., Charles the Great and Irene, Hermanthema, VIII, (1893), ١*

*17-37; Schramm, P., Kaiser Rom und Renovatlo, I, 12-13.*

*Theophanes, Chron., 475; Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Staates, 128. ٢*

*Vasiliev, A. A., Byz. Emp. 265-269.*

## الفصل العُشرون

### خلفاء الاسوريين والاسرة العمورية

( ٨٠٢ - ٨٦٧ )

نيقفوروس الاول وميخائيل الاول : ( ٨٠٢ - ٨٢٠ ) واستطاع نيقفوروس Nicephorus او نقفور ان يستولي على الامبراطورية في يسر وسهولة كما سبق ان اشرنا . وكان سامي<sup>١</sup> الاصل ان لم يكن عربياً . ولم يقتفِ آثار ايرينة في تنفيذ مقررات المجمع السابع ، ولكنه لم يضطهد من قال باكرام الايقونات ولا هو شجعهم . وجاهد جهاداً طيباً في سبيل الحزينة ، فنقض الاعفاءات من الضرائب التي كانت قد منحتها ايرينة استرضاءً ، وأعاد النظر في سجل الاراضي ، وفي ضرائب الدخل ، وفرض ضرائب جديدة خص<sup>٢</sup> بها الاغنياء لتعبئة الجيش وتسلية . فاكسب بذلك كره بعض الاوساط . ومن هنا على الأرجح تهجم عليه ثيوفانس المؤرخ<sup>٣</sup> . ومع انه اخمد بسهولة ثورات عدة ، أشعلها ضباط ساخطون ، فانه لم يكن موفقاً في حروبه الخارجية . فقد كتب منذ اوائل عهده الى هارون الرشيد يقول : « ان هذه المرأة ( ايرينة ) وضعتك موضع الرخ ووضعت

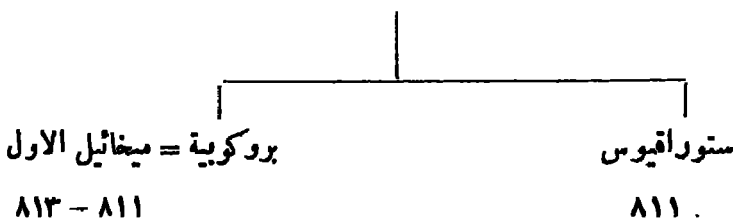
*Brooks, E. W., Byzantines and Arabs, Eng. Hist. Rev., (1900), 743 ff.* ١

*Brattann, G., Etudes Byz. d'Hist. Econ. et Soc., 196 ff.* ٢

نفسها موضع الشاة ، فأدّ اليّ ما كانت المرأة تؤذي اليك ، . فاجابه  
 الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله هارون امير المؤمنين ،  
 الى تقفور كلب الروم . اما بعد ، فقد فهمت كتابك والجواب ما تراه  
 لا ما تسعنه . » وأغار هارون على آسية الصغرى . واحتل في السنة ٨٠٦  
 تيانة ( طواني ) وانشأ فيها مسجداً وجعلها قاعدة لاعماله الحربية . وغزا  
 رودس في السنة ٨٠٧ وفرض الغرامة ، فدفعها نيقفوروس كما دفعها  
 ايرينة من قبله .<sup>٢</sup> ثم شغل هارون بالثورات في اقاليمه الشرقية . وغزا  
 تقفور البلغار في السنة ٨١١ لينتقم من ملكهم كروم الذي كان قد سطا  
 على ترافية ، فاحرز عليه تقفور انتصاراً باهراً ، ولكنه فوجيء بعد ذلك  
 بهجوم ليلي اشد فيه القتال . فسقط تقفور وجرح ابنه وولي عهده  
 ستوراقبوس . على ان الروم لم يقفوا حتى بلغوا ادرنة وتركوا جثة  
 الفسيلس في ميدان القتال . فقطع البلغاريون رأس تقفور واتخذوا جمجمته  
 كأساً<sup>٣</sup> .

### نيقفوروس

٨٠٢ - ٨١١



١ القلشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١١٢ . الدكتور ابراهيم المدوي ، الامبراطورية

البيزنطية ، ص ٧٩ . *Bury, J. B., Hist. of Eastern Rom. Emp., 249-250.*

*Theophanes, Chron., ed. Boor, 482-483* ٢

*Ibidum, 489-491.* ٣

وكان نيقيفوروس قد اشرك ابنه الوحيد ستوراقيوس في الحكم منذ السنة ٨٠٣ ووزوجه من نسيبة لايرينة بعد ان فازت في مسابقة على الجمال ، ولكن جرح ستوراقيوس كان قاتلاً فتولى العرش بعده صهره ميخائيل الاول وهو من اسرة نبيلة عريقة في الشرف . وكان ميخائيل هذا لطيف المعشر معجباً بالرهبان ، فأبعد عن الوظائف جميع أعداء الايقونات ، فأثار غضبهم ودفعت بهم وبمن قال قولهم الى التآمر . وبما زاد في الطين بلة ان البطريك نيقيفوروس اعلنها حرباً على المهاجرين الشرقيين . وكان هؤلاء قد نقلوا من الولايات النائية المتاخمة لحدود العرب الى العاصمة وتراقية ليحلوا محل الذين سقطوا في الحروب او ماتوا من جراء الطاعون . وهؤلاء الشرقيون كانوا لا يزالون يدينون بمذاهب لم تقرها المجمع المسكونية . وعلى الرغم من وساطة البعض ورجائهم الى البطريك ان يعامل هؤلاء بالحنى ويتودد اليهم لعلهم يعودون الى حضن الكنيسة ، فان البطريك تمادى في التسوية فعادت المشادة الدينية الى ما كانت عليه من قبل .

وكانت الحرب البلغارية لا تزال ناشبة . وكان خاقان البلغار كروم لا يزال يسطو على الارياف والمدن حتى وصلت طلائع فرسانه الى اسوار ادرينوبل . فضج السكان . وطالب المهاجرون الشرقيون بالعودة الى اوطانهم في آسية . ورأى الوجهاء والاعيان ان لا مفر من الحرب لصد هذا العدوان . فأعد ميخائيل جيشاً كبيراً وزحف الى الجبهة في ايار من السنة ٨١٣ . فالتقى في الثاني والعشرين من حزيران جيوش البلغار عند ادرينوبل فدارت الدائرة على الروم وانهمزم ميخائيل ، فنادى الجند بلاوون الارمني ، احد كبار القادة فيهم ، فسيلفأ . وفي العاشر من تموز دخل

لاون العاصمة فاستقبله الشيوخ . وتنازل ميخائيل وترهب واعتزل في دير من اديرية الجزر.

لاوون الخامس : ( ٨١٣ - ٨٢٠ ) واول ما فعله هذا الفيلسوف الاومني انه أقسم بين الولاة للكنيسة وقطع وعداً بان يحافظ على عقائدها ومصالحها . ثم عني باسوار العاصمة للصمود في وجه البلغار الذين ما قتلوا يصدمونها . وكان خاقانهم كرومّ يحاول ارهاب السكان بذبج الايريه عند الاسوار . ولكن في ربيع السنة ٨١٤ بينما كان هذا الخاقان يعد هجوماً جديداً على العاصمة البيزنطية فاجأته المنية . وكان ذلك في الرابع عشر من نيسان . فاضطر ابنه ان يصلح الروم ليتسنى له توطيد العرش ، فسالمهم ثلاثين سنة . وسلمت القسطنطينية من هجمات البلغار ثمانين سنة<sup>٢</sup> .

وكان لاوون وصولياً في سياسته . وكان يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الايقونات ولا يرغبون في تكريمها . فما ان استتب له الامر وتخلص من خطر البلغار حتى نكث يمينه ونبد عهد الولاة للكنيسة . وكان مراوغاً مداوراً ، فبت بادىء ذي بدء في الاوساط الرسمية وغير الرسمية ان ما حلّ بالدولة من ضعف وما احدثق بها من خطر انما نشأ عن العودة الى تكريم الايقونات وتقديسها . وبعد ان تمكن من جمع قرارات مجمع السنة ٧٥٤ عقد مجلساً في القصر ضم بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين بمن قال بالايقونات ومن حرّمها . ودعا البطريرك نيقيفوروس الى هذا المجلس في خريف السنة ٨١٤ وثيودوروس رئيس دير الاستوديون وطلب الى المجتمعين ان يبعثوا في امر الايقونات . فأجابته ثيودوروس

*Theophanes, Chron, 500-503 ; Burg, J. B., Hist. of East. Rom. Emp., ١ 29-30 ; Schlumberger, G., Les Iles des Princes, 35-38.*

*Runcimann, S., First Bulgarian Empire, 72-75.*

بصراحة وشدة ان البحث في الامور الدينية منوط برجال الدين وان  
الواجب على الفيلسوف ان يطيع هؤلاء في امور الدين لا ان يفتصب  
دورم اغتصاباً وان للفيلسوف ان يعنى بما سوى ذلك<sup>١</sup>. فأجاب لاوون  
بانه لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد. وفي عيد الميلاد من هذه  
السنة استمع للقداس الالهى في كنيسه الحكمة الالهية مظهراً الخشوع مكرماً  
الايقونات. ولكنه في ربيع السنة ٨١٥ القى القبض على البطريرك  
نيقفوروس ونفاه الى خريسوبوليس واقام في موضعه علانياً يدعى  
ثيودوتوس. ثم عقد مجمعاً محلياً في نيسان من السنة نفسها في كنيسه  
الحكمة الالهية ثبت فيه مقررات مجمع السنة ٧٥٤ وحرّم تكريم  
الايقونات<sup>٢</sup>. على ان لاوون الخامس كان اقل اسراعاً من سبقه الى محاربة  
الايقونات، مع أن مقاومة من كرم الايقونات كانت اشد واقوى من ذي  
قبل. فاكتفى لاوون بنفي الاساقفة والرهبان ومحبسهم. نفى ثيودوروس  
مثلاً الى بيتينية ثم الى ازمير. وهذا المجاهد بقي قوياً شديداً، فكتب من  
سجنه في ازمير في السنة ٨١٩ يشدد عزائم الرهبان كما انه استغاث بابا  
رومة وببطاركة الشرق الثلاثة<sup>٣</sup>.

واشرك لاوون ابنه في الحكم وظن انه بذلك يؤسس امرة حاكمة .  
ولكن وفاقه في السلاح الذين عاونوه في الوصول الى الحكم وفي طبيعتهم  
ميخائيل العموري لم يرضوا عن مسلكه فتآمروا عليه .. واكتشف لاوون  
هذه المؤامرة وقذف بميخائيل الى السجن ولكنه اجل عقابه حتى عيد الميلاد  
وترك شركاءه في المؤامرة احراراً. فعزم هؤلاء واصداقاهم على ان يضربوا

*Vita Theodore, Patrologia Graeca, Vol. 99, 181-183*

١

*Theophanes, Chron., 1033-1036.*

٢

*Vie de St. Georges d'Aniastris, 110-136.*

٣

ضربتهم قبل ان ينكشف امرهم . وقرروا ان يذبحوا لاوون في كنيسة الخاصة عند حضوره القداس لانه كان لا يقترب من القربان المقدس حاملاً السلاح . وهكذا حضر المتآمرون قداس الميلاد وهاجموا لاوون في اثناء صلاة التوبة . فاختطف هو الصليب المعدني الثقيل من المذبح وضرب به بعض الذين هاجموه . ولكنهم تكاثروا عليه وذبحوه على مقربة من المذبح واخرجوا ميخائيل من سجنه وتوجوه فسيفسأ قبل ان تكسر قيوده الحديدية<sup>١</sup> .

✠ الامرة العمورية : ( ٨٢٠ - ٨٦٧ ) وكان ميخائيل الثاني هذا ريفياً غير متقف . وقد اطلق عليه اسم العموري نسبة الى عمورية *Amorium* مسقط رأسه في ولاية فرجيحة . وكان يدعى الاثغ والتمتام . وكان قد قضى حياته في الجيش وترقى في سلكه حتى اصبح من كبار الضباط . وبقي جندياً عتيقاً بطباعه وعاداته . ولكنه كان قديراً ماهراً حكيماً . فخصّ عرشه بشطر وافر من وقته . وتزوج من افروسيئة ابنة قسطنطين آخر ورثة الاسوريين . فقوتى بذلك حقه في التاج . واشرك ابنه ثيوفيلوس في الحكم . ثم اصدر امراً منع فيه كل مشادة حول الايقونات ، واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب ذلك . واستقبل ثيودوروس الراهب الاستديوني في قصره واكد له حرية العبادة ، وقال لتقيفوروس البطريرك : ليس لي ان ابدع في الايمان والعقيدة ولا ان اجادل في التقاليد الموروثة او ان انتقضها<sup>٢</sup> . ولكنه قبل ان يتسنى له شيء من هذا

*Anonyme (Scriptor Incertus), Vie de Léon l'Arménien, Pal. Graeca; ١  
Legende Arabe, Byzantion, 1939, 383 sq*

*Gelzer, H., Abriss der Byz. Kaisergeschichte, 967; Ternovsky, F. A., ٢  
Graeco-Eastern Church, 487; Dobroklonsky, A., Theodore the Confessor,  
I, 849.*

اضطر ان يجابه ثورة مخيفة دامت سنتين وفاقت في اتساعها اكثر ثورات عصرها .

ثورة توما الصقلي : ( ٨٢١ - ٨٢٣ ) وكان بين رفاق ميخائيل في السلاح ضابط كبير صقلي الاصل او ارمني التحق بخدمة احد البطارق في عهد ايرينة ، فاتصل سرأ بزوجة البطريق وذاع هذا السر ، فهرب الى الشام وبقي فيها حتى عهد لاوون الخامس . فلما كان عهد نقفور عاد الى بلاد الروم واشترك في ثورة بردانيوس في السنة ٨٠٣ ، ثم عاد الى جوار الرشيد وبقي حتى عهد المأمون ( ٨١٣ - ٨٢٣ ) . وهذا الضابط الكبير هو توماسي الصقلي بطل هذه الثورة التي نحن بصدها .

وبما جاء في المراجع اليونانية انه في اثناء في ثورة بردانيوس ( ٨٠٣ ) على نقفور تمثياً احد الرهبان بفشل بردانيوس ورفاقه لاوون وميخائيل وتوما وبان الاولين يميلان التاج الامبراطوري ، وبان الثالث ينادى به امبراطوراً ولكنه يهلك بعد ذلك بقليل .

والواقع ان لاوون اصبح فيلسفياً ، وان ميخائيل استوى على العرش بعده ، وان توما طمحت نفسه الى الملك ، فبدأ يسعى له في ارمينية واليونان منذ اواخر عهد لاوون . فلما قتل لاوون في السنة ٨٢٠ استغل توما الظرف واتجهت نظاره شطر القسطنطينية وعرشها . وأيدت آسية الصغرى بمعظمها توما الصقلي لم يشد منها سوى ثيمتي ارمينية والابستق . فادعى توما انه قسطنطين السادس ابن ايرينة ، فالتف حوله مكرموا الايقونات . ورأى المستضعفون من سكان آسية الصغرى في توما محرراً ، فدخلوا في حزبه املاً في تحسين مستقبلهم فرفع الخادم يده في وجه سيده ، والجندي في وجه قائده ، والقائد في وجه اميره . ويرى بعض

رجال الاختصاص ان الصقالبة في آسية الصغرى وأوا في توما محروماً قومياً فاندفعوا في سبيل نصرته إندفاعاً عظيماً . ولا ننسى ان الإباطرة كانوا قد نقلوا الى آسية الوناً من الصقالبة .

وتقام توما والمأمون فأمدّه هذا بجيش قوي . ثم استمال جباة الضرائب في آسية فتوافر لديه المال . وأمر المأمون ايوب بطريك الروم في انطاكية ان يرسم توما فيلسافاً ، لانه سمع ان الفيلسوف لا يقام من غير بطريك « فقرأ البطريرك عليه الادعية ووضع على رأسه تاجاً ذهبياً بلحجار ثمينة » والتحق بتوما ايضاً اسطول ابيه فلم يبق لدى ميخائيل الثاني سوى الاسطول الامبراطوري .

ونهب توما بجيوشه الى بر الاناضول . ولم يكن عند ميخائيل الثاني فكرة صحيحة عن قوة خصمه ، فدفع للمقاتلة بجيش صغير . ونشبت معركة انتصر فيها توما وانهزم جيش الفيلسوف . فأدرك ميخائيل انه يواجه ثورة ليست كالمعتاد وان انصار الايقونات يؤيدون توما . ولهذا امرع فاستدعى اليه زعماء القائلين بتكريم الايقونات وحاول اقرار السلام الديني بمؤتمر في القصر كما سبقت معنا الاشارة . ولكن ثيودور الراهب رفض الاجتاج مع الهرطقة . وقصد توما القسطنطينية متأسياً انه يترك وراءه انصاراً لحصه ووصل الى المضائق وعبر البحر الى تراقية قبعه عدد كبير من السكان وبينهم الصقالبة المقدونيون . وبلغ القسطنطينية في اواخر السنة ٨٢١ وبدأ حصارها براً وبحراً . وكان يتوقع ان تفتح العاصمة ابوابها بمجرد اقترابه منها ، ولكنها لم تقبل . وضعفت الحماسة له في اوساط حزب الايقونات لانه كان قد احاط نفسه بالمسلمين وجاء منهم بعدد كبير . ورفع ميخائيل علم الحرب على سطح كنيسة بلاخرنة ، وتوأس ابنه ثيوفيلوس موكباً رافعاً

الصليب ورداء العذراء ودار حول الاسوار يسأل المعونة الالهية لانقاذ المدينة . واستمرت عمليات الحرب متساجلة واقتصرت على اصطدامات يسيرة لان ميخائيل صرف نفسه عن الاستيلاء بمركة حاسمة لكثرة جنود توما . ثم اتفق ميخائيل وامورتاج سخاقان البلغار فأصبح توما امام عدوين . وضع جيشه سائلاً لان الحرب طالت دونما وصول الى نتيجة حاسمة . وانحاز قسم كبير من جيش توما الى الفيلسوس في احدى المارك فارتد توما الى اركاذيوبوليس . فحصره ميخائيل فيها خمسة أشهر . فجاج اهل المدينة وقامت فيها مؤامرة فألقي القبض على توما وقيد وُسلم الى ميخائيل في منتصف تشرين الاول من السنة ٨٢٣ . ولم يقوَ المأمون على امداد توما باكثر مما فعل لاستغلاله بثورة الحرّمية .

نزول العرب في اقريطش : ( ٨٢٦ - ٨٢٧ ) وثار اهل قرطبة على الخليفة الحكم في السنة ٨١٤ فهزّمهم الخليفة وأمر من بقي منهم حياً ان يغادروا اسبانية في ثلاثة ايام . فجمع الثوار نساءهم واطفالهم وما استطاعوا حمله وأجبروا الى افريقية . وقصد قسم منهم بلغ عدده خمسة عشر الفاً الى ارض مصر فزّلوا في ضواحي الاسكندرية في هذه السنة نفسها . ثم انتهزوا فرصة اشتغال المصريين بثورة على العباسيين فاحتلوا الاسكندرية نفسها في السنة ٨١٦ . وفي السنة ٨٢٥ جاء القائد العباسي عبدالله ابن طاهر وطلب الى الاندلسيين مغادرة الاسكندرية ونصح لهم ان ينزلوا في اقليم من اقليم الروم .<sup>٢</sup>

وفي السنة ٨٢٦ اغار الاندلسيون الاسكندريون على جزيرة اقريطش

١ وافضل من صف في ثورة توما الاستاذ الكسندر فازيليف . راجع ترجمة مؤلفه :

الروم والعرب ، ص ٢٨ - ٤٨ ، تريب الدكتور محمد عبد الهادي شيره والدكتور فؤاد حنين علي ، القاهرة ، دار الفكر العربي .

٢ الكندي ، الولاة والفضاة ، ص ١٦٣ - ١٨٠ .

غارة استطلاعية تمهيدية وآبوا بالغنائم والاسرى . وفي السنة ٨٢٧ او ٨٢٨ نزلوا فيها فلم يلقوا مقاومة تذكر . وانشأوا لهم حصناً واحاطوه بالحدق وجعلوه حاضرة لهم . فسميت قاعدتهم الحدق ولا يزال اسمها Candia . وحاول ميخائيل انتزاع اقريطش من يد هؤلاء العرب . فانفذ اليها حملة قوية في السنة ٨٢٨ وأردفها بحملة اخرى في السنة ٨٢٩ ولكن جهوده لم تشر . وقدر للعرب الاندلسيين ان يبقوا فيها مدة قرن يفرون منها على الجزر المجاورة وعلى مراكز التجار ، فيقضون بذلك مضجع الروم وينزلون بتجارهم خسارة فادحة<sup>١</sup> .

**ثورة يوفيموس الصقلي :** (٨٢٦ - ٨٢٧) وثار يوفيموس تورمارخوس صقلية في السنة ٨٢٦ على ميخائيل الثاني واعلن نفسه فيلسافاً . ولكنه خشي سوء العاقبة ، فراسل زيادة الله الاول الاغلي (٨١٧ - ٨٣٨) ، وفاوضه على ان يحكم يوفيموس صقلية بلقب امبراطور ويدفع للامير الاغلي مالا سنوياً . فانفذ زيادة الله سبعين سفينة وعشرة آلاف فارس الى صقلية بقيادة عبد الله اسد ابن القرات . وكان نزولهم فيها في السنة ٨٢٧ بدءاً لاحتلال طويل الامد . ولم يوجه الروم جهوداً كبيرة للدفاع عن هذه الجزيرة نظراً لبعدها ولانشغالهم بناحية الشرق<sup>٢</sup> . ولم تكن انتصارات العرب فيها مريعة ولكنهم استولوا بالتدريج على الجزيرة كلها في عهد خلفاء ميخائيل .

**ثيوفيلوس الاول :** (٨٢٩ - ٨٤٢) وبرغم هذه الثورات المزعجة

١ فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٥٢ - ٦١ . الدكتور ابراهيم المنوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٨ - ٩٠ .

Bury, J. B., *East. Rom. Emp.*, 287-291 ; Brooks, E. W., *Arab Occupation of Crete*, *Eng. Hist. Rev.*, 1913, 431-443 .

Gabolto, F., *Enfermò il Movimento Separatista nella Italia Bizantina*. ٢

فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٦٢ - ٨٤ .

المخيفة فان ميخائيل توفي وفاء هادئة وتولى الحكم بعده ابنه ثيوفيلوس (حبيب الله) وكان ثيوفيلوس هذا رجل حرب ، فقاد جيوشه بنفسه واحرز بعض الانتصارات ، وفي الوقت نفسه كان رجل ادارة وتديير مالي ، فترك في الخزينة عند وفاته ما يعادل مليون ليرة ذهبية . وعني بالبناء فشيّد قصرأ جديداً في القسطنطينية ضامى به قصر المأمون وفاقه زخرفاً وجمالاً . واصبحت شجرته الذهبية حديث الشرق باسمه ، كما ظلت اسوده الذهبية التي ترفع من اسفل العرش فتزأر حديث الاجيال المقبلة . واهتم لمدارس الدولة التي كانت تخرج رجال الادارة والاساقفة فوكل امره الى لاوون الرياضي اشهر علماء عصره وارفعهم شأنأ ونجح بابقائه في بلاده على الرغم من ان خليفة بغداد كان يشوقه للانتقال اليه . وبما يجدر ذكره في هذا المقام ان ثيوفيلوس حين اصبح ارملاً طلب الى الامبراطورة فروسينة ان تجتمع في تشريفاتها اجل بنات الاشراف في العاصمة وسار بين صفوفهن ليختار زوجة . وكان يحمل في يده قفاحة من الذهب تشبهاً بباريس بطل الاساطير اليونانية القديمة . فوقع نظره في اول الامر على الحسناء ايكاسية . وعندما اقترب منها قال لها : « ان معظم الثمر من النساء » . فاجابت : « ومعظم الخير ايضاً » ، فاضمته . ويبدو ان هذا الرد لم يرض الفيلسوف لانه تابع طريقه واعطى القفاحة الذهبية لثيودورة التي كانت تنافسها في الجمال . وكان اختياره مريعاً لان ثيودورة كانت تكرم الايقونات فاستعملت نفوذها كله ضد آراء زوجها<sup>٢</sup> .

ويختلف المؤرخون في موقف ثيوفيلوس من الايقونات . فبعض يرى فيه عدواً لدوداً للايقونات وأنصارها ، وبعض يراه معتدلاً في موقفه مقتصراً

*Goerges le Moine, III, 23 ; Symeon Magister, Chronique, 20.*

١  
٢ اومان ، الامبراطورة البيزنطية ، عمره الدكتور مصطفي طه بدر ، ص ١٦٤ - ١٦٥

في اجراءاته على العاصمة وضواحيها. والواقع انه رغم تعلقه بالعدواء والتديسين قد اتخذ له في هذه الامور مستشاراً عدواً للايقونات وهو العالم الشهير يوحنا الكاتب. وجعل من صديقه هذا بطريركاً مسكونياً وكوى كفي العازار الراهب المصور بالحديد الحامي، ووجد ثيوفانس وانساه ثيودوروس الراهبين الفلسطينيين ووسم جبينيهما بايات من الشعر نظمها هو نفسه.<sup>٢</sup>

ثيوفيلوس والعرب: وظهرت طائفة الحرّمية في جبال فارس بين اذربيجان والديلم، وتولى رئاستها بابك وعاث في البلاد فساداً في عهد المأمون، وهزم جيوش الخليفة العباسي المرة تلو الاخرى. وأباد جيشاً بأكمله بعثه المأمون في السنة ٨٢٩ - ٨٣٠. وقد دامت ثورة بابك حتى ايام المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢). هجره المعتصم جيشاً كبيراً بقيادة الافشين وغيره للقضاء على هذه الثورة. فأرسل بابك الى ثيوفيلوس بجرّده على الخليفة العباسي. فرأى ثيوفيلوس في ثورة بابك فرصة يقابل فيها العباسيين بمثل ما فعلوا عندما ساعدوا توما في ثورته على والده ميخائيل. وهكذا أعدّ ثيوفيلوس جيشاً كبيراً واتجه به الى اعالي الفرات وهو يأمل الاتصال بالحرّمين. وبلغ الى زبطرة سنة ٨٣٧ واشعل فيها النار وسبى نساءها واطفالها ثم دخل مهيماً وملاطية<sup>٣</sup>. وعاد بعد ذلك الى القسطنطينية فاستقبل فيها استقبال الظافر وخرج الناس للقائه باكاليل من الزهر. واقامت حفلة سباق ظهر فيها ثيوفيلوس بثياب زرقاء فوق عربة تجرها خيول بيضاء. وألبس تاج النصر ونادى الشعب: احسنت السير ايها السائق الاصيل!

Bury, J. B., *East. Rom. Emp.*, III, 140-141.

Vasilev, A. A., *Byz. Emp.*, 286.

١  
٢  
٣ البلاخري، فتوح البلدان، ص ١٩٢. العوني، ج ٢، ص ٥٨٠.

ولكن المعتصم استطاع ان يقضي على ثورة بابك في اواخر السنة ٨٣٧ ففرغ للروم وأعد ثلاثة جيوش ستر احدھا بقيادة الافشين عبر طوروس من درب الحدث ، وقاد هو الجيشين الآخرين وعبر بهما من ابواب قيليقية . وكانت انقرة نقطة التلاقي . فصد ثيوفيلوس اولاً عند نهر الماليس ( او آلس كما يسميه العرب ) ، ولكنه لما علم بزحف الافشين منفرداً قام لصدھ قبل ان يتسنى للافشين الانضمام الى الجيشين العربيين الآخرين . فالتقاء قرب دوزمانه وهي لا تبعد كثيراً عن ترخال . فدارت الدائرة على الروم وانهمزم ثيوفيلوس منكفئاً الى القسطنطينية . وتقدم العرب الى عمورية وحاصروھا ثم دخلوها عنوة ونهبوا واحرقوا ، واسروا عدداً كبيراً من الجنود والضباط والقادة ، وقتلوا ستة آلاف من الاسرى . وأمر الخليفة اثنین واربعین من كبار الضباط ان يسلموا ليسلموا . فلما أبوا قتلوا عند ضفة دجلة<sup>١</sup> . ولعل المعتصم فكر في الزحف على القسطنطينية ولكنه اضطر للتراجع اذ وردت عليه انباء مؤامرة قامت لخلعه<sup>٢</sup> . وفي السنة ٨٣٩ ظهرت عمارة رومية في مياه السواحل الشامية . وفي السنة ٨٤٠ تقدم الروم فأخذوا مرعش واحتلوا بعض مناطق ملاطية . ورغب المعتصم في السلم ولكنه عاد فأعد عمارة كبيرة ليغزو بها القسطنطينية . الا ان المنية عاجلته في السنة ٨٤٢ ، وعصفت عاصفة هوجاء بالعمارة العربية فحطمتها<sup>٣</sup> . ووجه ثيوفيلوس وفوداً نحو الغرب : الى البندقية والى انكلهايم عاصمة لويس التقي الورع ، والى عبد الرحمن الثاني الاموي الاندلسي ، يطلب المعونة . ولكن

*Barg, J. B., Mutasim's Murch Through Cappadocia, Journal of Hell. Studies, 1909, 120-129; Vasiliev, A.A., Martyrs of Amorlon, Transactions of Imp. Acad. of Sciences, VIII, Ser. III.*

٢ الطبري ، ٤٣ ، ١٢٣٦ .

*Diehl et Marçais, Monde Oriental, 312-313 .*

ثيوفيلوس على الرغم من الترحيب بهذه الوفود لم يلقَ اية معونة .  
**ميخائيل الثالث :** ( ٨٤٢ - ٨٦٧ ) وتوفي ثيوفيلوس في السنة نفسها  
 التي توفي فيها المعتصم ، وخلفه خمس بنات وابناً ذكراً هو ميخائيل  
 الثالث . واذ كان ميخائيل هذا لا يزال في السادسة من عمره فان الملك  
 الراحل جعل زوجته ثيودورة وصية على الملك القاصر . وعاونها في الوصاية  
 مجلس تألف من كبار رجال الدولة . وكان ذروموس ثيوكتيستوس  
 Theoctistus عم ثيودورة ووزير المال أشهر هؤلاء وألمهم .

وكانت ثيودورة من محبي الايقونات . ووافقها على ذلك مجلس الوصاية .  
 فدعت الآباء الارثوذكسين الى مجمع ليحلوا ثيوفيلوس زوجها من خطيئته  
 في اضهاد من كرم الايقونات . وطلبت الى البطريك يوحنا الكاتب ان  
 يشترك في اعمال هذا المجمع فأبى ، فعزله مجلس الوصاية وأقام مثوذوس  
 المعترف بطريكاً محله . وصدق المجمع اعمال المجمع السابع . وفي اول  
 احد من الصوم الكبير من السنة ٨٤٣ نصبت الايقونات المكرمة في  
 كنيسة الحكمة الالهية واصبح هذا اليوم وما زال عيداً سنوياً لرفعها  
 وانتصار الرأي الارثوذكسي<sup>١</sup> . وأصدر البطاركة الثلاثة خريستيفوروس  
 الاسكندري واوب لانطكي وباسيليوس الاوروثليمي بياناً مشتركاً  
 بوجوب حماية الايقونات وتكريمها .

وظلت ثيودورة ، بالتعاون مع عمها ثيوكتيستوس ، تدير دفة الحكم اربع  
 عشرة سنة ( ٨٤٢ - ٨٥٦ ) . وفي خلال هذه المدة طرأ تغيير على عضوية  
 مجلس الوصاية فأصبح اخو ثيودورة برداس عضواً في هذا المجلس . فنشبت  
 مشادة بينه وبين ثيوكتيستوس ام اسبابها حب السلطة وشهوة الحكم .

١ جواسيموس متروبوليت بيروت ، الاعتناق ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 287 .

فنشأ انقسام داخلي بين الأعضاء وادى الى استقالة عمانوئيل عم الفيلس والى سجن ثيوكتيستوس وقتله سنة ٨٥٤ . وكان السبب وشاية رفعها برداس الى الفيلس الشاب ان ثيوكتيستوس عقد النية على التزوج من ثيودورة او احدى بناتها للوصول الى العرش . فنشأت مشادة عنيفة بين ثيودورة واخيها برداس حول السلطة ادت في السنة ٨٥٦ الى خروج ثيودورة وبناتها من القصر . وأصبح برداس صاحب الصول والطول . وتوفي احد ابناء برداس فأقامت امرأته افذوكية في بيت عمها برداس . ولم تكن الحماة والكننة على مشرب واحد فاندلعت الشرور في البيت . وظهر برداس عطفاً على كخته فاتهمته امرأته بكنته . فطرد امرأته من البيت . فالتجأت الى اخته ثيودورة الأمباطورة . فتكدرت ثيودورة من هذا النفور وما رافقه من خبز قبيح . وفي هذه الاثناء كان قد توفي البطريرك مثوذوس في السنة ٨٤٨ وحل محله اغناطيوس بمساعدة ثيودورة . وكان اغناطيوس هذا رجلاً ورعاً تقياً ولكنه كان فظاً قاسياً . وكان خبز برداس وامرأته وكنته قد شاع في المدينة ، فوبخ البطريرك برداس ونهاه عن المحرم ونصح له أن يقبل امرأته في بيته . فأبى برداس . وفي عيد الظهور الالهي سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ميخائيل الثالث ليتناول الأسرار الالهية . فأبى البطريرك مناولته وطرده خارج الكنيسة امام الشعب كله . فأخذ برداس يرجو ويستعطف وشفع له القيصر ولكن دون جدوى .

وكانت الكنيسة الارثوذكسية قد انقسمت على نفسها من حيث موقفها من الدولة ، وظلت منقسمة حتى السنة ٩١٢ . فالأستوديون ومن أيدهم من المتشددين في الدين رأوا ان لا مبرر لتدخل السلطة في شؤون الكنيسة . أما الرهبان الاوليبيين وكبار الأساقفة فكانوا معتدلين في موقفهم من السلطة وتدخلها ، ومن هنا نشئت متاعب مثوذوس البطريرك . ومن

هنا كان انتقاء اغناطيوس . فان الامبراطورة ثيودورة ظنت ان المعسكرين سيؤيدانه ، نظراً لطهارته وتشدده في الدين ، ونظراً لكونه ابن ميخائيل الثاني الفيلسوف السابق . ومن هنا ايضاً ضغط برداس على فوطيوس العلماني ليكون خلفاً للبطريك اغناطيوس<sup>١</sup> .

وحتى برداس على البطريك اغناطيوس وطلق يسمى للانتقام منه . واتفق ان راهباً ادعى أنه ابن ثيودورة من رجل كان لها في السابق . فأخذ الشعب ينظر اليه كأنه هو الملك المزمع بعد تنحيها . فقبض عليه برداس وزجه في السجن . واستنطقه فلم يعترف . فأمر بقلع عينيه وقطع اوصاله . وكان البطريك اغناطيوس يعطف على هذا الراهب ويدافع عنه ناسباً عمله الى الجنون . فاغتم برداس الفرصة واتهم البطريك بالتآمر على الفيلسوف ليرجع ثيودورة وبناتها الى ادارة الملكة . فصدق الفيلسوف ميخائيل الثالث كلام برداس وأمر اغناطيوس ان يجعل ثيودورة وبناتها راهبات في احد الاديوة . فسألهن اغناطيوس هل يردن الدخول في سلك الرهبنة فأكرهن . فامتنع عن اجابة طلب الفيلسوف قائلاً ان القانون يقضي منهن الموافقة وهن لا يوافقن فاكراهن مخالف للقانون . فصدق ميخائيل ان البطريك عدو له . فأكره والدته واخواته على الترهّب كما أمر اغناطيوس ان ينزل عن كرسية . فقدم اغناطيوس استغفائه في الثالث والعشرين من تشرين الثاني وبقيت الكنيسة خمسة وعشرين يوماً بدون راع . وتشاور الاساقفة والفيلسوف وبرداس في أمر الحلف ، واجمعوا على انه يجب ان يكون رجل سلام يتوسط للوفاق بين الجهتين ، واشتروطوا ان يكون ايضاً ذا همة ونشاط ليدفع المرطقات . فاتفقوا على فوطيوس كاتم اسرار الملكة وقتئذٍ ، وهو الذي اشتهر

*Brehier, L., Byzance, Vie et Mort, 117-118.*

بالدراية والحكمة والفضيلة والتقوى والعفة الطوعية والعلم والفلسفة<sup>١</sup>. فرفض فوطيوس ان يتولى المنصب ولم يرضَ ان يستعيز عن السكينة والراحة باتعاب السدة البطيريركية . فأصر عليه الرؤساء والاعيان بوجود القبول ، فلم يصغر لهم . فانحاز اليه عندئذٍ اكثر اتباع اغناطيوس المستقيل . وهدده برداس بالسجن فأذعن لمشيئته . وأخذ يعلو درجات الهكنوت في سرعة فائقة . فسيم في اليوم الاول متوحداً ، وفي اليوم الثاني اناغنوسطاً ، وفي اليوم الثالث ايودياكوناً ، وفي الرابع شماساً ، وفي الخامس قساً ، وفي السادس يوم عيد الميلاد اسقفاً وبطيريكاً . وكان المتقدم في شرطونيته غريغوريوس آربستاس اسقف مرقوسة . فأدى تقدم غريغوريوس آربستاس في الشرطونية الى نفور اغناطيوس المستقيل وخسة اساقفة معه . واشتد الحسام . ويشس اغناطيوس واتباعه من الوصول الى حل مرضي ، فكتبوا الى بابا رومة يشكون ظلمهم ، وكتبوا ايضاً الى بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم .

وفي اثناء هذا كله استؤنفت محاربة الايقونات وذوّر قرن الشقاق بين الارثوذكسين واصحاب الطبيعة الواحدة ، وهب البولسيون والمانيسيون يشاغبون<sup>٢</sup>. وعرا الكنيسة اضطراب شديد من جراء هذه التلاقل . فرأى الفيلسفس ونجلسه الاعلى والبطيريك الجديد ان يجمعوا جمعاً مسكونياً . وكتب فوطيوس « رسائل الجلوس » وارسلها الى البابا وسائر البطاركة . وبات ينتظر « رسائل السلام » في الرد عليها . فارسل البطاركة الشرقيون الثلاثة رسائل السلام . اما بابا رومة نيقولاوس الاول فانه لام الفيلسفس

*Dvornik, F., Photian Schism, Cam., 1948, 432.*

١ راجع ايضاً كلامنا عنه في الفصل التالي .

*Ranciman, S., Mediaeval Manichee Cam., 1947; Obolensky, D., Bogomils, ٢ Cam., 1948 .*

على عزل اغناطيوس ، واحتج على ترشيح علماني ليخلفه ، وطالب باعادة رئاسته على الابريشيات التي كانت قد سلخت عن كروسي رومة في عهد لاوون الثالث ، وارسل اسقفين اثنين الى القسطنطينية ليحملوا رسالته وينظروا في الموقف عن كثب . فلما وصلا ووفقا على مسألة فوطيوس واغناطيوس وجدا ان اغناطيوس كان قابلاً بشرطونية فوطيوس وان الجميع التمسوا فوطيوس واحرجوه ليقبل البطريكية . فاستركا في المجمع المسكوني الثامن ( الاول والثاني ) الذي انعقد في القسطنطينية في السنة ٨٦١ ووافقا على ارتقاء فوطيوس وعلى سائر قرارات هذا المجمع واهمها الا يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقة العوام او الرهبان ما لم يتبرس في الدرجات الكنائسية درجة درجة ، ويتم المدة القانونية فيها<sup>١</sup> .

وارسل ميخائيل الثالث اعمال هذا المجمع ( الاول الثاني ) المسكوني الى البابا نيقولاوس الاول مع احد كتبه لاوون ومع سفيري البابا وزودهم بهدايا كنائسية ورسالة منه الى البابا . وكتب فوطيوس ايضاً رسالة ملأى باقوال اللطف الانجيلي<sup>٢</sup> . فلما تسلم نيقولاوس هذا البريد ووقف على مضمونه وعلى ما فعله نائباه في القسطنطينية ألغى عمل النائبين مدعيّاً انها تجاوزا صلاحيتها ، وعقد مجعماً محلياً في السنة ٨٦٣ وحكم على فوطيوس وقطعه ، واعترف باغناطيوس بطريركاً قانونياً وهدد باللعنة والحرم كل من يتجاسر ان يخالف هذا القرار . وكتب بذلك الى الفيلسوف فأجابه الفيلسوف بكتاب مرّ جعل البابا يقول عنه ان كاتبه قد غمس قلبه في حلق ثعبان . وبما زاد العلاقات تعقداً ان ميخائيل الثالث وفوطيوس البطريرك كانا قد نجحنا بنشر الدين المسيحي في الاوساط البلغارية الحاكمة

*Bréhier, L., Byzance op. cit. 119; Regestes des Actes du Patriarcat ١ Byzantin, 466; Mansi, Amplissima, XVI, 297-301.*

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانتلاق ، ج ١ ، ص ٤٤٨ - ٤٦٨ .

فتدخل البابا في شؤون الكنيسة البلغارية الجديدة . فنار ثائر ميخائيل وفوطيوس وأعدا منشوراً لقطعه واتهما الكنيسة الرومانية بالهرطقة والخروج على مقررات المجامع المسكونية وطلبا عقد مجمع مسكوني للنظر في هذه الامور . ثم اغتيل ميخائيل الثالث في الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ .

**تنصر الصقالبة :** (٨٦٤ - ٨٦٧) وحوالى السنة ٨٦٢ أوفد رستيسلاف امير مورافية الكبرى رسلاً الى القسطنطينية يستجير بميخائيل الثالث على البلغار حلفاء خصه لويس الالماني . وأثمرت مساعي رستيسلاف حوالى السنة ٨٦٤ عندما هزم الروم جيشاً بلغارياً كاث في طريقه الى الحدود المورافية للتعاون مع الالمان . وراب رستيسلاف أمر المرسلين الالمان الذين كانوا يخلطون بين الدين والسياسة في بلاده . فطلب مبشرين ارتودكسين يعلمون شعبه الدين القويم . فاختار البطريرك فوطيوس الاخوان قسطنطين ومثوذوس لهذه الغاية . وكان الامبراطور قد سبق له ان خبر قسطنطين قبل تبوئه العرش البطريركي حين اوفده الى الحزر في جنوبي روسية للقيام بهمة سياسية ودينية . وكان قسطنطين من أشهر علماء عصره في الدين والفلسفة ، ويعرف لغة الصقالبة لانه نشأ في تيسالونيكية وتوعرع فيها في منطقة كثيرة الصقالبة . ورحل الاخوان الى مورافية في السنة ٨٦٤ فاشتقا من الاحرف اليونانية حروفاً صقلية ، ونقلوا الانجيل الى اللغة الصقلية وبشرا بها وصنفا في هذه اللغة بعض الكتب الضرورية للخدمة الدينية .

**تنصر البلغار :** ( ٨٦٤ ) واستقر البلغار كما سبق ان أشرنا في ميسية وتراقية واختلطوا بالصقالبة وتعلموا لغتهم . وكانوا اقلية عسكرية حاكمة . فرأى بوغوريس Boris خاقانهم ( ٨٥٢ - ٨٨٩ ) ان مصلحته تقضي بتقبل الدين المسيحي وهو دين رعاياه الصقالبة ليتسنى له توطيد سلطته المركزية ازاء الزعامات المحلية الاقليمية عند الامراء البلغارين . وبدأ البلغار يتعرفون الى النصرانية عن طريق رعاياهم الصقالبة وعلى يد الاسرى الروم .

وكان الاسرى البلغار يتعلمون الدين المسيحي في بلاد الروم . وكان من جملة هؤلاء شقيقة خاقان البلغار بوغوريس . فانها اقامت مدة طويلة اسيرة في بلاط الروم وتعلمت الدين المسيحي وتقبلت المعمودية . وعند مبادلة الاسرى عادت الى بلادها ومعها مثوذيس اخو قسطنطين المشار اليه آنفاً ، فحاولت مع مثوذيس استمالة بوغوريس الى الايمان فلم تستطع . وكان مثوذيس هذا راهباً بارعاً في فن التصوير . وكان بوغوريس يرتاح الى الصور المتقنة . فرسم مثوذيس صورة الدينونة ، ورسم فيها الديان جالساً وميزان العدل مرفوعاً والصديقون ينالون الاكليل والاشرار يدخلون جهنم . فلما رأى بوغوريس الصورة تحشع وخاف ومال الى النصرانية . وفي السنة ٨٦٤ وقع جوع شديد في بلاد البلغار واستعان لويس الالماني ببوغوريس على رستيلاف . فهب بوغوريس يزحف بجموعه . فهجم عليه ميخائيل الثالث ونخاله برداس . فسلم نفسه والبلاد وعاهد ان يعتمد ويكون مسيحياً . وجاء بوغوريس وعظماؤه بملكته الى القسطنطينية واعتمد على يد البطريرك فوطيوس وسمي ميخائيل في المعمودية باسم اسثينه ميخائيل الفيلسوف . وعين البطريرك فوطيوس رئيس اساقفة بلغارية وقسيسين ومعلمين . وبعد سنتين ( ٨٦٦ ) هجم لويس الالماني على بوغوريس وغلبه . فطلب البابا نيقولاوس الى لويس الالماني ان يدفع بوغوريس الى طلب معلمين روحيين من البابا . فبادر البابا الى ارسال قسيسين الى بلغارية . وكان ما كان من امر الاختلاف بين فوطيوس ونيقولاوس . فظعن القسيسون الباباويون بفوطيوس واعادوا معمودية من سبق ان اعتمدوا على يد قسامة الروم وطرردوا هؤلاء من بلغارية . فأذاع فوطيوس منشوره ضد البابا في السنة ٨٦٧ كما سبق ان اشرنا .

*French, R. M., Eastern Orth. Church, 57-66 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 324-326.*

ميخائيل الثالث والعرب: وأدى اندفاع ثيودورة في سبيل الدين القويم الى اضطهاد البولسيين في آسية الصغرى. وهم فرقة مسيحية انتسبت باسمها الى بولس السيساطي واختلفت في عقيدتها وطقوسها عن الكنيسة الام. فاستدعت الكنيسة رؤساءهم وختيبتهم بين الارثوذكسية والقتل. فلما رفضوا اخذت الحكومة البيزنطية تعمل على اخضاعهم بالقوة فقتلت منهم عدداً كبيراً. وفر الباقون الى حدود العرب الى تفرقة Tephricه ونواحيها. فأصبحوا اداة فعالة بيد العرب في حروبهم مع الروم.

وتوفي المعتصم في السنة ٨٤٢ وتولى الخلافة بعده ابنه الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) فواجه ازمت داخلية خطيرة منها ثورة دمشق وثورة الاكراد وعصيان الخوارج. فلم يستطع المضي في محاربة الروم. وكان الروم لا يزالون في غمرة الفشل الذي اصابهم في صقلية. ولذا فأننا نقرأ عن وصول رسول رومي الى بلاط الواثق. يفاوض في فداء الاسرى. وحصل الفداء على ضفاف اللامس في اواخر السنة ٨٤٥. وارسلت ثيودورة في السنة التالية جنداً الى صقلية ولكن هزمهم ابو الاغلب العباس. ثم حاول الروم النزول في خليج منديلو بالقرب من بالرمو فلم يوفقوا. وتجاوز هجوم العرب صقلية الى ايطالية. فتقدموا الى مصب التير في السنة ٨٤٦. وعادوا الى المصب نفسه في السنة ٨٤٩. فهبت عاصفة قوية واغرقت اسطولهم. وأسر كثير منهم واقتيدوا الى رومة. والزموا بالعمل في بناء مدينة الفاتيكان<sup>١</sup>.

وكان العرب الاندلسيون في اقريطش لا يزالون يعرقلون سبل تجارة الروم ويهددون جزر ايجيه وشواطئه بالقرصنة فأمرت ثيودورة بالاغارة على ساحل مصر لتخريب ما فيه من صناعة بحرية كانت تزود عرب اقريطش بالسفن والعتاد واحياناً بالرجال. فقام اسطول رومي الى دمياط في

١ نازيليف ، الروم والعرب ، ص ١٨٠ - ١٨٧ .

ربيع السنة ٨٥٣ وهاجم دمياط في الثاني والعشرين من ايار ، يوم عيد الاضحى . وكان الوالي العباسي على مصر غنبة ابن اسحق قد استدعى حامية دمياط للاسترايك في عرض حربي في القسطنطينية . فهرب سكان دمياط وهلك منهم خلق كثير . واستولى الروم على المؤن والذخيرة المعدة للشحن الى افريطش واحرقوا السفن المكدسة في المخازن البحرية واقلموا الى تيس ثم الى اشتوم فأحرقوا ما كان بها من الآلات الحربية<sup>١</sup> .

ولم يطل عهد الواصل في الخلافة . فانه أصيب بداء الاستسقاء فعولج بالاقعاد في تنور مسخن فوجد لذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة فقعد فيه اكثر من اليوم الاول فحمي عليه فأخرج منه في محفة<sup>٢</sup> ، فمات في الثانية والثلاثين من عمره . وبويع بعده اخوه المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم (٨٤٧ - ٨٦١) فكان نيرون العرب . فان ما اقترفه من افاين الانتقام والجور لم يصل اليه خيال . وبلغ ما نشأ عن كباثره من النقور مبلغاً حل ابنه المستنصر على قتله . ثم مات المستنصر المأ وندماً في السنة الاولى من خلافته (٨٦١) ، فأختار الحرس وجنود الأتراك خلفاً له المستعين بالله . فدامت خلافته ثلاث سنوات . ثم استبدلت به عصابة من الحرس المعتز بالله (٨٦٦) ، فأنبرت عصابة اخرى وخلفت المعتز هذا في السنة ٨٦٩ فجلس على كرسي الخلافة المهدي (٨٦٩ - ٨٧٠) ففكر بالاصلاح فأدى ذلك الى قتله في قصره . فخلفه المعتد فدام عهده اثنتين وعشرين سنة (٨٧٠ - ٨٩٢) بفضل اخلاص اخيه الموفق<sup>٣</sup> .

وفي آخر صيف السنة ٨٥٦ حين عاد علي ابن يحيى من صائفته التقليدية

- ١ المصدر نفسه ، ص ١٨٨ - ١٩٢ .
- ٢ الكامل لابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
- ٣ تاريخ العرب لسديو ، تعريب عادل زعيتر ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

قام بتروئاس اخو برداس خال الفيلس بفزو العرب فأحرز نصراً في ارض  
 سيمساط وتقدم حتى بلغ قريباً من آمد ثم اتجه الى الشمال الغربي نحو البولسين  
 في تفرقة فأحرق قرى عدة وأسر عشرة آلاف . ولم يكدميخائيل  
 الثالث يستكمل قوته حتى نهض لغزو العرب في السنة ٨٥٩ قاصداً سيمساط  
 ومعه برداس خاله فبلغ الفرات فهب وأحرق وأمر . وحصل فداء في السنة  
 ٨٦٠ . وقام نصر ابن الازهر الى التسطنطينية لهذه الغاية . وعليه السواد  
 وقلنسوة وسيف وخنجر فلم يرض بتروئاس خال الفيلس ان يأذن  
 للسفير العربي بالدخول الى البلاط على هذه الهيئة واحتج بوجه خاص على  
 الثوب الاسود وحمل السيف . فغضب الرسول ورجع ، فادركوه وادخلوه  
 فقدم الى الامبراطور ما حمل من الهدايا الف نافجة مملوءة مسكاً وثياباً  
 من خير وكمية من الزعفران النادر وحلياً اخرى مختلفة . وكان ميخائيل  
 يجلس في الاستقبال على عرشه يحيط به بطارقه الاشراف وبين يديه  
 التراجمه سرور وغلام للعباس ابن سعد الجوهري ومترجم عجوز اسمه  
 مرحان ولعله سرجيوس . فتقدم رسول الخليفة بالتحيات وجلس في المكان  
 الذي اعد له . ووضعت الهدايا امام الفيلس . فأخذها وأحسن معاملة  
 السفير . ومكث رسول الخليفة العباسي اربعة اشهر في عاصمة الروم . ثم  
 استؤنفت مفاوضات الفداء . واقسم كل طرف على الوفاء . ثم تم تنفيذه  
 عند اللامس Limes فأطلق الروم اكثر من الف مسلم فيهم عشرون امرأة  
 وعشرة اطفال واطلق العرب اكثر من الف اسير . اما الالف الباقية  
 فتركت لقاء ما وُعد به الفيلس من اقتداء البطريق المأسور في لؤلؤة .  
 وكان قوم من الروم قد دخلوا الاسلام وقوم من العرب قد تنصروا .  
 ومن رغب في النصرانية ترك عند الروم .

والغريب ان النضال بين الروم والعرب استؤنف في صيف هذه السنة نفسها . فسار ميخائيل الثالث بنفسه لغزو العرب ووصل الى موروبوتامن . فأنذره وكيهه في العاصمة قائد الاسطول الدرنغار نسيناس اوريفاس بقدم الروس . فاضطر الفيلس ان يسرع في العودة قبل ان يشرع في الحرب شروعاً جدياً . فوصل الى العاصمة وقد احاط بها الروس وقتلوا من حولها السكان ، فلم يستطع ان يعبر المضيق الا بعد مشقة<sup>١</sup> . وانتهز العرب حمة الروس وغياب الفيلس فبدلوا نشاطاً كبيراً . فشن امير ملاطية عمر ابن عبدالله غارة على الروم فعاد بسبعة آلاف اسير . وأغار قرباص فأمر خمسة آلاف . وعاد علي ابن يحيى بخمسة آلاف ايضاً ومثي فرس وثور وحمار . وأغار فضل ابن قارون مجراً بعشرين سفينة وأخذ انطاكية<sup>٢</sup> .

وفي صيف السنة ٨٦٣ في ايام المستعين قام عمر ابن عبدالله امير ملاطية بجولة موفقة بلغ بها قلب ارض الروم ، فخرّب ثيبة ارمينية ، وتقدم حتى بلغ البحر الاسود فأخذ اميسوس (مهمون) ، وساءه ان يوقف البحر سيره فأمر بضرب البحر ! وعلم ميخائيل الثالث بهذا كله ، فجهز جيشاً قوياً وجعل علي رأسه بتروثاس نخاله . فزحف بتروثاس فأدرك عمر ابن عبدالله عند بوزن Poson في بFLAGونية في الثالث من ايلول سنة ٨٦٣ فحصره ووقع به هزيمة تامة واحتز رأسه وارسله الى القسطنطينية وقتل عدداً كبيراً من جنوده وامر الباقي<sup>٣</sup> .

وسادت الفوضى في ايام المستعين بالله ، من مكة ، الى حمص ،

Vasiliev, A. A., Byz. Emp, 277-278 .

١

٢ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٤٤٩ .

٣ لازيليف ، الروم والعرب ، ص ٢١٨ - ٢٢٥ .

فالموصل ، قاصفهان . واستبد الحرس من جنود الاتراك وهددوا المستعين ،  
فحاول الفرار من سامرا الى بغداد ، فقطع بذلك صلته بالترك . فقاموا  
مقامه المعتز . وتنازل المستعين عن حقه في الخلافة ( ٨٦٦ ) واعتزل باقي  
حياته في المدينة .

## الفصل الحادي والعشرون

### العلم والادب والفن في القرنين الثامن والتاسع

احياء الجامعة : وقد يكون برداس اخو ثيودورة ونخال ميخائيل الثالث وصولياً في السياسة طامعاً في الحكم ولكنه كان دون ريب ذكياً مفكراً ، محباً للعلم والادب والفن ، حامياً لها مشجعاً عليها . واليه يعود الفضل والشرف في احياء الجامعة في القسطنطينية ، والعودة الى العلوم العالية ، النصرانية منها والوثنية . فانه استدعى الى القصر أعلم علماء زمانه وجمعهم في مدرسة عالية «الماغورة» وعهد برئاستها الى فخر ئيسالونيكية لاوون الرياضي الطيب الفيلسوف<sup>١</sup> . وكان بين اساتذتها فوطيوس البطريرك وقسطنطين رسول الصقالبة وقد سبقت الاشارة اليهما . وكانا يدرسان اللغة والفلسفة . وعلم غيرهما الهندسة والفلك . واشتد عطف برداس على الجامعة فتردد اليها واحتك باساتذتها وطلابها ، وحضهم على السير في سبيل العلم والفكر .

ولم يرضَ بعض رجال الدين عن هذه العناية بالعلوم القديمة لانها صدرت عن الوثنيين فاتهموا لاوون بالسحر واذاعوا ضده المناشير واكدوا

*Fuchs, F., Die hohen Schulen von Konstantinopel im Mittelalter, ١  
Berlin, 1926.*

انه سيرافق سقراط وافلاطون وارسطو في جهنم . ولكن برداس مضى في عمله العالمي غير مبالٍ بهذا كله فنفتح في عاصمة الروم روحاً علمية مباركة مهدت السبيل لوثبة القرن العاشر ، وخطت ذكرى الاسرة العمورية في تاريخ الحضارة الى ما شاء الله .

**نادي فوطيوس :** وجعل فوطيوس ( البطريرك فيما بعد ) بيته نادياً ادبياً علمياً . ودعا اليه اصدقاءه الادياء والعلماء للمطالعة والبحث . وجمع اليه عدداً كبيراً من المؤلفات المسيحية والوثنية . ونزولاً عند طلب اصدقائه هؤلاء دون خلاصة ما كان يقرأ في النادي من المؤلفات فصف بذلك كتابه البيبليوتيكة Bibliotheca او الميريوبيبليون Myriobiblon كما يدعى احياناً ومعناه « الرف الكتب » . فحفظ لنا بمجموعته هذه اشياء واشياء من مؤلفات فقدت فيما بعد . فنجد في مجموعته كلاماً مفيداً من اقوال رجال اللغة والحطباء والمؤرخين وعلماء الطبيعة والاطباء والآباء والمجامع . وصنف فوطيوس كثيراً في اللاهوت واللغة وخلف مواعظ عديدة ورسائل كثيرة<sup>١</sup> .

**دير الاستوديون :** وعاد ثيودوروس الراهب من منفاه . فأقام في دير استوديون في العاصمة ورهبه واصلحه . ثم هب لاصلاح الرهبنة فقدم الحياة المشتركة « الكينويوس » Koinos bios على الاعترال الفردي ووجب تهذيب الرهبان . ففرض القراءة والكتابة ، ونسخ المخطوطات ، ودرس الاسفار المقدسة ، ومؤلفات الآباء ، ونظم الترانيم وتوتيلها . ونظم هو بالاشتراك مع اخيه يوسف رئيس اساقفة ثيسالونيكية معظم كتاب التريوديون الخشوعي . وكتب في اصول الايمان كتابي الكناكيزموس الكبير والصغير

*Burg, J. B., East. Rom. Emp., III, 445-446 ; Jorga, N., Hist. de la Vie Byzantine, II, 106-107.*

فلقياً رواجاً كبيراً. وله رسائل عديدة في الدفاع عن الايقونات وفي  
الناموس والاجتماع. وتوفي في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ٨٢٦  
وتلاميذه حوله يرتلون المزمور « طوبى للذين ». وتناول هو الاسرار واخذ  
يرتل هذا المزمور، فلما بلغ الى القول: « الى الدهر لا انسى حقوقك لانك  
بها احيتني »، أسلم الروح وله من العمر سبع وستون سنة<sup>١</sup>.

يوحنا الدمشقي: ( ٦٧٦ - ٧٦٠ ) « كوكب الكنيسة ومعلمها  
ومقاوم الاعداء يوحنا الحكيم المتأله اللب . » ولد يوحنا من ابوين غنيين  
تقيين في دمشق. وافتدى ابوه راهباً اسمه قوزما كان قد وقع  
اسيراً في يد المسلمين في ايطاليا. وكان قوزما راهباً على شطر وافر  
من العلم ففني بتعليم يوحنا وتثقيفه. وخلف يوحنا اياه وجده في ادارة  
المال في عهد الامويين. وما فقه مشرفاً عليها حتى خلافة هشام (٧٢٤ -  
٧٤٣). ثم اعتزل الادارة وتقبل النذر في دير القديس سابا في فلسطين.  
وتوفي فيه حوالي السنة ٧٦٠. وكانت حرب الايقونات فاثوت في نفس  
يوحنا. فاجتهد في امر الايقونات وكتب ورحل في سبيل ذلك حتى  
القسطنطينية. فعرفه الآباء وقدروا مواهبه فأطلقوا عليه لقب خريسورواس  
ومعناه دفاق الذهب. وخريسورواس عندهم نهر بردى بلد يوحنا<sup>٢</sup>.

وافضل الآثار التي خلفها هذا العالم الحكيم وكوكب الكنيسة ومعلمها  
هو مؤلفه « ينبوع المعرفة ». وهو سفر جليل عرض به يوحنا العقيدة المسيحية  
عرضاً منطقياً على طريقة ارسطو معتمداً في ذلك على مقررات المجامع

*Gardner, A., Theodore of Studion, Life and Times, Lond., 1905; ١*  
*Patrologia Graeca, Vol. 99, c. 233.*

*Jugie, M, Vie de St. Jean Damascène, Echos d'Orient, 1924, 137-161. ٢*

واقوال الآباء منذ المجمع المسكوني الاول حتى يومه . فوضع بيد محيي الايقونات سلاحاً قاطعاً لم يكن لديهم من قبل . وأصبح مؤلفه فيما بعد مرجع الآباء الارثوذكسين والكاثوليكين في علم اللاهوت . وهو دونما ريب الينبوع الاكبر الذي استقى منه ونسج على منواله توما الاكوييني عندما وضع في القرن الثالث عشر مؤلفه الشهير في اللاهوت *Summa Theologiae* . ونظم يوحنا التراتيل الروحية ولحنها ولاسيا ما يرثل منها يوم عيد الفصح . وجاءت هذه التراتيل اعتمق واقوى من منظومات رومانوس البيروتي الذي سبقت الاشارة اليه<sup>١</sup> .

وبما ينسب الى القديس يوحنا الدمشقي قصة بولام الزاهد ويوصافات الامير الهندي التي راجت كثيراً في العصور الوسطى . وبرغم أن العالم الافرنسي زوتبرغ قد نفى علاقتها بيوحنا الدمشقي<sup>٢</sup> ، وبرغم ان كثيراً من المؤرخين قد تقبلوا استنتاجاته فان بعض العلماء المحدثين لا يزالون يرغبون في اسنادها الى يوحنا نفسه<sup>٣</sup> . ومن المحتمل ان يكون راهب آخر من وهبان دير القديس سابا يحمل اسم يوحنا ايضاً هو الذي نقل هذه القصة<sup>٤</sup> .

**ثيوفانس المعترف :** ( ٧٤٨ - ٨١٨ ) ولد في القسطنطينية من والدين تقين عريقين في الشرف . فوالده اسحق كان والياً على جزر الارخبيل ووالدته ثيودورة كانت ايضاً شريفة من شريفات القسطنطينية . وتوفي والده وهو لا يزال في الثالثة من عمره . فأشرفت والدته البارة على تربيته واستعانت باحد العلماء الاتقياء على تهذيبه وارشاده . ثم اكرمه

*Bardenhewer, O., Gesch. der Altkirlichen Lit., V, 51-65.* ١

*Krumbacher, K., Gesch. der byz. Lit., 886-890.* ٢

*Woodward, G. R., Barlam and Joasaph, XII.* ٣

٤ ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٠٥ . الدكتور فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٣١٤

الفيلسوف على الزواج من ابنة لاوون احد كبار الموظفين في القصر . فأرشد عروسته الى الصلاة والتأملات الروحية وطلب اليها ان يعيش معها كشقيق لها لا كزوج فقبلت . وبعد وفاة الفيلسوف وحبه لاوون اطلق هو وزوجته عيدهما ووزعا اكثر ما يملكان على الفقراء . وفي السنة ٧٨٠ تقبل كل منهما النذر وافترقا ليلتقيا في الحياة الابدية . وانعقد المجمع المسكوني السابع فدعي ثيوفانس للاشتراك في اعماله قلبى . ثم حاول لاوون الخامس اجتذابه اليه فما استطاع ، ورد عليه ثيوفانس موجبا تكريم الايقونات . فاشتعل لاوون غيظاً وانفذ الى الدير السفرياني من القى القبض على الراهب البار وقيده بالسلاسل . ثم ادخله لاوون السجن وأمر بتعذيبه . وبعد سنتين نفاه الى جزيرة قفر . فتوفي فيها بعد وصوله اليها بثلاثة اسابيع . واول من عني بتدوين سيرة هذا الرجل البار هو ثيوذوروس الاستودي .

وأنتفع ما خلفه ثيوفانس خرونيقونه الشهير . بدأه من عهد الامبراطور ديوقليتيانوس ووقف به عند نهاية حكم الفيلسوف ميخائيل الاول (٢٨٤-٨١٣) . وخرونيقون ثيوفانس هذا مفيد جداً لانه يحفظ لنا بعض ما ورد في مصنفات فقدت من بعده ولانه أسهب فيما دوّن عن حرب الايقونات . وقد نقل انسطاسيوس قيّم مكتبة الفاتيكان هذا الخرونيقون الى اللاتينية في النصف الثاني من القرن التاسع فزاد في فائدته اذ اعتمد عليه عدد كبير من مؤرخي العصور الوسطى في الغرب .

نيقيفوروس المعترف : ( ٧٥٨ - ٨٢٨ ) ولد في القسطنطينية وأبوه

١ مكسيموس بطريرك انطاكية على الروم الكاثوليكين ، اخبار القديسين ، ج ٢ ، ص

هو ثيودوروس كاتم اسرار الفيلسوف قسطنطين الزبلي ( الخامس ) وامه هي افذوكسية . احتمل الاضطهاد الشديد في حرب الايقونات . وتوفي ثيودوروس في المنفى فعادت افذوكسية بولدها نيقيفوروس الى القسطنطينية وعينت بتربيته وتعليمه . وكان نيقيفوروس ذكياً جداً فبرع في « العلوم البشرية » وقد أظهر ما دلّ على حسن شمائله وخصاله فأحبه عطاء العاصمة . وأمرت ايرينة الوصية بتربيته الى الوظيفة نفسها التي شغلها والده ، وهكذا أصبح كاتماً لاسرار الملكة . وحينما رأت والدته افذوكسية انه لم يعد بحاجة الى مساعدتها أهملت كل شيء وانفردت في دير الراهبات . وسعى نيقيفوروس الى عقد الجمع المسكوني السابع سنة ٧٨٧ وحضره بشخصه من قبل الفيلسوف لكي يشرف على حفظ النظام والترتيب . ثم اعتزل العمل في البلاط واهمل كل شيء وانفرد في البوسفوروس بالقرب من القسطنطينية وعمر ديراً وضم اليه طائفة من الرهبان . وكان اذا اكمل واجباته الرهبانية انصرف الى العلوم التي برع فيها . وفرغ الكرمي البطريركي في العاصمة بوفاة طراسيوس في السنة ٨٠٦ فدعا الفيلسوف نيقيفوروس سميته نيقيفوروس اليه وحثه على قبول الرتبة البطريركية ولكن نيقيفوروس اعتذر وتوسل الى الفيلسوف ان يعفيه لانه كان لا يزال علمانياً ولانه غير كفوء لهذه المنزلة الجليلة ولكن الفيلسوف أصرّ على رأيه وما لبث حتى انتصر على ارادة سميته . وتبوأ نيقيفوروس العرش البطريركي المسكوني في منتصف السنة ٨٠٦ . ثم هب « ينقي حقن الرب من زوان الاراسيس والضلالات والغلطات والبدع ، ولاسيما هرطقة محاربي الايقونات » . واتجه بعد ذلك الى تهذيب الاكليروس ملزماً كلاً منهم بالسلوك في الحدود التي ترممها له القوانين . وفي السنة ٨١٣ حينما استولى لاوون الارمني على تحت الملك عاد فضّيق على من قال باكرام الايقونات فسجن نيقيفوروس

ثم نفاه فتوفي في المنفى في السنة ٨٢٨.

وألف نيقفوروس كتباً في الرد على محاربي الايقونات . وأشهر آثاره في هذا الموضوع «دحض ما هذر فيه مأمون» ، والاشارة هنا الى قسطنطين الخامس<sup>٢</sup> . وكتب ايضاً في التاريخ ، فأرّخ الفترة التي امتدت من ايام موريقوس في السنة ٦٠٢ الى السنة ٧٦٩ ، فأجاد ، وحفظ لنا اشياء واشياء عن السياسة وعن الكنيسة في تلك الحقبة . والتشابه بين تاريخه وبين خرونيقون ثيوفانس يعود الى ان الكتّابين كليهما اخذا في بعض الاحيان عن مرجع واحد<sup>٣</sup> .

جوجس الراهب : وقد صنّف خرونيقوناً كالمعتاد ، فابتدأ بالخلق وسقوط آدم ، ووقف عند انتصار الايقونات في السنة ٨٤٢ . ومصنفه هذا هام جداً ، لانه المرجع الوحيد لتاريخ الروم بين السنة ٨١٣ والسنة ٨٤٢ ، ولانه يبين بوضوح مشاغل زملائه الرهبان ، وما اهتموا به في الرهبانية ، وفي حرب الايقونات ، وفي انتشار الاسلام<sup>٤</sup> . واعتمد المتأخرون من مؤرخي الروم هذا الخرونيقون في ترتيب الحوادث العالمية وتصنيفها ، كما ان مؤرخي الروس الاولين رجعوا اليه وافادوا منه .

كاسية الشاعرة : ولما أهمل ثيوفيلوس الفيلسوف كاسية في عرض الجميلات ، كما سبق ان أشرنا ، اتجهت انظارها نحو جمال النفس والروح . ثم عزفت عن الدنيا عزوفاً تاماً ، فأست ديراً والتجّأت اليه متعبدة . وغيت في اثناء عزلتها بالتراثيل الروحية ، فنظمت فيها ما خلّد ذكرها .

١ مكسيموس البطريك ، اخبار القديسين ، ج ٣ ، ص ١٥٨ - ١٦٤ .

*Patrologia Graeca, Vol. C, 205 ff.*

٢ *Blake, R., Activité Littéraire de Nicephore, 1r Patriarche de Const., Byzantion, 1939, 1-15.*

٣ *Georgius Monachus, Chronikon, ed. de Boor.*

٤

وقد كرّس المؤرخ الالماني كرومباخر شيئاً من وقته لدراسة شعرها ، فألفها امرأة فذة ، جمعت حساسية المرأة ، الى شدة تدين ، الى صراحة نادرة<sup>١</sup>.

الفكر اليوناني والاوساط العويبة الاسلامية : وأدرك العرب المسلمون تفوق الروم في الفكر والحضارة . فقد جاء في مقدمة ابن خلدون ان ابا جعفر المنصور بعث الى ملك الروم يطلب كتباً يونانية ، وان الملك اجابه الى طلبه ، فارسل اليه كتباً من بينها كتاب اقليدس<sup>٢</sup> . وترجم ابو يحيى ابن البطريق كتب جالينوس وابقراط . وفي عهد الرشيد نقل يحيى ابن ماسويه بعض الكتب الطيبة الى العربية . ولكن هذا النقل بلغ اقصاه في عهد الخليفة المأمون . فانه كان من انصار المعتزلة الذين عززوا العقل وتهاقوا على الفكر وآثاره . وراسل المأمون زميله لاوون الارمني وطلب اليه ان ياذن لبعثة اسلامية بالحصول على بعض المصنفات اليونانية في الفلسفة والمهندسة والطب . فأجابه لاوون الى ذلك . فأنت القسطنطينية بعثة ثقافية عباسية كان اعضاؤها الحجاج ابن قطر ، وابن البطريق ، وصاحب بيت الحكمة . وعاد هؤلاء بكنوز ثمينة الى بغداد ، فأشرف قسطا ابن لوقا على ترجمتها<sup>٣</sup> . ولما تراسى الى المأمون نبأ لاوون الرياضي راسله يستدعيه الى بلاطه وأغراه بالمعطاء . ولكن ثيوفيلوس القيسلس علم بهذه الدعوة في حينها فأبقى لاوون في القسطنطينية وعينه مدرّساً في احدى الكنائس . ثم عاد المأمون يرجو ثيوفيلوس ان يسمح بان يزوره لاوون مدة قصيرة ، وذكر في رسالته انه يعد قبول هذا الطلب عملاً ودياً وانه

*Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Lit., 716 ; Burg, J. B, East. Rom. ١ Emp., 81-83.*

٢ المقدمة ، ص ٤٠١ .

٣ ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٤٠ و ٣٩٩ .

يعرض لقاء ذلك الف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم . غير ان ثيوفيلوس رفض واعتبر علم لاوون واختراعاته سرّاً لا ينبغي ان يطلع عليه المسلمون<sup>١</sup> . وأحب الواثق بالله ان يستقصي اخبار اهل الكهف ، فأرسل احد العلماء المسلمين الى افسس لمشاهدة كهوفها ، وهي التي كانت تحفظ جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا في ايام ديوقليتيانوس . واذن ميخائيل الثالث بذلك واوفد مع العالم المسلم دليلاً يرشده<sup>٢</sup> .

**الجدل بين النصارى والمسلمين :** ومن ظواهر الفكر في القرنين الثامن والتاسع التحاجّ الديني الذي حصل بين بعض العلماء الارثوذكسين الكاثوليكين وبين بعض علماء المسلمين . وكان الداعي لهذا الجدل ان الخلفاء كانوا اذا تسنوا عرش الخلافة يوجهون الى الملوك المعاصرين كتباً يدعونهم فيها الى الدخول في الاسلام ، فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب . ومن اسباب هذا الجدل ايضاً ان خطر التحول عن المسيحية تزايد بتقدم العرب في جميع نواحي حياتهم . فكان من الضروري ان تنظّم مناعة في العقيدة للمسيحيين في الثغور ، وفي جميع الاقطار الشامية ، وفي مصر ايضاً . وكان سكان هذه الاقطار من الارثوذكسين الكاثوليكين وهم لا يزالون يستعملون اللغة اليونانية في ارض الاسلام ، في زمن يوحنا الدمشقي ايام الامويين ، وفي زمن ابي قرة في اوائل العهد العباسي . فجاءت تأليف هؤلاء في الجدل باليونانية . ولكن ابا قرة في ميانه بدأ استعمال العربية . وكتب بها ابو كاليبس بحيرة الحوار بين عبد المسيح الكندي وبين عبدالله الهاشمي .

١ الدكتور ابراهيم السدي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .  
*Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bonn, 190; Bury, J. B., East. Rom. Emp., 436-438; Fuchs, F., Hohern Schulen, 18.*

٢ الدكتور ابراهيم السدي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٧ .

اما يوحنا الدمشقي فانه ناقش بعض الآيات القرآنية وانتقد وحي القرآن وعادات المسلمين في العبادات والاخلاق . ورفض ابو قررة بعثة محمد رسولاً وجادل فكرة الخلق المستمر ونصيب الله في اعمال المخلوقات واعتبرها اقوالاً يجرّتها اليها الدخول في الاسلام . وبما قاله ابو قررة انه اذا قيل بخلق المسيح لزم ان يكون الله قد بقي زمناً دون كلمة وروح ، وبالتالي لزم ان يكون القرآن الذي هو كلمة الله مخلوقاً . وظهرت رسالة بجيرة الراهب في عهد المأمون . ثم كان هجوم اسلامي قويّ على اثر ما فعله ميخائيل الثالث اذ ارسل مقاتلين احتج في احداهما بمبدئ السببية . فرفض المسلمون فكرة وجود ابن الله مشارك له في الخلود وفي الصفات . وظهرت رسالة للجاحظ مال فيها صاحبها الى تأييد سياسة المتوكل الشديدة نحو اهل الذمة . وعرض ابو القاسم ابن ابراهيم البلخي لفكرة النبوة . وألف ابو عيسى الوراق كتاباً ضخماً نقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة<sup>١</sup>.

**الفن :** ويرى بعض رجال الاختصاص ان محاربي الايقونات قضاوا بتعصبهم على روائع فنية فصرموا بذلك الفن والعلم فائدة التلذذ والانتفاع بهذه الروائع<sup>٢</sup> . ويرى غيرهم ان النزاع حول الايقونات وتحطيمها نفع في الفن البيزنطي روحاً جديدة مستمدة من الفن الهليني القديم ومن الفن الفارسي كما يرون ان تحريم تصوير المسيح والعذراء والقديسين لم يشمل تصوير البشر العاديين ، فانطلقت يد الفنانين وغدت واقعية بتأثير المسئل الهلينية الباقية . وبما يرى هؤلاء ايضاً ان الفن البيزنطي اتجه في هذه

١ ارمان آيل : تحاج اهل الاديان في القرنين الثامن والتاسع ، وهو المحق السادس لكتاب فايزيف في تاريخ الروم والعرب ، تريب الدكتور محمد عبد الهادي شميره والدكتور فؤاد حنين علي ، ص ٣٦٨ - ٣٧١ .

*Dalton, O. M., Byz. Art and Arch., 14.*

الحقبة ، نتيجة حرب الايقونات ، اتجاهاً زمنياً واضحاً مستلهماً الطبيعة والحياة اليومية العادية<sup>١</sup>.

ومؤسف ان يكون معظم آثار هذه الفترة قد اندثر وسواء منه ما كان دينياً او زمنياً . وقد يكون بعض الفسيفاء في كنائس نيسالونيكية ( سلانيك ) من آثار هذه الحقبة وقد لا يكون . وقل القول نفسه عن بعض التصاوير المنفورة في العاج وهي التي يقدر فريق من الباحثين انها ترقى الى عصر حرب الايقونات . وثمة كتب دينية مزينة ببعض الصور قد تكون من آثار هذه الحقبة نفسها ، واشهرها مخطوطة الخلودوف المحفوظة في موسكو<sup>٢</sup>.

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني والآخر

*Diehl, Ch., Art Byzantin, I, 385-386.*

١

*Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 299.*

٢



## محتويات

### الجزء الاول

تمديد : اهمية تاريخ الروم ، المراجع الاولى ، افضل المؤلفات الحديثة . ٨ - ١  
صفحة

### الباب الاول

#### المقدمة

- الفصل الاول : تفهم رومة الداخلي ، النظام الكولوني وتأخر الزراعة ، عداة مزمن  
بين الاغنياء والفقراء ، تأخر الصناعة والتجارة ، انحطاط الجيش ،  
الامبراطور ، ازمة القرن الثالث ، غزوات الشعوب الجرمانية ،  
الافلاطونية الجديدة . . . . . ٢٣ - ٩
- الفصل الثاني : ظهور النصرانية وانتشارها ، الرسل والتلاميذ ، اليهود ، افساكية ،  
بولس ، مرقس وتوما وغيرهما ، الدولة الرومانية والنصرانية ،  
الاضطهاد ، النظام والتنظيم ، آفكار المسيحين الاولين . . . . . ٤٢ - ٢٤
- الفصل الثالث : الدولة الساسانية ، تمديد ، قيام الدولة الساسانية ، بهرام الثاني ، جروم  
الثالث ونزسى الاول . . . . . ٥٠ - ٤٣

### الباب الثاني

#### اصل الدولة ومنشأها

الفصل الرابع : قسطنطين الكبير والقسطنطينية ، قسطنطين الاول الكبير ، اخباره

صفحة

الاولى ، موقفه من النصرانية ، براعة ميلان ، مجمع نيقية ، القديسة  
هيلانة ، أريوس ثانية ، القسطنطينية ، الادارة ، الجيش ، طبقات  
المجتمع ، الثقافة العامة ، تنصر قسطنطين ووفاته . . . . . ٧٣ - ٥١

الفصل الخامس : قسطنديوس الثاني ويوليانوس الجاحد ، قسطنديوس ، شايور ذو  
الانكاف ، الوثنية ، يوليانوس الجاحد ، سياسته الداخلية ، موقفه  
من النصرانية والوثنية ، في انطاكية ، الحرب الفارسية . . . . . ٨٥ - ٧٤

الفصل السادس : ثيودوسيوس الكبير ، خلفاء يوليانوس ، ثيودوسيوس الكبير ،  
المجمع المسكوني الثاني ، العلاقات الرومانية الفارسية ، ضجة في  
انطاكية وبيروت ، توحيد الامبراطورية ، الوثنية تشرف على  
القتل ، الوفاة . . . . . ١٠١ - ٨٦

الفصل السابع : ظهور الرهبانية وانتشارها ، اصلها ، انطونيوس الكبير ،  
باخوميوس القديس ، باسيليوس الكبير ، مار مارون . . . . . ١٠٦ - ١٠٢

الأستاذ الدكتور

### الباب الثالث

تدفق البرابرة وتفرق النصارى

الشيخ أحمد شليم

الفصل الثامن : ارКАДيوس الاول وثيودوسيوس الثاني ، اسرة ثيودوسيوس  
الكبير ، ارКАДيوس ، آلاريكوس ملك القوط ، قوط القسطنطينية ،  
ثورة القوط في فرجيية ، سقوط غايناس وانتهاء مشكلة القوط ،  
يوحنا الذهبي الفم ، ثيودوسيوس الثاني ، صداقة فارس ، تحوط  
واحتياط في الداخل ، الهون ، انشقاق في الكنيسة ، بطريك  
القسطنطينية وبيطريك الاسكندرية ، المجمع المسكوني الثالث ،  
المجمع المسكوني الرابع . . . . . ١٢٩ - ١٠٧

### الباب الرابع

تمشوق الفكر والفن والدولة

الفصل التاسع : اباطرة النصف الثاني من القرن الخامس ، مرقيانوس ، لاوون

صفحة

الاول ، زينون ، الايتويكون ، السطاسيوس الاول ، الحرب  
الفارسية ، المالبية ، الطيعة الواحدة ، ثورة فيتاليانوس . ١٣٠-١٣٩

الفصل العاشر : تشرق الفكر والفن والدولة ، الدولة تتحول الى دولة شرقية ،  
الفكر والفن والثقافة ، الاسكندرية ، انطاكية ، قيصرية - فلسطين ،  
بيروت ، قبدونية ، الزها ، الفن البيزنطي . . . ١٤٠-١٦٤

الأستاذ الدكتور  
الشيخ أحمد عيسى

## الباب الخامس كرامة ومجد وعظمة

الفصل الحادي عشر : يوستينوس ويوستيانوس ، اصل هذه الاسرة ، يوستينوس  
الاول ، يوستينوس وكالب الحبشي ، يوستيانوس ويودورة ،  
سياسة يوستيانوس الداخلية ، يوستيانوس والاقتصاد ،  
يوستيانوس والقضاء ، يوستيانوس والكنيسة ، الفصول الثلاثة ،  
المجمع المسكوني الخامس ، سياسة يوستيانوس الخارجية ،  
الحرب الفارسية الاولى ، الحرب في افريقية وايطالية ،  
الحرب الفارسية الثانية ، توتيلة ، الدانوب ، الفرات وسائر  
الحدود الشرقية ، يوستيانوس في دوره الاخير . . . ١٦٥-١٩٤

الفصل الثاني عشر : خلفاء يوستيانوس ، يوستينوس الثاني ، طياريوس الثاني ،  
موريقيوس ، سياسة خلفاء يوستيانوس ، الحرب الفارسية ،  
خلفاء يوستيانوس والعرب ، الآفار والصفالية ، ثورة السنة  
٦٠٢ ، فوقاس . . . . . ١٩٥-٢١٠

الفصل الثالث عشر : الفكر والفن في القرن السادس ، التاريخ والمؤرخون ،  
الجغرافية والجغرافيون ، التاريخ بالحواليات ، اخبار  
القدسيين ، الشعراء ، الفن . . . . . ٢١٠-٢١٩

## الباب السادس

### تطور وتغيير في عناصر الشعب وفي حدود الملك وانظمته

الفصل الرابع عشر : هرقل والفرس والصقالبة والآفار ، سقوط فوقاس وقيام  
هرقل ، اسرة هرقل ، الحرب الفارسية ، الآفار والصقالبة ،

القول بالمشيئة بالواحدة . . . . . ٢٢٠-٢٣٣

الفصل الخامس عشر : هرقل والعرب ، النبي العربي والروم ، الروم والنبي العربي ،  
ابو بكر الصديق والروم ، عمر الكبير والروم ، عودة  
الروم الى الميدان ، عرب الشام والعرب الفاتحون ، نصارى  
الشام والعرب ، لماذا خسر الروم ، عمر وقبح مصر ، موقف

الاقباط من العرب الفاتحين . . . . . ٢٣٤-٢٥٣

الفصل السادس عشر : خلفاء هرقل ، مريئة ، قسطنطين الثالث ، قسطنطين الرابع ،  
المجمع المسكوني السادس ، قسطنطين والعرب ، يوستينيانوس  
الثاني ، حرب القراطيس والثانير ، المجمع الخامس السادس ،

خلع يوستينيانوس ، الفوضى ، حصار القسطنطينية . . . . . ٢٥٣-٢٤٧

الفصل السابع عشر : تطور وتغيير ، الارض والسكان ، الدولة تصبح هلينية ، اللاتينية

تتوارى فتزول ، ترايد نفوذ الكنيسة . . . . . ٢٧٥-٢٨٣

الفصل الثامن عشر : الآداب والعلوم والفن في القرن السابع ، التاريخ والآداب ،

المسيحيتان والفنلان ، اخبار القديسين ، الفن . . . . . ٢٨٤-٢٨٨

## الباب السابع

### انتعاش وتوطيد واستقرار

الفصل التاسع عشر : الامرة الاسورية ، اصلها ، الحروب العربية ، البطار  
والصقالبة ، الاكلوغة ، قانون المزارعين ، القانون البحري ،

قانون الجند ، الثبات او البتود ، حرب الايقونات ، الجمع  
المسكوني السابع ، رومة والامبراطور . . . . ٢٨٩-٣١٣

الفصل العشرون :

خلفاء الاسوريين والانرة العمورية ، ثيقيفوروس الاول  
وميخائيل الاول ، لاوون الخامس ، الاسرة العمورية ،  
ثورة قومما الصقلي ، نزول العرب في اقريطس ، ثورة  
يوليمبوس الصقلي ، ثيوفيلوس الاول ، ثيوفيلوس والعرب ،  
ميخائيل الثالث ، تنمر الصقالبة ، تنمر البتار ، ميخائيل الثالث

والعرب . . . . . ٣١٤-٣٣٨

الفصل الحادي والعشرون : العلم والادب والفن في القرنين الثامن والتاسع ، احياء

الجامعة ، نادي فوطيوس ، دير الامتوديون ، يوحنا  
الدمشقي ، ثيوفانس المعترف ، ثيقيفوروس المعترف ،  
جرجس الراهب ، كاسية الشاعرة ، الفكر اليوناني  
والاوساط المريية الاسلامية ، الجدل بين التصاري

والمسلمين ، الفن . . . . . ٣٣٩-٣٤٩



***Copyright by Dar Al-Makhouf,  
Beirut, 1955***

**HISTORY**  
**of**  
**THE BYZANTINE EMPIRE**

**WITH SPECIAL REFERENCE TO ITS RELATIONS  
WITH CONTEMPORANEOUS MOSLEM STATES**

**By**

**Asad J. Rustum, M. A., Ph. D.**

**Der Al-Makchouf**  
**Bejrout**



**HISTORY**  
**of**  
**THE BYZANTINE EMPIRE**

**WITH SPECIAL REFERENCE TO ITS RELATIONS  
WITH CONTEMPORANEOUS MOSLEM STATES**

**By**

**Asad J. Rustum, M. A., Ph. D.**

**— I —**

**Dar Al-Makchout**

**Bayrouth**







